



الجمهوريـــة الجـزائريـــة الـديمقـراطيـــة الشعبيـــة

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة الجزائر -2 - بوزريعة " أبو القاسم سعد الله"

كلية العلـوم الإنسانيـــة

قســـم التاريـــخ

دور المغرب الإسلامي في نشر العلوم الشرعية في بلاد السودان الغربي

ما بين القرنين: (5 هـ - 9 م/11 هـ- 15 م)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم

التخصص: تاريخ وسيط

من إعداد الطالب:

- ميهوب بن فارح

إشراف :

- الأستاذ الدكتور: **الحاج عيفة**

أعضاء لجنة المناقشة:

الرتبة	الإسم و اللقب	الجامعة الأصلية	الصفة
الأستاذ الدكتور	عبد العزيز بوكنة	جامعة الجزائر2	رئيســــــــا
الأستاذ الدكتور	الحاج عيفة	جامعة الجزائر2	مشرفا و مقررا
الأستاذ الدكتور	قويدر بشار	جامعة الجزائر2	عضــوا مناقشا
الأستاذ الدكتور	موسى هواري	جامعة الجزائر2	عضــوا مناقشا
الأستاذ الدكتور	مزاري توفيق عبد الصمد	جامعة المدية	عضــوا مناقشا
الدكتور	سيدي موسى محمد شريف	جامعة البليدة	عضــوا مناقشا

السنة الجامعية: 1439- 1440 هـ / 2018- 2019 م

الجمهوريـــة الجـزائريـــة الـديمقـراطيـــة الشعبيـــــة
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي
جامعة الجزائر -2 - بوزريعة " أبو القاسم سعد الله"
كلية العلـــوم الإنسانيـــة
قســم التاريــخ

دور المغرب الإسلامي في نشر العلوم الشرعية في بلاد السودان الغربي

ما بين القرنين: (5 هـ - 9 م/11 هـ- 15 م)

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه علوم
التخصص: تاريخ وسيط

أعضاء لجنة المناقشة:

الرتبة	الإسم و اللقب	الجامعة الأصلية	الصفة
الأستاذ الدكتور	عبد العزيز بوكنة	جامعة الجزائر2	رئيســــــــا
الأستاذ الدكتور	الحاج عيفة	جامعة الجزائر2	مشرفا و مقررا
الأستاذ الدكتور	قويدر بشار	جامعة الجزائر2	عضــوا مناقشا
الأستاذ الدكتور	موسى هواري	جامعة الجزائر2	عضــوا مناقشا
الأستاذ الدكتور	مزاري توفيق عبد الصمد	جامعة المدية	عضــوا مناقشا
الدكتور	سيدي موسى محمد شريف	جامعة البليدة	عضــوا مناقشا

السنة الجامعية: 1439- 1440 هـ / 2018- 2019 م


بسم الله الرحمن الرحيم



الإهـــــــداء

إلى من كانت رمز الحب و بلسم الشفاء..

إلى من كانت ترفع يديها من أجلي لِلسماء..

إلى روح أمي الطاهرة التي حلمت أن تكون معي

يوم مناقشة هذا العمل المتواضع أخص هذا

الإهـــــداء..

دون أن أتخطى من كان سببا في تقوية عزيمتي منذ

الصغر.. و بكل وقار أهديه أيضا لوالدي

أطال الله في عمره..

و إلى من رافقتني في جهد و عناء البحث و التي

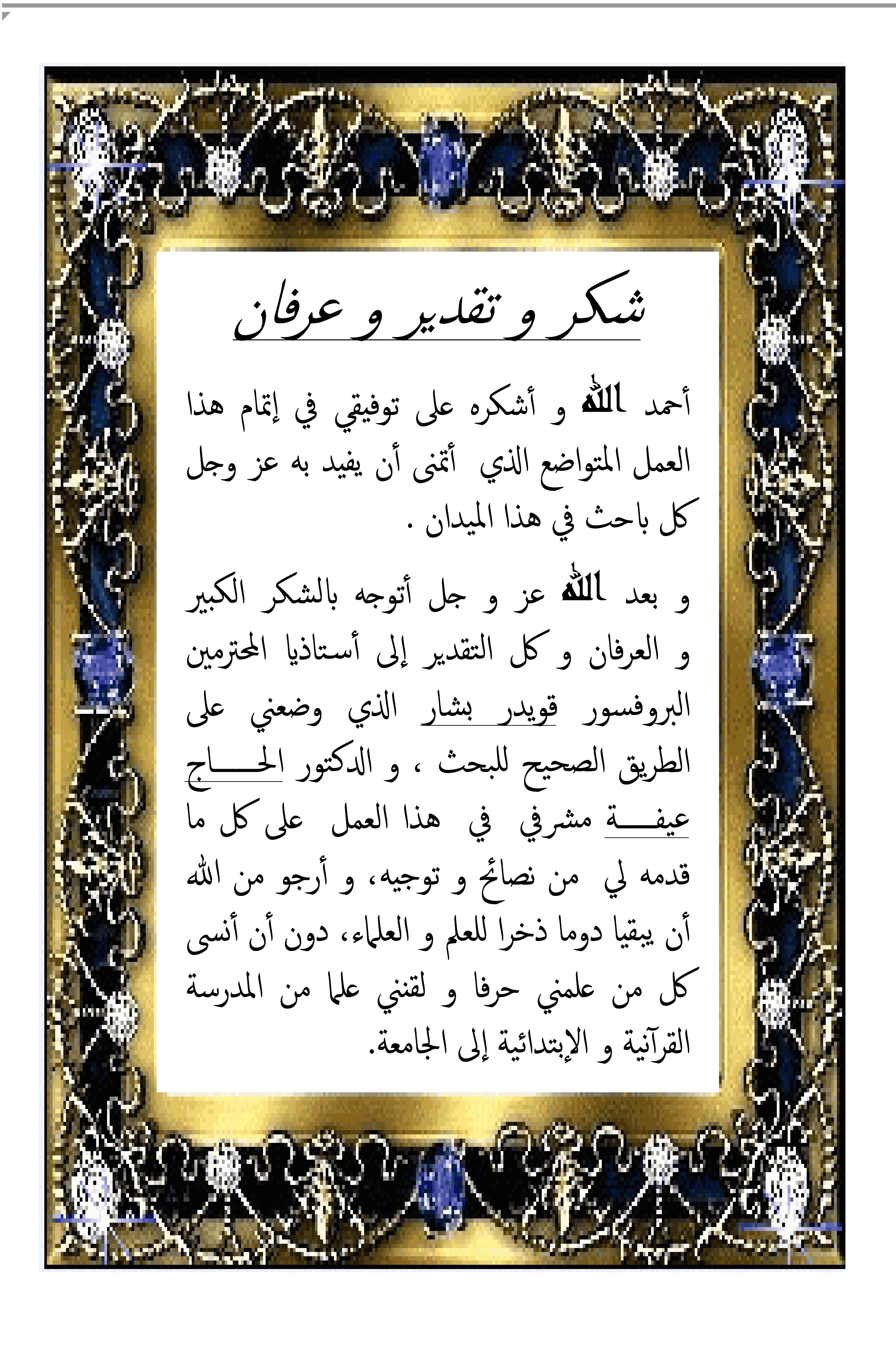
خطت معي كل خطوة فيه.. زوجتي المخلصة

حفظها الله..

و إلى من وسع قلبي لهم.. أخي و أخواتي..

..... و إلى كل الأحبة.

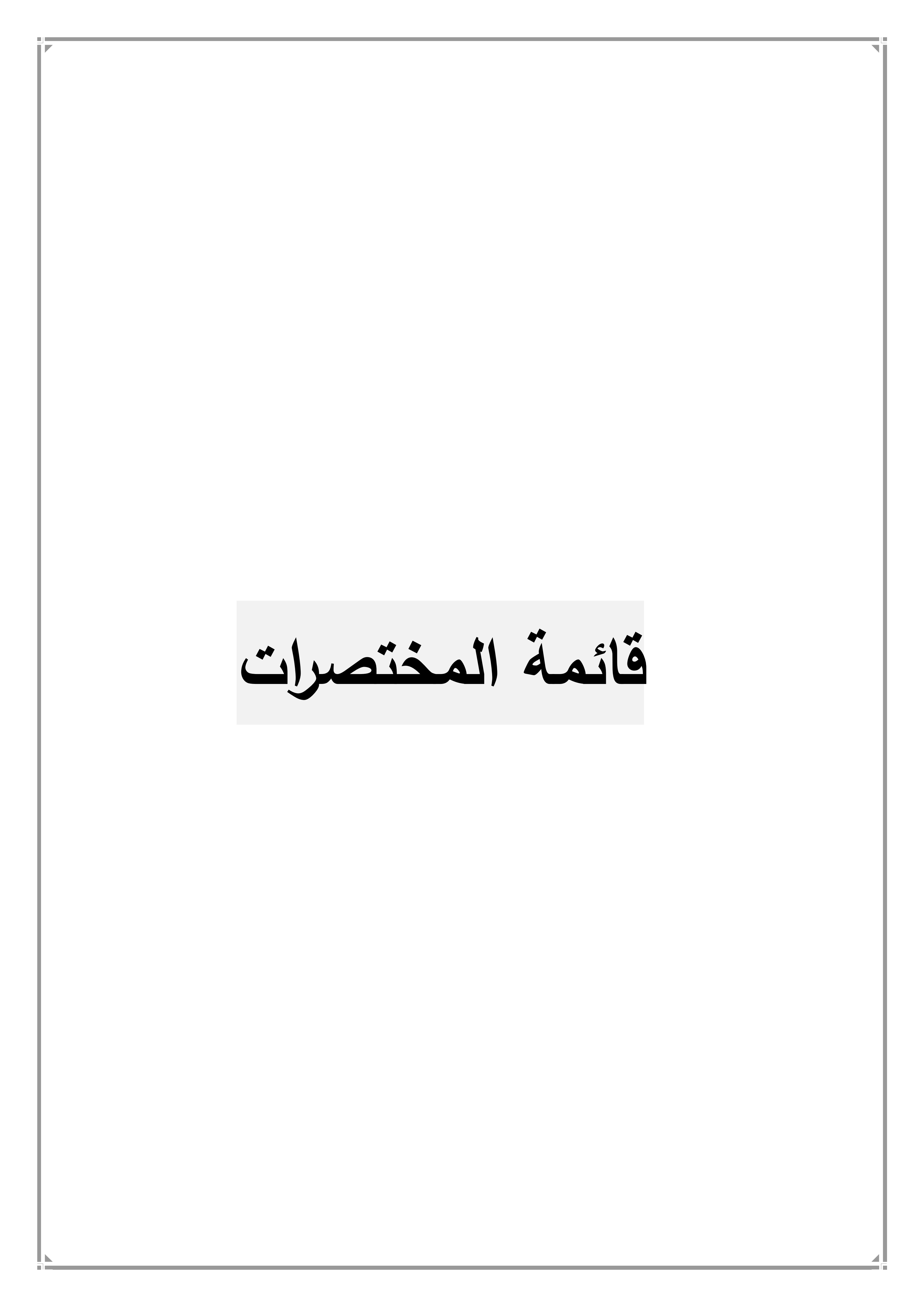
ميهوب



شكر و تقدير و عرفان

أحمد **الله** و أشكره على توفيقي في إتمام هذا العمل المتواضع الذي أتمنى أن يفيد به عز وجل كل باحث في هذا الميدان .

و بعد **الله** عز و جل أتوجه بالشكر الكبير و العرفان و كل التقدير إلى أستاذيا المحترمين البروفسور قويدر بشار الذي وضعني على الطريق الصحيح للبحث ، و الدكتور الحاج عيفة مشرفي في هذا العمل على كل ما قدمه لي من نصائح و توجيه، و أرجو من الله أن يبقيا دوما ذخرا للعلم و العلماء، دون أن أنسى كل من علمني حرفا و لقنني علما من المدرسة القرآنية و الإبتدائية إلى الجامعة.


قائمة المختصرات

قائمة المختصرات

1- قائمة المختصرات باللغة العربية:

الإختصار	المعنى المقصود
تح	تحقيق
تق	تقديم
تر	ترجمة
ج	جزء
د.ب	دون بلد
د.ت	دون تاريخ نشر
د.ط	دون طبعة
ط	طبعة
ع	عدد
م	ميلادي
مج	مجلد
مر	مراجعة
هـ	هجري

2- قائمة المختصرات باللغة الأجنبية:

الإختصار	المعنى المقصود
C.f.	Vient du verbe **Conferre** signifiant « rapprocher », « joindre », « réunir ». و يقصد به الرجوع إلى: Se référer à / Voir
Ibid	Mot latin, **Ibīdem**, signifiant "au même endroit". و يقصد به المرجع نفسه
Op.cit	Mot latin,**Opus Citatum**, signifiant:«l'œuvre citée». و يقصد به المرجع السابق
P	الصفحة : **Page**



مقـــدمــة

مقدمـة:

الإسلام هو أشمل الأديان و أصحها و أدقها من حيث التعاليم و القيم التي يحملها في كنفه، لذا كانت حاجة الشعوب للدّين الإسلامي ملحة و ضرورية لقيامها و ازدهارها و هذا ما شهدناه في كل الدول و الشعوب التي اعتنقت الإسلام.

و تعد بلاد السودان الغربي من بين أهم الشعوب التي احتضنت الإسلام وساهمت في نموه وازدهاره في كل أرجاء هذه المنطقة، و بما أن بلاد المغرب الإسلامي كانت المصدِّر الأوّل و الرئيسي للدين الإسلامي و الثقافة العربية إلى صحرائه، فإن بلاد السودان الغربي قد استقت كل تعاليم هذا الدّين، و من هنا برز الدور المغربي الذي أصبح جليا في كل المستويات و المجالات الدينية و السياسية و الثقافية و الإجتماعية التي شهدها بلاد السودان الغربي.

و هذا رغم تشويهات الغرب المستعمر الذي أراد مس المد الحضاري بين بلاد المغرب و السودان الغربي و التشكيك في نزاهة هذه الرسالة الحضارية المقدسة المنقولة بين القطرين و المتمثلة في الحضارة الإسلامية بأسمى معانيها و قيمها خاصة الجانب الشرعي منها، و الذي أخذ حصة الأسد من حيث النقل و الإتباع من طرف الشعوب السودانية التي نهمت و حفظت جميع العلوم الشرعية الخاصة بالدّين الإسلامي، و أتقنته حتى أصبحت متمرسة فيه أكثر من بلاد المغرب و دول المشرق الإسلامي، إلاّ أن هذا التمرس و الإتقان لم يكن لتأْتِ بثماره لولا وجود الدور المغربي الهام الذي كان على جميع الأصعدة و في كل المجالات، و هذا ما أقرته جميع الدراسات القديمة و الحديثة حول تاريخ بلاد السودان الغربي.

من هذا المنطلق كان اختياري لموضوع بحثي الموسوم **" بدور المغرب الإسلامي في نشر العلوم الشرعية في بلاد السودان الغربي ما بين القرنين الخامس و التاسع الهجريين الموافق للقرنين الحادي عشر و الخامس عشر الميلاديين "** ليكون موضوع دراستي لنيل شهادة الدكتوراه.

و الموضوع يحاول إماطة اللثام للكشف عن جوانب مشرقة من تاريخ بلاد السودان الغربي، و قد حددت القرن الخامس الهجري ليكون بداية بحثي، و هي الفترة التي بلغت فيها

علاقة بلاد المغرب الإسلامي ببلاد السودان الغربي في أوّجها، و ينتهي البحث عند القرن التاسع الهجري، و هي الفترة التي سيطر فيها العلماء المغاربة على كل نواحي الحياة في بلاد السودان الغربي.

أولا: أهمية الموضوع:

تكمن أهمية موضوع البحث في التحول الذي أحدثه الدور المغربي الإسلامي في التأثير على جميع نواحي الحياة ببلاد السودان الغربي، و قد أدى هذا التحول إلى اِنقلاب جذري في ثقافة و علوم بلاد السودان، لاسيما العلوم الشرعية منها، و التي انتقلت عن طريق الصحراء من بلاد المغرب.

و لعل من بين أهم العوامل التي قادتني إلى البحث في هذا الموضوع هي:

الأهمية الأولى: أنه في ذلك الوقت كان التقدم للعلوم الإنسانية و الإجتماعية، و الحضارة تقاس بهذا الميزان، فالتطور الحضاري كان يقاس على البراءة و المهارة في العلوم الإسلامية التي أعطت للمغرب و المشرق رفاهية و رقيا.

الأهمية الثانية: رأينا أنه مازال على الباحث أن ينقب و يفتش في آثار تلك الممالك و الأمم الباقية التي نهب المستعمر تراثها، مما أعتم صورها الزاهية التي كانت من المفترض أن تكون كذلك.

الأهمية الثالثة: أنه بعد لقائي مع العديد من الباحثين و الطلاب الأفارقة المقيمين ، وجدت عندهم الرغبة في التعلم واكتشفت إرتباطهم الكبير لبلاد المغرب الإسلامي بطريقة يعجب منها المستمع، فقررت أن أخوض غباب هذا التعلق و الحب من جانب إخواننا الأفارقة لبلادنا.

الأهمية الرابعة: أن هذا الموضوع لم يتطرق إليه أي باحث على حسب علمنا البسيط.

أمّا عن أهمية الموضوع **للمكتبة العربية،** فربما يزيد من عمليات التواصل و التلاقي و التداخل التي كانت في العصور السابقة قائمة، و عسى أن ينفع الله بها الباحثين من بعدنا.

ثانيا: دواعي اختيار الموضوع:

1. محاولة التعرف على تاريخ السودان الغربي و حياة أهله السياسية و الثقافية الإجتماعية و الدينية سواءا في فتراتها الأولى الوثنية، أو في الفترة التي اعتُنق فيها الإسلام.

2. تشجيع الأستاذ **الدكتور الحاج عيفة** لي للبحث في المواضيع الخاصة بالعلاقات بين المغرب الإسلامي و شعوب السودان الغربي.

3. محاولة إثراء المكتبة الجامعية الجزائرية بموضوعات متخصصة في تاريخ العلاقات بين بلاد السودان الغربي و شعوب المغرب الإسلامي، خاصة و أن هذا النوع من الدراسات تكاد تنعدم في مكتباتنا الجزائرية.

4. رغبة مني في التخصص في تاريخ بلاد السودان الغربي و بلاد المغرب الإسلامي، و هذه الرغبة نابعة من نقص الأساتذة في هذا المجال.

5. محاولة لتأسيس مدرسة جزائرية متخصصة في تاريخ العلاقات بين بلاد السودان الغربي و بلاد المغرب الإسلامي، و ذلك تجسيدا لرغبة للأستاذ المشرف **الدكتور الحاج عيفة.**

6. محاولة لفت الإنتباه لموضوع العلوم الشرعية التي انتقلت إلى بلاد السودان الغربي، و علاقة بلاد المغرب الإسلامي بذلك التأثير و الإنتقال في العصور الوسطى الإسلامية.

ثالثا: أهداف البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى تحقيق جملة من الأهداف يمكن إجمالها في النقاط التالية:

1.التعرف على أصل العلاقة بين بلاد المغرب الإسلامي و بلاد السودان الغربي على ضوء المصادر العربية و الأجنبية.

2.محاولة دراسة الحضارة السودانية بالتعرف أكثر على حيثياتها من خلال تسليط الضوء على أهم محطاتها الحضارية.

3.إبراز دور بلاد المغرب الإسلامي في نشر العلوم الشرعية ببلاد السودان الغربي.

4.التعرف على الحراك العلمي و الفقهي و أثرهما في نظام الحكم في السودان الغربي.

رابعا: إشكالية البحث:

إن طبيعة موضوعي تاريخِيٌّ فقهِيٌّ و أسعى من خلاله إلى دراسة و توضيح تاريخ بلاد السودان الغربي و ذلك من خلال إبراز دور المغرب الإسلامي و ما قام به المغاربة في

نقل العلوم الشرعية إليه و كذلك منه و هذا ما بين القرنين 5 هـ و 09 هـ الموافق للقرنين 11 م و 15 م، و ذلك من خلال طرح الإشكالية التالية:

ما مدى تأثير المغرب الإسلامي في نشر العلوم الشرعية في بلاد السودان الغربي ما بين القرنين 5 هـ و 09 هـ الموافق للقرنين 11 م و 15 م ؟

و لأجل معاجة هذه الإشكالية يمكن تفكيكها لجملة من التساءلات و محاولة الإجابة عنها:

1. ماذا نعني بإقليمي بلاد المغرب الإسلامي و بلاد السودان الغربي حسب المصادر العربية؟
2. ماهي عوامل إزدهار الحركة العلمية و الفكرية في بلاد السودان الغربي و أثر المغاربة في ذلك؟
3. ما هو الدور الذي لعبه المغاربة في نقل العلوم الشرعية إلى بلاد السودان الغربي و كيف أثر الإسلام في الحراك السياسي به؟

خامسا: المنهج المتبع:

اعتمدت على عدة مناهج لمعالجة هذه الدراسة، فقد اعتمدت على المنهج الوصفي لعرض المعلومات في شكل مرتب، و استعملت المنهج التحليلي القائم على استنطاق النصوص و نقدها و أيضا المنهج المقارن للمقارنة بينها، و هذه المناهج فرضتها طبيعة الدراسة بحكم اختلاف الظروف السياسية و الإجتماعية و الثقافية و الدينية، كما أفادني المنهج التحليلي المعتمد أيضا على استنباط و استقراء و تحليل الحوادث التاريخية إلى جزئياتها البسيطة، ثم تركيبها في عمومياتها الجديدة بعد تحري الدقة و الصبر إلى جانب الأمانة العلمية.

سادسا: خطة البحث:

قسمت الموضوع إلى خمسة فصول بما في ذلك الفصل التمهيدي، و كل فصل إلى مباحث، و كل مبحث إلى مطالب، فكانت الخطة كما يلي:

– **مقدمة:** مهدت فيها للموضوع و طرحت فيها إشكالية البحث المتضمنة لأسئلة فرعية بعد التطرق لأهمية الموضوع و دوافع وأهداف دراسته ، و حددت النقاط المسطرة للخطة المتبعة فكانت مقسمة إلى فصل تمهيدي و خمسة فصول موضحةً في:

1– **الفصل التمهيدي:** و عنونته **بالإطار الجغرافي و البشري لبلاد السودان الغربي و بلاد المغرب** و قسمته إلى ستة مباحث.

خصصت **المبحث الأول** للدلالة التاريخية لمفهوم و اصطلاح بلاد السودان الغربي بحيث تطرقت فيه لشرح هذا المصطلح.

أما المبحث الثاني فضمنته إقليم السودان الغربي و المغرب حسب المصادر العربية و هذا ما قادني لمسح كل المعلومات حول الإقليمين في الطبقات و التراجم.

و تكلمت في **المبحث الثالث** عن إقليم المغرب في المصادر العربية و ذلك حسب ابن خلدون و الإصطخري و غيرهم،و أفردت **المبحث الرابع** للأحوال الطبيعية و السياسية في بلاد المغرب.

أما **المبحث الخامس** فقد تناولت فيه الصحراء في العلاقات المغاربية السودانية.

و في **المبحث السادس** تطرقت إلى المذاهب و المعتقدات في بلاد المغرب و أثرها على بلاد السودان الغربي.

و من هنا نكون قد عالجنا الأحوال الجغرافية و السكانية و العقائدية في بلاد المغرب و بلاد السودان الغربي.

1– **الفصل الأول:** خصصته **للعوامل السياسية و دورها في تنمية المؤسسات و المراكز العلمية**، و قسمته إلى مبحثين، الأول منه تطرقت من خلاله إلى دور العوامل السياسية في ازدهار الحركة العلمية والفكرية، و الذي قسمته إلى مطلبين ، الأول تكلمت فيه عن أثر العامل السياسي على الإستقرار و دور الجاليات الإسلامية المغربية في ازدهار الحركة العلمية في السودان الغربي؛ أما الثاني فتحدثت فيه عن العوامل والأسباب العامة لازدهار الحركة العلمية والفكرية.

أما المبحث الثاني فخصصته للمؤسسات و المراكز العلمية، فتكلمت فيه عن المظاهر الحضارية (العلمية والفكرية) للصلات التجارية بين المغرب والسودان الغربي في عهد

المرابطين، هذا في مطلب أول، و عن أهم مراكز ازدهار الحركة العلمية و الفكرية في مطلب ثانٍ ، أما المطلب الثالث فتناولت فيه الكلام عن أماكن الدراسة أو التدريس و مواضع الأبنية التعليمية أو المؤسسات التعليمية و العلمية.

أما عن **الفصل الثاني** فعنونته بـ : **رحلات العلماء المغاربة و السودانيين بين الشمال و الجنوب**، و ضمنته أربعة مباحث، المبحث الأول تطرقت فيه إلى مؤثرات رحلات علماء المغرب الأوسط والأقصى إلى السودان الغربي و مظاهرها الحضارية، المبحث الثاني تحدثت فيه عن علماء طرابلس الغرب الذين يتوافدون في طلب الرحلة إلى السودان الغربي، أما الثالث فعالجت فيه الدور الثقافي والإصلاحي لعلماء بلاد المغرب و آثارهم في السودان الغربي و أخذت المغيلي أنموذجا. و أمّا الرابع فكان لرحلات علماء وطلاب العلم من بلاد السودان إلى بلاد المغرب و أثارهم ، و هنا استرسلت فيه الكلام عن إجازات علماء السودان الغربي للمغاربة بما في ذلك آثار و أعمال الشيخ "أحمد بابا التنبكتي" و ذلك في مطلبين.

و في **الفصل الثالث** تطرقت إلى **دور بلاد المغرب في نشر العلوم الشرعية ببلاد السودان الغربي** و قسمته إلى أربعة مباحث هي:**المبحث الأول** و خصصته لدراسة انتشار المذهب المالكي و تأسيسه و نشأته و ازدهاره في بلاد السودان الغربي و انطوى تحت هذا المبحث ثلاثة مطالب هي :

المطلب الأول خصصته للمذهب المالكي و أثره على بلاد السودان الغربي.

أما **المطلب الثاني** فقد تناولت فيه الحركة الفكرية و العلوم الشرعية في بلاد السودان الغربي.

و إذا انتقلنا إلى **المبحث الثاني** فنجده يتكلم على خصائص حركة التأليف في العلوم الشرعية في السودان الغربي و تناولتها في مطلبين:

المطلب الأول: خاصية الإختصار، و هي ظاهرة موجودة في كل الكتب الفقهية و الدروس الدينية في السودان الغربي .

أما **المطلب الثاني** خاصية الحفظ و النقل و الذي نجده عند كل علماء السودان و المغرب.

أما بالنسبة **للمبحث الثالث** فعنونته بأهم الكتب العلمية في العلوم الشرعية المنقولة من بلاد المغرب إلى بلاد السودان الغربي. و في **المبحث الرابع** عالجنا حركة التأليف و علامها في العلوم الشرعية بالسودان الغربي و مدى تأثره ببلاد المغرب و هو في مطلبين:

المطلب الأول يتكلم عن العلوم النقلية (الشرعية) و تحتوي على علم القراءات، و علم التفسير، و علم الحديث، و علم الفقه، و أصوله، و علوم التصوف و آدابه، و علم الكلام و المنطق، و علم المناظرات الفقهية.

المطلب الثاني يتحدث عن العلوم الإسلامية الأخرى الضرورية لمساعدة العلوم الشرعية.

لننتقل إلى **الفصل الرابع** الذي خصصته **لدور العلماء المغاربة في نشر و توسيع العلوم الشرعية ببلاد السودان الغربي** و قسمته إلى ستة مباحث:

المبحث الأول تناولت فيه مظاهر ازدهار الحركة العلمية و الشرعية في بلاد السودان الغربي.

أما **المبحث الثاني** فقد عالجت فيه العناصر المساهمة في ازدهار الحركة العلمية و الشرعية لبلاد السودان الغربي و ضمنته مطلبين:

المطلب الأول يتكلم عن العنصر المحلي، و هم السودانيون الذين تتلمذوا على مشايخ المغرب و المشرق هناك ، ثم رجعوا لينشروا ما تعلموه بين أبناء جلدتهم.

المطلب الثاني يتحدث عن العنصر المغربي، و هم العلماء المغاربة الذين جاءوا إلى بلاد السودان الغربي و نشروا مبادئ الدين الإسلامي و برعوا فيه.

أما **المبحث الثالث** فقد تناولت فيه ميادين الحركة العلمية و الفكرية في العلوم الشرعية، و قد قسمته إلى ثلاثة مطالب هي:

- **المطلب الأول** تناولت فيه الحديث عن ميادين الفتوى و النوازل.
- و **المطلب الثاني** خاص بميدان التوثيق بالكتابة و علم الشروط و السجلات.
- أمَّا **المطلب الثالث** فكان لميدان التأليف و الإنتاج العلمي.

و بالنسبة **للمبحث الرابع** فخضت فيه البحث في إتجاهات الحركة العلمية و الشرعية، و هي ذات نوعين:

أولا : الإتجاه التأصيلي و هم العلماء الذين يؤصلون أحكامهم من الكتاب و السنة دون الرجوع إلى أقوال السابقين.

ثانيا: الإتجاه التقليدي و هم العلماء الذين لا يؤصلون إلا نادرا، و يعتمدون على أقوال السابقين.

و أما في **المبحث الخامس** فقد أفردته للرسائل، و الإجازات، و الفتاوى، و النوازل، و قسمته إلى أربعة مطالب هي:

المطلب الأول و تناولت فيه دور الفقهاء، و العلماء، و المعلمين، في نشر العلوم الشرعية.

و أما **المطلب الثاني** فكان خاصا بالتفاعل الثقافي بين السودان الغربي و المغرب الإسلامي.

و خصصت **المطلب الثالث** إلى النظام التعليمي في السودان الغربي من الكتاب إلى الإجازة و تأثره ببلاد المغرب الإسلامي فضم هذا المطلب أربع عناصر هي :

أولا: مراحل النظام التعليمي.

ثانيا : المواد الدراسية ومقرراتها.

ثالثا: الإجازات العلمية.

رابعا: الكتب و المكتبات.

و في **المطلب الرابع** تكلمت عن الأساليب التدريسية و التقويمية لعلماء السودان الغربي و تأثره بعلماء المغرب، و جزأته إلى عنصرين تطرقت من خلالهما إلى التدريس و الطرق، و الأساليب المتبعة فيه ، هذا في العنصر الأول. و ثانيا إلى كيفية تقويم التحصيل العلمي و ذلك بثلاثة أساليب هي: الإجازة، و ترشيح الشيخ لتلميذه للإقراء في حلقته، و الإمتحان أو الإختبار.

و في **المبحث السادس** عالجت آثار الحركة العلمية، و الشرعية، و تقييمها العلمي و المنهجي و كان في مطلبين:

المطلب الأول: آثار الحركة العلمية و الشرعية و ضمنته عنصرين:

أولا: في مجال التأليف.

ثانيا : في مجال النوازل و الفتاوى.

أما في **المطلب الثاني** قمت بتقييم آثار الحركة العلمية و الشرعية، وذلك من خلال مستويين:

أولا: المستوى الكمي أو التقليدي: و هو عدد الكتب و المؤلفات التي أنجزت من طرف العلماء.

ثانيا : المستوى الكيفي (الجدّية و الإبتكارية) و هنا نشير إلى أن عدد المؤلفات السودانية لم يضف شيئا إلى المؤلفات المغربية.

أما **الفصل الخامس** فقد خصصته **للإسلام و الحراك العلمي الفقهي**، و أثره في نظام الحكم في السودان الغربي **سنغاي أنموذجا** في الفترة الممتدة من 869هـ- 899هـ /1464م-1493م و قسمته إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول تطرقت فيه إلى مكانة العلماء في المجتمع السوداني و ألقابهم من خلال مطلبين:

المطلب الأول وضحت فيه مكانة العلماء،أما **المطلب الثاني** فذكرت فيه ألقاب العلماء و معانيها.

و في **المبحث الثاني** بينت أهم الوظائف الرسمية لحاملي العلوم الشرعية في السودان الغربي.

و **المبحث الثالث** تناولت فيه إسهامات العلماء، و حملة العلوم الشرعية في الأعمال التطوعية و وزعت هذا المبحث على خمسة مطالب: الأول منه للتوسط في قضاء حوائج أفراد مجتمعهم، أما الثاني لإسهام العلماء في أعمال الخير وأوجه البر والإحسان، و المطلب الثالث لمُشاركة العلماء في الحروب (الجهاد)، أما الرابع فللحسبة، و الأخير للإفتاء.

المبحث الرابع: تطرقت فيه للإسلام المغربي و دوره السياسي في تنظيم الحكم في سنغاي.

أما في **المبحث الخامس** وضحت فيه دور العلم و العلماء في الصراع السياسي في تمبكتو.

و في **المبحث السادس** بينت فيه دور العلم و العلماء في تبدبل و إحلال نظام الحكم في سنغاي.

و في الأخير أتممت بجملة من الإستنتاجات التي لخصتها في **خاتمـــة الموضوع.**

ثامنا: نقد المصادر و المراجع:

1.**المخطوطات:**

أ- مخطوط "**رجز المغيلي**" للإمام **عبد الكريم المغيلي** و هو يتكلم عن أصول المنطق و علم الكلام وهو فقيه ، أصولي ، مفسر ، منطقي ، لغوي ، أديب و شاعر، وقع بينه و بين الإمام جلال الدّين السيوطي خلافا حول المنطق، فأنجز عبد الكريم المغيلي كتابا

حول المنطق و عنونه برجز المغيلي، و شرح فيه أصول المنطق و علم الكلام، و رد فيه على الإمام جلال الدّين السيوطي في عدة قضايا، و أفادني هذا المخطوط في معرفة أصول علم الكلام و المنطق عند علماء السودان الغربي.

ب- مخطوط " **لمجهول** " معنون بـِ: " **سلسلة الذهب في الورد القادري** " من مكتبة حبيب عمر الفهري الكنتي و هو دون تصنيف، و الذي يتكلم فيه هذا المجهول عن أوراد الطريقة القادرية و حياة أهل السودان الغربي.

ج-مخطوط "**زهور البساتين في تاريخ السوادين**" لصاحبه **موسى بن أحمد السعدي** و هو مخطوط ليبي من مكتبة الهادي المبروك الدالي دون تصنيف أيضا، و قد أفادني في معرفة الحياة الإجتماعية و الإقتصادية و الثقافية للممالك الإسلامية بالسودان الغربي: مالي و غانا و سنغاي، كما تكلم عن السودان الشرقي و دارفور.

2.المصادر العربية:

أ- كتاب "**العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**" لـِ: **عبد الرحمن ابن خلدون**، و هو مصدر مهم يتكون من سبعة أجزاء، و الجزء الثامن للفهارس، و قد أفادني الجزء الخاص ببلاد السودان من معرفة الحياة السياسية، و الإجتماعية، و الفكرية، لأهل السودان و المغرب الإسلامي.

ب- كتاب "**تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار**" لصاحبه **ابن بطوطة** الذي ألفه سنة 756 هـ- 1355 م و لقد دامت رحلته 30 عاما بين بلدان العالم، و ما أفادني هو الجزء الخاص بالسودان في زمن السلطان عبد العزيز بحيث وصف لنا الحياة السياسية

و الإجتماعية، و حتى طريقة لباسهم و طعامهم و بيوتهم.

ج- كتاب "**نيل الإبتهاج في تطريز الدباج**" لصاحبه **أحمد بابا التنبكتي** المتوفي سنة 1036 هـ- 1626 م ، و هو كتاب يتكلم عن علماء المغرب و السودان، و قد أفادني في معرفة أعيان أهل السودان من علماء، و فقهاء، و أدباء، و هو في مجلد واحد، و قد جعله ذيلا لكتاب "الدباج المذهب في معرفة أعيان المذهب" لابن فرحون المتوفي سنة 799 هـ- 1396 م.

د- كتاب "**تاريخ الفتاش**" لِـ: **محمود كعت** و هو مؤرخ ولد سنة 954 هـ - 1548 م في مدينة غاو و ألف كتابه هذا الذي يتناول كل الجوانب الحياتية في بلاد السودان الغربي، و هذا ما أفادني في إقامة تصور حول هذه الحياة السياسية و الدينية لبلاد السودان الغربي.

هـ- كتاب "**تاريخ السودان**" لـِ:**عبد الرحمن السعدي** و هو فقيه، و قاضي، و إمام بمسجد جني ولد سنة 1004هـ- 1596 م و توفي سنة 1065هـ- 1655 م، و تحدث فيه عن الدول التي زارها في بلاد السودان الغربي و من أهمها دولة سونغاي، و يعد كتابه مصدرا هاما في تاريخ بلاد السودان.

و- كتاب "**السعادة الأبدية**" لـِ: **أحمد بابير الأرواني**، و قد عرَّف فيه بعلماء تمبكتو و تناول مسائل مهمة ذات صلة مباشرة بأمور الدين و الدنيا، و قد أفادني في معرفة علماء تمبكتو و أول من سكنها من الطوارق كما عرفهم و ذكر السلطان سني علي و الأزسكية الحاج محمد و ذكر مساجد تمبكتو و منازلها و أهلها.

ي- كتاب "**فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور**" لصاحبه **محمد ابن أبي بكر الصديق البرتلي** المتوفي سنة 1219هـ- 1804 م، و قد تناول فيه أعيان مملكة مالي مع علمائها و هذا ما أفادني في معرفة علماء مملكة مالي و التمييز بينهم و بين علماء المغرب، و قد ركز في كتابه على علماء بلاد السودان الغربي و وصفهم وصفا دقيقا أو قريبا إلى الدِّقة.

ز- كتاب "**إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور**" لصاحبه **بلو محمد بن عثمان بن فودي** المولود سنة 1195 هـ- 1780 م و المتوفي سنة 1253 هـ- 1837 م، و اعتمد في كتابه على العديد من فتاوى الفقهاء المالكية، و هذا ما أفادني في فقهيا في موضوعي، بحيث اعتمدت على هذه الفتاوى السودانية و مقارنتها أو مقاربتها بالفتاوى المغربية، و هذا ما مكنني من التأكد بالدور المغربي الكبير في هذا المجال.

3.**المراجع الحديثة:**

أ- كتاب "**دولة مالي الإسلامية**" لـِ: **إبراهيم طرخان**، و لقد ألف كتابه سنة 1389هـ- 1970 م، و هو يتكلم فيه عن الحياة السياسية، و الإقتصادية، و الثقافية لدولة مالي في عهد المنسى موسى و العهود الأولى لها، و هذا ما أفادني في معرفة جانب من جوانب

مملكة مالي، و جزء من السودان الغربي بحكم أن مالي كانت من أعظم الإمبراطوريات آنذاك، و يعتبر هذا المرجع مهما و فريدا من نوعه من حيث الدراسة و التمحيص.

ب- كتاب "**مملكة غانا و علاقتها بالحركة المرابطية**" لصاحبه **أحمد الشكري**، و ألف كتابه سنة 1417هـ - 1997م، و الذي تكلم فيه عن دور الحركة المرابطية في غزو مملكة غانا، و طرح إشكاله: هل كان فعلا ذلك أم لا؟ و أكد في الأخير أن هذا الغزو لم ترق فيه الدماء بحيث كان سلميا، كما نوه إلى دور المرابطين في نشر الإسلام في هذا الربع السوداني، و هذا ما أفادني في تأكيد الدور المغربي في نشر الإسلام في بلاد السودان الغربي.

ج- كتاب "**التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي بين القرنين الرابع عشر و السادس عشر**" لصاحبه **أمطير سعد غيث** و قد درس في كتابه تأثير الثقافة العربية الإسلامية على السودان الغربي، و هو ما قادني إلى معرفة مدّة التواصل الحضاري بين بلاد المغرب و المشرق و بلاد السودان الغربي.

هـ- كتاب "**العلاقات بين المغرب الأقصى و السودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين مالي و سنغاي**" لصاحبه **الأمين عوض الله**، بحيث تحدث في هذا الكتاب عن أطماع المغرب الأقصى منذ الأزل في ذهب مالي، و سنغاي، و الغزو المغربي في مملكة سنغاي، و نفعني هذا الكتاب في معرفة المسالك البرِّية للذهب و طرق إنتاجه و العلاقات المغربية السودانية على ضوء هذه المادة الهامة.

و- كتاب "**انتشار الإسلام في إفريقيا الغربية**" لصاحبه **حسن إبراهيم حسن**، و الذي تناول فيه انتشار الإسلام في الجزء الغربي من القارة الإفريقية ،على ضوء الصراع الغربي فيها منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، و هذا ما بين لي طريقة انتشار الإسلام في القارة الإفريقية.

4.المراجع الأجنبية:

أ- كتاب "**الجدول الجغرافي لإفريقيا الغربية**" لـِ: **ريموند موني**، و قد أفادني هذا الكتاب في معرفة جغرافية بلاد السودان الغربي، أنهارها، صحاريها، و الطرق التجارية فيها.

ب- كتاب "**تاريخ الصحراء الإفريقية**" لصاحبه **كوك** و نفعني هذا الكتاب في معرفة الخريطة الجغرافية للممالك الإسلامية الإفريقية في الغرب.

ج- كتاب "**تمبكتو**" لصاحبه **سيسوكو**، و قادني هذا الكتاب إلى التعرف على مدينة تمبكتو عن كثب، بحيث كان وصفه وصفا دقيقا لأحياءها، و مساجدها، و أهلها، و علماءها.

تاسعا: صعوبة البحث:

اعترضتني عدّة صعوبات في إعداد هذه الأطروحة من بينها قلّة المصادر و المراجع المتناولة لتاريخ السودان الغربي، و إن وجدت فهي تتكلم عن الجوانب السياسية و الإقتصادية، و ما يهمني هنا كدارس هو الجانب الدّيني الفقهي بالدرجة الأولى، و قد حاولت تدارك هذا النقص بالسفر إلى عدّة بلدان عربية، أين اتصلت هناك بأهل الإختصاص الذين زودوني بجملة من المصادر و المراجع و النصائح العلمية القيمة، و ما أعاقني كذلك في عملية البحث هو جهلي بتحقيق المخطوطات، بحيث اعتمدت على بعض الزملاء المتخصِّصين في هذا المجال لتحقيق بعض المخطوطات النادرة، و التي جلبتها من مصر، ليبيا، و المغرب الأقصى.

و كذلك و من بين الصعوبات ، تلك الكتب المغربية القديمة و القريب خطها إلى الخط الكوفي، فوجدت صعوبة كبيرة في فهمها و فحصها و تمحيصها.

عاشرا: الشكر و الإمتنان:

أولا أشكر الله العلي القدير العليم الذي أعطاني القدرة اللَّازمة من أجل إتمام هذا البحث المتواضع، فأنا أدعوه أن يجعله في ميزان حسناتي.

كما أشكر **الأستاذ الدكتور الحاج عيفة** مشرفي الذي لم يبخل عليَّ بالنصائح و الملاحظات التي أضاءت لي الطريق من خلال سهره على قراءة، و تمحيص، و تدقيق و تصويب ما أنجزت طوال هذه المدّة، أبقاه الله ذخرا للعلم و العلماء.

و أخص بالشكر كل أساتذتي و كل من ساعدني في إنجاز هذا البحث وأيضا الزملاء المحققين للمخطوطات و على رأسهم الأستاذ "عامر زناتي" و كذا الأساتذة الدكاترة في المملكة المغربية و المملكة الأردنية و جمهورية مصر العربية ، و أشكر كذلك كل من وفر لي أجواء البحث و المطالعة و أخص هنا بالذكر زوجتي التي وفرت لي كل مستلزمات الراحة على حساب متطلباتها العائلية و صبرها معي إلى أن أتممت هذا العمل المتواضع.

الفصل التمهيدي:

الإطـــار الجغرافـــي و البشـــري لبلاد المغرب و السودان الغربي و الصحراء

الفصل التمهيدي:الإطار الجغرافي و البشري لبلاد المغرب و السودان الغربي و الصحراء:

المبحث الأول: الدلالة التاريخية لمفهوم بلاد السودان:

أَطْلَقَ الكُتَابُ العرب القدامى من المؤرخين والجغرافيين والرحالة كلمة بلاد السودان، ويريدون بها أصحاب البشرة السوداء عموماً وسكان إفريقيا السود على وجه الخصوص، وبخاصة أولئك الذين يقطنون جنوبي الصحراء الكبرى من المحيط الأطلسى غرباً [1] إلى البحر الأحمر شرقاً. يقول المقدسي الجغرافي(ت حوالي375هـ/985م): "**وأما أرض السودان، فإنها تتاخم هذا الإقليم الثانى ومصر من قبل الجنوب، وهى بلدان مقفرة واسعة شاقة، وهم أجناس كثيرة**" [2].

كما وصفها القزوينى (ت 544هـ/1283م) بقوله: "**هي بلاد كبيرة وأرض واسعة ينتهى شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البراري وشرقها إلى الحبشة وغربها البحر المحيط**"[3]، و يميز الاصطخرى(ت 340هـ/951م) بين ألوان أجناس السودان مما يدل على أن الكتاب والجغرافيين المسلمين كانت لهم فكرة واضحة عن مختلف أجناس السودان فيقول: "**و الخدم السودان الذين يباعون فى بلدان الإسلام منهم ليس هم بنوبة ولا من البجة، إلا أنهم أشد سواداً من الجميع وأصفى**" [4].

ويضيف ابن خلدون(ت808هـ/1406م) قائلاً بعد أن لمس اختلاف وكثرة شعوب الأمم السودانية: "**هذه الأمم السودان من الآدميين، و هم أهل الإقليم الثانى، وما وراءه إلى آخر الأول، بل وإلى آخر المعمورة يتصلون ما بين المغرب والمشرق، يجاورون بلاد**

---

(1) المحيط الأطلسى، أطلق العرب عليه البحر المحيط، انظر: العمرى شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار تح حمزة أحمد عباس وآخرون، المجمع الثقافي، ج4، أبو ظبى، 1423 هـ / 2002 م، ص 120 . و كذلك انظر: محمد عبدالعال أحمد، منسا موسى سلطان التكرور ورحلة حجه الشهيرة، دار المعارف ،القاهرة، 1987 ص 20.

(2) المقدسى شمس الدين أبو عبدالله، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991، ص 341.

(3) القزوينى زكريا بن محمد بن محمود ، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ، بيروت، (د.ت)، ص24.

(4) الأصطخرى أبو إسحاق بن محمد الفارسى، المسالك والممالك ، تح محمد جابر عبدالعال الجينى ، مصر، 1961، ص 34.

البربر بالمغرب وإفريقية، وهم أصناف وشعوب وقبائل أشرهم بالمشرق الزنج والحبشة والنوبة"[1].

ويفرد المقريزى (ت 845هـ/1441م) لأصناف السودان جزء كبيراً من مخطوطه "جنى الأزهار"، حيث ذكر أكثر قبائلهم وأجناسهم، ومواقعهم، ويلاحظ أن مفهوم بلاد السودان عند المقريزى يمتد ليشمل كل شعوب وقبائل منطقة السافانا من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً [2]، وهو الإقليم الذى يتصف بالحرارة المرتفعة لتأثير الشمس فيه لأن الشمس لا تزال مُتعامدة عليهم[3]، و يمكن تقسيم إقليم السودان إلى ثلاثة أجزاء:

أ – السودان الشرقى: ويمتد من البحر الأحمر شرقاً، إلى حدود إقليم دارفور غرباً، ويضم الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل، وغلب على هذا الجزء بالإضافة إلى ساحل شرقي إفريقيا عند العرب اسم بلاد الزنج، إلا أن كلمة السودان كانت تشمله أيضاً وذلك حتى القرن الثالث الهجرى[4].

ب– السودان الأوسط: ويشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد [5].

جـ– السودان الغربى: ويشمل المناطق الواقعة بين حوض نهر السنغال (Senegal River)[6].ونهر غامبيا (Gambia River) والمجرى الأعلى لنهر الفولتا (Folta River) والحوضين الأعلى والأوسط لنهر النيجر (Niger River)، مما ساعد على وجود الزراعة،

([1]) ابن خلدون عبدالرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ،ج6، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت ،1968 م ، ص- ص 409 - 410.

([2]) المقريزى، تقي الدين أحمد بن علي، الخبر عن أجناس السودان، جزء من مخطوط جنى الأزهار من الروض المعطار، دورية المعهد العلمى الفرنسى للدراسات الشرقية الحوليات الإسلامية Annales Islamologiques ،ع 1979 م، ص 191.

([3]) القزوينى، المصدر السابق، ص 23.

([4]) الأمين محمد عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي فى عهد السلطنتين الإسلاميتين: مالي وسنغاي، دار المجمع العلمي، جدة، 1979، ص 41.

([5]) عبدالقادر زبادية، مملكة سنغاى فى عهد الأسقيين، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، (د.ت)، ص 15.

([6]) نهر السنغال ونهر النيجر: أطلق المؤرخون والجغرافيون العرب عليهما نهر النيل أو البحر .
Cf: Soudan in "Encyclopedie de l'islam" t.IX, Maisoneuve, Paris 1991, P. 51.

وحياة الاستقرار وهى منطقة الدراسة [1]، و تكاد تتطابق حدود السودان الغربي مع حدود دولة مالي فى عصر ازدهارها و اتساعها، حيث قامت فى منطقة السودان الغربى[2] و على نفس منطقة السودان أيضاً دولة سنغاي و إن كانت بتوسع أكبر من دولة مالي بحيث شملتها، واتجهت للتوسع نحو الشرق والشمال[3].

و تتداول المصادر العربية وخاصة المشرقية منها اسماً ثانياً يعبر عن منطقة السودان الغربى هو "بلاد التكرور" (Bilad Al–Takrur) [4]، وكذلك أهل التكرور، ويقصد بهم أهل السودان الغربى، و أول من أشار إلى مدينة التكرور هو أبو عبيد البكري (ت487هـ/1094م) عام 460هـ/1067م عند انتهائه من كتابة المدونة الأولى لكتابه "المسالك والممالك"، ووصف المدينة بأنها كانت على الشرك و عبادة الأصنام حتى وليهم وارجابى بن رابيس [5] الذى أسلم و أقام شرائع الدين الإسلامي، وحمل أهل مدينة التكرور على الإسلام، في الوقت الذي كانت سائر بلاد السودان الغربي على الشرك وعبادة الأصنام على حد قول البكري.

و لم يكتف بهذا فقط بل حاول أن ينشر الإسلام فى مدينة سلى المجاورة أيضاً والذين أسلموا على يد وارجابى بن رابيس[6] الذي ادعى النسب الشريف.

([1]) محمد عبد الله النقيرة، التأثير الإسلامي فى غرب إفريقيا ، مطابع الفرزدق التجارية، ط1 ، الرياض، 148هـ/ 1988م، ص17.

([2]) العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله، التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة، 1312هـ، ص27.

([3]) و عن موقع دولة مالي وسنغاي وتوسعهما انظر: أحمد الشكرى، الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي 1230-1430م، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999م، ص 59.

([4]) Cf Sartain, EM, Jalal al din al–Suyuti's Relations With the People of Takrure, JSS, XVI (1971) , P. 193 .

([5]) كانت الحركة التى قام بها وارجابى بن رابيس قبل نهاية القرن الرابع الهجرى لأنه توفى عام 432 هـ / 1040 م وهذا ما يجعل الإسلام فى التكرور يسبق الإسلام فى غانة وسنغاي و أن كان الإسلام قد وصل إلى مدينة كوكو (Kawkaw) وأوداغست Awdaghost قبل التكرور كما سيتضح لاحقاً ولكن الإسلام فى التكرور تميز بأنه قد أخذ طابع الجهاد من أجل نشر الإسلام فاستطاع وارجابى بن رابيس أن يدخل الإسلام مدينة سلى بل وامتلكها مثلما أشار ابن حزم أنه صار ملك التكرور وسلى بل شارك بدور كبير فى تأسيس ركب حجى لأهل التكرور مما يوضح الحماسة الدينية لإسلام التكرور.

([6]) البكرى أبو عبيد، كتاب المسالك والممالك، تح أدريان فان ليوفن وأندرى فيرى،ج2، تونس، 1992 م ، ص 868.

و قد تطور اسم التكرور عند ابن سعيد (ت673هـ/1275 م) ليشمل كل منطقة السودان الغربي بعد أن كان يطلق على مدينة التكرور فقط، و يعبر عن ذلك بقوله: "**وأما فى عصرنا فما على شاطئ النيل من بلاد التكرور مدينة إلا وقد دخلها الإسلام وجميعها لسلطان التكرور وقاعدتها على جانبى النيل واسمها تكرور وبها عرفوا**"[1]، و يُحدد الحميري (ت866هـ/1462م) مكان هذه المدينة فيقول: "**تكرور براء مهملتين بلاد تنسب إلى قبيل من السودان فى أقصى جنوب المغرب وأهلها أشبه الناس بالزنوج**"[2]، و يصفها القزوينى (ت544هـ/1283م) بأنها مدينة عظيمة لا سور لها وأهلها مسلمون وكفار والمُلك فيها للمسلمين وذلك فى القرن السابع الهجرى. [3]

و ينتشر إسم التكرور بالمشرق ليعبر عن مفهوم كل أرض السودان الغربي والتي كانت تسمى عندهم بأرض التكرور وملكها هو ملك التكرور صاحب هذه المملكة – **دولة مالي** – وهو المعروف عند أهل مصر بـ "**ملك التكرور**" ولو سمع هذا لأنف منه، لأن التكرور إنما هو إقليم السودان الغربي والأحب إليه أن يقال "**صاحب مالي**" لأنه الإقليم الأكبر وهو به أشهر. [4]

و وضع البرتلي تعريفاً بحدود بلاد التكرور، فهو إقليم واسع ممتد شرقاً إلى أدغاغ وغرباً إلى بحر يتى زناقية وجنوباً إلى بيط وشمالاً إلى أدرار[5]، و يُلاحظ أنه امتد بحدود

([1]) ابن سعيد أبو الحسن على بن موسى المغربي، كتاب الجغرافيا، تح إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1970 م، ص 91.

([2]) الحموي أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، تح فريد عبد العزيز الجندي،ج1، دار الكتب العلمية،ط1، بيروت، 1410 هـ / 1990 م ، ص 376.

([3]) القزويني، المصدر السابق، ص 26.

([4]) العمري، مسالك الأبصار، جـ 4، ص-ص 107 - 108.

([5]) البرتلي محمد بن أبي بكر الصديق، فتح الشكور فى معرفة أعيان علماء التكرور، تح محمد حجي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الغرب الإسلامى، بيروت، 1401 هـ / 1981 م ، ص 26.

التكرور إلى الشمال ليشمل جزء كبيرا من أرض شنقيط (Shanqit)، بل ذهب البعض إلى ضم كل أرض شنقيط إلى التكرور. [1]

و السؤال الذى يطرح نفسه هو: ما السبب الذي غير وبدل اسم "السودان الغربي" إلى "أرض التكرور"؟ ثم ينتشر هذا بين أهل السودان الغربي أيضاً؟ ونضع أيدينا على نصف إجابة هذا السؤال من محمد بلو بن عثمان بن فودي (ت1244هـ/1829م) صاحب "إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور" الذى تكفل بالرد من أجل هذا التعليل، قائلاً: "**واعلم أن هذا الاسم الذى هو التكرور علم على الإقليم الغربي من الجنوب السوداني على ما فهمنا من تعبيرهم فى التواريخ والنقول، وهذا الاسم شائع فى الحرمين ومصر والحبشة، ولا يعرفه أحد فى محله حتى لا يعرفه أهل هذه البلاد أصلاً، وإنما يتلقونه من الحجاج الذين سمعوه بالحرمين ومصر...**" [2].

أي أن الحجاج هم الذين حملوا هذا الإسم من المشرق إلى منطقة السودان الغربي لينتشر بين أهلها، ولكن ما الوسيلة التى حملت اسم التكرور من منطقة السودان الغربي إلى المشرق لينتشر بها؟ يرجح أن الحج كان وراء حمل اسم التكرور من السودان الغربي إلى المشرق الإسلامي والأراضي المقدسة، فكان الحج أهم صلة من الصلات المبكرة بين السودان الغربي والمشرق الإسلامي، والذي تبع انتشار الإسلام فى منطقة السودان الغربي، وخاصة إذا علمنا أن التكاررة هم الذين عرفوا فى منطقة السودان الغربي بأنهم الذين نُقيت قلوبهم وأعمالهم لتكرار قيامهم بالحج إلى مكة [3]، ومن ثم الانتساب إلى آل بيت **رسول الله (صلى الله عليه وسلم).**

([1]) الشنقيطي أحمد بن الأمين، الوسيط فى تراجم أدباء شنقيط ، مكتبة الخانجي، ط5، القاهرة 1422 هـ / 2002 م، ص423.) Cf Cuoq. J, Recueil Sourecs Conernant l'Afrique Occidentale du v111 au Xvi siecle (Bilad – Al– Sudan) ed, de C.N.R.S, 2e ed, Pairs 1985, PP. 4-5 note bet P. 185 .

([2]) بللو محمد بن عثمان بن فودى، إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور، تح بهيجة الشاذلى، الرباط 1996 ، ص 47.

([3]) Cf AL-Naqar Umar: Takrur the History of a Name, JAH, vol. 10 , No. 3, 1969, PP. 365 – 374 .

المبحث الثاني: إقليم السودان الغربى والمغرب فى المصادر العربية:

أطلق الجغرافيون، و المؤرخون، و الرحالة العرب فى العصور الوسطى على المناطق الواقعة فيما وراء الصحراء الكبرى، وشمال خط الاستواء و الممتدة من البحر الأحمر شرقاً حتى المحيط الأطلسى غرباً اسم بلاد السودان [1].

وقد وصف الإصطخرى الذي عاش خلال القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى بلاد السودان بقوله: "**إنها بلاد عريضة، وليس فى الأقاليم التي للسودان من الحبشة والنوبة والبجة، وغيرهم، إقليم أوسع منه، ويمتدون على قرب البحر المحيط [2] مما يلي الجنوب، ومما يلي الشمال على مغازه تنتهي إلى مغازة مصر من وراء الواحات...**". ويصف سكانها بأنهم: "ليسوا بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة، إلا أنهم جنس على حده أشد سواداً من الجميع وأصفى... [3]، كما وصفها القزوينى (ت682هـ/1283م) بقوله: "**هى بلاد كبيرة، وأرض واسعة، ينتهى شمالها إلى أرض البربر، وجنوبها إلى البراري، وشرقها إلى الحبشة، وغربها البحر المحيط...**[4]".

و التقسيم الجغرافي الذي حظي به السودان فى الكتب الجغرافية القديمة لا يساعدنا على تحديد مواصفاته ومميزاته المناخية، إلا من خلال تلك الروايات التى كانت تصف

([1]) ذكر إقليم السودان عند القدامى فيقول الدمشقى: " قسم الأرض إلى أربعة أقسام أحدهما للترك ، الثانى للعرب، الثالث للفرس والرابع للسودان أما بالنسبة لقسمة نوح للأرض فبنيت على ثلاث، فكان المشرق والشمال ليافث ، والمغرب والجنوب لحام والوسط لسام . فلسام العرب والروم والفرس ، وليافث : الترك والصقالبة ، ويأجوج ومأجوج أما حام فكان له : القبط والبربر والسودان . انظر : الدمشقي ، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر، دار احياء التراث العربى ، ط 2، بيروت ، 1419هـ/1998م، ص-ص 36-37 ؛ ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، جـ12 ، ط 1، الجزائر، 1996 م، ص 417 ؛ الهادي المبروك ، التاريخ السياسى والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء ، الدار المصرية اللبنانية ، 1999 م، ص 17 ، أمين توفيق أحمد الطيبي ، أثر الإسلام الحضاري فى غانا ومالي فى العصر الوسيط، أعمال ندوة التواصل الثقافى والاجتماعى بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، كلية الدعوة الاسلامية ، طرابلس، 1999 م، ص 116 ، عثمان سيد أحمد ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، مجلة دراسات إفريقيا ، المركز الاسلامى ، الخرطوم ، الع الأول ، أبريل 1965 م، ص 30 ؛ بوفيل تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ط 2 ، بنغازي، 1988 م، ص 29.

([2]) لفظ البحر المحيط الوارد فى النص المقصود به المحيط الأطلسي، انظر: محمد عبدالعال أحمد، منسى موسى سلطان التكرور ورحلة حجه الشهيره ، دار المعرفه ، 1987 م ، ص 20.

([3]) الأصطخرى، المصدر السابق ، ص 34.

([4]) القزوينى ، المصدر السابق ، ص 24.

السكان والمدن، وعادتهم وتقاليدهم. أي بمعنى آخر انعدام التخصص فى هذه المؤلفات، مثلما ذكره ابن بطوطة فى كتابه الرحلة أو البكرى، ومن ثم فإن بعض الكتب راحت تميز إقليم السودان عن بقية الأقاليم الأخرى من خلال السلالات البشرية التى تقطن أراضيه و المميزه باللون الداكن، وهذا يرجع بعض المؤرخين سببه إلى دخول العرب إلى المنطقة، والذين كانوا السباقين إلى تسمية هذا الإقليم بالسودان نسبة إلى سواد بشرة أهله[1].

وفى هذا الصدد يقول ابن رسته (ت290هـ/903م) : "**إن السودان والحبش يسكنون في البلاد التي تحاذيها البروج، من بين مدار الحمل إلى السرطان، وأن الشمس في هبوطها و صعودها في تلك البروج تتوسط السماء التي تسخن أهويتهم وتحرقهم، ولهذا صارت ألوانهم سوداء، وشعورهم قططة، وأبدانهم يابسه، وأطباعهم حارة، وكذلك دوابهم وتجارتهم...** [2] ".

ويمكن تقسيم اقليم السودان بصفة عامة إلى ثلاثة أجزاء:

(أ) ***السودان الشرقي:*** ويمتد من البحر الأحمر شرقاً حتى حدود إقليم دارفور غربا، ويضم الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل[3] و كان هذا التقسيم إضافة إلى ساحل شرقي إفريقيا قد غلب عليه عند العرب ما قبل القرن الرابع الهجري – التاسع الميلادى والسادس الهجري – الثاني عشر الميلادي إسم بلاد الزنج، إلا أن كلمة السودان كانت تشمله أيضاً[4].

(ب) ***السودان الأوسط:*** ويشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد بين خطي عرض 22 شمالاً، 10 جنوبا، وبين خطى طول 10 شرقا ، 15 غربا [5].

([1]) أحمد بابا، رسالة عن إسلام قبائل فلان، مخطوط مصور بخزانة كلية الآداب، الرباط، رقم 454 ؛ عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي فى عهد الأسقيين (1493 – 1592) ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، (د.ت) ، ص 15 ؛ ابن بطوطه ، المصدر السابق ، ص-ص 690 - 700.

([2]) ابن رسته، المصدر السابق، 1892 م، ص 99 . السودان ، دائرة المعارف الاسلامية، ط 1، مج 11، ص 327.

([3]) الأمين عوض الله ، المرجع السابق، ص 41.

([4]) عبدالقادر زبادية ، المرجع السابق، ص 15.

([5]) انظر ديرك لانجي ، ممالك تشاد وشعوبها ، تاريخ افريقيا العام ، ج4، ط اليونسكو 1988 م، ص 247 ؛ محمد بن شريفه ، ابراهيم الكانمي ، نموذج مبكر للتواصل الثقافى بين المغرب وبلاد السودان ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية بالرباط ، 1991 م، ص 16.

(جـ) ***السودان الغربي:*** ويشمل المناطق الواقعة بين حوض نهري السنغال[1] و الحوض الأوسط لنهر النيجر، والمجرى الأعلى لنهر فولتا، والمنطقة الأخيرة هي منطقة هذه الدراسة، وقد عرفت أيضاً باسم "الحوض والساحل" [2] ، و إذا كانت كلمة غانا تعني " أرض الذهب " عند العرب خاصة أو The Lord of the Gold عند الغربيين، فإن كلمة سودان عند العرب فى هذه الفترة الإسلامية كانت تعنى أيضاً "الذهب" [3].

و تجدر الإشارة إلى أن بعض الكتاب والجغرافيين القدامى يخلطون بين مصطلحي بلاد السودان وبلاد التكرور، يقول صاحب كتاب "انفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور" : "**واعلم أن هذا الاسم الذي هو تكرور علم على الإقليم الغربي من الجنوب السوداني على ما فهمنا من تعبيرهم فى التواريخ والنقول، وهذا الإسم شائع فى الحرمين ومصر والحبشة**[4]". ومنهم من يستخدم لفظ التكرور ويعنى به بلاد السودان الغربي بعامة [5]، رغم أن منطقة التكرور هي إحدى مناطق السودان الغربي، وكانت قد انفصلت عن مملكة غانة الوثنية حوالي القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي.

أما ابن فضل الله العمري (ت 749هـ/1349م) فيقول : " **و صاحب هذه المملكة هو المعروف عند أهل مصر بملك التكرور، ولو سمع هذا أنف منه، لأن التكرور إنما هو إقليم من أقاليم مملكته، وأحب إليه أن يقال صاحب مالي، لأنه الإقليم الأكبر وهو به أشهر...**" [6].

([1]) نهر السنغال ونهر النيجر ، اطلق المؤرخون والجغرافيون العرب عليهما نهر النيل أو البحر

C F Soudan in " Encyclopedie de – L' Islam" T . ix , paris , Maisoneuve 1991 , p 518 .

([2]) أمين توفيق الطيبى ، الحضارة العربية الاسلامية وأثرها الايجابى فى السودان الغربى فى القرون الوسطى ، مجلة البحوث التاريخية ، الع الثانى، 1980 م، ص 259 . انظر الخريطة شكل رقم (1)

([3]) TAMSU (N . D .) " Le Soudan Occidental au Temps des grands empires – xixvi siecle – Presence Africaine" paris 1975 , p. 14 .

([4]) محمد بلو بن عثمان بن فودى ، المصدر السابق، ص 23.

([5]) القلقشندي ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج5، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، 1963 م ، ص 283.

([6]) ابن فضل الله العمري ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، ج4 ، معهد تاريخ العلوم العربية الاسلامية ، فرانكفورت، 1988 م، ص 34.

و بدراسة السلالات البشرية التى انتشرت فى كل الجزء الغربي من هذه القارة حسب الدراسات الحديثة آخذين فى الحسبان الطابع اللغوي و السياسي و الثقافي لها، و يمكن ملاحظة مايلي: فى أقصى الغرب جماعة الولوف Wolof وبين السنغال و النيجر جماعة الماندي Mandie و التى تشمل جماعة السونينك Soninke و المالينكى Malinke[1]و فى النيجر الأوسط جماعة السونغاي Songhay[2] و المهاجرين البول Peuls الذين شكلوا من السنغال عبر كل إفريقيا السوداء و لعدة قرون من الفوتاجالون Futadjalon إلى ماسينا Massina وبلاد الهوسا Haussa النواة الحقيقية للكثافة السكانية، وأهم فصيلة يمكن التركيز عليها هى فصيلة "الماندينج" Manding[3].

و كانت أهم المدن التي ميزت إقليم السودان الغربى فى هذه الفترة هي مملكة غانة التي تعتبر أقدم مملكة عرفها السودان الغربي[4]، و هذه الإشارة ملخصة لأهم النقاط الحساسة لتاريخ هذه المنطقة التى أعطت وجودا لهذه الممالك قبل دخول المسلمين إليها و فتحهم لها.

و سوف أتطرق إلى ذكر هذه المناطق والمدن المزدهرة فى السودان الغربي بعد ازدهار تجارة القوافل التى عبرتها، والتى يعود الفضل فيها إلى توفر معدن الذهب في جنوب

---

(1) Afrique Noire in “ Atlas Mondial Encarta 2000” CD – ROM. و يطلقون على السوننك اسم سيراكول او سراكول او سراكولى ، انظر : محمد محمد المفتى ، فتح الحنان بجمع تاريخ بلاد السودان ، مخطوط ، معهد البحوث فى العلوم الانسانية ، نيامى النيجر رقم 108 ورقة 32 – 33.

(2) السنغاى ، هى التسمية التى أطلقت على قبائل على قبائل حوض النيجر انظر :
Sounghay in Encyclopedie de l’ Islam , tome IV , Librairie Clincksieck , paris 1934 .

(3) Lewicki (Tadeusz) : Etudes maghrebines et soudanaises varsovie , Editions Scientifiques de pologne , 1996 , pp 30 – 34 .

(4) ترجع أول اشارة لغانة فى المصادر العربية إلى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة (8 م) . حيث اشار اليها الفلكى الفزارى ثم تلاحقت بعد ذلك الشهادات المصدرية العربية لكنها كانت فقيرة فى مضمونها ولن نتمكن من التعرف على غانة إلا مع البكرى وهو يرسم مسالكه وممالكه سنه 460 هـ / 1068 . وأول ما يوضحه لنا جغرافينا هو أن أسم غانة يطلق على عاصمة المملكة كما أنه يمثل لقباً للملك ، وأن اسم البلاد أوكار . وفى محاولة لتفسير مصطلح " غانة " يقول ج . ت . نيان " إن غانة تعنى فى لغة الماندنج: الرجل القوى الذى يتمتع بمقدرات خارقة انظر المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج2، . بيروت الجامعة اللبنانية ، ط 1979 ، ص 377 ; البكرى : كتاب المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك ، باريس ميزونوف، 1965 ، تح و تر للفرنسية دوسلان ، ص 184 ، Niane D. T. Le Soudan Occidental au Temps des grands empires xie – xvie siecles paris , presence Africaine , 1975 , p 4 et 34 .

الصحراء الكبرى دون تجاهل البضائع المختلفة الأخرى التى كانت ترافق الذهب شمالاً، أو الملح جنوباً[1].

إن الإشارة إلى بلاد السودان الغربى تقتضي الحديث عن أهم المدن التى لعبت دوراً مهما فى حركة النشاط الإقتصادى والإجتماعى للمنطقة قبل دخول الإسلام إليها، ومن أهم هذه المدن: جيني (جينو) Djenne – Djeno، أو كاو كاو Kao Kao[2] كما يسميها العرب، إلى جانب مدينة كوكيا Kokia، وتادمكة Tademka [3]، فتقع مدينة جني على بعد حوالي كيلو متر واحد من جني الحالية ، الواقعة بين (تنبكت) Tanbouktou وسيجو Sigou، ويعود الفضل فى الإزدهار الذي عرفته المدينة إلى النشاط التجاري الذي توسع في رقعة تقرب الستين كم[4]، و في قمة ازدهارها بلغت المدينة بين الفترة الممتدة من (133هـ/750 م) و(545هـ/ 1150 م) مساحة تقدر بـ 30 إلى 40 هكتارا، وبلغ عدد سكانها 10.000 ساكنا فى عام 800 م، وقد بنى العرب مدينة جديدة على بعد كليو متران من المدينة القديمة وهى جنيه الحالية [5]

([1]) أحمد الشكري ، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة ؟) ، منشورات معهد الدراسات الافريقية، القاهرة، مصر ، ط 1997 ، ص 10.

([2]) البكري ، المصدر السابق، ص 174 ؛ انظر كلام ابن خلدون عن أرباح التجارة البعيدة المدى و قد ضرب لنا مثالا بالتجارة الصحراوية بين بلاد المغرب وبلاد السودان " العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر و من عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر، مج 1 ، ص 707. ".

([3]) لمزيد من الدراسة انظر د. باولو فرناندو دي مورايس فارياس، نظام تجارة تادمكة وجاو وكاو كاو وكوكيا فى إطار تاريخ الاتصالات الثقافية على إمداد طرق التجارة عبر الصحراء مع التركيز على الأدلة المستمدة من الكتابات العربية في العصور الوسطى ، مجلة البحوث التاريخية – ليبيا . ط 1981 ، ص-ص 42 - 43.

([4]) وداد نصر الطوخي ، مدينة تنبكت منذ نشأتها حتى دخول السعديين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، 1986 م، ص 9 وما بعدها.

([5]) Jolly (J). " Histoire du Continent Africain" T. 1, de la prehistoire a 1660" L'Harmattan, 1996, P . 107 – 127. ; الهادى المبروك الدالي ، المرجع السابق ، ص 118 ؛ انظراً الخريطة شكل رقم (1).

أما المدينة الثانية، فهي جاو Gao التي لايعرف متى تأسست بدقة ، ولكن المصادر تشير إلى أنها دخلت فى حكم دولة سنغاي سنه 370هـ/980م[1]، وموقع هذه المدينة محل نقاش لأنه كثيراً ما وقع خلط بين مدينة جاو أو كاكاو كما يسميها العرب و مدينة كوكيا.

و تقع مدينة جاو فى المنطقة التى تمتد بين بحر الظلمات ونهر النيجر، وهي منطقة تبادل وتداخل بين بيئات مختلفة ونماذج حياة متعددة، أي بين الصحراء والسودان ، وبين البدو والمزراعين[2]، و تذكر بعض الدراسات أن مدينة كاو كاو تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر[3].

و يبدو أن هذه المدينة كانت تحت حكم السود، ولهم علاقات متصلة بالمسلمين، وحوالي عام 401هـ/1010م نقل كوسوى Kossoi الحاكم الخامس عشر من سلالة ملوك آل ضياء Dia عاصمة مملكة سنغاي من كوكيا إلى جاو Gao، لتتوطد العلاقات مع المغرب وشمال إفريقيا لدرجة جعلت ملك السنغاي يعتنق الدين الإسلامي[4].

---

(1) الحسن الوزان، وصف إفريقيا، تر عبد الرحمن حميدة، راجعه علي عبد الواحد، ط الرياض، 1399 هـ، ص-ص 543 – 544 ؛ جميلة التكتيك : مملكة سنغاي الإسلامية فى عهد الأسكيا محمد الكبير(1493 – 1528) م ، منشورات مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية رقم 26 ، ط 1998 ، ص 123.

(2) Farias, (M), "Some reassements and recent findings concerning epigraphic evidence from the Niger valley and the sahara" in "Histoire du sahare et des rehations transah ariennes entre le Maghreb et l'ouest Africain du moyen age a l'epoque coloniale" actes du Ive Colloque Euro – Africain Exford (Maroc) du 20 au 25 oct . 1985, Bergamo, Italia 1986, P.79.

(3) إ سماعيل العربي ،الصحراء الكبرى وشواطئها ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1983 م، ص317.

(4) حكمت أسرة آل ضياء Dia أو Za إمارة سنغاي كما تقول الأسطورة بعد وصول ذا الأيمان – AyamanZa EL– وأخيه إلى نيامي بالنيجر فوجد أن سكان المنطقة وثنيين يعبدون سمكة تطلع إلى سطح النهر فى أوقات معينة فقام بقتلها فعينته قبيلة السنغاي حاكما عليها ، وذا الإيمان حسب الرواية قد جاء من اليمن و أنه قد أعلن إسلامه . ولكن المؤكد أن الملوك الذين جاءوا بعده كانوا وثنيين ، ويعتقد آخرون أن أصله من قبائل لمتونه وهواره وقد زحف على كوكيا وأصبح بعدها ملكاً على قبيلة السنغاي.

انظر : Robert laffont ,Les memoires de l'Afrique des origins à nos jours, Collection bibliothéque historique, Paris 1972, P-P 157 – 159.

Maurice Lombard , l' Islam dans sa premiére grandeur (VIIe-XIe) siécles Flammarion, coll.(Nouvelle bibliothèque scientifique) , paris, 1971.

المبحث الثالث: إقليم المغرب فى المصادر العربية:

يؤكد ابن خلدون (ت 808هـ/1405م) على أن لفظ المغرب في أصل وصفه إسم إضافي يدل على مكان من الأمكنه إضافة إلى جهة المشرق[1]، و البعض يشير إلى أن المغرب يعني كل الأقاليم الواقعة غرب مصر، والتي تتضمن حاليا ليبيا (برقة، طرابلس، فزان)، وتونس، والجزائر، وأخيراً المغرب الذى يعرف باسم: مراكش[2].

فالزهري (ت 556هـ/ 1160م) يقسم المنطقة إلى ثلاثة أصقاع تشمل كلا من إفريقيا، المغرب الأقصى، والسوس الأقصى[3]، أما الإصطخرى (ت 350هـ/961م) فله تقسيما جغرافيا محددا حيث يقول: "**إن المغرب نصفان: فأما الشرقي فهو برقة وإفريقيا وتاهرت وطنجة وسوس وزويلة، أما الغربي فهو الأندلس**"[4]، و يعتبر هذا التقسيم مميزاً نحو الصواب فى تحديد المغرب الإسلامي خلال هذه الفترة.

و لا يعود أصل تسمية المغرب إلى فترة العصر الإسلامي فقط، بل إلى فترة الرومان أيضا فقد ذكر بأقسامه الثلاث: إفريقيا، نوميديا و موريتانيا، والذى يتماشى والتقسيم العربي فى معنى إفريقية، والمغرب الأوسط، والمغرب الأقصى[5]. وتسهب المصادر العربية فى ذكر المدن، وأهمها على لسان المقدسي: "**وتاهرت الطيبة وسلجماسة المختارة ...**" [6].

أما المفهوم الثالث للمغرب فهو عام كما ظهر عندما قسم الخليفة العباسي "هارون الرشيد" دولته إدارياً بين ولديه الأمين والمأمون 182هـ/798م حيث كان للأمين الجزء الغربي (العراق والمغرب). وكان للمأمون شرقها (خرسان ومايليها من الولايات الشرقية)،

([1]) ابن خلدون، المصدر السابق ، ص 17.

([2]) سعد زغلول ، تاريخ المغرب الكبير ، جـ1 ، من الفتح إلى بداية عصور الإستقلال (ليبيا ، تونس ، الجزائر ، و المغرب)، الإسكندرية، 1995 م، ص 61.

([3]) الزهري (أبو عبدالله محمد ابن أبي بكر) ، كتاب الجغرافيا ، تح محمد حاج صادق ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية، 1990 م، ص- ص 106 - 117.

([4]) الإصطخرى، المصدر السابق، ص 33 ؛ انظر كذلك : ابن حوقل (أبو القاسم محمد ابن العلي الموصلي) ، صورة الأرض ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، (د.ت) ، ص 64 ؛ و أيضا انظر الخريطة شكل رقم (6) بملحق البحث.

([5]) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، دار الكتاب الحديث ، ط 2، 1996 م، ص 19.

([6]) المقدسي ، المصدر السابق ، ص 183.

ليصبح استعمال هذه الكلمة أكثر انتشارا بعد توسع الفتوحات الإسلامية و ذلك في القرن 3 هـ ، وتظهر بشكل علمي دقيق بعد اكتمال علم الجغرافيا [1].

المبحث الرابع: الأحوال الطبيعية والسياسة في تاريخ بلاد المغرب:

تمتد بلاد المغرب من طرابلس شرقاً الى المحيط الأطلنطي غرباً وإن ما يلي طرابلس إلى الشرق لا يدخل في المغرب. وعلى هذا النحو ينقسم المغرب الى ثلاثة أقسام:

1-**إفريقية:** وسمّاها العرب المغرب الأدنى لأنها أقرب بلاد المغرب الى بلاد العرب و دار الخلافة بالحجاز و الشام، وتمتد من طرابلس شرقاً حتى بجاية أو تاهرت غرباً.

2-**المغرب الأوسط:** ويمتد من بجاية مرورا بتاهرت حتى وادي ملوية شرقاً وجبال تازة غرباً.

3-**المغرب الأقصى:** و يمتد من وادي ملوية شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً. [2]

و قد عرفت القبائل التي سكنت المغرب باسم البربر، و اختلف النسابون العرب في أصل البربر، و قد ناقش ابن خلدون آراءهم وخلص منها بقوله: "**و الحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح**".[3]

و ينقسم البربر في العموم الى قسمين:

أولا: البربر الحضر: الذين يسكنون المناطق الخصبة، و يشتغلون بالزراعة و الصناعة.

ثانياً: البربر الرحل: الذين يسكنون الصحاري، و يعيشون على الرعي و على ما يسلبونه من غاراتهم على ما يجاورهم من عمران.

و قسم ايضاً العرب البربر الى قسمين أساسيين:

1-**البتر:** و هم ينتسبون الى ماغيس بن بر المُلقب بالأبتر.

2-**البرانس:** و هم ينتسبون الى برنس بن بر.

و ينقسم بربر البتر الى أربع قبائل هي: ضريسة، و نفوسة، و أداسة، و بنو لواي أو لواتة. و تنقسم ضريسة الى مكناسة و زناتة، و يعتبر ابن خلدون قبيلة زناتة فرعاً من البربر قائماً بذاته. و من زناتة جراوة و مغراوة، و بني يفرن و بنو زيات، و بنو مرين [1].

([1]) سعد زغلول، المرجع السابق، جـ1 ، ص 61 ؛ وللمزيد انظر: توفيق اسكندر، بحوث فى التاريخ الاقتصادي ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، 1961م ، ص 4.

([2]) عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، مؤسسة الشباب الجامعية للنضر و التوزيع و الطباعة، الإسكندرية ، (د.ت)، ص- ص 13-16.

([3]) ابن خلدون، العبر، ج6، ص191.

أما بربر البرانس فينقسمون الى سبع قبائل هي: أوربة، صنهاجة، كتامة، مصمودة، عجيسة، اوزيغة، ازداجة. و قيل عشر بإضافة: لمطة، هكسورة، جزولة، و تعتبر صنهاجة أكبر قبائل البربر[2] ، حتى أنهم زعموا أن مقدار الثلث منهم. و قد غلب على صنهاجة طابع البداوة فتفرقت في كثير من أنحاء المغرب[3].

و تنتشر صنهاجة في المغرب الأوسط و الأقصى، وتقيم كتامة في بلاد القبائل الصغرى و زاواوة في بلاد القبائل الكبرى وزناتة على شاطئ الجزائر بين بلاد القبائل و الشلف. و بنو يفرن من الشلف إلى ملوية، و برغواطة و مصمودة على الشاطئ الأطلسي لمراكش.. و لمطة في جنوبي مراكش. وتعيش لواتة في الشرق، بينما تعيش زناتة في بقاع متوازية على حدود الهضبة من طرابلس الى جبل عمود ثم ينتشرون تدريجياً ناحية المغرب الأوسط والأقصى.[4]

و في هذه المرحلة لابد لنا أن نوضح أثر الحقائق الجغرافية و السكانية لبلاد المغرب على أحواله الداخلية و الخارجية فقد انعكست بالفعل تلك الطبيعة الجغرافية القاسية و الخريطة السكانية المتباينة على أوضاع المغرب الداخلية و الخارجية منذ قرون خلت، فليس المغرب وحدة طبيعية و سكانية واحدة، و لكن ما هي إلا أشبه بالتنافر، مما سيحدث الاضطرابات و التمردات و العصيانات على أية سلطة حاكمة، و حتى في داخل الخريطة العرقية للمغرب ستحدث النزاعات بين القبائل المتعددة و المختلفة المشارب و التوجهات، و سيقف جزء من تلك القبائل مع تلك السلطة أو ذاك، و تقف غيرها من القبائل مع مناوئيه في السلطة لتشرذم خريطة بلاد المغرب كلما هدأت.

و في تلك الأجواء المتابينة طبيعياً و سكانياً من الضروري أن ينسحب ذلك على الحياة الإجتماعية و الإقتصادية و الثقافية و الفكرية، و لكن ما يهمنا هنا هو أثر تلك التباينات المحلية على أفكار بلاد المغرب من ناحية، و أثر ذلك العامل المحلي على العناصر الوافدة لبلاد المغرب، و هل سيزيد هذا العنصر الجديد من حدة الاختلافات والتوترات؟ أم سيساعد على وحدة بلاد المغرب في حبكة روحية و فكرية؟ و هو ما سنحاول

([1]) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص-ص13-16.

([2]) ابن خلدون، العبر، ج6، المصدر السابق، ص177.

([3]) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص-ص13-16.

([4]) دائر المعارف الإسلامية، مادة بربر.

أن نبرزه من خلال قدوم العرب و المسلمين إلى بلاد المغرب و الأثر في الاندماج من عدمه!!

- الفتح العربي الإسلامي وأثره على بلاد المغرب:

بدأ فتح العرب للمغرب في سنة 50هـ/670م في عهد معاوية بن أبي سفيان [1] و أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان[2] و غدت مدينة القيروان بحق كعبة للعلم و قامت بدور بارز في نشر الثقافة الإسلامية في المغرب، و يعتبر إنشاؤها بداية تاريخ الحضارة الإسلامية المغربية. فإلى جانب الجيوش والبعوث التي تخرج منها للغزو و الفتح، كان الفقهاء يخرجون منها لينتشروا في البلاد يعلمون أهلها اللغة العربية وينشرون بينهم الإسلام[3].

المهم أن استمرار الفتح لبلاد المغرب كان طيلة القرن الأول الهجري حتى نهايته، و لكن حدث ما كنا نبهنا إليه سابقاً من طرح الأسئلة أعلاه ألا و هو مقاومة تلك الشعوب البربرية للفتح الإسلامي، ومحاولة التمرد و العصيان والمواجهة تجاه تلك السلطة الجديدة، و هذه هي الطبيعة المغربية القبلية الجبلية منها والصحراوية، شعوباً تحيا على حرية الحركة في تنقلاتها سواءا برابط أو ضابط أو بدونه، فلم تتقبل بسرعة كالشعوب الأخرى المستقرة فكرة سيادة الدولة كشعوب المشرق أو كالشعب القبطي المصري.

و لكن عندما استجاب البربر للإسلام و تحمسوا له، اشتركوا في الجهاد، فقاموا بقيادة طارق بن زياد بفتح الأندلس و نشر الإسلام فيها. ولكن بعد فترة وجيزة أصبح المغرب قطراً إسلامياً ينفعل مع التفكير الإسلامي الذي شاع في العصر الأموي، فإذن بالفِرق الدينية التي ظهرت في ذلك العصر مثل الشيعة والخوارج تنتقل إلى بلاد المغرب، و أسس هؤلاء بعض الدول فيها، و كان لهم دورا واضحا في نشر الإسلام بين أهلها كذلك. فعرف المغرب في التاريخ الإسلامي بكثرة القلاقل، فالحياة القبلية لا تعرف الإستقرار السياسي و التبعية الشاملة

---

(1) عبد الحميد العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958 م، ص33.

(2) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب،ج1، حققه و راجعه: ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط3، بيروت، لبنان، 1983 م، ص34.

(3) الشيخ الأمين عوض الله، تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربى وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر فى " تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر، بغداد، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية 1984م.، ص26.

لوالٍ أو أمير، و لذلك استفدت من جهد الفاتحين نصيباً كبيراً، و ظلت بعد الفتح تستجيب لعوامل الإثارة و السخط. و مما ساعدها على ذلك–و خاصة في عهد الخلافة العباسي– بُعدها عن بغداد مقر الخلافة[1].

و جاء في مرحلة أخرى تالية من تاريخ بلاد المغرب غارات و غزوات بني هلال في النصف الأول من القرن الخامس الهجري، و التي يُهمنا منها أنها أثرت في هجرة القبائل البربرية جنوباً، و قد استمر أثر غارات بني هلال حتى القرن السادس عشر الميلادي[2]. و كلما زاد تقدم القبائل العربية الهلالية كلما زاد احتكاكها و إرغامها لقبائل البربر على الهجرة جنوباً، و كان لهذه القبائل البربرية المُهاجرة بعد حسن إسلامها دورا كبيرا في نشر الإسلام في السودان الغربي نتيجة لاحتكاكها بشعوبه. [3]

و ما نستثمره في خدمة بحثنا هو الأثر الحضاري لتدافع الهجرات الهلالية على بلدان المغرب الذي كان في جانب التعريب و نشر اللغة العربية أولاً، رغم سلبيات الهلاليين في مجالات أخرى في ذات المنطقة. و تدافع تلك الهجرات الهلالية نحو الجنوب أو الصحراء كان للبحث عن سُبل عيش جديدة بعد أن انقطعت بهم السبل شمالاً وضاقت عليهم أرزاقهم لكثرة أعدادهم و توافدهم المستمر، هذا بجانب طبيعتهم في حبهم للصحراء و حياة الترحال و الرعي الحيواني... و هذا ما أدى بهم إلى نشر الإسلام و لغته العربية في الصحراء و مناطق السودان الغربي... ومهد الطرق في ذات الوقت لقيام دولة إسلامية في المغرب والصحراء والسودان الغربي وهي دولة المرابطين...

و نعود مرة أخرى للأحوال السياسية في بلدان المغرب و ذلك للارتباط بين الشمال المغربي و الجنوب السوداني و دور الأول في نشر الإسلام و العلوم الإسلامية و منها الشرعية في تلك البقاع في وقت مبكر قبل بداية فترة بحثنا و هي القرن الخامس الهجري.

فظهرت في المغرب دول يدين بعضها لزعماء البربر، و البعض الآخر يدين لزعماء وفدوا من الخارج، و قد كان استقلال بعضها تاماً كالأدارسة. و حافظ بعضها على علاقته بمركز الخلافة في بغداد أو القاهرة، و بجانب تلك الدول ظهرت في تلك البلاد المغاربية

([1]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص27.

([2]) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص163؛ عبد الله علي علام، الدعوة الموحدية بالمغرب، رسالة ماجستير منشورة، جامعة الرباط، دار المعرفة، ط1، القاهرة، سنة1964، ص16.

([3]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص29.

حركات استقلالية قبلية لم تصل الى درجة تكوين الأسر الحاكمة، و يمكن القول أنه مع نهاية القرن الثامن الميلادي/الثاني الهجري توقف سلطان العباسيين في هذه البقاع، و لم يُعد يتجاوز حدود مصر الغربية. [1]

و أول الدول التي ظهرت بالشمال الإفريقي: الدولة الرستمية بالجزائر سنة 169هـ، و استمرت حتى سنة 296هـ، و عقب ظهورها قامت دولة الأدارسة (172-375هـ)، ثم دولة الأغالبة في إفريقية (184-296هـ) و في نهاية القرن الثالث الهجري ظهرت الدعوة الإسماعلية بالشمال الإفريقي، و سرعان ما انبثقت عنها الأسرة الفاطمية التي استولت على إفريقية (تونس) وأنهت حكم الأغالبة، ثم امتد سلطانها حتى شمل الشمال الإفريقي كله. [2] و لكن سرعان ما تمت حركة انشقاق و استقلال تام قام بها الأمراء المحليون و نشأت عن ذلك دولة آل زيري (362-543هـ) في صنهاجة بإفريقية (تونس) مع شريط من شرق بجاية بباقي الجزائر، و ظهرت دولة بني حفص بتونس (625-941هـ) و دولة بني زيان بتلمسان غرب الجزائر سنة (633-796هـ) [3].

و نستنتج من سرد قيام هذه الدول الإسلامية ببلدان المغرب الإسلامي منذ العقد الأول من النصف الثاني للقرن الثاني الهجري عدة ملاحظات عامة وخاصة:

فالملاحظة **الأولى** هي تلك الاختلافات السكانية و الجغرافية ببلدان المغرب زادت عليها الصراعات الفكرية و المذهبية و الإيديولوجية الآتية مع الإسلام من بلدان المشرق الإسلامي، مما أججها مرة أخرى و استفحلها، أما **الثانية** المرتبطة بالبحث فهي أن تلك الدول القائمة ببلدان المغرب و القائمة بأفكار مذهبية أو إيديولوجية كان لها فضل لا ننكره إطلاقاً في نشر الإسلام ولغته العربية في الصحراء و السودان الغربي ، و من ثم نشر العلوم الإسلامية و منها الشرعية، و حدث هذا بطريقتين أو أسلوبين مختلفين: فالأسلوب **الأول** بالطريقة السلمية الأولى الذاتية المُعتادة دون وصاية أو توجيه من أحد بتوافد التجار

([1]) أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج4:(الأندلس الإسلامية وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريقها-المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا: من مطلع الإسلام حتى الوقت الحاضر-السنوسية: مبادئها وتاريخها)، مكتبة النهضة المصرية، ط7، القاهرة، 1984 م، ص109.

([2]) نفســه، ص- ص 109 - 110.

([3]) زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ج1، دار الرائد العربي، بيروت-لبنان ،1980 م، ص65.

و الدعاة و المعلمين و العلماء إلى تلك المنطقة يحملون معهم دينهم و كتبهم و علومهم، أو بالطريقة السلمية الثانية عن طريق إقامة تلك الدول الإسلامية القابعة في بلاد المغرب علاقات سياسية و دبلوماسية و إقتصادية وفكرية مع مناطق و بلدان الصحراء و السودان الغربي، و بالتالي هنا تكون العلاقات والصلات بين الطرفين موجهة – و ربما تكون تحت وصاية أحد الحكام– ما بين الطرفين في نقل المؤثرات المغاربية العلمية و الفكرية و غيرها إلى الطرف الجنوبي من بلدان الصحراء والسودان الغربي. أما الأسلوب **الثاني:** فجاء نتيجة تزايد و استفحال الصراعات المذهبية و الإختلافات الفكرية المغاربية المحلية، و ما ينتج عنها من صراعات سياسية وعسكرية محتدمة أدت بهجرة التجار و العلماء و الدعاة و غيرهم من أهالي المغرب المُخالفين في المذهب إلى الشاطئ الآخر من الصحراء، مما كان له دوره في نشر الإسلام ولغته و علومه و منها الشرعية.

و هنا يجب علينا أن نتحدث عن المغرب الأقصى خاصة، و سنفرد له بعض الأوراق من البحث لسبب منطقي و واضح هو أن المغرب الأقصى الوحيد من ضمن بلدان المغرب الذي ظل رافعا للواء الدولة الإسلامية شاملةً مغربياً، و صحراوياً، و سودانياً، و أندلسياً، و صاحب النزعة الإستقلالية بخلاف الدول الأخرى ببلاد المغرب طوال تاريخه. هذا بجانب أن تعاقب فترات من دولة المرابطين إلى الموحدين إلى المرينيين إلى السعديين هي الفترة الزمنية الموجهه لنا لدراسة بحثنا.

تعاقبت على المغرب الأقصى عدة دول كان لها دورا بارزا في نشر الإسلام و الحضارة الإسلامية في المغرب و الأندلس و السودان الغربي، و من هذه الدول:

1–**الأدارسة:** قامت دولة الأدارسة على أكتاف بربر المغرب الأقصى الذين بايعوا إدريس بن عبدالله وآووه ونصروه، و قد وحد الأدارسة البلاد و أقاموا بها حكومة مستقرة و أسَّسوا مدينة فاس، كما قضوا على فتنة الخوارج، و نشروا الإسلام، و هيؤوا للبلاد حياة هادئة، و غدت مدينة فاس مركزاً مهماً لنشر الثقافة الإسلامية بين البربر، و طبعوا البلاد بطابع إسلامي حضاري مغربي.

و قد امتد حكم الأدارسة من السوس الأقصى الى مدينة وهران.. و حكموا قرنين و ثلاث سنين (172–375هـ) و بذلوا جهوداً واضحة في نشر الإسلام في وسط البربر.

و قد أسلم البربر الذين يعيشون جنوباً حتى مشارف السنغال، و تأكد إسلام هذه القبائل على وجه الخصوص منذ القرن الخامس الهجري فصاعداً [1] .

و تبدو أهمية الجهود التي قام بها الأدارسة في هذه المرحلة من مراحل تاريخهم أن اعتناق أهل اللثام الإسلام ساعد على قيام حلف قوي يجمع الملثمين جميعهم بزعامة لمتونة، و كان هذا التوحيد في ظل الإسلام نذيرا موجها من التوسع صوب الجنوب لنشر الإسلام بين القبائل الزنجية بالسودان الغربي.

و هكذا برز دور الأدارسة وتأثيرهم في إسلام المنطقة وانتقاله الى مناطق خارج حدود إقليمهم، إذ نجح الأدارسة في دفع الإسلام الى مساحات واسعة من شمال المغرب وجنوبه، و بذلك كانت جهودهم في هداية المغرب الأقصى إلى الإسلام أعظم من أعمال العرب الفاتحين[2]. و عندما انحل سلطان الأدارسة، انتقل السلطان إلى أيدي القبائل و أحياناً إلى أيدي أفراد من أسرة الأدارسة تزعموا الحركات الإنفصالية و ظلت الأحوال كذلك حتى جاء المرابطون فأنهوا الحكم القبلي. [3]

و لكن ما يهمنا هنا رغم أن فترة دولة الأدارسة – و التي لم يبدأ الربع الأخير من القرن الرابع الهجري إلا وقد انتهت – خارجة عن نطاق فترة بحث دراستنا، و نذكر أن تلك الدولة قامت بدور بارز في محاولات لها في التوغل والتسرب نحو الصحراء و بلاد السودان الغربي، و نقلت الإسلام و معارفه و علومه إلى تلك البقاع، علاوة على أن تلك الدولة المغربية و بعد فترة ستستلم منها لواء نشر الإسلام جنوباً دولة المرابطين وهي التي تدخل في صميم بحثنا.

2- **المرابطون** (448-540هـ):

قامت عدة تحالفات قبلية بين قبائل صنهاجة الجنوب (لمتونة، وجدالة، ومسوفة) بفضل وزعامة قبيلة لمتونة، بغرض و بدافع المُحافظة على تجارة السودان إلى المغرب و مدافعة ملك غانة في الجنوب. و استمرت الزعامة و الرئاسة للمتونة، و لكن سرعان ما تحولت عنها إلى قبيلة جدالة التي أصبحت زعيمة الحلف القبلي، و قد قدر لجدالة هذه القبيلة القوية الفتية أن تبني الحركة الدينية التي انتهت بقيام دولة المرابطين. ويبدو أن يحي

([1]) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص212.

([2]) نفسه، ص278.

([3]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص31.

بن إبراهيم، زعيم قبيلة جدالة، قد ارتاد أسواق المغرب الأقصى متاجراً أو زائراً، فأحس بالبُون الشاسع بين: بيئة المغرب الأقصى الزاخرة بالحياة العقلية الرفيعة، و بيئة الصحراء التي يظلها الجهل، فآثر أن يأخذ عالماً يعلم أفراد قبيلته، فقصد القيروان و انتدب له أبو عمران الفاسي: الشيخ عبد الله بن ياسين. [1].

لقد قام عبد الله بن ياسين بنشر الإسلام في صفوف البربر، و مع مرور الزمن تكوّنت حول الشيخ عبدالله بن ياسين جماعة من أتباعه، و أخذت هذه الجماعة في الزيادة، و أخيراً قاد أتباعه في سنة 1042م/ 434هـ الذين سماهم بالمرابطين و هاجم القبائل المجاورة و أرغمهم على قبول الإسلام[2].

و تمخض عن إسلام قبائل لمتونة و قبولهم لدعوة عبد الله بن ياسين، قيام تحالف قوي ضمَّ جميع قبائل الملثمين، و انتشرت حركة المرابطين و توسَّعت فشملت كل المغرب الأقصى، و بدأت تجاهد لنشر الإسلام في السودان والأندلس[3].

و قد اعتنق زعماء لمتونة وجدالة الإسلام على مذهب الإمام مالك، و كان للجهاد في رؤية عبد الله بن ياسين هدفان: **أولهما:** فتح بلاد السودان و تحويل أهلها الى الإسلام، و **ثانيهما:** فرض مذهب الإمام مالك على شعوب إفريقيا الشمالية. [4]

و استطاع المرابطون بقيادة عبد الله بن ياسين و يحي بن عمر دخول سلجماسة عام 445هـ إلا أن يحي بن عمر قُتل في أثناء قتال زناتة، فخلفه أبو بكر بن عمر. و لكن تدعمت جيوش المرابطين بانضمام جزولة و لمطة و قاد يوسف بن تاشفين ابن عم أبي بكر بن عمر الجيوش المرابطية و استطاع استرجاع الواحات المغربية. ثم اصطدم المرابطون منذ عام 450هـ ببرغواطة، و قُتل عبدالله بن ياسين في إحدى المعارك.[5]

([1]) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص-ص101-102، 104-105.

([2]) توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، تر و تع: د. حسن إبراهيم حسن و د.عبد المجيد عابدين و إسماعيل النحراوي، دار النهضة المصرية، ط1، القاهرة، 1947 م، ص-ص 342-353.

([3]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص33.

([4]) حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام والعروبة في ما يلي الصحراء الكبرى: شرقي القارة الإفريقية وغربيها، معهد الدراسات العربية العالية، 1957 م، القاهرة، ص57.

([5]) عبد العزيز سالم، المرجع السابق ، ص234.

و في سنة 454هـ/1062م عمد يوسف بن تاشفين إلى تأسيس عاصمة جديدة للمرابطين بدلاً من أغمات لتكون مركزاً لقواته في جنوب المغرب و سماها مراكش.[1]

و قد استطاع المرابطون أن يمدوا نفوذهم فاستولوا على الأندلس و نشروا الإسلام في السودان الغربي، و نجح المرابطون بزعامة قبيلة جدالة في القرن الحادي عشر الميلادي في إزالة أكبر عقبة كانت تحول دون تقدم الإسلام جنوباً فاضمحلت على أيديهم مملكة غانة الوثنية، ثم اعتنق ملوكها الإسلام وأخلصوا له، و عملوا على نشره بوسائلهم، و تحولت غالبية شعب غانة إلى الإسلام، فاستطاع الدعاة المرابطون أن ينشروا الإسلام على ضفاف السنغال و النيجر و تمَّ في عهد المرابطين تأسيس مدينة تنبكت، و امتدَّ الإسلام إلى جني، و غدت هاتان المدينتان السودنيتان أعظم مركزين للثقافة الإسلامية. [2]

و قد ألف المرابطون دولة بربرية مغربية كبرى لا يحكمها مشارقة كما كان الحال في العهود السابقة، و يرجع إليهم الفضل في تكوين الوحدة السياسية للمغرب الأقصى، و التي لم تكن قائمة حتى ظهور المرابطين. [3] بل و لأول مرة في التاريخ المغاربي تتوحد بلاد المغرب حتى حدود الجزئر شرقاً و إلى الأطلنطي غرباً و إلى الأندلس شمالاً و إلى الصحراء و أجزاء من السودان الغربي جنوباً.

و من خلال تلك الوحدة يتضح لنا أولاً سهولة سير حركات نقل الإسلام و لغته العربية و علومه خاصة جنوباً، فحمل المرابطون علومهم و كتبهم المالكية و ما ينبع عنها من علومها الإسلامية الشرعية معهم جنوباً كعلم الفقه، و التفسير، و الحديث، و غيرها من العلوم النقلية التي استفادت منها الطبقات المحلية السودانية جم استفادة.

و ننتقل الآن إلى دولة أخرى مذهبية قامت على أفكار عقدية أيديولوجية قامت على أنقاض دولة المرابطين ألا و هي: **دولة الموحدين (524هـ)**: قامت بزعامة و أفكار محمد بن تومرت، فنشأ الأخير، مؤسس حركة الموحدين، نشأة كريمة، فحفظ القرآن و قضى أحد

([1]) عبد العزيز سالم، المرجع السابق ، ص135.

([2]) مصطفى مسعد، الإسلام وحركة الفولان الإصلاحية في غرب افريقيا، مجلة جامعة أم درمان الإسلامية، الع الأول، 1388هـ، ص- ص 121 - 150.

([3]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص34.

عشر عاماً يجوب عواصم العالم الإسلامي سعياً وراء العلوم الإسلامية، و أصله من قبيلة مصمودة البربرية و من أبناء جبل السوس في الجنوب الغربي من مراكش الحالية. [1]

تحمس ابن تومرت لكل ما يعارض المذهب المالكي لتمسك المرابطين به، ونادى بمبدأ "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" و العودة إلى القرآن و السنة و فتح باب الجهاد، و بدأ ابن تومرت بنشر تعاليمه بين البربر، فأقبل عليه الأتباع من سائر قبائل المغرب وبايعوه. و في ملالة اختار ابن تومرت خليفته، و هو عبد المؤمن بن علي، و استقر بتنمال و جعلها دار هجرته، و سُمي أتباعه بالموحدين لأنهم اتحدوا على الإيمان بالله. [2]

و لما كان سنة 517هـ جهز جيشاً عظيماً من المصامدة وقال لهم: "**اقصدوا هؤلاء المارقين المُبدلين الذين اتسموا بالمرابطين، فادعوهم الى امانة المنكر، و إحياء المعروف، و إزالة البدع، و الإقرار بالإمام المهدي المعصوم، فان أجابوكم فهم اخوانكم، لهم ما لكم، و عليهم ما عليكم، و ان لم يفعلوا فقاتلوهم، فقد أباحت السنة قتالهم.**" [3]

و نستنتج من عبارة ابن تومرت أنهم كانوا يعتبرون المرابطين خارجين على الكتاب و السنة و أن كثيراً من البدع و المنكرات كانت سائدة في عصرهم كما يصرح ابن تومرت في عبارته بأنه المهدي المعصوم الذي تجب طاعته. [4]

توفي ابن تومرت سنة 524هـ و خلفه عبد المؤمن بن علي على إمارة الموحدين[5]. و في عهده تم الانتصار الكامل على المرابطين، و تأسيس دولة الموحدين بعد فتح مراكش سنة 541هـ[6]، و قد فتح الموحدون الأندلس بعد أن خلع أهلها طاعة المرابطين و كونوا إمبراطورية تشمل المغرب و الأندلس، و كانت لهم أساطيل مرهوبة الجانب. و لكن سرعان ما بدأ الضعف يدبّ في جسد الدولة عقب الهزيمة الساحقة التي نزلت بالموحدين في موقعة

([1]) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص245؛ كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، 1968، ص191.

([2]) عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص-ص144-245.

([3]) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص-ص259-260.

([4]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص35.

([5]) عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص262.

([6]) زامباور، المرجع السابق، ص43 ؛ عبد العزيز سالم،المغرب الكبير،ج2، مؤسسة الشباب الجامعية للطباعة و للنشر و التوزيع، الإسكندرية، 1999 م، ص786.

حصن العقاب بالأندلس سنة 609 هـ ، و علا سلطان الوزراء، فأدى ذلك إلى تفكك الدولة و انهيارها وظهور بني مرين في المسرح السياسي.[1]

و لكن ما يُهمنا هنا هو دور الموحدين الجنوبي في السودان الغربي عبر الصحراء. و كل ما نستطيع أن نقوله عن فترة حكم الموحدين هو أن الدولة كان وجهها الأساسي شمالي أكثر منه جنوبي، و بحري تجاه الأندلس أكثر منه صحراوي تجاه السودان الغربي، و لكن لا يمنع هذا أن السودان الغربي نال بعض اهتماماتهم الإقتصادية نتيجة لمنابع الثروة و الموارد الجنوبية، و لا يمنع هذا أيضاً من الحركات التلقائية للتجارة و نقل حركة الأفكار و تعاليم الدين وعلومه، و التي تنساب و تتسرب طبيعياً دون مؤثرا أو موجها سياسيا، هذا علاوة أن المرابطين قد فعلوا في السودان الغربي و مهدوا الطرق الإسلامية أقصى ما ستعمل أية دولة إسلامية أخرى، فلا جديد لدولة الموحدين لكي يقدموه و خاصة بعد ترسيخ المذهب المالكي في بلاد الصحراء و السودان، هذا بجانب أن أصبحت منطقة السودان الغربي في ذلك الوقت ذات دول وممالك وسلاطين إسلامية راسخة معروفة للجميع في العالم الإسلامي.

دولة بن مرين (592–957هـ)**:** موطن بني مرين هو جبل زناتة، و هم قوم أشدَّاء يعيشون حياة قبلية بين فجيج وسجلماسة، و يميلون للقفار و الصحاري و الصيد و الغارات. دعاهم المرابطون للاشتراك معهم في ردّ عدوان الفرنجة على المسلمين في الأندلس فلبّوا الدعوة و كانت لهم صولة في هذه الهجمات الناجحة.[2]

عندما بدأ الضعف يظهر على مُلك الموحدين بدأ بنو مرين يقومون بغزوات خاطفة على ما يجاورهم من بلدان الموحدين، فبدأ الصراع بين القوتين و كان بنو مرين تحت قيادة زعيمهم عبد الحق بن محيو، و قد استطاعوا تحت قيادته تحقيق النصر على الموحدين. و عندما تولى أبو بكر عبد الحق زعاماتهم سنة 642هـ بدأ شأن بني مرين يعلو، فقد فتح مكناسة سنة 646هـ ، ثم بايعه أهل فاس فأصبحت فاس عاصمة للدولة الجديدة، ثم جاء بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق الذي استطاع الاستيلاء على مراكش عاصمة الموحدين سنة 667هـ، و على سجلماسة سنة 672هـ، وبهذا دانت المغرب لبني مرين [3].

([1]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص36.

([2]) أحمد شلبي، المرجع السابق، ص143.

([3]) نفسه، ص 144؛ الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص36 .

و في عهد أبي سعيد عثمان استطاع بنو مرين الاستيلاء على المغرب الأوسط، و بعد وفاته خلفه ابنه أبو الحسن على بن عثمان الذي امتلك تلمسان سنة 737هـ و اتصل ملكه بين برقة الى السوس الأقصى والمحيط الأطلسي. بعد ذلك ضعفت دولة بني مرين و تولى الحكم سلاطين ضعاف، ففقدت الدولة المرينية المغرب الأوسط، و كان استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة سنة 818هـ إنذاراً بتدهور دولة بني مرين.

و هكذا انقلب الوضع بالنسبة للمسلمين وتحولت الحرب المقدسة من أرض إسبانيا إلى أرض المغرب و وجد أولوا الأمر عند نهاية القرن الخامس عشر الميلادي أنهم يواجهون خطرين: من الشمال و الشرق، و يتمثل هذان الخطران في الإسبان الذين استولوا على غرناطة آخر معقل إسلامي بالأندلس سنة 1491م/ 897هـ، و الأتراك العثمانيين الذين فتحوا مصر سنة 1517م/923هـ ، و قضوا على أسرة الحفصيين في تونس سنة 1520م/927هـ [1]، و استطاع البرتغاليون الاستيلاء على قسم كبير من ساحل المغرب و احتلوا مدنا: أصيلا، و صافي، و أزمور، و سبتة، و طنجة، و القصر الصغير، و ارزيلة.

و هكذا اختلت دولة بني مرين و اقتصرت أملاكها على منطقة فاس بينما خرجت عن طاعتهم مراكش، و تافليلت، و درعة و السوس، و الريف و حكمت هذه المدن أسرة جديدة يُعرف سلاطينها بالأشراف السعديين.[2]

و لكن ما نريد أن نشير إليه هنا أن دور الدولة المرينية اتجاه الجنوب الصحراوي و السوداني كان واضحا بالنسبة لنا في بحثنا. فقد تطورت العلاقات و الصلات ما بين المغرب و السودان الغربي في عهد الدولة المرينية من إطار العلاقات ذاتية الدفع إلى إطار العلاقات الرسمية على مستوى الدول الإسلامية، و هذا يتضح من شكل الزيارات المتبادلة و الوفود الرسمية من كلا الجانبين و التنسيق المشترك و الاتصالات الحكومية آنذاك.

دولة الأشراف السعديين: لما كان السلطان أبو عبد الله الوطاسي أميراً بفاس ظهر في درعة رجل شريف هو عبدالله محمد القائم، و رأى ما وصل إليه ملك المغرب من الانحطاط و الضعف. و صار يحض الناس على القيام بأمور دينهم. و قام ولداه أحمد و محمد

([1]) عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، المرجع السابق، ص163.

([2]) نفسه، ص164.

باستئذان الملك أبي عبد الله الوطاس في حض الناس على جهاد الكفار فأذن لهما و أمدهما بالمال والعتاد، فبدأ يجوبان بلاد المغرب، و يحضان الناس، فذاع صيتهما بينهم، و عندما قويت شوكتهما، أخذ الأب وولداه في نشر معايب الدولة الوطاسية و الدعوة لأنفسهم فأيدتهم القبائل و أعلنوا العصيان على السلطان أبي عبد الله الوطاسي.(1)

و نهض هؤلاء الأشراف إلى تارودانت فاستولوا عليها و حصنوها، ثم دخلوا مراكش واستولوا عليها، و انقسم سلطان المغرب إلى قسمين فاستولى الأشراف السعديون بزعامة أبي عبد الله القائم على مراكش، بينما كانت فاس تابعة للوطاسيين. ثم اشتبك الأشراف السعديون بعد ذلك مع الوطاسيين و هزموهم و خلف أبا عبد الله محمداً القائم، ابنه أحمد الأعرج على حكم مراكش(2). و ظل حال الدولة السعدية الناشئة في خلافات و صراعات بين الأبناء حتى وحدتهم إلى حد ما آلت إليه نتائج موقعة وادي المخازن...ثم بعدها بفترة وصول أحمد المنصور الذهبي لحكم الدولة السعدية و هو الذي يُهمنا لما فعله من هدم وإنهاء الدولة السنغائية في أواخر القرن السادس عشر الميلادي.

المبحث الخامس: الصحراء في الصلات المغربية السودانية:

شكلت الصحراء القنطرة الفعالة التي ربطت بلاد السودان بالعالم الخارجي طوال العصر الوسيط، فمن خلالها و عبرها كانت تمر السلع و الأفكار، و نظرا لأهمية دورها يستحيل علينا أن نتتبع تاريخ بلاد السودان الغربي من الناحية الإقتصادية دون ربطه بها.(3) و في هذه الحالة فإن أهمية الصحراء تكمن في أنها كانت عامل وصل بين بلاد السودان و شمالي إفريقية و مصر. ونسجل بدءاً أن الدراسات التاريخية منذ نهاية القرن التاسع عشر الميلادى لدى المستشرقين تعتقد عكس الإستنتاج المتقدم، ذلك أن المستعمِرين فى أثناء تمهيدهم للصحراء أحسوا بخطورة المعطيات المناخية، و الطبيعية للمنطقة.

---

(1) الناصري(أبو العباس أحمد بن خالد الناصري)، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج5: الدولة السعدية، حققه: محمد الناصري و جعفر الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، المملكة المغربية، 1954 م، ص- ص 8 – 10.

(2) نفسه، ص-ص11-12.

(3) الوجود الحضارى الاقتصادى فى هذه المنطقة أكدته المحطات التجارية الأسواق الكبرى التى انتشرت عبر الصحراء إضافة إلى التجمعات البشرية الكبرى التى انتظمت فى شكل قوافل تجارية.

CF: Hopklns (AS), "An economic history of west Africa" London, 1973, p. 79; Gaudio (A), "les civilisations duSahara" verviers Marabaut universite, ed Gerard 8 C^{ie} 1976 pp. 45 – 61.

و من ثم تولد لدى الباحثين المنتمين للإدارة الإستعمارية قناعة بصعوبة اجتياز الصحراء، بيد أنهم حينما اطلعوا على المصادر العربية، وجدوها تتحدث عن التجارة القافلية فيما بين ضفتي الصحراء، وهكذا أخذت قناعة الباحثين تميل تدريجيا إلى الرأي الآخر إلى أن ترسخ لديهم فى منتصف هذا القرن الرأي القائل بأن الصحراء لم تعرقل بشكل خطير مثلما تصوروا فى بداية أمرهم علاقات بلاد السودان مع بلاد المغرب ومصر خلال العصر الوسيط[1]. و فى خلال العقود الثلاثة الأخيرة، أصبح بعض الباحثين يتحدث عن علاقات المغرب ببلاد السودان كما لو أن الصحراء تقرب بينهما، وتسهل علاقاتهما.

و هكذا خرجت أفكارا إقتصادية عن ملايين العبيد و ملايين الأطنان من السلع التى كانت تمر بين ضفتي الصحراء، و الغريب فى الأمر أنه لو أخذنا بتلك الأرقام التى تطرحها الدراسات الإقتصادية منها على الخصوص، فإن القناعة التي سنخرج بها هي أن تلك السلع كان ينقلها فيما بين بلاد المغرب و بلاد السودان الغربى شياطين الصحراء الذين تحدث عنهم ابن بطوطة، و بعبارة أوضح كانت تلك السلع تذهب وحدها دون أن ينقلها إنسان[2]. فعندما ننظر جيداً إلى أقوال الجغرافيين و الرحالة الذين اجتازوا الصحراء، عندئذ يمكننا أن نُقيم بقوة الإستنتاجات الإقتصادية المتعلقة بتاريخ بلاد السودان الغربى، و شبكة العلاقات الإقتصادية والتجارية خلال حقبة كل من القرنين الرابع عشر و الخامس عشر الميلاديين.

و في ذلك يقول الشريف الإدريسى(ت567هـ/1166م) عن "صحراء" نيسر التى كان يمر بها تجار سجلماسة القاصدون الى مملكة غانة: **"(و هي) 14 يوما، لا يوجد فيها ماء (..)، و فى الصحراء المعروفة بصحراء نيسر حيات كثيرة طوال القدود، غلاظ الأجسام**

---

(1) يمكننا أن نأخذ من كلام موريس دولافوس عن الصحراء ودورها فى علاقات بلاد السودان مع مصر وشمال أفريقيا موقف مغاير بعد اطلاعه على المصادر العربية أصبح يؤمن بأنها لم تعرقل التواصل بين الشمال والجنوب بشكل خطر.
Delafosse M."les Relations du Maroc avec de soudan à travers les Ages " Hisperis, T IV 19.

(2) يقدر موني عدد العبيد الذين كانت تجلبهم أسواق مصر و المغرب من بلاد السودان طيلة العصر الوسيط بـ 20.000 سنويا ونعتقد أن موني فى تقديره يحاول اقناعنا أن تجارة الرقيق البرتغالية مع بلاد السودان خلال القرنين 9 و 10هـ/ 15 و 16م هى امتداد لتجارة الرقيق الإسلامية مع المنطقة .
و انظر كذلك: ابراهيم حركات، تجارة الرق بإفريقيا من خلال الموقفين العربى والأوربى (مسألة الرق فى إفريقيا)، المنطقة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1989 م، ص-ص 71- 72.
Abdelaziz Alaoui, le Magheeb et le commerce transsaharien (milieu du X10 – milieu du XIvo Siecle) Contribution a l'histoire econonique, sociele et politique du Maroc medieval, Bordeau 111, these 3. Cycle en Etudes Arabes et Islamiques 1983, P 96.

[1] (..). و هذه الصحراء يسلكها المسافرون فى زمان الخريف [2]، وصفة السير بها أنهم يوقرون جمالهم فى السحر الأخير، و يمشون إلى أن تطلع الشمس، و يكثر نورها فى الجو، ويشتد الحر على الأرض، فيحطون أحمالهم، و يقيدون جمالهم، و يعرشون أمتعتهم، و يخيمون على أنفسهم ظلالا تكنهم من حر الهجير، و سموم القائلة (....). هكذا سفر التجار الداخلين إلى بلاد السودان على هذا الترتيب لا يفارقونه، لأن الشمس تقتل بحرها من تعرض للمشى فى القائلة عند شدة القيظ، و حرارة الأرض..."[3].

و يسجل لنا ابن بطوطة (ت 779هـ/1377م) بعض ذكرياته عن الطريق الصحراوي الذي أخذه من سجلماسة إلى منطقة ولاته (إيوالاتن) بقوله: "**و منها(يقصد تغازى) يرفع الماء لدخول الصحراء التى بعدها، وهي مسيرة عشرة لا ماء فيها إلا فى النادر(..) وكنا فى تلك الأيام نتقدم أمام القافلة، فإذا وجدنا مكانا يصلح للرعي رعينا الدواب به، ولم نزل كذلك حتى ضاع فى الصحراء رجل يعرف بابن زيري، فلم أتقدم بعد ذلك ولا تأخرت [4] (..)، و ربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل إيوالاتن بالقافلة، فيهلك أهلها أو الكثير منهم (بسبب قلة الماء)، و كنا نرحل بعد صلاة العصر، و نسري الليل كله، وننزل عند الصباح، وتأتي الرجال من مسوفة وبردامة، وغيرهم بأحمال الماء للبيع.**"[5]

([1]) عن اخطار الرحلة الاقتصادية عبر الصحراء انظر:

Lewcki (T) ،Op. cit.p. 43.

و: ابن سعيد، بسط الأرض في الطول و العرض، معهد مولاي الحسن، تطوان- المملكة المغربية، 1958 م، ص- ص 112- 114 ؛ ابن بطوطة ، المصدر السابق، جـ 2، ص 775 ؛ ليو الإفريقى، المصدر السابق، ص 148؛ الشنقيطى، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، القاهرة ، 1958 م، ص 53.

([2]) كما يذكر الإدريسى، المصدر السابق، ص 32 (فإن قلة شدة الحر هى سبب سفر التجار فى فصل الخريف) بيد أن هناك سبب آخر ذكره ليو الإفريقى، المصدر السابق، ص 81 و يتمثل فى كون الصحراء خلال فصل الخريف تشهد تساقط للمطر ليسمح بظهور المراع فتستغلها القوافل الصحراوية فى ري الإبل.

([3]) الادريسى، المصدر السابق، ص- ص 31 - 32 ؛ ابن سعيد، المصدر السابق ، ص 113.

([4]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص56، حققه وقدم له علي المنتصر الكتانى فى جزأين ؛ ويتفق ليو الإفريقى مع ابن بطوطة حيث يقول عن رحلته من ولاته إلى القاهرة: كنا تارة نضل الطريق إلى مكان الماء بسبب خطأ الدليل (التكشيف) فنضطر إلى ادخال الماء لنكتفي منه طوال عشرة أيام باستعمال ما كنا أعددناه لخمسة أيام، انظر:" وصف إفريقيا، تر عن الفرنسية محمد حجى ، ج1، ط بيروت، 1983 م، ص 77.

([5]) انظر قصة التاجر الذى اشترى بصحراء أزواد قدحا من الماء بعشرة آلاف مثقال وعلى الرغم من ذلك مات مع الذي باعه إياه، وصف إفريقيا، ج1 ، ص 76 ؛ ابن بطوطة، تحفة النظار، ج 2 ، ص - ص 773 - 776.

و يذكر ليو الإفريقى(ت 1552م) عن "صحراء صنهاجة"، أن الماء بها لا يوجد إلا على مسافة كل مائة ميل أومئتي ميل، و أنه لا يتوافر إلا في آبار عميقة جداً، و فوق ذلك مالح و مر، و لهذه الأسباب كثيراً ما يموت الناس عطشا فى هذه الصحراء من شدة الحر[1].

و يضيف جغرافيونا عن آبار الطرق المؤدية من مدينة سجلماسة إلى تنبكت، أن بعض تلك الآبار المكسوة في داخلها بجلد الإبل، أو المبنية بعظامها، قد لا يعثر عليها التجار في غير فصل الشتاء "لأنه تهب في غير هذا الفصل رياح قبلية تحمل معها من الرمال ما يغطي الآبار، حتى أن من يذهب مؤملاً أن يجد الماء فى الأماكن المعتادة لا يعثر على الآبار التي غطتها الرمال على رسم ولا أثر، ويكون مضطراً أن يموت عطشاً[2].

و حينما نقف على هذه الشهادات، ونضعها نصب أعينا، سوف نتريث كثيراً قبل أن نطلق العنان لإستنتاجات تقديرية حول كمية السلع الواردة، و الصادرة فيما بين ضفتي الصحراء، و عدد العبيد المجلوبين من بلاد السودان[3].

و سنلتزم بالكثير من الحيطة قبل أن نعلن عن إخفاق الإسلام فى احتواء الذهنية السودانية، و غير ذلك من الإستنتاجات التقديرية السطحية.

إن الفرد فى بلاد المغرب خلال العصر الوسيط، سواء كان تاجراً، أم فقيها، أم مسافراً عادياً كان يفكر قبل أن يقرر اجتياز الصحراء، و عندما يتخذ القرار يتهيأ للسفر طوال عدة أشهر حتى يتسنى له اتخاذ جميع الاحتياطات اللازمة لسفره: شراء الإبل، وترويضها على

([1]) ليو الإفريقى، وصف إفريقيا، ج1، ص-ص 144- 149 .و الميل (ألف ذراع عند العرب وألف خطوة عند الرومان) يساوى نحو 1.340 ؛ الهادى المبروك الدالي، المرجع سابق، ص 336.

([2]) ليو الإفريقى، ج 1، المصدر السابق، ص 76. " و هذه الرياح يمكن أن تغطي مدينة بأكملها ويمكنها أن تلحق أضرار بالغة بالقوافل" ؛ الإدريسى، المصدر السابق، ص- ص 35 - 42 ، كما يمكنها أن تبخر الماء الذي تستعين به القافلة على الطريق، و حينئذ يضطر أصحاب القافلة إلى نحر بعض جمالهم لاستخراج الماء من بطونها بهدف استهلاكه وذلك فى انتظار العثور على بئر أو يهلك المسافرون عطشاً ؛ ليو الإفريقي، المصدر السابق، ص 76 . وقارن مع أقوال ابن بطوطه عن خطورة هذه الرياح وشياطين الصحراء، تحفة النظار، ج 2 ، ص 77.

Letheliux (J) "Ouargla cite saharienne – des Origines au debut du Xxe siecle" librairie orientaliste paul Geuthner, SA 1984, p,p 47, 82.

([3]) الهادى المبروك الدالي، مملكة مالي الإسلامية و علاقتها مع إهمال مراكز بالشمال الإفريقى من القرن 13 إلى15 م، ط2، ليبيا، 1999 م ، ص 76 وما بعدها .

العطش، و توفير المال اللازم لقضاء الحاجات الخاصة، ولدليل القافلة، ولشراء الماء فى الصحراء و للظروف الطارئة مثل مهلك الراحلة فى الطريق[1] الخ.

و رغم اتخاذ جميع هذه الاحتياطات الدقيقة، تبقى إمكانية الهلاك فى هذه الصحراء الهائلة أثناء السفر واردة، و حظوظها قوية، ذلك أنه إذا كان دليل القافلة بخبرته و تجربته الطويلة مؤهلا لأن يضيع فى الصحراء كما أخبرنا الرحالة ابن بطوطة، و أكده من بعده ليو الإفريقى، فماذا يمكن أن ينتظر المسافر العادي، أو حتى أولئك التجار المعتادين على سلك الطرق الصحراوية [2].

لقد آن لنا الآن أن نتحسس الحوافز النفسية العميقة التى دفعت ابن بطوطة أثناء توقفه بإحدى محطات الصحراء للتعبير عن رغبته فى العودة إلى المغرب، و هو بعد لم يصل إلى بلاد السودان. و يحدونا إحساس قوي بأن رحالتنا حينما عَبَّرَ عن غربته تلك، فإنه أدرك بعد مجاهدته لجُل الطريق الصحراوي أن لا شيء يمكن أن يغري الإنسان باجتياز الصحراء حتى و لو كان ذهب بلاد السودان فى انتظاره[3]. و ليو الإفريقى الذي مر بنفس التجربة بعد قرابة قرن و نصف من رحلة ابن بطوطة إلى بلاد السودان، يشارك رحالتنا فى إحساسه ذلك، حيث عبر لنا عن حسرة تدعونا للإعتقاد في أن الرجل كان يتمنى لو أنه لم يقدم على اجتياز الصحراء.[4]

لقد كانت لدى المسافر خلال القرنين الرابع عشر و الخامس عشر قناعة عميقة بأن اجتيازه للصحراء لن يكون بأية حال رحلة نزهة، كما هو الشأن بالنسبة للمسافر من فاس

([1]) انظر كيفية استعداد ابن بطوطة قبل اقدامه على اجتياز الصحراء فى طريقه إلى مملكة مالي: تحفة النظار، المصدر السابق ، ج 2 ، المكتبة التجارية الكبرى، ص-ص 772- 773.

([2]) من المخاطر التي تأتي على ذكرها المصادر الوسيطة أودية الرمال، حيث يمكن أن يغوص فيها الراحل براحلته وحينئذ يهلك ما لم ينقذه أحد، انظر: الشنقيطى، الوسيط، المصدر السابق، ص447 . وهناك مشاكل بشرية فى أثناء الرحلة الصحراوية مثل أعداء قطاع الطرق على القوافل وقد برز هذا بشكل خطير بعد القرن 8هـ/ 14م ،انظر: ليو الإفريقى، المصدر السابق، ج 1 ، ص 77 . ج 2 ، ص 112 ؛ وانظر: محمد زنيبر، تجارة القوافل فى المغرب فى تجارة القوافل ودورها الحضارى حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد ، 1404هـ/ 1984م ، ص 1621.

([3]) المحطة الصحراوية المقصودة هى ولاته انظر: ابن بطوطه، المصدر السابق، ج 2 ،ص 776.

([4]) كانت رحلة ليو الإفريقى إلى بلاد السودان عام 917 هـ / 1511م والعبارة التى تدلنا على حسرته تلك جاء فيها " وإذا أردنا أن نذكر تفاصيل سفرة واحدة من تلك التي قمنا بها في الصحراء فلابد أن نكتب مجلداً من مائة صفحة. وصف إفريقيا، ج 1 ، ص 77.

إلى سجلماسة، أو تنبكت. حقيقة إن إحساسات مرهفة تجاه الصحراء عند ابن بطوطه وليو الإفريقى قد لا نجدها بنفس الحدة عند تجار الصحراء، أو أهل أغمات، و تاهرت، أو بصفة عامة عند القبائل البربرية و العربية المتحركة على الضفة الشمالية للصحراء. بيد أن ذلك لا يعني أنهم سيستهينون بمصاعب الصحراء و أهوالها، و التقاليد القديمة التى أرسوها، و تواضعوا عليها فى اجتيازها، تدلنا على مدى وعيهم بمخاطرها وعدم استخفافهم بأهوالها[1].

و لا شك أن المقبل على السفر إلى بلاد السودان مرورا بالصحراء لابد و أن تحفزه إغراءات قوِّية حتى يتمكن من الإقبال على خوض مثل هذه المغامرة، و لو لم يكن الملح يقايض وزنا بوزن مع ذهب السودان[2]، والمعروف بالتجارة الصامتة[3]، و لا غرو أن تصبح الصحراء عند أهل المغرب حكاماً ورعية مجالاً للتحول الاقتصاديو الاجتماعي[4].

و خلاصة القول نعتقد أن تناول موضوع مصادر التاريخ الإقتصادي للسودان الغربي يحتم علينا أن نقيم الصحراء و دورها الإقتصادى فى هذه المرحلة.

- مدلول مصطلح الصحراء في المصادر:

كما رأينا، فإن نصوص الجغرافيين و الرحالة تدلنا على معرفتهم بالصحراء، و معطياتها الواقعية، لكن ماذا عن أصحاب الصفة الأدبية من مؤرخين، و أدباء، و أصحاب تراجم. و إذا غضضنا الطرف عن ابن خلدون الذي اطلع على الأدب الجغرافي

([1]) بعد القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي تتوفر لدينا معلومات على غاية الأهمية حول النظام الذي يحكم المواصلات القافلية فيما بين ضفتى الصحراء بيد أن ابن حوقل فى إحدى إشاراته يقدم لنا رواية تفيدنا بأنه كانت هناك تقاليد قديمة تحكم نظام القوافل تعود لفترة ما قبل القرن 2 هـ /8 م، انظر:ابن حوقل، صورة الأرض،المصدر السابق، ص 96 .و تجد فى المصدر نفسه ص- ص 65- 146 توضيح ابن حوقل لأسباب اندثار الطريق الصحراوي بين مصر وغانة خلال القرن 4هـ /10 م .

([2]) البكري، المصدر السابق، ص 174؛ ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص-ص 706 -707.

([3]) تحدث المسعودي عن التجارة الصامتة: " والتجارة الواصلون بالأمتعة إلى غانة يسيرون إليها فإذا وصلوا إلى ذلك الخط جعلوا الأمتعة والأكسية عليه فيأتون أصحاب الأمتعة فإن أرضاهم ذلك أخذوه وإلا رجعوا ويعود فيزيدهم حتى تتم المبايعة كما يفعل التجار الذين يبتاعون القرنفل من أهله، و ربما رجع التجار بعد زوالهم عنهم فيضعوا النيران على الأرض فيسيل الذهب فيشترون ظاهرا على الأرض، "انظر المسعودي، أخبار الزمان، مخطوط رقم 15، معهد المخطوطات العربية، ورقة 51،50 ؛ إبراهيم طرخان، امبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر،القاهرة ،1970 م، ص- ص 64 - 66.

([4]) ابن عذاري، البيان المغرب، المصدر السابق، ج 1، ص 258 . وقسم الموحدين ص 130؛ ابن خلدون ، المصدر السابق، ج 5 ، ص 47 ، ص - ص 109- 110 .

العربي(البكري، الإدريسى، ابن سعيد[1] إلخ). و كانت له تقلبات بين القبائل القريبة من الصحراء، فإن أسماء كابن عذارى و المراكشي، وابن أبى زرع، و الحميري، و المالكي، و غيرهم كانت تقتصد كثيراً فى إشارتها للصحراء أو الأحداث التى مجالها الصحراء.

المبحث السادس: المذاهب والمعتقدات في بلاد المغرب وأثرها على بلاد السودان:

منذ القرون الهجرية الأولي صار جبل نفوسة بليبيا موطناً للإباضية خلال الصراع بين البربر و خلفاء الدولة الإسلامية و ولاتهم، ثم امتد عمران الإباضية من جبل نفوسة إلى تاهرت في المغرب الأوسط الذي قامت بها الدولة الرستمية الإباضية بعد ذلك[2].

و من المعروف أن جبل نفوسة كان يتميز بأنه ذات طبيعة جبلية أضافت له قدراً من الطبيعة الحصينة لاسيما مع وعورة مسالكه وطرقه و هو ما سهل حركة استقرار الإباضية في هذه المنطقة، ثم أخذوا ينشرون أفكارهم في المناطق المجاورة و منها انتقل الفكر الإباضي إلى بلاد السودان الغربي، و الأوسط، و من المؤكد أن حركة التجارة الصحراوية ساعدت على نشر الأفكار الإباضية في بلاد السودان خاصة مع وقوع جبل نفوسة عند مُلتقى الطرق التجارية الصحراوية، و لعل من أهمها طريق جبل نفوسة – غدامس – تادمة – كوكو، ويبدأ هذا الطريق شروس عاصمة جبل نفوسة ثم كانت تتجه القوافل الى غدامس و منها الى مدينة تادمكة في الغرب و كانت هذه الرحلة تستغرق قرابة أربعين يوماً.

ثم كانت القوافل تتجه بعد ذلك إلى كوكو في السودان الغربي و من المسالك الأخرى التي حملت أفكار الخوارج الإباضية عبر القوافل التجارية: طريق جبل نفوسة – زويلة – كوار في بلاد السودان الأوسط[3].

و من المعروف أن المذهب الإباضي انتشر في بلاد المغرب قبل المذهب المالكي و لفرط انتشاره كان البربر يطلقون على كل من لا يؤمن بالفكر الإباضي اسم أورمين أي الروماني ويقصد بهم النصارى، لاسيما لما رأى البربر أن المذهب الإباضي يحمل شعارات

([1]) ابن سعيد، بسط الأرض في الطول و العرض، معهد مولاي الحسن، تطوان- المملكة المغربية،1958 م، ص 90 ؛ ابن خلدون، المصدر السابق، ج 6 ، ص- ص 194- 195.

([2]) عوض الشرقاوي، إباضية جبل نفوسة في القرنين الثاني والثالث الهجرين (دراسة تاريخية)، دار العالم العربي، القاهرة، 2017 م، ص55.

([3]) عوض الشرقاوي ، المرجع السابق، ص155.

إسلامية تعبر عن آمالهم و معاناتهم، و لكن مع انتشار المذهب المالكي ساهم في انحصار الفكر الإباضي [1].

و يرى الباحث أن المذهب المالكي لما بدأ يتسرب إلى بلاد السودان الغربي كان ذلك على حساب الأفكار الإباضية التي لم تكن ذات جذور صلبة في هذه البلاد، و هو ما ساهم في سرعة انتشار المذهب المالكي في السودان الغربي، و من ثم اختفاء الفكر الإباضي في هذه البلاد آنذاك.

و على أية حال فإن انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب منذ بدايات القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي كان يتسم بأنه محدود، ثم بدأ يزداد فيما بعد الى بدايات القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي الذي شهد ما يطلق عليه البعض الصحوة المالكية في بلاد المغرب[2]. ثم وقع التنافس بين المذهبين المالكي والإباضي، و هو ما جعل اتباعهما يتحصون بالعلوم الشرعية و كذلك اللغة العربية ليقوي كل منهم حجته حتى يتمكن من تقوية و تحصين قاعدته الشعبية، مما ساعد على تعريب أعدادٍ كبيرة من البربر لاسيما من ترك الفكر الإباضي إلى المذهب المالكي. مما ترتب على ذلك انضمام بعضهم إلى القبائل العربية، و حتى من بقي على فكره الإباضي استمر يتعلم العلوم الشرعية و كذلك اللغة العربية لتكون له القدرة على مقارعة أصحاب الفكر المالكي[3].

و يرى الباحث أن التافس بين المالكية و الإباضية لم يكن كله شر على بلاد المغرب، بل كان لذلك بعض المظاهر التي أفادت المسلمين وساهمت في انتشار العلوم الشرعية و كذلك ساعد ذلك على نشر الثقافة العربية و حركة تعريب قبائل البربر التي كانت تسكن بلاد المغرب في ذلك الوقت.

و يذهب البعض إلى أن تحول بلاد المغرب إلى المذهب المالكي بشكل تام و بعد صراعات مريرة بين اتباع المذهب المالكي و اتباع المذاهب والنحل الإسلامية الأخرى التي كانت تنافس هذا المذهب. ففي عصر الأغالبة ساد المذهب الحنفي و على هذا شهدت هذه

([1]) فرج عبد العزيز نجم، القبيلة والإسلام والدولة، مكتبة 17 فبراير، بنغازي، 2011 م، ص- ص 65 - 66.

([2]) القادري بوتشيش، حركات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2006م، ص82.

([3]) فرج عبد العزيز، المرجع السابق، ص66.

الفترة تضيقاً على اتباع المذهب المالكي واضطهاد المنتسبين له. و من أهم صور هذا الاضطهاد تلك المحنة التي تعرض لها الإمام سحنون بن سعيد[1].

و مع قيام الدولة الفاطمية حاول الفاطميون نشر التشيع في بلاد المغرب و هو ما جعل أتباع المذهب المالكي يدخلون في أتون صراع عنيف مع الدولة الفاطمية الشيعية حيث استغل فقهاء الشيعة عقيدة هذه الدولة في اضطهاد كل من يخالفهم في الرأي سواء من الناحية السياسية، أو المذهبية و استخدموا شتى الوسائل في قمعهم و خاصة المالكية حتى تكون السيادة الفكرية لمذهب التشيع[2].

و لكن أهل إفريقية كانوا يميلون الى المذهب المالكي، و من ثم أظهروا التأييد والمساندة لفقهاء المالكية و هو ما ساهم في الحد من تسلط الشيعة وتجاوزتهم ضد المالكية و خاصة أن الدولة الفاطمية حاولت فرض التشيع بالقوة على سكان هذه البلاد كما أنه لم تقتصر المواجهات بين المالكية والشيعة على استعمال القوة بل امتد التنافس ليشمل المناظرات الكلامية بين اتباع المذهبين و ذلك الى خروج الفاطميين من بلاد المغرب الى مصر و على هذا صار للمذهب المالكي السيادة في هذه البلاد[3].

و مع انهيار مذهب التشيع في المغرب ارتفع شأن المذهب المالكي واتباعه و هو ما يؤكده القاضي عياض السبتي في قوله عن انتشار هذا المذهب: "**إلى أن خرجت القيروان و أهلها وجهاتها و سائر بلاد المغرب مصفقة على هذا المذهب (أي المالكي) مجتمعة عليه لا يعرف لغيره به قائم**"[4]. و على هذا فيما يرى الباحث توطدت أركان المذهب المالكي في بلاد المغرب و كذلك بلاد الأندلس. ثم انتشر هذا المذهب بفضل التجارة الصحراوية الى بلاد السودان الغربي و ذلك عبر القوافل التي كانت تعبر المدن التجارية الكبرى مثل فاس و سجلماسة و سبتة و أغمات حيث أخذت أفكار المذهب المالكي تنتشر في بلاد السودان الغربي والأوسط حتى صار هذا المذهب هو السائد في هذه البلاد.

([1]) أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي ،1230-1430م، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999م، ص124.

([2]) نفسه، ص124.

([3]) أحمد الشكري، المرجع السابق، ص124-125.

([4]) بوتشيش، المرجع السابق، ص84-85.

و في ذات الصدد يشير بعض الباحثين إلى أن الدولة المرابطية إلتزمت بأفكار المذهب المالكي و أن فقهاء المالكية اعتبروا كتب الفلسفة و الكلام دعوة الى الحد من نفوذهم و الثورة عليهم، و لهذا أظهروا لحكام المرابطين كبح علوم الكلام، و كراهة السلف لهم، و إنكارهم على من يتكلم في هذا النوع من العلوم الكلامية و اعتبروا ذلك بدعة في الدين[1].

و على أية حال فإن طبيعة المذهب المالكي تقوم على ترك أساليب أصحاب الكلام و المعتزلة و لا يميل المذهب إلى التعقيد أو إلى تبني الأساليب والأفكار الفلسفية و الإستدلالية كما أن الفكر المالكي لا يقوم على الرأي والقياس بقدر ما يعتمد على النص و النقل و الاعتماد على الأثر والرواية، كما أن الإيديولوجية المرابطية كانت تنكر كتب الفلسفة اليونانية التي تقوم على فلسفة الكلام التي تبناها المعتزلة.[2]

و حسب المصادر التاريخية فإن الإمام مالك كان يحارب أصحاب علوم الكلام بكل ما أوتي من قوة لاسيما ما يخص مسائل الصفات الإلهيه وعلاقتها بذات الله، كما كان يرفض الرد العقلي على البدع لأنه في رأيه رد بدعة ببدعة، كما أنه اعتمد مذهبه على إقرار العقائد بدءاً وألا تعالج عقلاً[3] ، أي أنه في أمور العقائد في المذهب المالكي لابد من القبول و الإيمان بها من حيث المبدأ وألاَّ نُعْمِلَ فيها العقل، أو الكلام الذي قد يؤدي بالإنسان إلى الوقوع في البدع و المهالك.

و من حيث الإختلاف في الفكر بين الخوارج، و الشيعة، و المعتزلة، و غيرهم من أصحاب المذاهب فإن البعض يذهب إلى أن سائر أهل الأهواء كانوا يتباينون من حيث الفكر، فالمعتزلة يعتبرون أعلم من الخوارج، بينما الخوارج هم أعلم من الشيعة و هم أصدق

([1]) أنور محمود زناتي، الدور الحضاري لفقهاء الأندلس خلال عصر المرابطين، دار العراب و دار نور الحوران، دمشق، 2017 م، ص 220.

([2]) نفسه، ص 220

([3]) نفسه، ص -ص 221-222.

منهم و أكثر منهم ديناً، و ورعاً، وهم لا يكذبون، و لا يتعمدون الكذب، أما المعتزلة فإنهم مثل سائر الطوائف فيهم من يكذب و منهم من يصدق. [1]

و في رأي المؤرخ ابن خلدون (ت 808هـ) أن أفكار المذهب المالكي كانت تناسب طبائع المجتمع البدوي و هو ما يفسر ملاءمة المذهب المالكي لمد المرابطين الذي سيطر على بلاد المغرب الأقصى لاسيما في بداية تأسيس الدولة، إذ كانت البداوة لا تزال الطابع الذي يهيمن على سلوك و عادات المرابطين، بينما لما اتسعت الدولة و تأثرت بالمدنية التي ذاعت في بلاد الأندلس، فإن الفكر المالكي لم يستطع استيعاب ما حدث في بلاد المغرب من تغيرات طرأت على المجتمع كما عجز الفكر المالكي عن مسايرة واقع المجتمع في وقتٍ أصبحت التجارة تشكل عصب المجتمع واستمراره [2]. و يذهب البعض إلى أن المذهب المالكي حافظ على أصالته و لم تظهر عليه معالم التطوير أو التجديد إلا في عصر الدولة المرينية[3].

و من المعروف أن المذهب المالكي كان موجوداً في بلاد المغرب منذ دولة الأدارسة رغم أن إدريس الأول مؤسس هذه الدولة كان يعتنق المذهب الشيعي الزيدي، غير أنه كان يحمل الكثير من مظاهر التسامح الديني، و لم يلجأ إلى القوة لنشر و فرض هذا المذهب[4].

و لعل هذا الأمر ساهم في انتشار المذهب المالكي، و من ثم دخل كتاب الموطأ إلى بلاد المغرب، و أقبل المغاربة على دراسة هذا المذهب، و حتى ما كاد ينتهي القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي كانت أصول المذهب المالكي و فروعه بدأت تترك تأثيراتها الفكرية في المجتمع المغربي، و من المؤكد أن موقف الأدارسة المتسامح مع المذهب المالكي هو مما ميز روح الانفتاح الفكري الذي شهدته بلاد المغرب في عصر الأدارسة وساهم في حدوث التقارب مع باقي المذاهب الإسلامية الأخرى.

([1]) محمد الأمين بلغيث، ظاهرة التكفير في التاريخ، الدولة الإسلامية نموذجاً (دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي)، دار التنوير، الجزائر، 2013م، ص46.

([2]) ابن خلدون،المقدمة، المصدر السابق، بيروت، 1979م، ص 375 ؛ إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1993م، ص127.

([3]) نفسه، ص127.

([4]) نفسه، ص86.

و يمكن القول أنه من أسباب انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب و السودان الغربي و الأوسط يرجع إلى حد كبير إلى شخصية الإمام مالك وفكره ، و بما اشتهر عنه من كريم السجايا، و كذلك تعلق الإمام مالك بالسنة و الأثر، و هو ما دفع المغاربة و السودانيين إلى الإقبال على هذا المذهب والتعلق به(1).

-**العلاقة بين المذهب المالكي والأشعري:** ينتسب المذهب الأشعري إلى أبي الحسن علي بن إسماعيل بن بشر الملقب بالأشعري، و ينتهي نسبه الى الصحابي أبي موسي الأشعري، ولد أبو الحسن الأشعري سنة 324هـ وكان في بداية أمره معتزلي المذهب، و كان يدافع عن أفكارهم و ظل على هذا الحال حتى بلغ الأربعين من عمره حيث ترك مذهب المعتزلة و أسس مذهباً جديداً حمل اسمه وهو المذهب الأشعري(2).

و كان العصر العباسي الذي ظهر فيه المذهب الأشعري يعد بمثابة عصر المذاهب التي كانت تنشد فيما يطلق عليه البعض الحل الوسطي، و كذلك المواقف التوفيقية و تعتمد الأفكار التي قام عليها المذهب الأشعري على أن الأولوية للنص الديني، و هم ينكرون دور العقل في ذلك بينما يعتمد مذهب المعتزلة على العقل باعتباره أداة معرفية فعالة، كما يتميز مذهب الأشاعرة من جانب آخر بمشروعية النظر العقلي في أمور العقائد في إطار الضوابط الشرعية.(3)

و يُرجع البعض انتشار المذهب الأشعري في بلاد المغرب على يد شخص يدعى أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الفاسي (ت 357هـ) ، و كان ابن ميمونة قد رحل الى بلاد المشرق، و لقي الأشاعرة و تأثر بأفكارهم بينما قال آخرون أن من نقل المذهب الأشعري للمغرب هو أبو الحسن القابسي (ت 203هـ)، و كان قد خرج من بلاد الأندلس الى المشرق و التقى بالأشاعرة ومال إلى أفكارهم(4).

ثم انتشر مذهب الأشاعرة في بلاد السودان الغربي بفضل العلماء المغاربة و كانوا مالكيين وأشاعرة في مذهبهم وعقيدتهم، و كانت دعوتهم في السودان الغربي مقرونة

---

(1) إبراهيم القادري بوتشيش ، المرجع السابق، ص92.

(2) محمد بشري عيسي جيى، جهود علماء السنغال في خدمة المذهب الأشعري، منشورات وزارة الأوقاف، المغرب، 2018م، ص23.

(3) نفسه، ص- ص 23 ، 25.

(4) محمد بشري عيسي جيى ، المرجع السابق، ص- ص 25 ، 26.

و ممزوجة بالمذهب المالكي و الفكر الأشعري في ذات الوقت ويجمع المؤرخون أن عبدالله بن ياسين (ت 451هـ) الذي ينسب له إدخال المذهب المالكي إلى السودان الغربي كان أشعري العقيدة و كان ابن ياسين يعلم تلاميذه طبقاً لهذين المنهجين والمذهبين، و هو ما جعل أكثر علماء المغرب يُكَّوَنون على المذهبين المالكي و الأشعري و هو ما تأثر به علماء السودان الغربي في ذات الوقت. و من أبرز علماء السودان الغربي الذين أخذوا بالمذهبين المالكي والأشعري القاضي و الفقيه عمر فال (ت 1048هـ)[1].

و فيما يذهب البعض إلى أن فشل المذاهب و الإيدولوجيات الأخرى مثل الخوارج و التشيع و المعتزلة و غيرهم في بلاد المغرب ساهم في انتشار التصوف باعتباره بديلاً لحالة اليأس والتذمر التي عان منها المجتمع خلال حقب الإضطرابات والحروب الداخلية[2].

و يرى الباحث أن عدم انتشار المذهب الشافعي في بلاد المغرب و السودان الغربي أن أصحاب الإمام مالك كانوا شديدي البغض للإمام الشافعي، إذ كانوا يعتبرونه من تلاميذ الإمام مالك و كان قد أخذ عنه الموطأ ثم أقام الشافعي لنفسه مذهباً بعيداً عن أستاذه وشيخه و هو ما جعل المالكية يعرضون عنه ويؤيد ذلك ما قام به أتباع المذهب المالكي لما أقام الشافعي بمصر حيث حاولوا الاعتداء عليه أكثر من مرة انتقاماً منه[3].

- **المذهب المالكي والتصوف:** و مع انتشار المذهب المالكي في السودان الغربي بدأت تظهر إرهاصات الفكر الصوفي جنباً إلى جنب مع المذهب المالكي، و من الواضح أنه لم تظهر أشكال من التنافس بين كل منهما، حيث انتشر كليهما و هو ما لا تزال شواهده موجودة حتى يومنا هذا.

و يرى الباحث أن هذا النمط من التعايش السلمي و تقبل الآخر بين المذهب المالكي و الطرق الصوفية انتشر بهذه الصورة بالسودان الغربي، و ربما السبب في هذا التعايش ما بين المذهب المالكي و التصوف هو بساطة الفكر الصوفي و أنه لا يميل إلى الفكر المركب

---

(1) و من برز أيضاً من علماء السودان الغربي في الجمع بين المذهبين المالكي و الأشعري كلاً من الشيخ سليمان بال (ت 1183هـ) و كذلك الشيخ عبد القادر كن (ت 1230هـ) (وللمزيد انظر: محمد بشري عيسي، المرجع السابق، ص - ص 34-35.)

(2) القادري بوتشيش، المرجع السابق، ص130.

(3) و للمزيد عن الصراع بين المالكية والإمام الشافعي انظر: تر الإمام الشافعي: كتاب الأم، دار المعرفة، بيروت، 1410هـ/1990م، ص 213؛ وأيضاً تر الإمام مالك: كتاب الموطأ، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، 1406 هـ - 1985 م، ص550 ؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج3، ص117.

أو الأفكار ذات التعقيدات العقلية فيما يخص الأمور الفقهية و العلوم الشرعية إذ أن الفكر الصوفي يشير إلى أنماطٍ من العبادة و المظاهر الطقسية أكثر منه فكراً دينياً كما في المذاهب الأخرى.

و حسب البعض فإن انتشار حركات التصوف في بلاد المغرب و على غراره في السودان الغربي كان من أبرز العوامل التي ساهمت في وحدة هذه البلاد و كذلك توثيق الصلات بين شعوبه، فالحركة الصوفية كان لها أثرا كبيراً في توحيد الصفوف، و تقوية روح المقاومة ضد الأعداء و خاصة مع مرحلة بداية الإستعمار الأوروبي للبلاد الإفريقية.[1]

و من المعروف أن سكان السودان الغربي كانوا يرتبطون برجال الدين بواسطة إحدى الطريقتين الأكثر ذيوعاً هناك، و هما الطريقة القادرية و الطريقة التيجانية، و على هذا لا يمكن تفهم انتشار الدعوة الإسلامية على حقيقتها دون النظر إلى ارتباط الزعماء المسلمين في السودان الغربي بإحدي الطرق الدينية، لأن النفوذ السياسي لأي منهما كان يرتبط إلى حد كبير بمدى الزعامة الدينية التي كان يتمتع بها هذا الشخص.[2]

([1]) عمر محمد التومي الشيباني، دور التراث في تأكيد الأصالة، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، بنغازي، ط1، 2000، ص - ص 185 - 187.

([2]) عبد الرحمن زكي، تاريخ انتشار الإسلام في غرب إفريقيا، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة،1977 م، ص111.

الفصل الأول:

العوامل السياسية و دورها
في تنميــة المـؤسســـات
و المراكز العلمية

الفصل الأول: العوامل السياسية ودورها في تنمية المؤسسات و المراكز العلمية:

المبحث الأول: دور العوامل السياسية في ازدهار الحركة العلمية والفكرية:

تتجلى العوامل السياسية التي ساعدت في ازدهار الحياة العلمية و الفكرية في السودان الغربي في أحسن و أفضل صورها الإنسانية، و هي عدة و شتى و لا نستطيع أن نتناولها جميعها في دراستنا حتى لا نتوسع في بحثنا أكثر من اللازم، فلا يكفيها مجموعة أوراق في جزء من دراستنا، هذا فضلاً عن تناولها من عدة باحثين عندما بدأوا بالكتابة العلمية كانت البداية من خلالها.

فمنذ أوائل القرن العشرين اهتم الباحثون في دراسة التاريخ الإسلامي أو التاريخ الوسيط بالأحوال السياسية التي قامت في الدول الإسلامية المتعاقبة عبر المشرق و المغرب، و على مدى فترات زمنية طويلة تبلغ قروناً، و كانت الأحوال السياسية تدرس كوحدة واحدة (الدولة الإسلامية كلها)، و لكن ما حدث من تطور في الدراسات التاريخية بعد منتصف القرن العشرين أن الباحثين اهتموا بالجزئيات و حاولوا التخصص في كل جزء و ابراز نتائج دراستهم المختلفة عن ما كانت عليه من قبل.

و سأحاول هنا التطرق إلى العوامل السياسية و دورها في ازدهار الحركة العلمية والفكرية في السودان الغربي، و الإتيان بجانب أو جانبين منها بدراسة نقدية للخروج بجديد، من خلال التحليل وفق رؤية جديدة للأحداث السياسية التي أثرت في سير الحركة العلمية و ازدهارها.

و لكن لابد من لفت الانتباه أن سير الأحداث السياسية يلازمه دائماً عوامل ربما تكون أقوى منه وتؤثر فيه وتتأثر به، كما حدث عند اضمحلال دولة غانة واضطراب أمورها السياسية بقي الحدث المؤثر هو الثقافي الفكري بمسيرة انتشار الإسلام، وأيضاً عند سقوط السودان الغربي في حوزة المغاربة بقيت الحركة الفكرية و الثقافية في الانتشار وأقوى من العوامل السياسية ودليلانا على ذاك إبداع أحمد بابا التنبكتي في مجالي الثقافة والفكر بعد سقوط تنبكت و ما نتج عنه من سيل عارم من المؤلفات و الدراسات العلمية الإسلامية.

هذا بالإضافة أن ربما يسير إلى جانب العوامل السياسية عوامل أخرى مُلازمة لها تساويها على الأقل. فكل الدول و بلاد المغرب الإسلامي في أحوالها وعواملها السياسية قامت على مبدأ واحد ألا وهو المبدأ التجاري– و هنا نخرج قليلا عن نطاق دراستنا لنرى ما

مدى تأثير العامل التجاري و الاقتصادي (الحركة المركنتلية) في نهضة الشعوب الأوروبية، و التي قامت عليها مشاعل الحضارة الأوروبية، مما أوعز لها باحتلال شعوب و أراضي عربية وإسلامية- فقامت دول و إمبراطوريات و سلاطين إسلامية بسبب سيطرتها على الحركة التجارية، و خاصة الصحراوية، و اضمحلت أخرى عندما فقدت مراكزها التجارية و محطاتها و طرقها.

أما الآن فنعود إلى موضوع الدراسة، و هو العامل السياسي وتأثيره على الحركة الفكرية و العلمية في بلاد السودان الغربي: و سنقوم هنا بجانب من التحليل التاريخي بسرد كل تلك العومل و على رأسها:

- **الاستقرار السياسي**، و ما يتبعه من استقرار إقتصادي يؤدي إلى بيئة خصبة لنمو الحركة العلمية، و هنا لاطالما أننا ندرس نمو الحركة العلمية و التعلمية في السودان الغربي و أثر و دور بلاد المغرب فيه، فعند دراسة ذلك لابد من دراسة و معرفة الطرفين المتبادلين عوامل الثقافة والفكر.

- أما العامل الثاني فهو **العامل الأمني** الذي وفر للتجار، و الدعاة، و العلماء، و الهجرات العربية المناخ الآمن لرعرعة الجانب الفكري و الثقافي، و نذكر أن الحركة التجارية قد أخذت على عاتقها منذ ظهور الإسلام نشره في الصحاري و إلى ما وراءها في السودان الغربي، و الذي نتج عنه تلقائياً العامل الثالث، و هو **وجود التجار أصلاً نظراً للعامل الاقتصادي**، فمن منا لم يسمع عن ذهب السودان و أساطيره؟ و الذي حرك التجار و مهد الطريق للحركة التجارية إلى هناك بجانب أن تحمل معها مُعتقداتها و علومها الإسلامية.

و الذي نتج أيضاً عنه أو لأسباب أخرى كضيق المعيشة، أو الصراعات السياسية في دول الشمال المغربي إلى تدافع هجرات قبائل عربية بأكملها إلى الصحراء و السودان الغربي، مما وفر انتشار الإسلام و لغته العربية، و علومه الشرعية، لتكمل الحلقة الإسلامية بعامل آخر بعد إسلام معظم السودان الغربي، ألا و هو البحث عن إكمال أركان الإسلام الأساسية ألا و ذلك بالحج إلى الأراضي المقدسة، و الذي لعب دوراً في نقل التأثيرات الحضارية إلى بلاد السودان الغربي. و لكن ما يهمنا هنا، و نراه متداخل بين كل هذه العوامل هو **العامل الإنساني المغربي** الذي حمل على عاتقه بحكم الجوار والقرب رفع

و نشر مشاعل الحضارة الإسلامية و علومها إلى الصحراء و دواخل السودان الغربي، و شكل كل مجالاتها و إطاراتها الإقتصادية و السياسية و الاجتماعية و الثقافية، ليبرز منه العامل الأقوى بين المسلمين عامة و هو **عامل الاستقرار و التواجد** داخل هذه البلاد من خلال هجرات المغاربة الدائمة في تلك البقاع، و مكوث جالياتهم المغاربية، لينتجوا سوياً حضارة إنسانية اندمجت عناصرها الوافدة بالعناصر المحلية في بوتقة واحدة هي الحضارة الإسلامية.

و نعود إلى موضوعنا مرة أخرى و نركز على عاملين مؤثرين و هما:

الاستقرار السياسيي في بلاد السودان الغربي و ما نتج عنه من قيام دول و سلطنات امتدت حتى أطراف الصحراء، كغانة و مالي و سنغاي، مرتبطة بالحركة التجارية المزدهرة، مُتحكمة في منابع الثروة والذهب، مما وفر لها الحظ إلى العناية بالحركة العلمية و كثيراً ما نسمع عن عطاءات الملوك و السلاطين للعلم و العلماء، و محاولة استقدامهم بكل الطرق إلى بلادهم، بلاد السودان الغربي، لتفقيه المجتمع السوداني، و نشر العلوم الإسلامية ومنها الشرعية، وخلق الجامعات العلمية على مستوى بلاد المغرب، و أيضاً نتيجة لتلك الاستقرار تمت الاتصالات و انتظمت بين بلاد السودان الغربي و بلاد المغرب على المستوى الرسمي في إيفاد السفارات و غيرها، بعد أن كانت الصلات و الاتصالات مُعتمدة على حركة الدفع الذاتي دون توجيه رسمي من دولة بعينها، حملها على عاتقهم التجار والدعاة إلى غير ذلك.

و نأتي هنا على وجه الأخص إلى ذكر دولة المرابطين المغاربية و ما حققته من استقرار ووحدة أصلت للحركة العلمية في القرون اللاحقة عن البحث، مما سيؤدي إلى استقرار العناصر و الجاليات المغربية في السودان الغربي، و بالتالي سينتج أثرهم عليه، و تأثرهم به، ولذلك سنفرد عدة صفحات لتلك الجاليات و العناصر المغاربية و دورها في السودان الغربي، نتيجة استقرار الأحوال والأوضاع السياسية في بلاد السودان الغربي.

المطلب الأول: أثر العامل السياسي على الإستقرار و دور الجاليات الإسلامية المغربية في ازدهار الحركة العلمية في السودان الغربي:

فنتيجة لرقي العامل السياسي في السودان الغربي، من تشجيع الحكام و السلاطين و الولاة للحركة العلمية مُمَثَّلة في العلماء و الفقهاء المغاربة خاصة، و تشجيع المغاربة في نشر الإسلام، و حُسن استقبالهم، و تقبل دورهم الحضاري في شتى المجالات الأخرى عامة.

فقد قطن السودان الغربي[1] جاليات مغاربية كثيرة من أشهرها فئة العلماء و الفقهاء و الدعاة بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين/ الحادي عشر و السادس عشر الميلاديين، فخلال هذه الفترة برز دورها في جميع المجالات، فما هو دورها في المجال الثقافي؟ و ما هي مظاهر الثقافة العربية الإسلامية التي أدخلوها إلى المنطقة؟ و هل مساهمتها كانت إيجابية و استفاد منها أهل السودان؟ أم كان هدفها السيطرة و التسلط و القضاء على الثقافات المحلية؟ و ما هو موقف السكان المحليين منها؟

لقد ساهمت الجالية المغاربية مساهمة فعّالة و بارزة في الحركة الفكرية والثقافية بالسودان الغربي منذ ما سُمي غزو المرابطين لغانة و قبل ذلك بقليل حتى الغزو المراكشي لمملكة سنغاي سنة 999هـ/1591م، فكان لها الفضل في نشر الإسلام و اللغة العربية وتطوير التعليم وتنشيط حركة تأليف الكتب و بناء المساجد و المدارس و الكتاتيب، وأشرف على هذه العملية فئة العلماء و الفقهاء و الدعاة المغاربة الذين استوطنوا في المنطقة، فكان منهم أئمة المساجد و تقلدوا مناصب عديدة داخل الدول الإسلامية السودانية فكان منهم القضاة و المستشارون و الوزراء [2]، و تميزوا بالاستقامة و التقوى و العلم، فحظوا بمكانة عالية في المجتمع، حتى كان يحترمهم العامة، و قربهم الملوك و الأمراء إليهم [3]، و هذا ما يفسر أثرهم الواضح في المجال الفكري و الثقافي.

(1)- ففي مجال الدعوة الإسلامية وإسلام ملوك السودان الغربي: أسلم عدد كبير من ملوك السودان الغربي على أيدي الفقهاء و العلماء و الدعاة المغاربة. فقد أسلم ملك

([1]) محمد بن عمر التونسي، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تح خليل عساكر و آخرون، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1965م، ص132.

([2]) البكري، المصدر السابق، ص175.

([3]) محمود كعت، المصدر السابق، ص- ص 22-23

التكرور[1] وراجابي بن رابيس 422هـ/1060م و تبعه الكثيرون من رعيته[2]، و رغم أن البكري لم يشير إلى الكيفية التي أسلم بها، إلا أنه من الواضح أن للتجار و الفقهاء الذين دخلوا مع القوافل التجارية كان لهم الفضل في ذلك من قبل ذلك. [3] و أسلم حاكم جاو، زاكسي[4] في سنة 400هـ/1009م على أيدي أحد الدعاة المسلمين. [5] وخلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي أراد ملك جني (كنبر) أن يعلن إسلامه فاستدعى كم كبير من العلماء و الفقهاء المسلمين ببلاده ليشهر ذلك أمامهم بقول السعدي، و الملاحظ أن عدد العلماء 4200 عالم أن العدد مبالغ فيه إلا أنه يدل على العدد الكبير من الدعاة المسلمين في منطقة لم يسلم ملكها بعد، مما بين دورهم الفعّال في نشر الإسلام و الثقافة العربية الإسلامية في تلك المنطقة.[6].

(2)- أما في مجال انتشار اللغة العربية: لقد كان للجالية المغاربية و من ضمنها فئة الفقهاء و العلماء و المدرسين في السودان الغربي فضل كبير في نشر اللغة العربية، فأصبحت لغة التعليم و المراسلات الرسمية عند الملوك والسلاطين و تدرس في المساجد و المدارس. [7] و اهتم بها أهل السودان بعد اعتناقهم الإسلام، فهي اللغة التي تؤدى بها الصلاة و تلاوة القرآن الكريم وبواسطتها يطلعون على مختلف العلوم الشرعية.[8]

---

(1) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م، ص440. محمد بلو ، المصدر السابق، ص27.

(2) البكري، المصدر السابق، ص175.

(3) إدريس صالح الحرير، العلاقات الاقتصادية بين الدولة الرستمية وبلدان الصحراء، مجلة البحوث التاريخية، الع الأول، السنة الخامسة، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، يناير 1983م، ص85.

(4) البكري، المصدر السابق، ص185.

(5) امطير سعد غيث، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها فى مجتمع السودان الغربى خلال القرنين العاشر والحادى عشر للهجرة / السادس عشر والسابع عشر للميلاد، دكتوراه غير منشوره، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة، ص203.

(6) السعدي(عبد الرحمن بن عبد الله ت 1065هـ/1655م)، تاريخ السودان، وقف على طبعة هوداس، مكتبة أمريكا و المشرق، باريس، 1908م، ص112.

(7) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص244.

(8) مسعود عمر محمد على، تأثير الشمال الأفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي، فيما بين القرنين الثامن و العاشر/ الرابع عشر والسادس عشر الهجريين، منشورات الدعوة الإسلامية العالمية، ط1، طرابلس، ليبيا، 2003م، ص121.

و قد ساعد على انتشار اللغة العربية اختلاط الوافدين المغاربة بالسكان المحليين نتيجة للتزاوج و المصاهرة و المعاملات اليومية بينهما.[1] ففي مملكة غانة الوثنية وقبل ظهور المرابطين، كان الدعاة و الفقهاء و العلماء المسلمين على اتصال بملوكها، وبني بعاصمتها كومبي صالح اثني عشر مسجداً يُعَّلم بها القرآن الكريم و قواعد اللغة العربية و كان الحي الإسلامي بها مليئاً بالأئمة والفقهاء[2]، كما يذكر البكري [3] و في مملكة مالي، مالي، كانت مكانة اللغة العربية عالية، جعل الملوك يهتمون بها ويتقنونها، كما أورد العمري في كتابه مسالك الأبصار أن السلطان منسى موسى كان يحسن اللغة العربية و يكتب بها رسائله إلى الملوك بالخط المغربي.[4]

و في عهد مملكة سنغاي، ارتقت اللغة العربية، فأصبحت لغة التأليف و الكتابة في موضوعات مختلفة شملت العلوم الشرعية و منها الفقه و التاريخ. [5] و يعتبر كتاب تاريخ السودان للسعدي الذي كتب في عهد الإسكيا محمد (898-935هـ/1491-1528م)، و كتاب الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس لمحمود كعت التنبكتي من أشهر المؤلفات السودانية خلال هذه الفترة[6] و تطور أسلوب اللغة العربية ببلاد السودان أن كُتب بها الشعر، فقد ذكر كل من ياقوت الحموي والقلقشندي شعر إسحاق وإبراهيم الكانيمي و الذي استدعاه الملك الموحدي يعقوب المنصور فشعر له مادحاً[7] و كانت الكتابة عند أهالي السودان الغربي بالخط المغربي[8]، و وجدت بالمنطقة النقوش بالمساجد تستخدم الخط الخط الكوفي و الخطوط الهندسية في كتابة الآيات القرآنية مما يبين الآثر المغربي.

([1]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص681.

([2]) إبراهيم على طراخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970م، ص82.

([3]) البكري، المصدر السابق، ص175.

([4]) العمري، المصدر السابق، ورقة 44.

([5]) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص158.

([6]) عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية، القاهرة، 1961م، ص239.

([7]) ياقوت الحموي، المصدر السابق، ج4، ص484. القلقشندي ، المصدر السابق، ج5، ص270. السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ت 1315هـ/1898م)، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، الدار البيضاء، 1954م، ص103.

([8]) مسعود عمر محمد على، المرجع السابق، ص121.

و في هذا الصدد يقول القلقشندي: "... **و كتابتهم بالخط العربي على طريقة المغاربية**"[1] و بلغ أثر اللغة العربية على الثقافة السودانية أن استعملت حروفها في اللغات المحلية منها لغة الهوسا، و الفولاني فدونت بها الرسائل و الأشعار، و استمروا باستعمال الحروف العربية حتى العهد الاستعماري حيث حولت إلى الحروف اللاتينية[2] وكانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية للممالك والدول الإسلامية السودانية فاستعملت في المكاتبات و الرسائل الرسمية، فقد أورد القلقشندي نص رسالة سلطان برنو عام 796هـ/1393م إلى السلطان المملوكي برقوق سلطان مصر يشكو فيها قبيلة جذام العربية لمساعدتها قبائل البولالا، كُتبت بأسلوب عربي واضح ودقيق[3]، كما كُتبت كثير من المعاهدات التي عُقدت بين ملوك السودان و الدول الأوروبية مع بداية الإكتشافات الجغرافية باللغة العربية، عُثر على بعضها في مدينة تنبكت و منها نسخ مكتوبة بالعربية والفرنسية.[4]

و كانت اللغة العربية بالإضافة إلى أنها لغة العلم و التأليف، تُلقي بها خطبة الجمعة، و بجانب الإمام مترجم يشرح لهم الخطبة باللغات المحلية. [5] كما كانت لغة التدريس، فقد ورد في نيل الابتهاج "لأحمد بابا" أسماء لعدد من المدرسين ذوي الأصول المغاربية أشهرهم علماء و فقهاء أسرة آل آقيت [6] و كانت حلقات العلم و الكتب التي يدرسها الطلاب باللغة العربية تدرس بها مختلف العلوم [7].

(3)- أما عن انتشار المذاهب الإسلامية: و مع انتشار الإسلام في إفريقية جنوب الصحراء، انتشرت المذاهب الإسلامية مع التجار و الدعاة والعلماء، فمنذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي ساد المذهب المالكي في المنطقة، و كان لظهور المرابطين

([1]) القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص- ص 186-287.

([2]) صبري على سلامة، أثر الثقافة العربية والإسلامية في أدب الهوسا (الشعر نموذجاً)، مجلة الدراسات و البحوث الإفريقية، الع 20، معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، ص28.

([3]) القلقشندي، المصدر السابق، ج8، ص-ص 112-116.

([4]) نعيم قداح، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في أفريقيا الغربية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 1974م، ص57.

([5]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص681.

([6]) أحمد بابا التبكتي ،المصدر السابق ، ص222.

([7]) السيد فليفل، الخلفية التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية عبر الصحراء الكبرى، ندوة العلاقات العربية الإفريقية، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 1998، ص74.

وصراعهم و تنافسهم مع غانة و سيطرتهم على كثير من أراضيها عامل أساسي في ترسيخه بين أهالي السودان، و من المعلوم أن الدعوة المرابطية هي حركة إصلاحية قامت على أساس المذهب المالكي، فمؤسسها عبدالله بن ياسين تلقى تعليمه على يد أكبر علماء القيروان منهم وجاج بن زلوا اللمطي[1] و كانت الكتب المتداولة بعد ذلك هي كتب المالكية منها كتاب الموطأ للإمام مالك، و المدونة الكبرى لسحنون و الشفا للقاضي عياض والرسالة لابن أبي زيد القيرواني[2] و ورد عن المقريزي أن ملك مالي منسى موسى اشترى عدة كتب تتناول الفقه المالكي، عند مروره من مصر، بعد عودته من الحج [3] و ذكر أحمد بابا التنبكتي أن علماء و فقهاء سنغاي كانوا يدرسون كتب المالكية، و من أشهرهم الفقيه أبوبكر الونكري التنبكتي (ت1002هـ/1593م) و المعروف باسم نعيغ والفقيه عبدالله بن محمد أقيت(ت 1007هـ/1598م). [4]

و يذكر القلقشندي أن المذهب الغالب في برنو هو المذهب المالكي فقلة من الشافعية فيقول: "**و سلطان كانم من بيت قديم في الإسلام، و قد جاء من أدعي النسب و تمذهب بالمذهب الشافعي**"، ويذكر في موقع آخر: "**و العدل قائم ببلادهم و يتمذهبون بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه و هم يابسون في الدين**".[5]

(4)- و فيما يخص المذاهب الخارجية: فإنها أسبق في الانتشار بالسودان الغربي، و دخلت مع الدعاة و التجار المسلمين الأوائل بعد الفتح الإسلامي للمغرب، فخلال هذه الفترة ظهرت مملكتان خارجيتان على أطراف الصحراء و هما: الدولة الرستمية الإباضية في تيهرت و دولة بني مدرار الصفرية بسجلماسة، نسجتا علاقات ودية مع ملوك السودان، مما

([1]) مجهول (مؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن عشر الميلادي)، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تح سهيل ذكار وعبد القادر زمانة، ط1، الدار الحديثة، الدار البيضاء، 1979م، ص7.

([2]) ابن أبي زرع (أبو الحسن على عبد الله)، روض القرطاس، مخطوطة، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 4557، ورقة 114. وأيضاً عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا، 430-515هـ/1083-1121م، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1988م، ص65.

([3]) المقريزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي ت 845هـ/1441م)، الذهب المسبوك من حج من الخلفاء والملوك، تح جمال الدين الشيال، مطبعة التأليف والترجمة، القاهرة، 1995م، ص111.

([4]) أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق،ج2، ص-ص343-344. والسعدي، المصدر السابق، ص39.

([5]) القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص271.

سمح لتجارهم السيطرة على الطرق التجارية الصحراوية و مكنتهم من نشر الإسلام وعلى المذهب الإباضي [1] وَ يذكر الإدريسي (القرن 6هـ/12م) أن تجاراً و رجلين يتجولون في السودان إلى غانة و ونقارة و هم وهبية إباضية[2] إلا أن المذاهب الخارجية (الصفرية والإباضية) انحصر فيما بعد وخلال القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي في بعض المناطق بسبب انتشار المذهب المالكي، و لاحظ ذلك ابن بطوطة أثناء مروره بإحدى قرى مملكة مالي، اسمها زاغري فوجد أن فئة من سكانها من الخوارج الإباضية يطلقون عليهم اسم "صغنغو"[3].

(5)- النظام التعليمي ومناهجه: كان للجاليات المغاربية التي استوطنت السودان الغربي فضل كبير في إقامة نظام تعليمي بالمنطقة يشبه النظام التعليمي السائد في فاس و تلمسان، و طرابلس، و فزان، و غيرها من المراكز الثقافية في بلاد المغرب[4]. و أعطى أهل السودان وملوكهم أهمية كبيرة للتعليم.

فقد حظي العلماء والفقهاء و المدرسين بالاحترام و التقدير، كانوا يرسلون الطلاب إلى بلاد المغرب للتزود بالعلم و رفع مستواهم التعليمي، و ذكر السعدي أن السلطان منسى موسى أرسل كاتبه ليتابع حلقات العلم في فاس، و رجع إلى بلاده بعد تمكنه من مادته، و بدأ يدرس في المدارس السودانية [5] و جاء في الفتاش أن الإسكيا محمد بان كوري تخلي عن العرش ليواصل دراسته في مدينة تنبكت. [6].

و ينقسم النظام التعليمي إلى ثلاث مراحل و هي تشبه ما هو موجود في دول المغرب.

- مرحلة التعليم الأولي أو الابتدائي وتحدث عنها الحسن الوزان وكعت وأفاض فيها[7].

([1]) عز الدين موسي، انتشار الإسلام في غرب إفريقيا حتى القرن السادس عشر الميلادي، ندوة العلماء الأفارقة و مُساهمتهم في الحضارة العربية، الخرطوم، 1983م، ص60.

([2]) الإدريسي (أبو عبد الله الشريف 493-560هـ/1100-1166م)،المصدر السابق، ص296.

([3]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص680.

([4]) مسعود عمر محمد على، المرجع السابق، ص123.

([5]) السعدي، المصدر السابق، ص57. السيد أحمد الباز،الحياة العلمية والثقافية في بلاد السودان الغربي في عهد دولتي مالي وسنغي (638-999هـ/1240-1591م)، الأفريقية الدولية، ط1، القاهرة، 2012م، ص143.

([6]) محمود كعت، المصدر السابق، ص55. فليليكس ديبوا، تنبكت العجيبة، تر عبدالله عبد الرازق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003م، ص232.

([7]) حسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص180.

- مرحلة التعليم المتوسط: و تحدث عنها السعدي وابن بطوطة [1] و في هذه المرحلة تدرس الكتب البسيطة و تتمثل الدروس في مبادئ العلوم الشرعية و الحساب و يتدرج الطالب من دراسة المؤلفات البسيطة إلى دراسة مبادئ المؤلفات المفصلة مع شروحها و حواشيها[2].

- مرحلة التعليم العالي: تلقى دروس هذه المرحلة في المساجد و الجوامع في أكبر الحواضر الإسلامية السودانية على شكل حلقات للتدريس [3] و تتميز الدراسة فيها بالتعمق في مختلف مختلف القضايا، وبالدقة في المعلومات، و يشرف عليها أساتذة مختصون، و تمتد الدراسة لأكثر من عشر سنوات و تكتمل بمنح الطالب إجازة أو شهادة من عدد من الأساتذة الكبار في المنطقة، وهم عادة ما يكونون من أصول مغاربية [4]. و تعتبر جامعة سنكري بتنبكت من أشهر الجامعات السودانية التي يدرس بها الطلبة في عهد مملكتي مالي وسنغاي[5]، و لا تختلف في مستواها العلمي و المواد المدروسة بها عما هو موجود بالقرويين بفاس أو الأزهر بالقاهرة، و تدرس فيها العلوم الشرعية و اللغوية و التاريخ [6].

أما عن مستوي التعليم: كان مستوى التعليم بالمدارس السودانية لا يقل عن مستوى التعليم في المدارس الإسلامية ببلاد المغرب و مصر، بل تعدتها في بعض الأحيان فقد روي السعدي أن فقيهاً اسمه (عبد الرحمن التميمي) جاء من الحجاز بصحبة السلطان منسى موسى صاحب مالي فأقام في تنبكت زمناً، و لما رأى رجالها و علماءها يتفوقون عليه في العلم غادرها إلى فاس لتحسين مستواه العلمي [7]. و برز كثير من علماء السودان في فاس

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص16. ابن بطوطة، المصدر السابق، ص691. امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص222.

([2]) الهادي المبروك الدالي، المصدر السابق، ص160.

([3]) مسعود عمر على، المرجع السابق، ص129.

([4]) فيليكس ديبوا، المرجع سابق، ص232. امطير سعد غيث، المرجع سابق، ص222.

([5]) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص144.

([6]) الأمين محمد عوض الله، المرجع السابق، ص198.

([7]) السعدي، المصدر السابق، ص- ص62 - 51. حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص242.

و القيروان و القاهرة لما درّسوا بمدارسها، فقد اشتهر أحمد بابا التنبكتي بعلمه و تفوقه العلمي في فاس لما درس بمسجدها الشرفاء أثناء نفيه من طرف السعديين[1].

أما التعليم المهني: فهو قليل الانتشار رغم أهميته ويقتصر على مهن قليلة أشهرها مهنة الخياطة و تعلم صناعة السفن، و لقي المعلمون الذي يشرفون عليه اسم شيوخ الرؤساء، وتتم الدراسة في البيوت أو مقر عمل الشيوخ. وتحدث محمود كعت عن هذه المدارس المهنية... و اندهش حسن الوزان لما زار مدينة تنبكت مما شاهده من كثرة الحوانيت والدكاكين فيها المتخصصة في الخياطة، و الحياكة، و الطرازة، و الخرازة، و الحدادة [2].

مواد الدراسة و مقرراتها: عرفت مدارس وجامعات السودان الغربي نفس المواد الدراسية و المقررات المنتشرة في بلاد المغرب، فالكتب التي تدرس في تنبكت و جني و جاو و غيرها من المدن السودانية هي كتب مالكية مغربية في مجال الفقه الإسلامي، و شملت كتاب الشفا للقاضي عياض، و الأسدية لأسد بن الفرات و الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، و المدونة الكبرى لسحنون بن سعيد و مختصر خليل وموطأ الإمام مالك رضي الله عن و الصحيحين للبخاري و مسلم [3].

و في مجال اللغة كانت تدرس ألفية بن مالك وشروحها المختلفة بالإضافة إلى كتب البلاغة و الأدب و الخزروجية في العروض، كما كانت المدارس تدرس رجز المغيلي في المنطق و شروحه و المعيار للونشريسي [4].

و كان التاريخ من المواد المهمة التي تدرس للطلبة، و برز في هذا المجال كُتاب من أهل السودان أشهرهم السعدي، صاحب كتاب تاريخ السودان، و محمود كعت التنبكتي صاحب كتاب الفتاش، و يبرز محمود كعت أهمية التاريخ بقوله: " **لما رأيت إهمال الناس**

([1]) أحمد السيد الباز، المرجع السابق، ص149.

([2]) الهادي مبروك الدالي، المصدر السابق، ص168. محمود كعت، المصدر السابق،ص186. حسن بن محمد الوزان، المصدر السابق، ص162.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص- ص23- 35. حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص244.

([4]) السعدي، المصدر السابق ، ص- ص 33-35.

للتاريخ على ما له من فائدة جليلة في معرفة البلاد و تسقط أخبار أبطالها، التمست من الله جلت قدرته أن يساعدني على كتابة هذا التاريخ الذي يبحث في سلاطين السودان [1].

و قد دُرست في مدارس السودان الغربي المواد العلمية منها الحساب، و الهندسة، و الكمياء، و الفلك، و غيرها، إلا أن هذه المواد لم تحظ بنفس الاهتمام التي حظيت به العلوم الشرعية مثل الفقه و تفسير القرآن الكريم والحديث وعلم اللغة. ففي الفتاش لم يرد اسم مدرس في الحساب إلا مرة واحدة[2] و عرفت السودان الغربي بعض الأطباء المقيمين بها من أصل مصري فقد ذكر ابن بطوطة أنه شفي من مرض أصابه بعد أن قدم له الدواء أحد الأطباء المصريين.

الأبنية التعليمية: و تمثلت في الكتاتيب، و المساجد، و الزوايا، و المدارس، و حتى بيوت الأثرياء، و قصور الملوك، فقد اشتهر مسجد سنكري و جامع يحيي بن عبد الرحمان بمدينة تنبكت و هو من أهم المراكز الثقافية في السودان الغربي في عهد مملكة سنغاي [3] و عرفت المدارس باسم المكتب في سنغاي، و أشار محمود كعت التنبكتي أن المساجد الصغيرة التي كانت في الهواء الطلق خارج المدينة و أحياناً تؤخذ في المشور [4].

الكتب و المكتبات: و من المظاهر الثقافية التي تميزت بها السودان الغربي و تبرز أثر الجاليات المغاربية على المنطقة هو اهتمام سكانها بالكتب و إنشاء المكتبات، يُذكر العمري أن منسى موسى اشترى عدداً من الكتب المالكية أثناء مروره بمصر بعد عودته من الحج لتعزيز مكتبته[5]. و يذكر كعت في الفتاش أن الإسكيا داوود و من أجل تدعيم مكتبته اشترى نسخة من القاموس قيمتها ثمانون مثقالاً [6]. و هو سعر مرتفع في عصره، و كان له له نساخ و كُتاب لنقل الكتب النادرة و المخطوطات المهمة، لتوزيعها على العلماء و

([1]) كعت، المصدر السابق، ص9. نعيم قداح: المرجع السابق، ص162.

([2]) أحمد بابا التبكتي: المصدر السابق، ج2، ص222.

([3]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص-ص681-682. السعدي، المصدر السابق، ص-ص50-51.

([4]) محمود كعت، المصدر السابق، ص98.

([5]) العمري، المصدر السابق، السفر الرابع، ورقة 34,

([6]) محمود كعت، المصدر السابق، ص109.

و إثراء المكتبات الخاصة و العامة [1].

و نتيجة لتطور النشاط الثقافي و الحركة الفكرية في السودان الغربي، ازداد الاهتمام بالكتب فأصبحت من السلع الرائجة و تدر على أصحابها أرباحاً تفوق سعر أي سلعة تجارية أخرى.

يذكر حسن الوزان أن الكتب المخطوطة التي تأتي من بلاد البربر يُجني منها ربح يفوق كل بقية السلع. [2]

و انتشرت بذلك المكتبات الخاصة و العامة حتى أن أصغر المكتبات كانت تضم مئات الكتب فأحمد بابا التنبكتي صاحب نيل الإبتهاج بتطريز الدبياج كان يملك مكتبة ضخمة تضم مختلف التآليف و نُهب منها ستة عشر مائة مجلدا أثناء الغزو المراكشي لسنغاي. [3]

و انتشرت بعض العائلات ذات الأصول المغاربية التي سكنت بلاد السودان الغربي، واهتمت بشراء الكتب، وكانت لديها مكتبات ضخمة، فأحمد بن عمر آقيت و هو من أسرة آل آقيت ترك نحو سبعمائة مجلداً أخذها عن أجداده من أمه المنتسبين لأسرة "أندغ محمد". [4]

و ضمت مكتبات السودان الغربي العامة أو الخاصة مجلدات عن حياة الرسول **(صلى الله عليه وسلم)**، و كتب الحديث منها الصحيحين لمسلم و البخاري و كتب الفقه المالكي، و مؤلفات تناولت الأدب العربي منها مقامات الحريري و الهمداني بالإضافة إلى كتب الجغرافيا، و التاريخ، و الفلك، و الطب. [5] و ضمت المكتبات السودانية، المخطوطات الأصلية والنسخ المنقولة إذا تعذر شراء المخطوطات الأصلية[6] و وجدت المكتبات الضخة

([1]) نفسه، ص108. نعيم قداح، المرجع السابق، ص163.

([2]) حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص541.

([3]) السلاوي، المصدر السابق، ج5، ص-ص129-130.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص28.

([5]) فيليكس، المرجع السابق، ص230.

([6]) حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص541.

في المساجد، و المدارس، و قصور الملوك و بيوت العائلات العلمية منها أسرة آل أقيت و أسرة أندغ محمد.

- **الإجازات العلمية:** إن نظام الإجازات العلمية [1] كان معروفاً في بلاد السودان الغربي خاصة في عهد مملكة سنغاي، كما هو شائع في بلدان المغرب في تلك الفترة، يذكر أحمد بابا التنبكتي أن أحد أساتذته أجازه بخط يده بعد أن لاحظه من تمكنه في المواد التي درسها[2]. أما السعدي فيذكر الشيوخ الذين درس عليهم و المواد التي درسها و الكيفية التي أخذ بها الإجازة و المدة التي استغرقها فيقول: "أنه أجازني بخطه جميع ما يجوز له و عنه"[3] و اشتهرت في السودان الغربي بعض الأسر العلمية في نسخ الإجازات العلمية لسمعتها الطيبة و تفوقها في المجال العلمي و اشهرها أسر آل أقيت و أسرة الأرواني[4].

-**الإرتحال لطلب العلم:** نقل أهل السودان عن الجالية المغاربية التي استوطنت ببلادهم الارتحال لطلب العلم، فقد تنقل آلاف السودانيين إلى بلدان المغرب و مصر و الحجاز من أجل التحصيل العلمي و رفع المستوى الثقافي لديهم، و بحضور حلقات العلم والإلتقاء بكبار العلماء في المراكز الثقافية الإسلامية[5].

ففي العهد المملوكي رحل إلى مصر عدد كبير من الطلبة و العلماء من سكان السودان، فكانوا يدرسون بجامعة الأزهر، نذكر منهم الشيخ عبد العزيز التكروري، و العاقب عبد الله الأنصمني، و العاقب محمد بن عمر بن محمد أقيت [6] و كان للتكاررة رواق خاص بالأزهر، فقد أنشأ كبارهم مدرسة خاصة بهم لتعليم أبنائهم بالقاهرة، عرفت باسم مدرسة ابن رشيق. [7]

([1]) مسعود عمر محمد على، المرجع السابق، ص132.

([2]) أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ج2، ص373.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص66.

([4]) الهادي المبروك الدالي، المصدر السابق، ص171.

([5]) الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص131.

([6]) أحمد بابا التبكي، المصدر السابق، ج1، ص، ص99، 353. محمد بلو، المصدر السابق، ص209.

([7]) المقريزي، الخطط، ج2، مطبعة النيل، القاهرة، 1324 هـ ، ص368.

كما كان الذهاب إلى فاس من أجل التزود بالعلم ورفع مستوى الطالب، أو العالم أمر مشهور في بلاد السودان، يذكر السعدي أن عبد الرحمن التميمي و هو فقيه من الحجاز، دخل مالي مع منسى موسى بعد عودته من الحج، و لما رأى علماء تنبكت يتفوقون عليه رحل إلى فاس لرفع مستواه العلمي. (1)

و كانت رحلات الحج مفيدة للطلبة والعلماء، فأثناء تواجدهم بالأماكن المقدسة، كانوا يحضرون حلقات التدريس و يشاركون في المناظرات العلمية، و يتصلون بأشهر العلماء، فأحمد بن عمر (ت 890هـ/1484م) وهو من أشهر علماء آل آقيت التقى هناك جد العالم أحمد بابا التنبكتي، و الإمام السيوطي و الشيخ خالد الأزهري.(2) و التقى العالم محمد بن أحمد التازختي الشهير الملقب "أيد أحمد"أثناء رحلته إلى مصر و الحجاز بعدد من العلماء منهم محمد راتب الناصر، و القلقشندي.(3)

و يمكن أن نجمل ازدهار الحركة العلمية من حيث أسبابها و عواملها إضافة إلى العامل السياسي كالآتي:- عرف السودان الغربي مابين القرن التاسع و العاشر الهجريين و ما يليهما حركة علمية مزدهرة نشطت نشاطاً ملحوظاً في جميع مجالات المعرفة و خاصة الفقهية منها. فظهر في هذه الفترة نوابغ فقهاء السودان الذين تركوا أثراً خالداً، و بصمات واضحة على الحركة الفقهية في السودان، ذاعت شهرتهم في الآفاق. و اشتهرت مدن علمية في السودان تعج بأهل العلم و طلابه و أصبحت مركز إشعاع ثقافي مهم يؤمه طلبة العلم والعلماء من كل مكان مثل: تنبكت و جني وغاو و إيولاتن...فازدهر التعليم في مساجدها و معاهدها و غدت محجة العلماء و الفقهاء من بلدان العالم الإسلامي(4) .

---

(1) السعدي، المصدر السابق، ص-ص51-62.

(2) أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ج2، ص216.

(3) خالدي مسعود، أثر الجالية المغاربية على الحياة الفكرية في السودان الغربي بين القرنين 5-10هـ/11-16م، النشرة الخاصة المحكمة في الدراسات الإفريقية، الع رقم 84، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، أفريل 2008م، ص-ص1-8.

(4) أبوبكر إسماعيل ميغا، الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي (400 إلى 1100) هـ ، مكتبة التوبة، (د.ب)، (د.ت)، ص34. عبد الرحمن محمد ميغا، الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي (ق 8 إلى ق 13) هـ ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2011م، ص60.

و هكذا أصبحت هذه المراكز العلمية تستقطب رجال الفكر و العلم من كافة الأمصار الإسلامية، و غدا السودان بمدنه الزاهرة مشعلاً من مشاعل العلم و المعرفة، و لهذا أخذ الطلاب يفدون إليه من كل حدب و صوب لتلقي العلم. و كان لتشجيع حكام السودان و أهاليه للحركة العلمية بصفة عامة و الفقهية بصفة خاصة أكبر الأثر في ازدهار العلوم الإسلامية في المنطقة. و في هذه المرحلة دونت كثير من الكتب الفقهية من طرف علماء المنطقة من شروح و حواشي و تعليقات إلى غير ذلك من التقييدات الفقهية التي لا تخلو من فائدة.[1]

المطلب الثاني: العوامل و الأسباب العامة لازدهار الحركة العلمية و الفكرية:

1- رعاية ملوك السودان للحركة العلمية الفقهية.

2- وعقد المجالس العلمية و الاهتمام بشؤون الطلبة، فقد اهتم الأهالي و الملوك على الخصوص بعقد المجالس العلمية في بيوتهم و العناية بالطلبة. و في هذا الإطار استدعي أسكيا عبد الكريم المغيلي لإلقاء الدروس في مدينة غاو عاصمة المملكة، كما كانت له علاقة وطيدة مع جلال الدين السيوطي الذي لم يتوقف في استشارته في أموره حتى توفي، و استقدام ملوك الماليين مجموعة من العلماء إلى البلاد للتدريس.

3- اقتناء ملوك االسودان الكتب النفيسة و وضعها رهن إشارة العلماء و في متناولهم: فهذا منسى موسى بعد رجوعه من الحج اشترى كتباً كثيرة لتزويد علماء بلده و كذا فعل مانسى سليمان الذي استقدم فقهاء و علماء مالكيين، و اشترى كتباً فقهية كثيرة لإنعاش الحركة الفقهية في السودان الغربي [2] و هذا أسكيا دواد اشترى للفقيه محمود كعت القاموس المحيط في تنبكت بثمانين مثقالاً من الذهب[3].

([1]) عبدالرحمن ميغا، المرجع السابق، ص60.

([2]) العمري، المصدر السابق، ص-ص59-60. القلقشندي، ج5،المصدر السابق، ص297. السعدي، المصدر السابق، ص57. أبوبكر إسماعيل،المرجع السابق، ص-ص83-84.

([3]) محمود كعت، المصدر السابق، ص109.

4- تقديم الهبات المالية للعلماء و تعظيمهم من قبل ملوك السودان و دفع الأجور للأساتذة ومساعدة الطلبة مساعدة مادية و معنوية للتفرغ لطلب العلم، و يتكلف بهذا الأمر القضاء[1]، و في هذا الصدد اشترى أسكيا لما زار الحرمين جناناً بمائة ألف دينار ذهباً و حبسها على الفقراء و العلماء و المساكين [2]. كما أعطى الشريف الحسني (ابن الصقلي) مائة ألف دينار و خمسمائة خادم و مائة إبل ضيافة... [3]. و لما زار الحسن الوزان المنطقة وجد "في تمبكت عدداً كبيراً من القضاة و الفقهاء و الأئمة يدفع إليهم الملك مرتباً حسناً و يعظم الأدباء كثيراً.."[4].

5- الأمن و الثراء و الرخاء التي امتاز بها السودان و خاصة في عهد الملوك الأقوياء، من أهم الأسباب في ازدهار الحركة الفقهية حتى قال كعت: "**مع الهناء و العافية التي خص الله بها أهل تنبكت و ترى منهم مائة رجل ليس لأحد منهم حريش و لا سيف و لا مدية إلا المنساة...**" و قال أيضاً عن بلدة جعب لشدة أمنها يُقال له بلد الفقهاء "**... لا يدخله سلطان مل و ليس لأحد حكم فيه إلا قاضيه ومن دخله كان آمناً من ضيم السلطان وجوره و من قتل ولد السلطان لا يسأله السلطان بدمه يُقال له بلد الله...**" [5]. و قد اعترف ابن بطوطة بهذه الحقيقة لما زار المنطقة، فقال حين تحدث عن الأفعال الحسنة في السودان: "... **فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم... و منها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها و لا المقيم من سارق و لا من غاصب...**" [6].

6- توافد العلماء من المشرق و المغرب و الأندلس إلى المنطقة و خاصة تنبكت إثر سقوط الأندلس وبغداد. فقد وجد هؤلاء الوافدين ترحيباً كبيراً لدى الأهالي و استقبالاً فريداً من نوعه من ملوك السودان، لهذا فجروا طاقاتهم لازدهار الحركة الفقهية. 7- إمكانات البلاد الهائلة و ظروف التجارة المربحة: فقد عرفت المنطقة

---

(1) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص،ص 76، 141.

(2) محمود كعت، المصدر السابق، ص16. أبوبكر إسماعيل،المرجع السابق، ص39.

(3) محمود كعت، المصدر السابق، ص18. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص63.

(4) حسن الوزان، المصدر السابق ، ج2، ص167.

(5) محمود كعت، المصدر السابق، ص-ص179-180.

(6) رحلة ابن بطوطة، المصدر السابق، ص672.

عالمياً و خاصة تبكت بثرواتها الطائلة، مما جعل العلماء والفقهاء يقتفون أثر التجار، إذ ذلك يمكنهم من التفرغ للعلم، فلما استوطنوا المنطقة شاركوا في ازدهار النهضة الفقهية في السودان.

و مما يدل على إمكانات البلاد الهائلة ما ذكره العمري عندما تحدث عما وجده التجار المصريون من الربح من الماليين لما زاروا مصر في طريقهم إلى الحج، فقال: "...**إن الرجل منهم كان يشتري القميص أو الصوب أو الإزار و غير ذلك بخمسة دنانير و هو لا يساوي ديناراً واحداً**..."[1] و قد أكد هذا الأمر الحسن الوزان، حينما تحدث عن زيارته للسودان فقال: "...**تستعمل قطع الذهب الخالص بدلاً من العملة المسكوكة و الودع لشراء الأشياء التافهة**..." [2]. و مما يدل على ربح التجارة في السودان ما ذكره العمري حين قال: "...**إن المعاملة في بلاد التكرور بالودع، و إن التجار أكثر ما تجلب إليهم الودع، و تستفيد به فائدة جليلة**..." [3]، و كذلك ما ذكره الحسن الوزان لما زار المنطقة "... **و تباع أيضاً مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر و تدر أرباحاً تفوق سائر البضائع**..." [4]. و من أهم ما يؤكد غني السودان و ثرائه، المثل المغربي القائل: **إن جرب جملك فعليك بالقطران و إن افتقرت فسافر إلى السودان.** [5].

8- كثرة الكتب و المخطوطات التي ترد إلى أسواق السودان و خاصة تنبكت بكمية كبيرة مما جعل مكتباته تزخر بأهم الكتب المعروفة في ذلك العصر في مختلف الفنون. و قد ذكر الحسن الوزان أن بيع الكتب يدر أرباحاً هائلة لأصحابها تفوق سائر أرباح السلع الأخرى. [6]، الأمر الذي جعل تجار الكتب يتجهون نحو المراكز العلمية في السودان لينالوا جزءاً من هذا الربح العظيم.

---

(1) البكري، المصدر السابق، ص73.

(2) حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص167.

(3) العمري، المصدر السابق، ص71. القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص292.

(4) العمري، المصدر السابق، ص71.

(5) نعيم قداح، المرجع السابق، ص131.

(6) حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، ص 167.

و قد أدى تطور تجارة الكتب إلى ازدهار الكتابة و النسخ. على أن مما لا مراء فيه أن سهولة تناول الكتب والحصول عليها في أقرب وقت عند الحاجة إليها ساعد كثيراً على ازدهار النهضة العلمية في السودان الغربي. [1]

9- حرية التفكير و العمل: نتج ازدهار الحركة العلمية بصفة عامة من تمتع علماء السودان بحرية تامة في تفيكرهم في مجال العلم، و العمل بما يؤمنون به من رأي، و ما تطمئن إليه قلوبهم دون خوف من أحد، الأمر الذي شجعهم على تطوير بنات أفكارهم والخوض في كل مسائل الحياة اليومية فجاءت انتاجاتهم غزيرة جريئة[2].

10- إخلاص العلماء في عملهم، و هذا أهم شيء.

11- مثابرة الطلبة السودانيين و اجتهادهم في طلب العلم، و رحلاتهم إلى الخارج لتحصيل العلم في مراكزه الأصلية، و عند رجوعهم يحاولون نشر ما تعلموه من علم وأدائه بأمانة، و لشدة حرصهم على التعليم و الدراسة، كان البعض منهم يستغل حتى الليالي المقمرة للمطالعة[3]، الأمر الذي يبين اهتمامهم الكبير بالعلم و تفانيهم في سبيله.

12- اهتمام ملوك السودان ببناء المرافق العلمية في كافة انحاء السودان.[4]

13- احترام العلماء: فقد وصلت مكانة العلماء في السودان درجة، أحياناً تفوق درجة الملوك. و هذا الأسكيا محمد الكبير لا يعارضه في أموره "إلا القاضي... و لا يجلس معه على سريره إلا الشرفاء...و لا يقوم لأحد إلا العالم و الحجاج إذا قدموا من مكة. و لا يأكل معه إلا العلماء و الشرفاء و أولادهم..." [5]، و هذا أسكيا دواد كان شديد الاحترام للعلماء و كذا أسكيا إسحاق الذي كان محباً للعلماء

---

(1) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص65.

(2) نفسه.

(3) السعدي، المصدر السابق، ص93.

(4) العمري، المصدر السابق، ص-ص59-60. القلقشندي، المصدر السابق، ج5، ص297. محمود كعت، المصدر السابق، ص59.

(5) نفسه(محمود كعت)، ص، ص11، 59. أبوبكر إسماعيل،المرجع السابق، ص-ص41-42، ص-ص89-90.

و مكرماً لهم. و لشدة احترام السودانيين للعالم يعتبرون بيته مقدساً لا يدخل فيه أحد، و من التجأ إلى داره فقد أمن من الإيذاء. [1]

و مما يؤكد احترام السودانيين للعلماء أنه حتى الملك على بير الذي عرف بقسوته على العلماء فإنه يقر بفضلهم و يخضع لهم أحياناً، حيث يقول "**لولا العلماء لا تحلو الدنيا و لا تطيب، و يفعل الإحسان في آخرين و يحترمهم**" و يضاف إلى ذلك أن "آكل"-حاكم تنبكت من الطوارق-لما سمع بمجئ على بير إلى تنبكت "أحضر ألف جمل رحل فقهاء سنكري ومشي بهم إلى بير فقال إن شأنهم هو الأهم عليه" حتى لايؤذيهم على بير أثناء حملته على تنبكت [2].

14- انتعاش حركة العلماء بين المدن السودانية: و ما ساعد ازدهار الحركة العلمية في السودان هو انتعاش تنقل العلماء بين المدن السودانية، فقد كان أهل العلم و طلابه في حركة دائبة بين المغرب و بلاد السودان الغربي، و بين مصر و السودان و بين المدن السودانية مما أتاحت الفرصة لطلبة العلم في السودان أن يأخذوا عن أكثر من عالم، وأن ينوعوا معارفهم، و يزيد من عدد إجازاتهم، الأمر الذي جعل الحركة العلمية تنتعش انتعاشاً كبيراً، و يثير التنافس بين عوالي الهمة من الطلبة للأخذ عن أفذاذ العلماء الذين يفدون إلى السودان.[3]

15- رحلات الملوك إلى الحج: و من أسباب ازدهار الحركة العلمية أيضا في السودان الغربي رحلات الملوك إلى الحج، حيث يحدث اتصالات مهمة بين العلماء و الملوك من جهة، و بين العلماء و المرافقين للملوك و علماء المشارقة من جهة أخري. و ينتج عن هذا اللقاء تبادل ثقافي و علمي بين العلماء، و إيفاد بعض العلماء إلى السودان، و شراء كتب علمية، وكل ذلك يكون لصالح الحركة العلمية و ازدهارها.

---

(1) محمود كعت، نفسه، ص94، 108، 143.

(2) السعدي، المصدر السابق، ص-ص 65-67

(3) نقولا زيادة، افريقيات، رياض الريس للكتب والنشر ، ط 1، لندن، 1991 م، ص350؛ أبوبكر إسماعيل، المرجع السابق، ص39.

و مما يمكن ذكره هنا رحلة منسى موسى إلى الحج و رحلة الحاج أسكيا الكبير، فقد تركت هاتان الرحلتان صدى كبيراً في كتب التاريخ، و تركتا بصمات واضحة على ازدهار الحركة العلمية في السودان. [1] و إلى جانب رحلات الملوك إلى الحج هناك الرحلات التي يقوم بها العلماء إلى الحج، فقد كانت هذه الرحلات بمثابة فرصة لبعض علماء السودان، فيلتقون بأكبر علماء عصرهم و يتبادلون معهم الآراء في مجالات شتى، و يطلبون منهم الإجازة. [2]

و يضاف إلى رحلات العلماء والملوك إلى الحج، الرحلات العلمية التي يقوم بها بعض الطلبة و العلماء إلى المغرب و المشرق، فكل هذه الرحلات انعكست إيجابياً على مستوى العلماء و الطلبة و على مستوى الحركة العلمية في السودان الغربي. [3]

16- مساهمة العلوم الشرعية و على رأسها الفقه الإسلامي في القضاء الإسلامي في السودان الغربي: كان من أسباب ازدهار الحركة العلمية في السودان اعتماد القضاء على الفقه الإسلامي، إذ حاول بعض ملوك السودان أن يردوا الاعتبار للفقه الإسلامي و ينصبوا قاضياً في كل بلد يستحقه ليفصل بين الناس بموجب الشريعة الإسلامية[4] الأمر الذي جعل الفقهاء يجتهدون و يبحثون عن حلولٍ مناسبة لما يجد ويحدث في المجتمع من النوازل، مما جعل الفقه الإسلامي في السودان فقهاً حياً يواكب التطورات و الحوادث التي تحدث في المجتمع فازدهرت الحركة الفقهية[5].

---

(1) العمري، المصدر السابق، ص-ص70-74. محمود كعت، المصدر السابق، ص-ص 34-37، ص-ص 65-68.

(2) السعدي، المصدر السابق، ص-ص37-47.

(3) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص68.

(4) العمري، المصدر السابق، ص-ص59-60. محمود كعت، المصدر السابق، ص59. أبوبكر إسماعيل، المرجع السابق، ص-ص89-90.

(5) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص68.

المبحث الثاني: المؤسسات والمراكز العلمية:

لكي نستكمل ما بدأنا من رصد مُعطيات الواقع المغربي في السودان الغربي، فلابد دائماً وأبداً أن تتداخل معنا التجارة والحركة العلمية بين المنطقتين لشدة الارتباط فيما بينهما، فقبل قيام المراكز الثقافية العلمية المشهورة في السودان الغربي، أدت تلك المراكز من قبل دورها كمراكز تجارية يتوافد إليها من كل الأجناس، و هنا كان من المحتم الخوض في تفاصيل المظاهر الحضارية لتلك الصلات التجارية بين المنطقتين.

المطلب الأول: المظاهر الحضارية(العلمية والفكرية) للصلات التجارية بين المغرب و السودان الغربي في عهد المرابطين:

لقد اخترقت قوافل التجارة المرابطية -منطلقة من مراكز ومدن مشهورة- الصحراء الغربية باتجاه بلاد السودان الغربي، و كانت تلك القوافل تحمل مختلف البضائع و السلع في طريق ذهابها وتعود مُحملة ببضائع وسلع أخرى عند إيابها، فأصبحت هذه العمليات التجارية الدائمة بمثابة شريان حيوي يحمل في تنقله مفاهيم، و تصورات، و عادات، و أنماط من الحياة من الشمال إلى الجنوب و العكس.

و كان الدافع التجاري في أيام المرابطين -وقبله وبعده- حافزاً مُهماً للاحتكاك البشري و إيصال الهدي الروحي، و لم تقف في وجه ذلك مصاعب الطرق و لا عامل الزمن الذي ظهر و كأنه لم تكن له من القيمة ما له اليوم. و أن الشمال مثّل مركز القوة والتفوق في جوانب الاتصال و التأثير، و إذا ما سلمنا بعدم التكافؤ-النسبي على أي حال- في المبادلات وطبيعتها، فإنه يصعب مجاراة بعض الخلاصات التي تعد أن "ما ورثته المناطق الإقتصادية الإفريقية من التيارات التجارية هي الهيمنة الفكرية و الاقتصادية و الاجتماعية" أو نعت ما أحدثته المؤثرات الحضارية المغربية بمجتمع السودان "بالإستعمار الفكري" [1].

فكانت أهم مظاهر التأثير الحضاري، أو بمعنى أصح ملامسة بعض محددات تأثير التجار المغاربة أيام المرابطين على التشكيلة الثقافية الإسلامية للشعوب السودانية. و يأتي على رأسها دور التجار المغاربة في نشر الإسلام و اللغة العربية بالسودان الغربي..

([1]) أسماء موسى زايد، الصلات التجارية بين بلاد المغرب الأقصى والسودان الغربي في عصر المرابطين (448-541هـ/1056-1146م)، الطبعة الأولي، منشورات جامعة 7 أكتوبر، بنغازي، ليبيا، 2008م، ص-ص 193-194.

و يمكننا القول إن الإسلام انتشر في أي مكان وصل إليه التجار المسلمون، ففي عصر الإمارة المرابطية على وجه الخصوص، تدفقت جموع التجار المغاربة عبر المسالك الصحراوية من المراكز الشمالية مثل: فاس، و مراكش، و سجلماسة، باتجاه السودان الغربي و حواضره: أودغست و كومبي صالح و تنبكتو، و نتيجة لهذا الارتباط التجاري بين المنطقتين، استقر عدد من التجار المغاربة في المدن السودانية و كوّنوا لهم أحياء خاصة، أقاموا فيها المساجد والمدارس، مما كان له أكبر الأثر في نشر التعاليم الإسلامية و اللغة العربية ببلاد السودان الغربي، و أعقب ذلك قيام ممالك إسلامية بتلك البلاد. فالقافلة التجارية كانت تضم عدداً من الفقهاء و الدعاة، معهم الأحمال ومختلف البضائع... و ممارسة التجارة في الدين الإسلامي تقتضي أموراً أهمها الشرف و العفة وعدم الغش و صدق المعاملة و كانت تتم عمليات التبادل التجاري و معها تبادل الأفكار و أثناء إقامة التجار بمركز تجاري ما، ببلاد السودان الغربي، يقومون بأعمال مختلفة عدا أعمال البيع و الشراء، منها ممارسة شعائرهم الدينية.. و هم يحرمون الخمر بأنواعه و لا يشربونه، و لا يأتون المنكر...

من جهة أخرى كان التجار المغاربة المقيمون في بعض المراكز السودانية أو حتى المتنقلون، غالباً ما يتزوجون من الأهالي، وسيما من بيوت رؤساء القبائل و أصحاب النفوذ، فتصبح منازلهم منارات ينتشر منها الإسلام، مما خدم الثقافة الإسلامية في البلاد السودانية.[1]

و قد يكون من الصعب أن يجمع التجار بين أعمال التجارة، و بين الفقه و معرفة أصول الدين الإسلامي، فبحكم عملهم لا يستطيعون التفرغ لذلك، و من ثم قام التجار باستقدام العلماء و الفقهاء للمناطق التي يكثر عدد المسلمين بها، ليتولى هؤلاء العلماء مهمة تعليم الناس الأمور التي تتعلق بدينهم الجديد، فظهرت المدارس الملحقة بالمساجد، و أرسلت بعض البعثات العلمية من المواطنين السودان ليتلقوا مزيداً من العلم في مراكز الثقافة الإسلامية ببلدان المغرب وإفريقية ومصر، و لقد كان العالم الإسلامي حفياً بهؤلاء الطلاب، فخصص لهم أماكن في دور العلم وفي المساجد للإقامة و طلب العلم، وأمدهم بالعطاء

([1]) أسماء موسى زايد ، المرجع السابق، ص-ص194-198.

الجزيل حتى يتمكنوا من إتمام دراستهم، ليعودوا بعد ذلك دعاة و مُعلمين لأهليهم داخل بلادهم.

و ازداد توغل وانتشار التجار المغاربة في مراكز التجارة ببلاد السودان الغربي مما نتج عنه نشوء عدة مراكز تجارية إسلامية، ومن بين تلك المراكز الحي الإسلامي بمدينة كومبي صالح.. و من مظاهر التأثير الإسلامي في غانة ما ذكره الإدريسي عن مَلِكِها من العدل، و قضاء المظالم، و تفقد أحوال الرعية، و الأخيرة تقليد إسلامي يبدو أنه دخل إلى غانة مع إسلام ملوكها أيام الإمارة المرابطية.

أما بلاد التكرور وسلي، فكما هو الحال في مراكز السودان الغربي الأخرى وجود التجار المغاربة فيها في أيام الإمارة المرابطية، و كانت النتيجة المباشرة و المهمة لهذا التواجد أن أسلم حاكم البلاد.. و الذي يبدو واضحاً من خلال الوارد في المصادر التاريخية، أن إسلام أهالي التكرور وسلي كان بفضل الصلات التجارية الوثيقة بين البلاد و المغرب الأقصى في أيام المرابطين، و مخالطة أهل تلك البلاد للتجار المغاربة، فقد ترك هذا أثراً واضحاً عليهم، كما أشار ابن سعيد[1].

و بمدينة جني السودانية أقام الكثير من العلماء المغاربة، يعلمون الإسلام وينشرون مبادءه، مع أن حاكمها كان وثنياً...؛ وعند تمام القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أسلم ملكها (كنبر) كما يروي السعدي خبر إسلامه، و رغم المبالغة الواضحة في تقدير عدد العلماء الذين كانوا بالمدينة وأسلم أمامهم إلا أن ذلك يعطي دليلاً على مدى انتشار الإسلام بجني خلال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. [2]

و بهذا نرى أن عوامل انتشار الإسلام بالسودان الغربي كانت متعددة، و لا بد من إيلاء أهمية خاصة للعقلية المتفتحة للشريحة السياسية و التجارية في البلاد السودانية أي الفئات العليا من المجتمع السوداني التي فهمت أن من مصلحتها التحالف مع التجار و الفقهاء المسلمين، فقد جاء اعتناقها للإسلام تأييداً لرغبتها في تشكيل جبهة إسلامية قادرة على توطيد العلاقات التجارية بالمغرب الأقصى و على كل حال نسلم بالدور الكبير الذي

([1]) أسماء موسى زايد، المرجع السابق، ص-ص198-199.

([2]) نفسه ، ص201.

كان للإسلام في تأطير الممالك السودانية منذ القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي.[1]

و من هنا كان انتشار اللغة العربية ضروري قبل إنشاء هذه المراكز العلمية، و عن انتشار اللغة العربية بين سكان السودان قال أرنولد: " **و بلغت اللغة العربية و هي اللغة التي تكتب بها دائماً الكتب الدينية الإسلامية حداً يفوق كل وصف من الغنى و الجمال، و إذا ما تعلموا (السودان) هذه اللغة أصبحت لغة التخاطب بين أهالي نصف القارة، و تستخدم كمقدمة لدراسة الأدب بل هي أدب في حد ذاتها، و هي إلى ذلك لغة شريعة و قانون مكتوبة، حلت محل نزوات شيخ القبيلة الاستبدادية و هذا يعتبر في حد ذاته تقدماً هائلاً في الحضارة**" [2].

و برز في رحاب الإسلام عدد كبير من العلماء السودانيين الذين كتبوا باللغة العربية في شتى فنون المعرفة الدينية و الدنيوية كالعلوم و الآداب و المنطق و الطب و الهندسة و غيرها، و مما ذكر أن الرحالة ابن فاطمة الذي نقل عنه ابن سعيد وابن خلدون و القلقشندي، كثيراً من أخبار السودان و ما وراءه من الأقاليم، هو من أبناء السودان الغربي (السنغال أو غانة) ، و ذكر أن ابن فاطمة دار حول القارة الإفريقية من الغرب إلى الشرق في حدود عام (648هـ/1250م)، و هو بذلك سبق حركة الكشوف الأوروبية بوقت طويل جداً؛ و لم يصلنا من كتابه الذي ألفه باللغة العربية في الجغرافية الإقليمية سوى النقول التي أوردها ابن سعيد وابن خلدون، وهي تدل على إطلاعه بأحوال السودان الغربي، و مدى التقدم الذي وصله علم الجغرافيا عند العرب المسلمين آنذاك.[3]

ثم يأتي دور الجاليات التجارية التي مهدت لإقامة المراكز التجارية و العلمية في آن واحد: ..كان التجار المغاربة يسكنون في أحياء خاصة بهم تتوفر على منازل وحوانيت و مساجد خاصة لكن ذلك لا يعني انعزالهم أو ترفعهم عن المجتمع السوداني، فقد سجل الرحالة المسلمون حسن التعايش بين أهل السودان و من يخالطهم من البيض المغاربة، و يمكن القول: إن الجاليات المغربية في مدن السودان الغربي، كانت مهمة من حيث النوع لا من حيث الكم، و تتمثل في أسر تجارية أو علمية سكنت في تلك المدن، مؤقتاً

([1]) أسماء موسى زايد، المرجع السابق ، ص-ص202-203.

([2]) توماس أرنولد، المرجع السابق، ص398.

([3]) أسماء موسى زايد، المرجع السابق، ص205.

أو بصفة دائمة و قد كانت الجالية تشمل إلى جانب التجار، فقهاء و قضاة و مدرسين و مقرئين و طلبة و خطباء، و رجال الأدب و الشعراء و المهندسين. فأخذ التجار المغاربة منذ القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي يشكلون وجوداً واضحاً في بعض المراكز التجارية ببلاد السودان الغربي كمدينة أودغست.. و من ثم فإن استقرار عدد كبير من التجار المغاربة في هذه المدينة، كان بدون شك عاملاً مساعداً في أن تصبح أودغست مركز لقاء و اختلاط بين المغاربة وغيرهم من الأقوام السودانية و برزت أولى نتائج هذا التواجد بإيجاد مؤسسات إسلامية بها، مثل: المساجد و مراكز التعليم القرآني، و قد أدت هذه المؤسسات بدورها إلى تعزيز علاقات الاختلاط بين المجموعات السكانية المختلفة داخل المدينة و خارجها، و إلى نشر الإسلام و اللغة العربية بالبلاد السودانية...

و توثيقاً للعلاقة الودية بين التجار و الحكام المحليين فإن الحكام السودانيين، قاموا بتعيين بعض المسلمين في المناصب الإدارية العليا في البلاط الملكي. و قد ساهمت الجاليات التجارية المغربية الموجودة بتلك البلاد في نشر الإسلام بفضل قوتها التجارية وإشعاعها الثقافي و تمثيلها للحضارة الإسلامية. (1)

ثم نأتي بعد ذلك للدور الثقافي للمراكز التجارية المغربية التي بعدما كانت منارات الاقتصاد أصبحت منارات للعلم والفكر والثقافة: أصبحت أوضاع بلاد المغرب الأقصى خاصة، في أيام الإمارة المرابطية، و ما بعدها مُهيأة للزعامة السياسية و الثقافية، على بلدان المغرب قاطبة، فيها تلتقي المؤثرات القادمة من المشرق العربي الإسلامي، و من الأندلس و التي تحدث عن ازدهارها المراكشي، في الوقت الذي استنزفت فيه أحداث منتصف القرن الخامس الهجري/منتصف الحادي عشر الميلادي (غزوة بني هلال) موارد بلاد إفريقية و المغرب الأوسط و طاقاتهما البشرية و الحضارية، احتفظ المغرب الأقصى بثرواته و طاقاته ليتغلب على الأحداث منذ منتصف ذلك القرن فصاعداً. و لعل من أهم تلك المراكز التجارية المغربية التي كان لها دور كبير في التأثير الثقافي ببلاد السودان الغربي على أيام الإمارة المرابطية، هي:

---

(1) أسماء موسى زايد، المرجع السابق ، ص-ص 205-208.

(1)– مدينة فاس الإدريسية: فقد أصبحت مدينة فاس منارة للعلم يقصدها العلماء من كل حدب و صوب، و شهدت المدينة بناء أول جامعة في تاريخ البلاد المغربية (جامعة القرويين).. و لقد شهدت هذه المدارس الفاسية إقبالاً كبيراً من قبل طلاب السودان الذين قصدوها في أيام الإمارة المرابطية. [1]

(2)– مدينة مراكش: لقد كانت مدينة مراكش منذ تأسيسها مركز استقطاب للعلماء و رجال العلم و الأدب فضلاً عن التجار و أصحاب الأموال، الذين وفدوا عليها من بلاد إفريقية و المغرب الأوسط و الأندلس، لما وفرته لها الإمارة المرابطية من أسباب الأمان و الاطمئنان، فساهمت بشكل فعّال في النهضة المغربية الدينية و العلمية، بل كانت إحدى أهم الركائز الأساسية في بناء الحضارة المغربية. و قد أقامت صلات متميزة بينها و بين بلاد السودان الغربي و حواضره، فمن المؤكد أن الإمارة المرابطية –و ما بعدها– قد وضعت اللبنات الأساسية للتقارب بين مراكش و أودغست و غيرها من الحواضر السودانية، و ذلك من خلال تنشيط حركة القوافل التجارية من جهة و تسيير رحلات العلماء و الفقهاء بقصد نشر الإسلام بين شعوب تلك البلاد و تثقيفهم بتعاليمه السمحة، من جهة أخرى. [2]

(3)– مدينة سجلماسة: واكب الازدهار التجاري الذي شهدته سجلماسة في أيام الإمارة المرابطية ازدهاراً ثقافياً و اجتماعياً و علمياً، حيث زخرت المدينة بالعديد من المساجد العامرة بالمصلين و المدارس و هي في غاية الجمال، و كان بهذه المساجد صفوة العلماء الأفذاذ الذين أدوا دوراً بارزاً في تنوير المجتمع بشتى أنواع العلوم و المعارف، و من هؤلاء العلماء ابن السقاط الكرنكي الدقاق، محمد بن أحمد بن إبراهيم السجلماسي، الذي كتب عن أفراد لمتونة بمدينة مراكش.[3]

أما المراكز السودانية في عهد الإمارة المرابطية و ما بعدها فأقامت بجنوب الصحراء الغربية على طرق القوافل المرابطية مراكزا تجارية ثقافية كانت بمثابة منارات عالية الشأن خدمت الفكر الإسلامي، و اللغة العربية، و يسرت السبيل لهما، واستقبلت الطلاب و أوفت العلماء، تلك المنارات التي استمدت المعرفة من مراكز الثقافة المغربية، ثم استوت و اكتمل

([1]) أسماء موسى زايد، المرجع السابق ، ص–ص208–209.

([2]) نفسه ، ص210.

([3]) نفسه ، ص211.

نضجها فنافست تلك المراكز، و يلاحظ أن مراكز الثقافة تلك، كانت أسواقاً تجاريةً مزدهرةً، و ذلك راجع إلى ارتباط الدعوة الإسلامية بالنشاط التجاري في هذه المنطقة. فمنها:

(1)- مدينـة أودغسـت: و التي كانت أقرب مدن السودان الغربي لبلاد المغرب الأقصى، و الموصلة لمراكش مركز الثقافة المغربية، في أيام الإمارة المرابطية، و قبلة العلماء و طلاب العلم، و هذا ما جعل بعض العلماء يشدون الرحال إلى أودغست فأصبحت كما يقول البكري "**مدينة كبيرة آهلة...بها جامع و مساجد كثيرة آهلة في جميعها المعلمون للقرآن**"، و قال عنها ياقوت الحموي: "**و أهلها مسلمون يقرأون القرآن و يتفقهون، و لهم مساجد و جماعات**". و تجدر الإشارة إلى أن الفقيه عبدالله بن ياسين عندما و فد عليها وجد بها العلماء المغاربة منهم عالم من القيروان معلومٌ بالورع و الصلاح و تلاوة القرآن و حج البيت، يسمي ربافرة، و أن هؤلاء العلماء فاقوا ابن ياسين في فقهه وعلمه، فاعترضوا على فتاويه و منهجة و طردوه، و هدموا داره، و في هذا دليل واضح على وجود الثقافة الإسلامية بهذه المدينة قبل قيام إمارة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، وقد سبقت الإشارة إلى أن الإسلام وجد طريقه إلى أفئدة الملثمين على يد التجار المغاربة منذ أن توطد الفتح الإسلامي بالمغرب الأقصى، أي منتصف القرن الثاني الهجري/منتصف الثامن الميلادي. إذن نمت الثقافة الإسلامية بمدينة أودغست، و ازدهرت بها النهضة الثقافية التي قام بها علماء المرابطين. [1]

(2)- مدينــة تنبكتـو: و الحقيقة أن مدينة تنبكتو كانت ذات شأن في المجالين التجاري والثقافي، و لكن الجانب الثقافي كان أرجح، و قد كسبت به جلالاً و خلوداً، كما قال السعدي: "**..مأوى العلماء و العابدين و مألف الأولياء و التائهين**"، و لقد قامت بين جامعتها (سنكري) و جامعات بلاد المغرب علاقات وثيقة، إذ تدين تنبكتو في ثقافتها إلى الصلات القوية التي ربطتها بتلك البلاد، فكانت على اتصال دائم بمراكش و فاس و سجلماسة، و كان علماء المغرب دائبي الرحلة إلى تنبكتو، كما كان علماء المدينة كثيراً ما يقيمون بمراكش أو فاس يعملون ويتعلمون، و ذكر السعدي نماذج من الكتب التي كانت تدرس في جامعة سنكري منها (الموطأ) للإمام مالك بن أنس (ت179هـ/795م)، و (صحيح البخاري)

([1]) أسماء موسى زايد، المرجع السابق ، ص- ص 211-213.

و (صحيح مسلم) و (الشفاء في تعريف حقوق المصطفي) للقاضي عياض (ت544هـ/1149) و (الألفية) لابن مالك (ت672هـ/1273م)، كما أورد باباً مطولاً عن العلماء و الصالحين الذين سكنوا مدينة تنبكتو، و خدموا العلم و المعارف به. كما كثرت بها المكتبات، التي كانت مفتوحة للطلاب و الراغبين في العلم و اشتهرت بعدد كبير من المكتبات المملوكة لعلمائها، و لكن عُرف عن هؤلاء أنهم كانوا لا يبخلون بكتبهم على الراغبين في الإستعارة مهما كانت الكتب قيمة.

و كانت تدور بها حركة نسخ نشيطة عن طريقها حصل بعض الناس على نسخ من الكتب التي يريدونها. هكذا تحولت مدينة تنبكتو شيئاً فشيئاً لتصبح مركزاً ثقافيا مهماً جنوب الصحراء خدم الإسلام و اللغة العربية في تلك البقاع، و لقد أورد الأرواني في مخطوطته عبارة تنم عما كان لتنبكتو من مكانة جليلة لدي أهالي السودن الغربي، إذ قال: "**مقام تنبكتو من السودان مقام الوجه من الإنسان**"[1].

(3)– مدينة جني: شهدت مدينة جني نشاطاً ثقافياً ملحوظاً،إضافة إلى نشاطها التجاري على أيام التجارة المرابطية معها، و قد عقد السعدي بابين طويلين للكتابة عن جني و أهميتها الثقافية. تختلف جني عن تنبكتو في مسألة مهمة، و هي أن تنبكتو ولدت مُسلمة، و لكن جني ابتدأت في الكفر أواسط القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، و عقب ذلك أصبحت مركزاً تجارياً مُهماً، و هذا ما جعل التجار المغاربة يحملون إليها الإسلام مع ما حملوا من سلع وبضائع، فأخذ الإسلام يدب فيها وينتشر رويداً رويداً، و زخرت مدينة جنى المسلمة بالكثير من العلماء الذين انتقلوا إليها من بلاد المغرب الأقصى و من تنبكتو، وأنارت حلقات العلم مساجدها من منتصف الليل و حتى صلاة الفجر، و أصبحت مدينة جني تحتل المرتبة الثانية في الميدان الثقافي بعد مدينة تنبكتو، و حظيت المدينة بمكانة مهمة داخل بلاد السودان الغربي. [2]

(4)– مدينة كومبي صالح: إن وجود الإسلام بمدينة كومبي صالح عاصمة مملكة غانة، يعود إلى فترة سابقة عن عصر الإمارة المرابطية، حيث ذكر البكري حوالي سنة (460هـ/1067م)، عن تكون غانة من مدينتين إحدهما للمسلمين و الأخرى للملك، كما أشاد

([1]) أسماء موسى زايد، المرجع السابق ، ص–ص 213 –215.

([2]) نفسه ، ص215.

بالمكانة الكبيرة التي كان يحظى بها المسلمون داخل البلاد، فمنهم "تراجمة الملك...و كذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه"... و وصف الغرناطي إسلام أهل غانة و مدى محافظتهم علـى أداء فـروض الـدين، بقولـه:**"و أهـل غانـة أحسـن السـودان سـيرة و أجملهم صوراً، وسبط الشعور، لهم عقول وفهم، و يحجون إلى مكة"**، كما دخلت إلى مدينة كومبي صالح، العديد من العلوم و المعارف الإسلامية بفضل التجار المغاربة القادمين من بلاد المغرب الأقصى، نذكر من تلك العلوم أسلوب العمارة، كما أشار الإدريسي.

و بعد أن أصبحت غانة مملكة إسلامية في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، قامت قبائل السونيك، بدور كبير في نشر الإسلام بربوع بلاد السودان الغربي، حتى كادت بعض عشائرها تتخصص في نشر الدعوة الإسلامية في مناطق الدواخل، و أصبحت كلمة سونيك تعني داعية للإسلام في لغات بعض قبائل السودان الوثنية، كما اتصل ملوكها بالخلافة العباسية ببغداد و ربطوا أنفسهم بها بل ادعوا النسب العلوي، و لبسوا العمامة. [1]

(5)– مدينـة ملـل (مـالي): وصل الإسلام إلى هذه المدينة مع ظهور حركة المرابطين و قيام إمارتهم، حيث تذكر المصادر التاريخية أن إسلام ملكها جاء على يد رجل من علماء المسلمين –لعله الفقيه أبو محمد عبد الملك المغربي– نزل ضيفاً على الملك (منسى نُوفن ترورا) الوثني، و أقام عنده مدرسة يقرئ فيها القرآن و يُعلم السنة، و ظل في ضيافة ذلك الملك حتى نجح في هَدْيَه إلى الإسلام فعرف بالمسلماني، كما يذكر البكري... و بعد قيام مملكة مالي الإسلامية حوالي نهاية القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي أصبحت هذه المملكة حافلة بالعلماء والفقهاء الأجلاء، فضلاً عن القاضي والخطيب اللذين تمتعا بمكانة رفيعة سامية لا تداني، و وفد إليها الطلاب من المغرب و من القبائل المجاورة، ينهلون من علم علمائها و معارفهم، نذكر منهم: على الزواوي المراكشي، وأبا حفص من طلبة قبيلة مسوفة، والقاضي أبا العباس الكالي والقاضي عبد الرحمن التميمي، الذي سكن في مدينة تنبكتو فوجدها حينذاك حافلة بالفقهاء السودانيين

([1]) أسماء موسى زايد، المرجع السابق ، ص– ص 216 – 217 .

الذين تفوقوا عليه في الفقه، مما اضطره إلى السفر إلى المغرب، ليتتلمذ على فقهاء المالكية فيها، ثم عاد إلى تنبكتو وأقام بها.

و مما يدل على عمق الصلات المالية–المغربية، أن "كتابتهم [صارت] بالخط العربي على طريقة المغاربة"، فضلاً عن كون اللغة العربية لغة الثقافة و التعامل التجاري في السودان الغربي، كما ذكر العمري والقلقشندي.[1]

هكذا دخلّ المسلمون السودان في علاقة تفاعل حضاري و ثقافي، بفعل قيام صلات تجارية مزدهرة بين بلاد المغرب الأقصى و السودان الغربي في أيام الإمارة المرابطية، و من ثم رأينا الثقافة العربية والعلوم الإسلامية تثبت حظاً وافراً من الانتعاش، سيما في الحواضر السودانية، ذات البُعد الإقتصادي التجاري مثل: أودغست، و تنبكتو، و كومبي صالح و جني، لتتسرب بعدئذ إلى المناطق النائية من البلاد السودانية، كما أن القوافل التجارية الوافدة من المغرب الأقصى، لم تكن لتخلو من رجالات العلم و الثقافة، و آية ذلك أن كتب التاريخ ملأى بأسماء الأعلام المغاربة الذين جمعوا إلى نشاطهم التجاري تضلعهم في العلوم الدينية ومشاركتهم في شتى مناحي المعرفة، فإذا ما استقر بهم المقام انشأوا حلقات لتعليم القرآن و العبادات، و قاموا بمزوالة النشاط التعليمي و الدعوة لاتباع مبادئ الإسلام بجانب نشاطهم التجاري. [2]

إذاً الثقافة الإسلامية التي شع نورها و غمر السودان الغربي، غلبت عليها المسحة المالكية المُتشددة التي عمت المُتعلمين والشعب السوداني المُسلم حكاماً و رعية، فقد تمسك العلماء و الفقهاء بالتقاليد الشرعية إلى أبعد الحدود، و عزفوا عن مصاحبة السلاطين–إذا ما تعارض ذلك مع مبادئهم الشرعية–و عن تولي المناصب الرسمية في الدولة، و تمتعوا بالزعامة الدينية على أفراد المجتمع، و كان سلاطين الممالك الإسلامية التي قامت ببلاد السودان الغربي يقدرون هؤلاء العلماء و يجلونهم و يستفتونهم و يأتمرون بأمرهم، بل كان للعلماء عندهم شفاعة وحرمة، فمن احتمى بدار الخطيب أمن عقاب السلطان، و لم يتعرض

([1]) أسماء موسى زايد، المرجع السابق ، ص–ص217–218.

([2]) نفسه، ص218.

له أحد بسوء. و لعل ابن بطوطة كان أكثر من صور تلك الروح المالكية السودانية، تصويراً يبعث إلى الدهشة، عندما ذكر بُعدهم عن الظلم و أمانتهم و تمسكهم بأداء فروض الدين.[1]

و كان دور بلاد المغرب عموماً و الأقصى خصوصاً في نشر العلوم الشرعية الإسلامية داخل بلاد السودان الغربي له الأثر الكبير على المجتمع السوداني و نظامه، و التي قامت بتغيير نظام الأسرة و تكوين المجتمع من جديد و في قلبه وضع المرأة السودانية، و يبدو التأثير الإسلامي واضحاً في عادات الزواج فتقيد المجتمع السوداني بضوابط الشرع، و وضع نظاماً عادلاً لتقسيم الميراث السوداني و زالت الفوارق اللونية و الطبقية بين المغاربة و أهل السودان الغربي، و تزوج الوافدون من تجار و غيرهم من نساء البلاد، و أنجبوا منهن، فقد ذكر التمبكتي، أن الفقيه (محمد بن أبي بكر) المعروف بغيُغُ، هو الذي كان يفصل بين المولدين و المسافرين، و ذكر ابن بطوطة أن فقيه مدينة مالي كان متزوجاً من ابنة عم السلطان المالي.

و نتيجة لهذا التآخي وصفوا بأنهم لا يعرفون التعصب في أي صورة من صوره و لا يضمرون لأحد أي نوع من العداء. أيضاً تغيرت العادات و التقاليد، فظهرت تقاليد إسلامية- سودانية ممتزجة ببعضها البعض و قد أورد الأرواني في مخطوطته، عن انتقال معظم التقاليد و العادات المغربية إلى السودان الغربي، و من جهة أخرى ظلت بعض العادات القديمة بالبلاد. و لكن لا ننكر اختفاء الكثير من العادات الوثنية، إلا أن تلك عناصر التقاليد الباقية لم تكن لتقلل من الأثر العميق الذي أحدثه الإسلام وحضارته في المجتمع السوداني.[2]

فقد عمل الإسلام على تهذيب العديد من العادات التي كانت قائمة بالبلاد السودانية بينما قضى على بعضها الآخر، و بتوطيد مفاهيم العقيدة الإسلامية انتشرت العلوم و المدنية.[3]

أما بالنسبة لاحتفالات أهالي السودان الغربي، بالمناسبات الدينية و الأعياد، فإن أثر الثقافة الإسلامية أوضح ما يكون في ذلك، حيث أعطوا اهتماماً بالغاً لتلك المناسبات،

([1]) أسماء موسى زايد، المرجع السابق ، ص-ص218-219.

([2]) الفصل الثالث من الدراسة عن التحولات الاجتماعية.

([3]) أسماء موسى زايد، المرجع السابق ، ص-ص219-224.

و صاروا يحيونها بتنظيم الاحتفالات الكبرى التي يشارك فيها الملوك و أفراد الأسرة الحاكمة و النبيلة و مختلف فئات المجتمع، و تجدر الإشارة إلى أنه لا يمكن التوقع أن النظام الإسلامي النموذجي هو الذي ساد البلاد، و لكن لا شك أن التغيير الذي حدث كان كبيراً، و الصراع ما بين القديم والجديد ظل مستمراً إلى فترات غير قصيرة حتى وصل المجتمع إلى مرحلة النضج والازدهار الحضاري في ظل الثقافة الإسلامية. فزعزع الإسلام النظام القبلي الذي كان يقوم على العلاقات العشائرية و الولاء للزعامات القبلية.[1]

و من هنا سنتحدث عن مراكز ازدهار الحركة العلمية و الفكرية ليس باعتبارها مراكز تجارية، مع أنها أدت الدورين معاً كوجهان لعملة واحدة بشيء من التفصيل:

المطلب الثاني: أهم مراكز ازدهار الحركة العلمية والفكرية: ظهرت في السودان الغربي عدة مدن علمية فيما بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين، قامت بدور مهم في تنشيط و ازدهار الحركة العلمية و نشر الثقافة الإسلامية في المنطقة و من هذه المدن العلمية التي لعبت دوراً مهماً في ازدهار الحركة العلمية بصفة عامة والحركة الفقهية بصفة خاصة: مدينة تنبكت و جني وغاو وضواحيها. [2]

(1)- تنبكت:... و قد وصلت هذه النهضة العلمية قمتها في العقدين الأولين من النصف الثاني من القرن العاشر الهجري و لسنا نبالغ إذا قلنا خلال القرن السادس عشر الميلادي يندر أن ترى فيها من ليس له زاد في العلوم الإسلامية، و حتى الراعي وسط أغنامه و الزارع بين مزرعته لو سألته عن سورة أو مسألة في الفقه لوجد ما يقول لك فيها دون عناء لشدة اهتمام أهلها بالعلوم الإسلامية و الشرعية منها على الخصوص. فأصبحت بذلك موئل الفكر الإسلامي في السودان الغربي و منتهى الغاية و مركز الراية و أم القرى و قرارة أهل الفضل و التُقى و وطن أولي العلم و النهي... و لعل من أهم ما يؤكد هذا الأمر المثل الشعبي في السودان الغربي: "**الملح يأتي من الشمال والذهب يأتي من الجنوب و المال يأتي من دول البيض، أما كلام الله و المسائل و الطرائف العلمية و القصص و الحكايات الجميلة و الحلوة فلا توجد إلا في تنبكت**". [3] و هكذا أصبحت مكانة تنبكت في الثقافة

([1]) أسماء موسى زايد، المرجع السابق ، ص-ص225-226.

([2]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص113.

([3]) فليكس ديبوا، المصدر السابق، ص314.

الإسلامية تضاهي القيروان، و فاس، و القاهرة، و غيرها من العواصم الإسلامية التي اشتهرت في العالم الإسلامي... و من أفقها طلعت نجوم السودان و أعلامه، و قلما تجد عالماً في السودان لم يتعلم فيها أو يقيم بها زمناً. و بها أنشئت بعض التآليفات الرائعة و صنفت التصينفات الفائقة.[1]

أما قرى منطقة مدينة تنبكت فوصلت من ازدهار الحركة العلمية الكثير، مثل مدينة أروان، فأصبحت نقطة التقاء، أقبل عليها السكان من بلاد المغرب و موريتانيا و ليبيا... و كانت فيها عدة أحياء و على رأسها حي المغاربة، و بلغ ازدهار الحركة العلمية حداً كبيراً حتى أنه زارها عدة علماء مغاربة و أقاموا بها مدة منهم: محمد بن أحمد أوبا التواتي و القصري محمد بن عثمان، و محمد الأمين بن الحبيب الجكاني و أبوبكر عيسي الفلاني و عمر عبد الرحمان التواتي... [2]، كما أنها كانت بقعة العلم و الولاية والصلاح، فكان أهلها يتنافسون في العلم. وأغلب بيوتها يتم فيها تدريس أهم الكتب العلمية و الفقهية كابن الحاجب ومختصر خليل، و الرسالة، و العتبية و جمع الجوامع، و مختصر ابن عرفة، و المدونة الكبرى، و البرادعي، و غيرها من طرف العلماء الحذقة المغاربة الذين لا يشق لهم غبار. و لشدة اهتمام أهلها بالعلم كان فيهم من يحفظ نص قاموس المحيط[3]على أن هذه المدينة لعبت أيضاً دوراً تجارياً مهماً إلى جانب دورها الثقافي، حيث أن موقعها الجغرافي جعلها مُلتقى صحراوي بين الشمال المغربي و الجنوب السوداني. و أيضاً مدينة بيرو "ولاتة".[4]

(2)- مدينة جنـي: تعتبر مدينة جني من أقدم المدن السودانية التي لعبت دوراً ثقافياً و تجارياً مهماً في السودان الغربي. [5]

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص116.

([2]) أحمد أحمد الطيبي، الحضارة الإسلامية بمالي، دون دار نشر، ليبيا، 1984، ص-ص87-90. أحمد بن الأمين الشنقيطي، المصدر السابق، ص458.

([3]) القاضي محمد بن محمود بن الشيخ بيكر بن القاضي سيد أحمد الأرواني، كتاب الترجمان في تاريخ الصحراء والسودان وبلاد تنبكت وشنقيط وأروان ونبذ من تاريخ الزمان، مخطوط، بمركز أحمد بابا التنبكتي، تحت رقم 762، ص107.

([4]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق،-ص119-120.

([5]) نفسه ، ص-ص122-123.

(3)- **مدينة غاو (كوكو) وما حولها:..** و قد تم تأسيس هذه المدينة في النصف الثاني من القرن السابع الميلادي.. و منذ القرن الحادي عشر الميلادي و منذ ذلك التاريخ، ما فتئت تلعب دوراً مهماً في المجال التجاري و الثقافي نظراً لموقعها الجغرافي المهم. حيث تمر بها إحدى الطرق التجارية التي تربط السودان بمصر و بلاد المغرب و غيرها من العواصم الإسلامية، و قد لعبت هذه المدينة دوراً تجارياً وسياسياً مهماً خلال القرن الرابع عشر و الخامس عشر و السادس عشر الميلادي.(1) و وصفها الحسن الوزان: "...**و يأتي إليها عدد لا يحصي من السود حاملين كمية وافرة من الذهب ليشتروا بها أشياء مستوردة من بلاد البربر و أوروبا...**"(2). و هذا دليل على صلات بلاد المغرب بتلك المدينة.

و كان لها علاقة وطيدة مع دولة بني رستم في تاهرت حيث أن التجار الإباضيين يكثرون المجي إليها.(3) و قد استمرت هذه المدينة تلعب دورها الثقافي و العلمي طوال القرن الرابع عشر و الخامس عشر و السادس عشر الميلادية حتى سقطت مملكة سنغاي على أيدي المغاربة سنة 1591م.(4) و كان من ضمن قراها تادمكة (السوق) و التي أسهمت كثيراً في تثبيت دعائم الثقافة الإسلامية في المنطقة وأدت إلى تأجيج الحركة العلمية في السودان الغربي. وصفها البكري: "...وأهل تدمكة بربر مسلمون..." (5). و هناك أيضاً عدة قرى صغيرة في البوادي أو الأرياف ساهمت كثيراً في ازدهار الثقافة الإسلامية بصفة عامة و الحركة العلمية بصفة خاصة.(6)

---

(1) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص-ص108-110. ، الغربي محمد، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، دار رشيد للنشر، بغداد، العراق، 1982 ، ص-ص583-584. أحمد أحمد الطيبي، المرجع السابق، ص77. البكري، المصدر السابق، ص183. الإدريسي، المصدر السابق، ص28. ابن حوقل، المصدر السابق، ص91. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، تح فريد عبد العزيز الجندي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994، ص562. ابي جعفر الخوارزمي، كتاب صورة الأرض من المدن و الجبال و البحار و الجزائر و الأنهار، مطبعة أدولف هولز هوزن، فينا-النمسا،1345هـ/ 1926م ، ص6. ابن الفقيه، المصدر السابق، ص68. المراكشي، المصدر السابق، ص255.

(2) الحسن الوزان، ج2، المصدر السابق، ص169. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص132.

(3) بحاز إبراهيم بكير ،الدولة الرستمية (296-160هـ/909-777م) دراسة في الأوضاع الإقتصادية و الحياة الفكرية الجزائر، نشر جمعية التراث بغرداية، مزيدة و منقحة ، 1414هـ/1993م، ص210

(4) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص132.

(5) البكري، المصدر السابق، ص181. خبر السوق، مخطوط، في مركز أحمد بابا التنبكتي، تحت رقم 4604.

(6) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص134.

و قد أدى التواصل الحضاري و السكاني بين الشمال الإفريقي (بلدان المغرب الإسلامي) و بين مناطق السودان الغربي، لاسيما في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، إلى قيام مراكز ثقافية لعبت أدواراً مهمة فيما وراء الصحراء الكبرى. و أصبحت منارات علمية زاهرة يؤمها العلماء والطلاب من كل حدب وصوب. و قد شهدت هذه المراكز الثقافية خاصة ما بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين نهضة ثقافية و فكرية، متأثرة في ذلك بالنهضة الثقافية التي كانت سائدة في مناطق الشمال الإسلامي مثل: فاس، و مراكش، و جبل نفوسة، و طرابلس، و تونس، و سجلماسة ، و توات، و شنقيط، و غيرها، و كان من أبرز المراكز الثقافية المهجنة ما بين البضان و السودان بالسودان الغربي و في طليعتها تمبكتو وجني وغاو. ورغم أن هذه المراكز قد أُنشئت في بادئ الأمر كمراكز تجارية، فإنها لعبت أيضاً أدواراً ثقافية و فكرية مهمة. [1]

و تحدث السعدي عن المنشأ العربي و الإسلامي المغربي لتنبكتو: "**ما دنستها عبادة الأوثان و لا سجد على اديمها قط لغير الرحمان مأوى العلماء و العابدين و مألف الأولياء و الزاهدين..**" كما تحدث عن التدفق العربي المغربي المبكر إلى مدينة تنبكتو: "**...فزان و غدامس و توات و درعة و تفلالة و فاس و سوس و بيط...**" [2]، و قد شهدت تنبكتو ازدهاراً ثقافياً كبيراً و أصبحت قبلة للعلماء الوافدين من مراكز الثقافة العربية الإسلامية الذين جلسوا للتدريس بمدارسها التي بلغت مائة و خمسين مدرسة حتى نهاية القرن العاشر الهجري كما يقول كعت[3]، بالإضافة إلى مساجدها التي كانت بمثابة اللبنة الأساسية في بناء مجتمعها الإسلامي و لكونها كانت مركزاً للعبادة والتثقيف و التعليم فقد لعبت دوراً مميزاً في نشر مبادئ العقيدة الإسلامية و علوم القرآن و السنة [4].

و مما لا شك فيه أن الجاليات العربية و الإسلامية المغربية التي عاشت فيها قد أثرت تأثيراً كبيراً في الحياة الثقافية. و قد لاحظ ذلك الحسن بن الوزان في رحلته: "**... و تباع أيضاً مخطوطات تأتي من بلاد البربر و تدر أرباحاً تفوق سائر البضائع.**" [5] و قد أشاد

([1]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص182.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص21.

([3]) محمود كعت، المصدر السابق، ص180.

([4]) يوسف الكتاني، مدرسة الإمام البخاري في المغرب، دار لسان العرب، بيروت، (د.ت)، ص474.

([5]) الوزان، ج2، المصدر السابق ، ص167.

الرحالة الفرنسي دي بوا Dubois بالمكانة التي كانت تعيشها تمبكتو، و وصفها بأنها حاضرة ثقافية على صلة بغيرها من العواصم الثقافية الأخرى في المغرب و العالم الإسلامي مثل: فاس و القيروان و قرطبة و القاهرة. و يذكر أن الكثيرين من علمائها رحلوا إلى فاس و إلى القاهرة و اتصلوا بعلمائها. [1] هذا بينما تحدث السعدي عن العلماء المغاربة الذين توافدوا على تمبكتو و جلسوا للتدريس بمعاهدها و ذكر أنها كانت سوقاً للكتب تنسخ فيها المخطوطات المغربية و توزع في البلاد الأخرى، حتى وصل علماؤها المحليون نتيجة ذلك الاحتكاك إلى درجة لا تقل إن لم تزد، عن مستوى علماء المسلمين في الأقطار الأخرى[2].

و قد كانت لجني اتصالات واسعة مع المراكز الثقافية العربية الإسلامية، و بالذات الواقعة في الشمال الإفريقي، كما كان الوعي الثقافي و التأثير المغربي الإسلامي فيها ربما لا يقل عن تمبكتو و الدليل على ذلك هو ارتفاع أسعار الكتب فيها. [3] و نتيجة لصفات جني الطبيعية و الروحية التي أوردها السعدي فقد وفد عليها طلاب العلم السودانوون و الفقهاء و المعلمون من أماكن شتى ليتضح أن جني قد لعبت دوراً ثقافياً مهماً في حياة المنطقة [4]، أما غاو فقد زارها ابن بطوطة و أشار إلى أنها كانت حافلة بالعلماء والفقهاء، و خاصة الذين ينحدرون من أصول عربية وإسلامية. و لقي بها القضاة والخطباء، و قال إن هؤلاء جميعاً يتمتعون بمكانة سامية لا تتدانى [5]، كما زارها الحسن الوزان في مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، و وصفها أن بها مساجد كثيرة، و أئمة، ومعلمون يعلمون القرآن الكريم، و علوم الدين...[6].

([1]) F. Dubois: Tombouctou, l'amysterieuse, paris,1890, p. 175.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص51-62.

([3]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص215.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص11. أمطير سعد غيث، المرجع السابق، ص189.

([5]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص447.

([6]) حسن الوزان، المصدر السابق، ج2، 164.

المطلب الثالث: أماكن الدراسة و التدريس و مواضع الأبنية التعليمية و المؤسسات التلعليمية و العلمية:

حرص علماء السودان الغربي على القاء دروسهم العلمية أينما تيسر لهم اللقاء مع طلابهم، و لهذا تعددت أماكن التعليم و التعلم في منطقة السودان الغربي، فتم تعليم الصبيان في المكاتب، و طلاب العلم في المساجد، و المدارس، و المكتبات، و قصور الملوك، و الأمراء، و الولاة، و منازل العلماء، و حوانيت الوارقين، و غيرهم من الأماكن التي أسهمت في ازدهار الحركة العلمية في المثلث المديني المشهور و جعلتها في متناول العامة والخاصة.

(1)- المساجد: فتأتي المساجد في أوائل الأبنية التعليمية في تاريخ التعليم في الإسلام، و تعد المساجد من أهم المراكز التي تولت بنشر الإسلام و الثقافته العربية في غرب إفريقية، منذ ظهور الإسلام في المنطقة، كما يشير البكري لمساجد غانة في المدينة الإسلامية و الوثنية بفقائها وعلمائها قبل ظهور المرابطين[1]، الأمر الذي يدل على تجذر الحركة العلمية و الفقهية في المنطقة منذ أمد بعيد.

و من أشهر المساجد التي قامت بدور تعليمي بارز في المثلث المشهور(تنبكت–غاو–جني) مساجد تنبكت و مساجد ما حولها من المدن و القرى و نذكر منها:

1- المسجد الجامع الكبير المعروف بجنغري بير، و يعتبر هذا المسجد الجامع من أقدم المساجد و أكبرها و الذي قام بنشر الإسلام و ثقافته في منطقة تنبكت ويبدو أن تاريخ بنائه يرجع إلى القرن الثاني عشر الميلادي، ثم أعاد بناءه وتجديده المهندس الشاعر الأندلسي المشهور أبو إسحاق إبراهيم الساحلي المعروف بالطويجن الذي اصطحبه منسى موسى أثناء عودته من الحج إلى السودان، وذلك بأمر من الأخير. [2]

2-مسجد سنكري: يعد هذا المسجد الجامع من أعظم المساجد و المعاهد التي نهضت بدور التعليم في مدينة تنبكت، وتعرض لعدة إصلاحات في تاريخه الطويل. و قيل أن أول

([1]) البكري، المصدر السابق، ص175. مهدي رزق الله، حركة التجارة والإسلام و التعليم الإسلامي في غرب إفريقية، دون دار نشر، المملكة العربية السعودية، 1998، ص–ص267–277. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص–ص148–149.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص–ص56–57. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص–ص311–316.

من بناه سيدة ثرية، ثم قام بإعادة بنائه و تجديده القاضي العاقب ثم أكمل بناءه الملك أسكيا داود في أواسط القرن العاشر الهجري. و كان التعليم فيه على مستوى عالي، و يُدرس فيه المواد بشكل تخصصي و تتناول بتفصيلات واسعة وتناقش المسائل فيه على مستوى أمهات المؤلفات و لا يدرس فيه إلا الأساتذة المتضلعون في فنونهم المحيطون بكل الجزئيات في المواضع التي يدرسونها و هو شبيه بالأزهر في القاهرة و جامعة القيروان بتونس و القرويين بفاس و جامعة قرطبة بالأندلس.[1]

3-مسجد سيدي يحي التادلسي: يعتبر هذا المسجد من أقدم المساجد في تنبكت وأكبرها، و له أثر كبير في نشر الثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة، و يعزي بناؤه إلى "محمد نض" حاكم تنبكت من قِبل سلطان التوارق آنذاك "آكل"، و لا يعرف تاريخ بنائه بالتحديد، و لكن من المرجح أنه تم بناؤه في القرن الخامس عشر الميلادي/التاسع الهجري. وعندما تم بناؤه عين الحاكم "محمد نض" "يحي التادلسي" إماماً له. [2]

و إلى جانب هذه المساجد الجوامع هناك مساجد أخرى بتنبكت أصغر من هذه الثلاثة السابقة، و قد قامت هي أيضاً بدور حيوي في تثبيت دعائم الحركة العلمية مثل: مسجد خالد، التواتيين، القصبة، الهناء، كبر و تندرما [3] و يضاف إلى هذه المساجد مسجد جني الذي بناه الملك كنبر في القرن السادس الهجري و مساجد غاو... و غير ذلك من المساجد التي لم نتمكن من ذكرها [4].

و قد قامت هذه المساجد و غيرها التي توجد في المثلث المشهور بدور مهم في تنشيط الحركة العلمية بصفة عامة و الحركة الفقهية بصفة خاصة، و كانت المراكز الأساسية التي

([1]) انظر محمود كعت، المصدر السابق، ص161. السعدي،المصدر السابق، ص26. نقولا زيادة، المرجع السابق، ص350. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص-ص316-321.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص22-23. محمود كعت، المصدر السابق، ص-ص121-122. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص-ص322-323.

([3]) محمود كعت، المصدر السابق، ص، ص 91 ، 156. السعدي، المصدر السابق، ص- ص 12-13، ص، ص215، 146،. أحمد أحمد الطيبي، المرجع السابق، ص- ص 133 -138.

([4]) أحمد أحمد الطيبي، المرجع السابق، ص-ص139-141. محمود كعت، المصدر السابق، ص91.

يتم فيها تدريس المواد و المناقشات العلمية والفقهية، و أدت بذلك رسالتها كمراكز للعبادة و منابر للعلماء الذين يلقون دروسهم و خطبهم فيها كلما سنحت الفرصة ليلاً و نهاراً.[1]

(2)- الكُتاب والكتاتيب: و تعتبر الكتاتيب من أهم المراكز التي تقوم بتربية الأطفال وتعليمهم، و يتعلم الأطفال فيها المبادئ الأساسية للمراحل التالية الموالية من القراءة و الكتابة و حفظ بعض الصور عن ظهر قلب إلى جانب معرفة الفروض الدينية من عقائد و عبادات. و قد عرف المسلمون هذا النوع من التعليم منذ فجر الإسلام و ازداد الاهتمام بها بتأسيس المكاتب في عهد الخلفاء الراشدين. و يكون التركيز في هذه المرحلة على تعليم القرآن وحفظه قبل أي شيء ثم القراءة، و الكتابة، و بعض الفروض الدينية، "**فالعلم في الصغر كالنقش على الحجر**" كما أشار و أوضح ابن خلدون لتلك الأهمية في تعليم النشأ. [2]

و لهذا اهتم المجتمع السوداني بالكتاتيب لتعليم الصغار القرآن و المبادئ الدينية و خاصة في تنبكت التي وصل عدد الكتاتيب فيها خلال القرن العاشر الهجري و ما يليه ما يناهز مائة و خمسين أو ثمانين مكتباً على ما ذكره محمود كعت في معرض حديثه عن الكتاتيب في مدينة تنبكت. [3]

و مما يلاحظ أن محمود كعت يطلق اسم مدارس معلم الصبيان على الكتاتيب أحياناً. و أما السعدي فيسميه "محضراً" و ذلك عند حديثه عن أحد علماء تنبكت و إمام مسجدها الكبير، الفقيه أبي القاسم التواتي يقول عنه السعدي: "**... و بعدما توفي خلفه فيه تلميذه السيد منصور الفزاني و بعده السيد الفاضل الصالح الخير الزاهد المقرئ عالم التجويد الفقيه إبراهيم...**"[4] و لتلك الرواية دلالة مهمة ونتيجة غير مباشرة في التواجد المغاربي حتى في تعليم الصبية في الكتاتيب ما بين التواتيين والفزانيين.

و خلاصة القول أن كثرة الكتاتيب و المدارس القرآنية في منطقة تنبكت و جني يدل على اهتمام المجتمع السوداني بتربية الأطفال تربية إسلامية صحيحة وتعليمهم في زمن مبكر، كما يدل على الدور الذي لعبته الكتاتيب في انطلاقة الحركة العلمية و ازدهارها في

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص151.

([2]) نفسه ، ص-ص151-152. ابن خلدون، المصدر السابق، ص123، 239.

([3]) محمود كعت، المصدر السابق، ص180.

([4]) السعدي،المصدر السابق، ص58. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص-ص285-286.

السودان الغربي[1]، كما تأكد بروز التأثير المغاربي على أهل السودان الغربي في تعليم نشئهم وصبيتهم.

(3)- المدارس: و لئن كانت المصادر تسعفنا بمعلومات وافية عن نشأة المدارس في المشرق و انتشارها إلا أنه فيما يتعلق بغرب إفريقيا فإن المعلومات شحيحة جداً فيما يتعلق بنشأة المدارس كمؤسسة مستقلة، و قد وردت كلمة مدرس ومدرسة في المصادر التاريخية التي تتعلق بغرب إفريقيا منذ القرن العاشر الهجري، السادس عشر الميلادي لكن يبدو أنها تعني أي مكان للتدريس مجلساً كان أو حلقة علم سواء في المسجد أو خارجه، و يظهر هذا الأمر واضحا في بعض النصوص أو ما قاله السعدي في كتابه تاريخ السودان[2]. فالمدرسة في مفهوم السعدي تعني أي مكان للتدريس سواء كان حلقة علم أو غيره داخل المسجد أو خارجه. و خلاصة القول أن المدرسة في السودان الغربي تعتبر مكاناً للتدريس سواء في المسجد أو خارجه، و خاصة في القرن العاشر والحادي عشر الهجريين[3].

(4)- المكتبات: و لما كانت المكتبات من أهم الأسس التي تقوم عليها أي نهضة علمية أو فكرية، و من أهم العلامات التي يعرف بها اهتمام مجتمع ما بالعلم فقد اعتنى علماء المنطقة و حكامها و ملوكها و أمراءها بتكوين مكتبات علمية قامت بدور فعّال في نشر العلم في المنطقة لا يقل عن دور المسجد و المدارس في النهضة العلمية التي طارت شعاعها في السودان الغربي، حيث و فرت لأهل العلم بعض الكتب التي لم تكن سهلة المنال، بل كانت تصرف فيها أموال طائلة للحصول عليها [4] و تعد الكتب والمخطوطات من أغلى السلع وأربحها في أسواق السودان و خاصة في تنبكت لكثرة الإقبال عليها[5] و لهذا اهتم العلماء و الملوك والأغنياء بشراء الكتب و نسخها فكونوا بذلك مكتبات في

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص153.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص34، 47، 51، 55.

([3]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص-ص155-156.

([4]) نفسه ، ص157

([5]) حسن الوزان ، المصدر السابق، ج2 ، ص167.

بيـوتهم ملؤوهـا بكـل أنـواع الكتـب والمخطوطـات المجلوبـة مـن المشـرق و المغـرب و الأندلس.

و كان العلماء لا يمتنعون عن إعارة أو إهداء ما لديهم من كتب مهما كانت عزيزة الوجود مرتفعة القيمة، حرصاً على نشر العلم واحتساب الأجر من الله [1] و قد أدى اهتمام العلماء و الملوك بشراء الكتب و نسخها إلى كثرة المكتبات العامة و الخاصة في السودان الغربي و خاصة في تنبكت، و تعتبر المكتبات من أقدم المؤسسات العلمية على الإطلاق حيث كان الملوك والأثرياء و العلماء يحرصون على إيجاد مكتبات خاصة بهم، لاستعمالاتهم الخاصة، كما يعينون بها الطلبة و المحتاجين لإرواء ظمئهم الفكري.

و من أهم المكتبات المشهورة في السودان الغربي مكتبة أسكيا داود ومكتبة أسكيا محمد الأول و مكتبة محمد بان [2] و من المكتبات الخاصة أيضاً التي لعبت دوراً مهماً في تنشيط الحركة العلمية في المنطقة مكتبة آل اقيت بتنبكت الذين عرفوا بالعلم و اقتناء الكتب النفيسة النادرة و استنساخها، و على رأس مكتبة آل اقيت مكتبة والد احمد بابا، فقد كان "وافر الخزانة محتوية على كل علق نفيس سموحاً بإعارتها..." [3] و كان الشيخ أحمد بابا وحده يملك في خزانته 1600 مجلد و في هذا يقول "**أنا أقل عشيرتي كتباً و ذهبت لي ست عشر مائة مجلد...**" [4] و لا موارية أن هذا النص يدل دلالة واضحة على أن مكتبة أسرة أقيت مكتبة كبيرة جداً تحتوي على آلاف من الكتب.

و من المكتبات الخاصة أيضاً مكتبة أسرة بغيغ، و أعظم مكتبة أفراد أسرتها مكتبة الشيخ محمد بغيغ الذي قال عنه تلميذه أحمد بابا: "**بذل نفائس الكتب الغريبة العزيزة لهم و لا يفتش بعد ذلك عنها كائناً ما كان من جميع الفنون فضاع له بذلك جملة من كتبه...و ربما يأتي لبابه طالب يطلب كتاباً فيعطيه له من غير معرفته من هو فكان العجب العجائب في ذلك إيثار لوجهه تعالى مع محبته للكتب و تحصيلها شراء و نسخاً...**" [5] و إلى جانب هذه المكتبات الخاصة هناك

([1]) السعدي، المصدر السابق،ص42. أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق، ص–ص93–94.

([2]) محمود كعت، المصدرالسابق، ص94.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص42. أحمد بابا التنبكتي، المصدر السابق ، ص–ص90–93. محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج1، دار المغربية للتأليف و النشر و الترجمة، الرباط، 1979، ص194.

([4]) بلو عثمان بن فودي، المصدر السابق، ص–ص31–37. محمد حجي، المرجع السابق، ص194.

([5]) االسعدي، المصدر السابق، ص44.

أيضاً مكتبات عامة قامت بدور كبير في ازدهار الحركة العلمية فكانت أروان تتوفر على خزانة كبيرة و ضعت تحت رعاية القاضي يرجع إليها طلاب العلم في كل حين. [1]

و قد أسهمت هذه المكتبات الخاصة و العامة بشكل كبير في ازدهار الحركة العلمية في المثلث المشهور، حيث سهلت الحصول أو الإطلاع على الكتب النفيسة النادرة لأهل العلم. و أدى الإقبال على جمع الكتب في المكتبات العامة و الخاصة إلى ازدهار حرفة النسخ وكثرة الوارقين، كما أدى كثرة المكتبات إلى جعلها مكاناً يلتقي فيها الطلاب و العلماء لمناقشة بعض القضايا العلمية و الفقهية، و بذلك كان شغف المجتمع السوداني بالكتب جعلهم يتنافسون في جمع الكتب و شرائها و نسخها فكونوا بذلك مكتبات خاصة و عامة، و ضعوها في متناول كل من يحتاج إليها. و أصبحت هذه المكتبات أماكن يلتقي فيها العلماء و الطلاب للبحث و المناقشة و بذلك لعبت دوراً مهماً في رفع مستوى الحركة العلمية في المنطقة. [2]

(5)- منازل العلماء: و بالرغم من أن المساجد أفضل مكان للتدريس و أن البيوت لا يدرس فيها إلا عند الضرورة، فقد وجد من العلماء من جعل منزله مكاناً للتعليم، حيث وجدنا بعض العلماء في السودان الغربي أقاموا حلقات علمية في بيوتهم، يحضرها الطلاب، و كل من يريد أن يثقف نفسه، و لذا حظيت دور العلماء باحترام كبير عند الحكام، و قداسة لدى العامة.

و هكذا تعتبر منازل العلماء من أهم المراكز العلمية في السودان الغربي التي قامت بنشر العلم و تثقيف أهل العلم و طلابه حيث يجتمعون فيها للتعليم و مناقشة بعض المسائل العلمية[3]. و مما يوضح أن دور العلماء كانت مراكز للتعليم ما ذكره السعدي نقلاً عن أحمد بابا في ترجمة محمد بغيغ أنه: "**..ثم يقرأ في بيته وقت الزوال و يصلي الظهر بالناس و يدرس إلى العصر....**" [4]، و هكذا يُظهر لنا هذا النص أن دور العلماء كان مركزاً مهماً من مراكز

([1]) أحمد الطيبي، المرجع السابق، ص90.

([2]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص159.

([3]) نفسه ، ص160.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص44-45.

التعليم، كما يشخص لنا نشاط هذا العالم و اجتهاده في التعليم دون ملل و كسل و لا ضجر.

و مما يؤكد أيضاً أن بيوت العلماء كانت مركزاً للتعليم ما ذكره السعدي أثناء بعض رحلاته في السودان الغربي، حيث يقول: "**... و في يوم الخميس الثامن و العشرين من شعبان رجعت عند الفقيه المذكور (موركيبا) لسرد كتاب الشفا في بيته فاستهل على رمضان فيه ليلة الجمعة فشرعنا في السرد..و في آخر الشهر ختمته..**" [1]، و لا شك أن هذا النص و ما قبله يؤكدان أن دور العلماء كانت من أهم أماكن التلقي في السودان الغربي.

(6)- قصور الحكام: لم تقتصر الأنشطة العلمية على المساجد و المدارس و الحلقات العلمية في الخارج، و بيوت العلماء بل تعداها إلى قصور الحكام الغيورين على الدين و العلم، ففي مصادر تاريخ السودان يذكر المؤرخون أن أسكيا الكبير جعل قصره مكاناً للتعليم و إلقاء المحاضرات العلمية فيه.

و في هذا الصدد استدعى المغيلي (المغاربي) لإلقاء بعض المحاضرات في قصره. و كان اسكيا الكبير لا يجالس إلا العلماء. و يذكرون أيضاً أن أسكيا داود كان له شيخ يعلمه في بيته، و له نساخون ينسخون له. [2]

على أنه و إن لم يكن لدينا معلومات كافية عن كيفية إلقاء الدروس في قصورهم، و طبيعة هذه الدروس إلا أنه ما يمكن الجزم به هو أن قصور الحكام في السودان الغربي كانت من أهم أماكن التدريس، إذ وجدنا بعض الملوك أو الأمراء تعلموا دون أن يرتادوا الحلقات العلمية التي تقام في المساجد أو خارجها الأمر الذي يؤكد أنهم تعلموا في بيوتهم. و حاصل القول، إن قصور الحكام و الملوك و الأمراء كانت مركزاً مهماً من مراكز إشعاع الحركة العلمية في السودان الغربي، و أَخْرَجَتْ لنا حكاماً فقهاء لا يقل مستواهم المعرفي عن مستوى الفقهاء الذين تخرجوا في المدارس أو الحلقات العلمية الأخرى المعروفة في السودان الغربي. [3]

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص266-267. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص-ص291-293.

([2]) محمود كعت، المصدر السابق، ص، ص11 ، 94.

([3]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص162.

(7)- المحاضر المتنقلة: و من المراكز التي يتلقى فيها الطلبة دروسهم المعرفية في السودان الغربي المحاضر المتنقلة، و قد درس مجموعة من علماء السودان في هذا النوع من المراكز العلمية، و كانت الدراسة في المحاضر المتنقلة فعالة وجيدة جداً إذ غالباً ما تجد من تخرج فيها له مستوى معرفي رفيع. و لا يتعلق التخرج فيها بسنوات معينة أو محدودة بل هي مرهونة بقدرة الطالب وحصيلته العلمية و استيعابه لأمهات المراجع في فروع العلوم التي درسها، فإذا هضم الطالب هذه المراجع وسمعها على أيدي العلماء أو المشرف على المحضرة مرات عديدة أُعطيت إجازة علمية تؤهله للتدريس، أو الإفتاء، أو الخطابة، أو الإمامة، أو القضاء، و تتسم هذه المحاضر بعدة خصائص تميزها عن غيرها من أماكن التدريس الأخرى منها: جامعة ذات معارف موسوعية في مختلف العلوم الإنسانية، جامعة شعبية، جامعة بدوية، جامعة تلقنية، جامعة تطوعية.. و حاصل القول أن المحاضر المتنقلة من أهم مراكز التدريس التي احتضنت الطلبة في صحراء و بوادي السودان الغربي تخرج على عتباتها ثلة من العلماء تركوا أثراً واضحاً على الحضارة الإسلامية في المنطقة. [1]

(8)- الزاويا: تعتبر الزوايا من أهم المراكز العلمية التي أسهمت في انتشار العلوم الإسلامية في منطقة ما وراء الصحراء الكبرى، و إن برز دورها المهم في فترة متقدمة عن بحثنا بعد القرن العاشر الهجري، فكان لا بد من الإشارة إليها لأنها تتويج علمي و فكري بالفعل لما حدث من انطلاقات ثقافية و فكرية.. على أن هذه الزوايا تشبه المحاضر المتنقلة في كثير من مواصفاتها إلا أنها لا تتنقل مثل المحاضر. [2] ولكن ما يهمنا هنا إبراز الدور المغاربي و تأثيراته في السودان الغربي و خاصة من ناحية نشر العلوم الشرعية، فالزاويا أيضاً فكرة منقولة عن بلاد المغرب من أدناه إلى أقصاه، سواء بواسطة رحلات السودانيين إلى هناك أو مجي المغاربة إلى سودانهم و نقل أفكارهم، فأساس الحركة العلمية بمؤسساتها هي العلوم الشرعية القائمة على العقيدة الإسلامية و اللغة العربية، فالزاوية

([1]) الخليل النحوي، بلاد الشنقيط، المنارة و الرباط، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، ط1، تونس،1987، ص، ص53، 190، ص-ص53-60.

([2]) أحمد أحمد الطيبي، المرجع السابق، ص-ص145-149.

في حد ذاتها ابتكار من منطلق ديني و روحي أولاً، توليه العلوم الدينية الإسلامية اهتمامها الكبير.

الفصل الثانـي:

رحلات العلماء

المغاربة و السودانيين

بين الشمال و الجنوب:

الفصل الثاني: رحلات العلماء المغاربة و السودانيين بين الشمال و الجنوب:

المبحث الأول: أثر رحلات علماء المغرب الأوسط والأقصي إلى السودان الغربي و مظاهرها الحضارية:

و تتضح مظاهر الثقافة العربية الإسلامية في تعاظم انتشار الإسلام على المذهب المالكي عقب جهاد المرابطين و زاد من ذلك توافد العديد من التجار، و العلماء، و الفقهاء، و الأئمة، و المتصوفة المغاربة على هذه المنطقة وخاصة عقب رحلة السلطان منسى موسى إلى الحج، الذي كان يفتخر أنه مالكي المذهب، كما اشترى من مصر بعض الكتب في فقه المالكية كما تحدث عن ذلك المؤرخ تقي الدين المقريزي.[1]

و هنا لا بد من التوضيح فشراءه من مصر كتب عن الفقه المالكي ليس معناه تقصير بلاد المغرب في نشر العلوم الشرعية التي هي قضيتنا بدليل كل كتب و مصادر العلوم العربية والإسلامية كانت بالخط المغربي، و لكن ما حدث هو أن السلطان أراد أن يتعرف على أفكار المذهب المالكي من خلال الفكر المصري الشافعي، و ما يدور حول المذهب، و هذا قمة الرقي الفكري و العلمي الذي وصل بالسلطان أن يتعرف عن الدراسات المصرية في المذهب المالكي، هذا بالإضافة أن مصر أقرب جواراً لمنشأ المذهب المالكي في أراضي الحجاز و خاصة المدينة المنورة، بالعلاوة أن السلطان أيضاً كان في حجه المشهور في بلاد منشأ المذهب ذاته فهذا هو النهج السلطاني و السوداني في البحث العلمي و قواعده!

و من الواضح أن الدعوة الإسلامية في السودان الغربي، كما في غيرها من المناطق الإسلامية، قد ارتبطت باللغة العربية لغة القرآن الكريم و العلوم الإسلامية.. و من العوامل الأخرى التي ساعدت في انتشار اللغة العربية بالإضافة إلى الجانب الديني هي إدعاء معظم أهالي و حكام السودان الغربي النسب العربي الشريف، و هجرات القبائل

([1]) المقريزي تقي الدين أبي العباس، المصدر السابق، ص113.

العربيـة. و مـن العوامـل التـي أدت أيضـاً إلـى انتشـار اللغـة العربيـة أن أغلـب الأئمـة المسلمين أفتوا بعدم جواز القرآن الكريم و عدم جواز قراءته بغير اللغة العربية و وجوب أداء الصـلاة بهـا، فكـان لا بـد لمـن يريـد معرفـة أسـرار الـدين أن يـتعلم اللغـة العربيـة و يتقنهـا[1]، و أورد بعض الرحالـة الـذين وصـلوا إلـى المنطقـة فـي مسـتهل القـرن العاشـر الهجري/ السادس عشر الميلادي حول مملكة الولوف بالسنغال و جود فئة من العرب البيضـان المسـلمين المغاربـة حـول الملـك و الطبقـة الحاكمـة المسـلمة يعلمـونهم أمـور دينهم[2].

كما تأثرت طريق الكتابة عند أهالي السودان الغربي بما هو معروف عند المغاربة في الهندسة و نقوشها، و الخط و اعجام الحروف و ترتيبها، و يظهر ذلك فيما تحفل به جدران المساجد بالمنطقة من خطوط مختلفة و تتجلي بـه رسوم و آيات قرآنية حيث أن النقوش التـي وجدت بالمساجد كـان يستخدم فيها الخط الكوفي و الخطـوط الهندسية في كتابة الآيات القرآنية، و هذا أثر مغربي واضح.

و قـد وصـف القلقشـندي ذلـك بقولـه: "**...و كتـابتهم بـالخط المغربـي علـى طريقـة المغاربة...**"[3]، و وضحت هذه الطريقة في النصوص العربية المصورة و الكتب المنشورة، مثل تاريخ الفتاش و تاريخ السودان وغيرهما، و من خصائص هذه الكتابة أن نقطة حرف الفـاء توضـع أسفل الحـرف، كمـا يستبدل بنقطتـي حرف القـاف نقطـة واحدة توضـع فوق الحرف، و هذا بجانب رسم الحروف الذي يختلف قليلاً عن الرسم المعروف في بعض مقاطعه و يقرب ممـا نعرفـه الخـط الكـوفي [4]، و فـي مجـال التعلـيم و الحركـة التعليميـة، و هو أخصب الميادين إنتاجاً للغة العربية في السودان الغربي، كان أساس التعليم العربي

---

(1) داوود ولد عبدالله، دور الشناقطة في نشر الثقافة العربية الإسلامية بغرب افريقيا حتى نهاية القرن الثامن عشر، نواكشط، حوليات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، الع 11، نواكشط، 1989، ص25.

(2) نفسه، ص25.

(3) القلقشندي، المصدر السابق،ج5، ص298.

(4) إبراهيم طرخان، الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، دار النصر للطباعة ، القاهرة، 1969، ص72.

الإسلامي حفظ القرآن و تفسيره و دراسة اللغة العربية و العلوم الإسلامية، و ذلك في أشهر مراكز الثقافة العربية الإسلامية بالمنطقة[1].

فمن المعروف أن الإسلام امتد إلى السودان الغربي عن طريق بلاد المغرب، و من ثم فإن الأثر الثقافي لبلاد المغرب على السودان الغربي لا يدانيه أثر آخر، و المعروف كذلك أنه غلبت على ثقافة بلاد المغرب الدينية التقاليد المالكية، و هي جميعاً تدور حول فقه مالك، و العلوم المساعدة الأخرى التي تخدم هذا الفقه، و تساعد على فهم هذه الثقافة المالكية التي وضحت في القيروان، و انتقلت منها إلى المغرب الأقصى و الأندلس حملها البربر معهم إلى السودان الغربي و غرب أفريقية، فغلبت على الثقافة فيها، و قل أن تجد في السودان الغربي مذهباً إلا مذهب الإمام مالك، و فقهاً إلا فقه مالك[2].

و الفقهاء المغاربة بما لهم من مكانة طيبة في المجتمع السوداني–و أيضاً المغاربي– تركوا آثاراً واضحة في الحياة السودانية –و المغربية أيضاً– فطبعوها بطابع المذهب المالكي، و كادت مدارس الثقافة الإسلامية في السودان الغربي و غرب إفريقية أن تكون مدارس مغربية بحتة، فكأننا في فاس، أو أودغشت، أو مراكش، أو القيروان، نفس الأسلوب و نفس الحياة، نفس المُثل و نفس الوسائل، حتى طريقة الكتاب نفسها تأثرت بالطابع المغربي، فالقلم العربي المستخدم هو القلم المغربي[3]، و الكتب المتداولة في السودان الغربي هي نفس الكتب المستعملة في بلاد المغرب مثل كتب عياض ، و كتب سحنون، و شروح ابن القاسم، و خليل، و كتب المغيلي، و الونشريسي، و موطأ مالك، و المدونة، و الخزرجية، و تحفة الحكام و العباد[4].

و تعتبر نماذج التأليف السوداني نماذج مغربية الصورة، و دليلنا على ذلك مؤلفات الفقيه السوداني أحمد بابا التنبكتي الذي يعتبر من أكثر السودانيين تأليفاً و تم حصر مخطوطاته فبلغت نيفاً وثلاثين نذكر منها: نيل الابتهاج بالذيل على الديباج، و كفاية

([1]) أمطير سعد غيث، المرجع السابق، ص198.

([2]) حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في افريقيا، دار الفكر العربي، ط3، القاهرة، 1986، ص266.

([3]) نفسه، ص266.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص–ص29–46.

المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، و قد اتبع الطريقة المغربية في التأليف في كتاباته، و كذلك الشأن في مؤلفات محمود كعت التنبكتي صاحب كتاب الفتاش، الذي ألف كتابه بنفس الأسلوب المغربي المألوف[1].

و على الرغم من تأثر الثقافة الإسلامية في السودان الغربي بثقافة المغرب، فان هذه الثقافة لم تكن أقل غزارة و عمقاً من ثقافة المغرب، و النماذج التي ذُكرت في كتب التراجم لا يقل مستواها وتحصيلها للعلم عن العلماء المغاربة، فقد تلقوا التعليم بنفس الطريقة و درسوا منهجاً واحداً، وكانوا حريصين على التعليم كما اقتنوا المكتبات الضخمة كالمغاربة تماماً[2].

و الواضح أن علماء السودان الغربي قد وصلوا مستوى في العلم والمعرفة لا يقل عن مستوى علماء المدارس الإسلامية الأخرى، إن لم يكن قد فاقوهم في بعض النواحي. و قد روى السعدي لنا أن فقيهاً اسمه عبد الرحمن التميمي جاء من الحجاز بصحبة السلطان منسى موسى بعد عودته من الحجاز فأقام بتنبكت، و لما رأى رجالها يتفوقون عليه، غادرها إلى فاس[3].

و قد دُعي بعض العلماء السودانيين للتدريس في جامعة الأزهر، و من أشهرهم الفقيه المفسر ابن عبد الرحيم [4]، و يشير الألوري إلى مستوى أدباء السودان الغربي في عهد الممالك الإسلامية وينسبه إلى أهل نيجيريا، على أساس امتداد مملكة سنغي إلى شمال نيجيريا في أوج ازدهارها[5].

و يشير صاحب كتاب الفتاش إلى عمق الصلات بين المغرب و السودان الغربي بدليل أن عدداً كبيراً من العلماء فيها ترجع أصولهم إلى المغرب. و في ذلك يقول: "...**فأعلم أن..فقهاؤها كلهم من أصل واحد و جميع من يلقب...و كل من كان في هذا الإقليم أصلهم من المغرب من وعكري**"[6].

---

(1) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص267.

(2) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص178.

(3) السعدي، المصدر السابق، ص-ص51-62.

(4) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص137.

(5) الألوري (آدم عبد الله)، الإسلام في نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1962،ص42.

(6) محمود كعت، المصدر السابق، ص48.

فكانت جميع العلوم و المعارف تُدرس باللغة العربية، اللغة الرسمية في الدواوين و لغة الثقافة،غير أن العامة كانوا يتحدثون باللغات الوطنية، كما كانت خطبة الجمعة تُلقى باللغة العربية، ثم تعقبها ترجمة باللغة المحلية يلقيها مُساعد الإمام، و شهد ابن بطوطة ذلك بنفسه في السوق في مالي رجلاً بيده رمح يقف ويبين للناس بلسانهم كلام الخطيب، و أشاد بن بطوطة بالحياة الثقافية و الفكرية الإسلامية و العربية في مالي[1].

و قام التجار بتعميق العلاقات الثقافية فأنشأوا المدارس لتعليم القرآن، و أقاموا المساجد، و إلى جانب مزوالتهم النشاط الإقتصادي، فإنهم مارسوا نشاطاً تعليمياً ثقافياً كذلك.. فالتاجر يجمع بين نشر الدعوة وبيع سلعته [2].

فدور الدعاةِ و المعلمين المغاربةِ و أثرهم في العلاقات الثقافية بين شواطئ الصحراء كان واضحاً، ففي الدول التي اتُّخِذَ فيها القرآن أساساً للحكم في كل المسائل الدينية، تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجاً شديداً لكي يفسروا معاني القرآن. فلقد درس كثير من هؤلاء المعلمين في مدارس القيروان وفاس، و طرابلس، و القاهرة [3].

و قد كان المغرب المنبع الأصلي الذي أمد بلاد السودان الغربي بالعلماء و الدعاة، و يؤكد لنا الألوري هذه الحقيقة بقوله: "**يتصل مسلمو نيجيريا بمسلمي المغرب اتصالاً قوياً أدى إلى أن يكون في نيجيريا من العقيدة و المذهب و الطريقة مثل ما في المغرب حذو النعل بالنعل، و يفد علماء المغرب كثيراً إلى نيجريا لنشر العلم.. منهم من يرجع إلى بلاده و منهم من يستوطنها إلى آخر عمره و من ذلك ما سجله التاريخ من مكث الشيخ عبد الكريم المغيلي التلمساني بكثير من بلاد نيجريا الشمالية في القرن التاسع الهجري**". [4]

و قد قام بعض العلماء بدور بارز في نمو العلاقات الثقافية بين المغرب و السودان الغربي، و تتضح هذه الحقيقة من ترجمة لاثنين من أولئك العلماء وهما: الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي العالم المغربي، و الشيخ أحمد بابا التبكتي العالم السوداني. [5]

([1]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ج2، ص307.

([2]) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص، ص57، 33.

([3]) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص34.

([4]) الألوري (آدم عبد الله)،المرجع السابق، ص19.

([5]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص184.

و يتضح لنا من نص أجوبة المغيلي على أسئلة الأسكيا في عمن يصلح للولاية شرعاً أن فكرة المهدية في السودان الغربي قد تكون من الأفكار التي بينها المغيلي و أمثاله من العلماء، (**و ما المهدي المنتظر إلا رجل يقوم بتجديد الدين**). [1]

و يتضح من ردود المغيلي على الأسكيا أن باب الوظائف كان مفتوحاً في السودان الغربي للعلماء من العالم الإسلامي كله، وخاصة بلاد المغرب، و نعلم أن كثيراً من العلماء هاجروا إلى السودان الغربي و استقبلوا أحسن الاستقبال، و طاب لهم المقام هناك، فأثرو الحياة الدينية، والفكرية، وبذلوا جهوداً واضحة في هذا المجال، ولعل عالمنا الجليل المغيلي واحد منهم.[2]

و نستنتج من هذه المخطوطة مدى الدور الذي قام به علماء المغرب في خدمة السودان الغربي عامة، و ما قام به المغيلي في مملكة سنغي أيام الأمير أسكيا محمد بصفة خاصة[3]، و لقد قدر السودانيون للمغيلي هذا المجهود العظيم، و أنصفه العالم السوداني أحمد بابا حين قال عن: " **العالم العلامة المحقق الفهامة، القدوة الصالح...الخير، أحد أذكياء العالم و فرد العلماء النجباء الذين أتوا بسطة العلم و الصلابة في الدين**..." [4]، و نستطيع أن نؤكد من النصوص السابقة أن الدور الذي قام به العالم الجليل المغيلي لا يدانيه أي دور قام به عالم مغربي في السودان الغربي، فقد ترك أثراً إسلامياً كبيراً، و قام بتصحيح مفاهيم كثيرة كانت مغلوطة في أذهان العامة و السلاطين[5].

و يشير أحمد بابا إلى تنقل الطلاب من أستاذ إلى آخر لتلقي العلم، حسب عادتهم في مزاولة التعليم العالي، و يجوز للطالب الذي تمكن من مادة أن يقوم بتدريسها، و لكنه يبقى في بقية المواد التي لم يبلغ فيها المستوى...تلميذاً. [6]

و كان نظام الشهادات معروفاً في عهدي سلطنتي مالي و سنغاي، فكلما آنس الأستاذ من أحد طلبته تمكنا في مادة من المواد منحه إجازة بخط يده. [1]

([1]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق ، ص186.

([2]) نفسه ، ص-ص187-188.

([3]) نفسه، ص188.

([4]) التنبكتي، نيل الابتهاج بالذيل على الدبياج، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم D766، ورقتان 217-218.

([5]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص191.

([6]) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص146.

و قد كانت الأبحاث على جانب من النشاط في العلوم الشرعية و اللغوية، غير أنها ظلت تتصف بالاستيعاب دون أن تتجاوزه إلى مرحلة الإنتاج المستغل باستثناء التاريخ، إذ ترك أحمد بابا أكثر من سبعمائة مجلد، و لكن مؤلفاته لم تخرج من نطاق التصنيف، و الشرح، والإفتاء في موضوعات فقهية على الأكثر و قليل منها كان في النحو.[2]

كما أن الحجَّ قد ترك آثاراً واضحة في نمو الصلات الثقافية بين السودان الغربي و بلاد المغرب، و يبدو أن بعض أهل المغرب كانوا يسافرون لأداء فريضة الحج عن طريق السودان الغربي، و بذلك أصبح الحج وسيلة من وسائل الاتصال بالمغرب كذلك كما يتضح مما أورده ابن خلدون عن حج أحد زعماء الموحدين[3]، و العكس صحيح فالحج لدى شعوب و حكام السودان الغربي كان يتم في الغالب عن طريق بلاد المغرب، كرحلة حج السلطان منسى موسي و السلطان منسى سليمان من دولة مالي، و حج أسكيا محمد الكبير، فالمعروف أن هناك عدة طرق يسلكها الحجاج إلى الحج، فأحدهما يسير من السودان الغربي إلى مصر شرقاً، و الآخر عن طريق المغرب، و لا يخامرني أدنى شك في أن العديد من المغاربة يرافقون السودانيون في طريقهم للحج، و يلتقي الحجاج السودانيون بالعديد من العلماء المغاربة، كما يزرون المراكز الثقافية في المغرب أثناء رحلة الحج، فيتعلمون الكثير من حضارة المغرب وتراثه، و يقومون بنقل ما تعلموه إلى بلادهم ويطبقونه عليها، و هذا يؤكد لنا الدور الكبير الذي كان يلعبه الحج في السودان الغربي في عهد سلطنتي مالي وسنغاي.

و قد تأثر سلاطين الممالك الإسلامية في السودان الغربي بعلماء المغرب، و كانوا يستشيرونهم في حكم بلادهم، و عرف عن السلطان أسكيا محمد أنه كان يتصل بعلماء المغرب باستمرار خاصة العالم المغربي عبد الكريم المغيلي.[4]

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص46.

([2]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص198.

([3]) ابن خلدون، العبر، ج7، المصدر السابق، ص665.

([4]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص204.

و يمكن القول أن مراكش كانت بمثابة بوتقة للعلم اختلط فيها علماء المغرب بعلماء السودان الغربي، و أنتجوا لنا ثقافة وعلماً مشتركاً، أخذ يشع على المغرب و السودان في وقت واحد. [1]

و قد كان علماء المغرب و علماء السودان بمراكش يتصلون بالعلماء في أقطار العالم الإسلامي الأخرى، و يتراسلون، و يتزاورون، و من دلائل هذه الصلات الرسالة التي بعث بها الفقيه أحمد بابا العالم السوداني أثناء نفيه بمراكش إلى علماء مصر[2].

و يقول الألوري: "**و كان طلاب العلم في صدر عهدهم يرتحلون إلى بلاد المغرب لطلب العلم بها، و يأخذ بعضهم في مهاجري العرب و من السياحيين إلى بلاد المغرب، و لما ارتكز العلم بمدينة تنبكت، رجع الناس إليها في طلب العلم، إذ أنها أقرب إليهم من غيرها فارتادوا ديار العلم بها حتى نبغ فيهم عدد كبير من أهل العلم و عند ذلك اكتفوا بما في بلادهم و صاروا لا يطلبون العلم إلى سواها ولا يحتاجون إلى غير مؤلفات علمائها الراسخين في العلم**"[3].

و حديث الألوري فيه شيء من الحقيقة، و لكن جانبه الخطأ في بعض أحكامه، لأنه حتى بعد ازدهار تنبكت علمياً وفكرياً فإن الصلات المغاربية السودانية لم تنقطع قط حتى ما بعد القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، فطلب العلم يتطلب طلب الرحلة أو الإجازة العلمية من الخارج أو حتى الإطلاع على بعض الاتجاهات الفكرية القديمة و الجديدة فيما يحدث في الشطر الشمالي المغاربي، أو الاحتياج إلى الكتب و المخطوطات والتي هي مكانها الطبيعي بلاد المغرب للتعرف على ما حدث من كتابة في العلوم الإسلامية و خاصة الشرعية منها المرتبطة بالعقيدة و السنة النبوية.

و قد قامت بين تنبكت و بين جامعات المغرب الإسلامي علاقات وثيقة، إذ تدين تنبكت في ثقافتها و حضارتها إلى المغرب، فكانت على اتصال وثيق غير منقطع بمراكش، و تونس، و الجزائر، و غدامس، و طرابلس، و كان علماء المغرب دائبي الحركة إلى تنبكت، كما كان علماء تنبكت كثيراً ما يقيمون بفاس أو مراكش يعلمون و يتعلمون [4].

([1]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق ، ص210.

([2]) نفسه ، ص196.

([3]) الألوري (آدم عبد الله)، المرجع السابق، ص27.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص39-61.

و زخرت مدينة جني بالعلم و العلماء، و انتقل العلماء منها إلى بلاد المغرب، و إلى تنبكت، كما ورد إليها الكثيرون منهم كما يؤكد السعدي[1].

أما عن إرسال البعثات العلمية للخارج فقد حرص ملوك السودان الغربي المسلمون على إرسال أفواج متتالية من الوطنيين الأفارقة إلى المنارات العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي و مصر و أهمها: القاهرة، و طرابلس، و فزان، و القيروان، و فاس، و غيرهم لينهلوا من منابعها ثم يعودوا إلى أوطانهم لينشروا الإسلام و اللغة العربية في ربوعها[2] ، و كان بعض الطلاب السودانيين يسافر إلى المراكز الثقافية العربية الإسلامية للتعمق في الدراسات و ذلك بعد حصولهم على الإجازات الدراسية من المراكز العلمية بالمنطقة [3] و قد ارتفع عدد هؤلاء النازحين إلى المراكز الثقافية العربية في بلدان المغرب. و بالإضافة إلى ذلك فقد وفد إلى المنطقة العديد من العلماء و الفقهاء و أقاموا بها و قُدمت لهم ضروب المساعدة مما دعاهم إلى إطالة الإقامة بالمنطقة، و من أمثلة هؤلاء المغيلي، و جلال الدِّين السيوطي وغيرهم من علماء فاس، و مراكش، و شنقيط، و كل هذا يتضح صداه فيما كتبه السعدي وكعت وأحمد بابا وغيرهم من مؤرخي هذه الفترة.

من المعروف أن معظم الإتصالات الثقافية ما بين بلاد الشمال الإفريقي و بلاد السودان الغربي كانت تمر عبر المغرب التي يُقصد بها كل من: المغرب الأقصى، و الجزائر، و تونس. و قد كان لهذه البلاد دور متميز نتيجة لموقعها الاستراتيجي المهم كملتقى لعدة تيارات حضارية مثل: التيار الحضاري الوافد من المشرق الإسلامي، و التيار الوافد عبر البحر المتوسط، و التيار الأندلسي، بالإضافة إلى المؤثرات الإفريقية، و تبلورت هذه التيارات جميعاً في النهضة الكبرى التي شهدتها بلاد المغرب منذ بواكير تدفق الحضارة العربية الإسلامية إلى ربوعها في القرن الأول للهجرة/السابع للميلاد [4].

([1]) السعدي، المصدر السابق ، ص13.

([2]) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص137.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص16.

([4]) السيد أحمد الباز، الحياة العلمية والثقافية في بلاد السودان الغربي في عهد دولتي مالي وسنغاي 1240-1591م، ط1، الافريقية الدولية للنشر، القاهرة، 2012م، ص139.

و الجدير بالذكر أن الصلات الثقافية بين بلاد المغرب و بين السودان الغربي كانت ضاربة الجذور، بحيث أن المؤثرات الثقافية على بلاد السودان الغربي كانت بالدرجة الأولى مغربية السمات، فالمدارس كادت تكون مغربية بحتة، فالدارس هناك يحس وكأنه درس في مدارس فاس، أو مراكش، أو القيروان، أو تلمسان، و ذلك لأن تلك المؤسسات التعليمية في المنطقة كانت تنتهج أسلوب التعليم المغربي و مقرراته، و حتى طريقة الكتابة كانت متأثرة بالطابع المغربي، إذ إنها استخدمت القلم المغربي نفسه. و قد وصفت الثقافة في غرب افريقيا عموماً، و في السودان الغربي خصوصاً، بأنها ثقافة مغربية في أرض سودانية. و لا يعني ذلك أن النمط الثقافي للسودان الغربي لم يتأثر بالأنماط الثقافية بالمشرق العربي.[1]

و لعل من أبرز مظاهر هذا التأثير و تلك الاتصالات الثقافية التي تمت بين بلاد المغرب و بلاد السودان الغربي ذلك الإثراء العلمي الذي تركه العالم الجليل و الإمام المجدد محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الذي يَمَّمَ صوب بلاد السودان و وصل في أوائل القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد إلى جاو عاصمة مملكة سنغاي، و التقى الأسكيا محمد الكبير وعمل مستشاراً سياسياً و فقيهاً له [2]، و من العلماء المغاربة الذين أثّروا ثقافياً من خلال انتشار مؤلفاتهم في المنطقة الفقيه أحمد بن يحي بن محمد الونشريسي (843-914هـ/1439-1508م)، الذي و إن لم يصل إلى المنطقة هو الآخر فإنه أصبح معروفاً فيها من خلال عديد مؤلفاته، و التي يأتي في مقدمتها مصنّفه الشهير: المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية و الأندلس و المغرب، والذي كان من المواد الدراسية المعروفة في المراكز الثقافية والتعليمية بالمنطقة[3]، و كذلك الفقيه أبو القاسم التواتي الذي رحل صحبة ثلة من العلماء و استقر

([1]) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص244.

([2]) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج،المصدر السابق(مخطوط)، ص577. وأيضاً أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج2، دراسة وتح: محمد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1421هـ/2000م، ص214.

(3) للمزيد عن الونشريسي، انظر: التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص-ص135-136. السعدي، المصدر السابق، ص46. ابن مريم (محمد بن محمد بن أحمد)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مر محمد أبو شنب، المطبعة التعليمية، الجزائر، 1908م، ص 54.

بتنبكت و جلس فيها مُعلماً بالجامع الكبير، و كان على صلة وثيقة بالأسكيا محمد الكبير الذي كان يُصلي مأموماً خلفه[1] و هذا دليلٌ عل مكانته العالية في السودان الغربي، وظل يحظى بالمكانة نفسها حتى وفاته عام 935هـ/1527م. [2]

الفقيه سيدي أبي القاسم التواتي (ت 935هـ): هو الشيخ الفاضل الصالح الولي سيدي أبو القاسم التواتي، كان رحمه الله عالماً فقيهاً فاضلاً صالحاً خيراً زاهداً عابداً عارفاً بالله تعالى، مدرساً تولي إمامة المسجد الجامع بعد وفاة عبدالله البلبالي، و أسس محضراً قرب المسجد يدرس في الأطفال. و كان رحمه الله منفقاً على المداحين في المولد النبوي، و هو أول من ابتدأ قراءة الختمة في المصحف بعد صلاة الجمعة مع قراءة حروف من العشرينيات، ولأجل هذه الختمة حبس الأمير أسكيا الحاج تابوتاً فيه 60 جزءاً من المصحف على ذلك المسجد. ظل رحمه الله في التدريس و الإمامة و الإفتاء إلى أن وافته المنية العام 935هـ. [3]

و من أمثلة هؤلاء العلماء الذين عاشوا في السودان الغربي و قامو بأدوار مهمة في تاريخه، الفقيه إبراهيم الخضر الفاسي، الذي قدم على المنطقة من بلاد المغرب و عاش فيها وعاصر الأسكيا محمد الكبير و عمل كاتباً خاصاً له و استمر في منصبه حتى توفي و خلفه في منصبه ابنه حوي.[4]

و رغم تعدد الشخصيات المغربية التي أدت أدوراً ثقافية مهّمة في السودان الغربي، فإننا سنكتفي بالإشارة إلى بعض هذه الشخصيات التي أجازت طلاباً سودانيين، فلقد أفاد العديد من المصادر التاريخية بقيام علماء من المغرب بإجازة تلاميذهم من أبناء منطقة السودان الغربي.

([1]) محمد الغربي، المرجع السابق، ص-ص515-516.

([2]) البرتلي، المصدر السابق، ص70.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص16-19، 59. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص282.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص68.

المبحث الثاني: علماء طرابلس الغرب يتوافدون في طلب الرحلة إلى السودان الغربي:

إن الاتصالات الثقافية بين السودان الغربي و بين طرابلس الغرب ترجع إلى فترات زمنية سابقةٍ لبداية هذا البحث أي القرن الخامس الهجري(1)، و لا شك أن موقع طرابلس على طريق الحج ساهم إلى حد بعيد في خلق فرص اللقاء و الاندماج و التصاهر و إطلاع كل منهما على الظروف المختلفة للطرف الآخر.

و تتحدث المصادر التاريخية عن صلات ثقافية بعيدة المدى ربطت بعض أعلام طرابلس بهذه المنطقة، كما تجدر الإشارة إلى أن العديد من الأسر السودانية كانت تطلق أسماء بعض الأعلام الطرابلسية و غيرها على أبنائها، و ذلك فيما يبدو تيمناً بهذه الشخصيات الثقافية و الدينية، و قد لاحظ الباحث ذلك أثناء مراجعته لبعض الوثائق و المخطوطات الموجودة في بعض المراكز البحثية بالمنطقة و في خزائن بعض الأسر العلمية، و ذلك خلال جمعه مادة هذه الدرسة.

و غني عن البيان أن تركيبة مجتمع السودان الغربي قد تأثرت-إلى حد بعيد- بالتدفق البشري الوافد إليها من الشمال الإفريقي منذ أحقاب زمنية سابقة ولاحقة لفترة البحث، و إزداد هذا التأثير بعد الإسلام، لأن هؤلاء الوافدين قد أسهموا-إلى حد بعيد- في نشر الإسلام والثقافة العربية، و ذلك من خلال تكوين حلقات الدرس و الوعظ و الإرشاد في المناطق التي وصلوها. وتتحدث المصادر التاريخي عن الدور المهم الذي لعبه علماء وتجار طرابلسيون جاءوا من كل من فزان وغدامس وغات وأوجلة، و وصلوا إلى بلاد السودان الغربي، واستوطنوا مدينة تنبكت، و صار الحي الذي يسكنوه في المدينة الأخيرة من أرقى الأحياء، و هناك قاموا بالتدريس و التأليف و تولّوا منصب الإمامة والقضاء(2)، وساهموا في نشر العلوم الشرعية من علوم القرآن و اللغة و التفسير

---

(1) من أوضح الأدلة على الصلات الثقافية القديمة بين طرابلس الغرب والسودان الغربي ما ذُكر عن إسلام أحد ملوك مالي على يد داعية إباضية من جبل نفوسة، رغم الاختلاف في تحديد اسم هذا الداعية. راجع: أحمد إلياس حسين، دور الفقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي قبل القرن الثالث عشر الميلادي، ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية، الخرطوم، 1983م، ص91 وما بعدها.

(2) الإدريسي، المصدر السابق، ص312. الحمّيري، المصدر السابق، ص، ص 72، 139.

و الحديث إلى غيرها من تلك العلوم، حتى أصبحوا من ذوي الباع في هذا المجال، و أخذ عنهم الكثير وتأثروا بهم وبملفاتهم الشرعية.

و لعل من أبرز مظاهر هذا التأثير المغربي الطرابلسي و تلك الاتصالات الثقافية بين بلاد السودان الغربي و طرابلس الغرب، ذلك الإثراء العلمي الذي تركه الشيخ أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسي البرنسي الفاسي الشهير بزروق (846-899هـ/1442-1493م)، و رغم أن العلم المُشار إليه مغربي الأصل و المولد، فإنه من جانب آخر طرابلسي الإقامة والمدفن، ولذا عدّ من أهالي طرابلس الغرب، و قد أثّر هذا العلم الثقافي الكبير في بلاد السودان الغربي من خلال انتشار مؤلفاته الشرعية فيها [1] ، كما عاشت بعض الشخصيات الطرابلسية في السودان الغربي مثل تنبكت و السوق و جاو و جني وغيرها من الأماكن الأخرى. و قد اشتهر الفقيه فياض الغدامسي بالعدل و الاستقامة و حظي بثقة الحكام و الأهالي، و تولى تزكية الشهود عند القضاة، فمن شهد له بالعدالة اعتبر عادلاً و من لم يشهد له أُلغيت شهادته مهما كانت شخصيته، و لم يزل في ذلك المنصب حتى توفي، ومن الأدلة على المكانة العالية التي حازها فياض الغدامسي، هي ذلك المظهر المهيب الذي شهدته جنازته، و التي خرج فيها للصلاة عليه أشهر فقهاء تنبكت، و في مقدمتهم الفقيه محمود بن عمر أقيت مع كبر سنّه و ضعف جسمه[2].

و يستنتج الباحث من هذه المعلومة التاريخية المصدرية أن الفقيه فياض الغدامسي قد عاصر الفقيه محمود بن عمر حتى أواخر حياته، و بما أن الفقيه محمود بن عمر قد توفي حوالي عام 988هـ/1548م، فيرجَّح أن يكون الفقيه فياض عاش قبل نهاية العقد الخامس من القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي، و لكن ما يهمنا أن تعليقاته

([1]) للمزيد حول أحمد زروق: انظر: السخاوي (محمد بن عبد الرحمن)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، ج1، بيروت، (د. ت)، ص222. التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص-ص130-134. كفاية المحتاج، ج2، المصدر السابق، ص-ص 126-128. عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، 1410هـ/1999م، ص-ص 85-97. عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ج1، دار العلم للملايين بيروت، 1968م ، ص155. علي فهمي خشيم، أحمد زروق و الزروقية، دراسة حياة وفكر ومذهب وطريقة، ط2، المشأة الشعبية للنشر، طرابلس، 1980م، ص-ص 5-12. وغيرهم.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص59، 64.

على المصادر الشرعية المغاربية و السودانية كانت ثمينة إلى حد كبير لأهالي السودان الغربي، ناهيك عن الفتاوي و الأحكام الشرعية و علوم اللغة العربية.

و أما الفقيه منصور الفزاني الذي تولى منصب الإمامة و القضاء في تنبكت بعد وفاة أستاذه أبي القاسم التواتي، و قام بتدريس الأطفال فيها، و قد كان يتتلمذ على يد العالم أبي القاسم التواتي (ت 935هـ/1528م)[1] و من هنا يمكن الاستنتاج أن هذا الفقيه قد عاش في النصف الأول من القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد أو ما بعده، علماً بأن ليست هناك معلومة تاريخية تفيد بتاريخ وفاته.

و العالم الطرابلسي عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الطشاني (ت 960هـ/1553م)، الشهير بالتاجوري، و كان يُلقَّب بالعالم الميقاتي، و قد كان للتاجوري صلة ثقافية بالسودان الغربي من خلال أستاذيته لعدد من علمائها، مثل: أحمد بن محمود بغيغ (ت 987هـ/1570م)، الذي تتلمذ عليه في مكة المكرمة [2]، و كذلك شقيقه الفقيه محمد محمود بغيغ، (930-1002هـ/1523-1593م)، أستاذ أحمد بابا، الذي جلس في مجالسه العلمية في مكة المكرمة على ما أورده أحمد بابا في نيله [3]، و يتضح مما ورد أعلاه أن الشيخ عبد الرحمن التاجوري قد هاجر من طرابلس الغرب و عاش في مكة المكرمة، و قد عُرف من مؤلفاته الشرعية -حتى الآن- خمسة عشر مؤلفاً. و هذا يعني أن بوجوده في أراضي الحجاز قد ساعد عن طريق تلاميذه و من زاره من العلماء السودانية في الأراضي الحجازية أن ساعد على توطيد واستقرار المذهب المالكي في التأليف فيه والشرح، و بذلك يكون من العلماء والفقهاء المغاربة الذين ساعدوا بقوة على نشر العلوم الشرعية المالكية من بلاد المغرب إلى السودان الغربي و الشاهد مؤلفاته الكثيرة و تلاميذه المتعددين.

و قد كانت للعلاّمة الطرابلسي أبي عبد الله محمد بن على بن مصطفي الخروبي (ت 963هـ/1555م)، تأثيرات مباشرة و غير مباشرة على علماء السودان الغربي،

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص 58-59.

([2]) محمد حجي، المرجع السابق، ص297. التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص141، كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج2، ص239. البرتلي، المصدر السابق، ص29.

([3]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص601.

و خصوصاً في مجال التصوف، و من هذه التأثيرات غير المباشرة، ما أشار إليه العلاّمة أحمد بابا التنبكتي من أن أبا عبدالله الخروبي هو شيخ شيوخه، حيث قال: "...**و قد أجازني سيدي الشيخ الصوفي أحمد بن أبي القاسم الهروي التادلي ما أجازه شيخه العريف الخروبي تلميذ زروق عنه**"[1].

و واضح من هذا النص أن الفقيه أحمد بابا قد تلقّى علوم التصوف عن الشيخ أحمد الزروق المُشار إليه أعلاه، وذلك بشكل غير مباشر أما الصوفي سيدي عبد السلام بن سليم الفيتوري الشهير بالأسمر (880-981هـ/1468-1570م)، فهو يُعد من أبرز رجالات التصوف في طرابلس الغرب خلال القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، حتى اشتهر بأنه من أتباع الطريقة العروسية، بل إنه هو الذي وضع أسسها وأورادها، و هو مدفون في مدينة زلتين بليبيا [2]، و قد عرف عبد السلام الأسمر بصلاته المتعددة بأهالي السودان الغربي، و قد كانت هذه الصلات نتاجاً لمرورهم بطرابلس الغرب ذهاباً و إياباً في رحلاتهم إلى الحج، و من أبرز هؤلاء الذين ارتبطوا بالشيخ الأسمر على ما أوردته المصادر التاريخية، هو الفقيه أحمد بن أحمد أقيت التنبكتي (929-990هـ/1522-1583م)-والد العلاّمة أحمد بابا- و الذي تتلمذ على الشيخ الأسمر وأخذ عنه التصوف [3] و بالتالي يتضح الدور المغاربي الطرابلسي في تعليم و تثقيف النخبة المحلية بالسودان الغربي من خلال المقابلات المباشرة أو من خلال انتشار مؤلفاتهم في العلوم الشرعية و العربية إلى تلك المنطقة.

و قد أكد الشيخ كريم الدين البرموني (893-998هـ/1492-1590م)، و هو تلميذ الشيخ عبد السلام الأسمر وكاتب سيرته، في مؤلفه: مناقب الشيخ عبد السلام الأسمر، صلات الشيخ الأسمر الواسعة بأهالي و علماء السودان الغربي، و لاسيما سكان تنبكت و أحد رموزها الثقافية الفقيه أحمد بن أحمد بن أقيت، و في هذا الشأن يقول الشيخ كريم

---

(1) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص132.

(2) حول السيرة الذاتية للشيخ عبد السلام الأسمر: انظر: مخلوف (محمد بن محمد)، مواهب الرحيم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم، مكتبة النجاح، طرابلس، (د.ت)، ص-ص6-14. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مج3، مؤسسة الرسالة، ط1، 1993، دمشق، سوريا، ص223. دار الكتب الليبية، دليل المؤلفين العرب الليبيين، منشورات أمانة الإعلام الثقافية، طرابلس، 1977، ص-ص207-208.

(3) مخلوف، المصدر السابق، ص257.

الدين البرموني: "...و من ذلك ما كتب لأصحابه الذين هم بتنبكت سيدي أحمد بن أحمد بن أقيت و جماعته وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم...من الفقير لله عبد السلام بن سليم الفيتوري إلى الأحباب و الأنجاب جعلهم الله من أهل السنة و الكتب، السلام عليكم و رحمة الله و بركاته. و بعد، فهذه نصيحة مني إليكم و هي الحمل سمو الصلاة و السلام على سيدنا محمد وآله و أصحابه و سلم و أعلموا رحمكم الله أحق شيء بالتقديم و النصيحة الوصية بتقوى الله و اتباع سنت [سنّة] رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوصيكم أيها الفقراء المنتسبون إلينا وإلى طريقة العروسية بأن لا تكونوا...مُبدلين و لا مغيرين و لا معاندين ولا مجادلين...فأول ما يجب عليكم تصحيح إيمانكم ثم معرفة ما يصلح لكم من فرض العين كالطهارة و الوضوء و الصلاة ونحو ذلك. و تعلّموا النحو و هو دين [زين] الكلام و جمال النطق و تقويم اللسان وعلم من أشرف العلوم و يزيد المرء بعلمه فهماً و فضلاً و يكبره العلماء و لا يتم اللحن والشعر إلا به... و لا يجوز لأحد أن يتكلم في كتب [كتاب] الله حتى يكون مُلماً بالنحو فإن القرآن عربي و لا يعرف مقاصده إلا بمعرفة مقاصد اللغة العربية... و أوصيكم بالحرص على طلب العلم النافع قراءة ومطالعة و مذاكرة لأن علم الدين أفضل ما يحوزه العبد من المراتب... و آخر دعوانا أن الحمد الله رب العالمين..." (1).

و هذا لدليل واضح و قرينة ساطعة على اهتمام بلاد المغرب بنشر العلوم الشرعية في بلاد السودان، فبرز هذا الدور من خلال رسالة عبد السلام الأسمر التي أوردها تلميذه كريم الدين البرموني، و التي بها نصائح دينية و عقيدية مهمة كان على نمطها نشر العلوم الشرعية و من العلوم المساعدة من علوم اللغة و النحو إلى غير ذلك.

و لم تتوقف صلات عبد السلام الأسمر المباشرة عند أحمد بن أحمد أقيت، بل امتدت إلى ابن عمه العاقب بن محمود أقيت التنبكتي (913-991هـ/1507-1583م)، والذي التقى الشيخ الأسمر أثناء رحلته إلى مكة المكرمة برسم الحج، و أخذ عنه التلقين، أي الطريقة العروسية و أورادها، و في هذا السياق يُثار استفسار و تساؤل منطقي حول اهتمام أحمد بابا بذكر أستاذيه عبد الرحمن التاجوري لكل من: والده أحمد أقيت و أستاذه محمد بغيغ -كما سلف- و لم يشر إلى اتصال العاقب بن أقيت بعبد السلام الأسمر، رغم أنه على معرفة تامة بالعاقب و بأحواله نتيجة لمعاصرته له فضلاً عن أن صلة قرابة

---

(1) البرموني (كريم الدين)، مناقب الشيخ عبد السلام الفيتوري، مخطوط، مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، رقم 821، طرابلس، ورقة 104-105 ب، ورقة 11.

جمعت بينهما، باعتبارهما سليلي أسرة آل أقيت التنبكتية الشهيرة، و كان العاقب أستاذاً لأحمد بابا و قد أجازه إجازه عامة[1]،و إجابة ذلك الاستفسار في اعتقاد الباحث أن سبب ذلك ربما يعود إلى ضياع بعض مؤلفات أحمد بابا التي ربما تحوي الإشارة التاريخية التي تتحدث عن صلة العاقب بن أقيت بالشيخ عبد السلام الأسمر.

و يمكن استنباط بعض الحقائق التاريخية عن صلات بلاد السودان الغربي مع طرابلس الغرب من هذه الوثيقة و منها: أن مكانة طرابلس الغرب الثقافية و العلمية قد وصلت إلى درجة مرموقة، خاصة أيام الشيخ عبد السلام الأسمر، الذي كان أهالي تنبكت و غيرهم يقصدونه لإسداء النصحية في شؤونهم الدينية و الدنيوية، كما أن هذه الوثيقة قد كشفت النقاب عن جانب آخر من شخصية الشيخ عبد السلام الأسمر التي كانت بعض المصادر التاريخية تصفها بأنها صوفية وصاحبة كرامات و خوارق فقط، حيث أضافت إلى هذه الخصال المشهود له بها حقيقة أنه كان عالماً و فقيهاً و مربياً و داعياً للطريقة العروسية التي كان لها حظ من الانتشار في تنبكت وما حولها[2]، و كذلك تؤكد أيضاً مدى تضلع الشيخ الأسمر في كثير من العلوم الدينية و اللغوية و غيرها.

و من العلماء الطرابلسيين الذين عاشوا في بلاد السودان الغربي في أواخر فترة بحثنا، و أبدعوا و ازدهروا بعد فترة الدراسة في القرن الموالي: الفقيه محمد بن بدر بن حمود الفزاني (ت 1037هـ/1628م) [3]، و الشيخ أبي بكر بلقاسم الغدامسي (ت 1051هـ/1641م) والد الشيخ عبدالله بن أبي بكر الغدامسي الذي ولد في تنبكت عام 1035هـ/1625م، و نعرف من ذلك أن والده كان يعيش في تنبكت عند مولده في ذلك العام[4]، و من الأدلة على عمق التبادل الثقافي و الفكري بين طرابلس الغرب و السودان

---

(1) مخلوف، (محمد بن محمد)، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2003م، ص286.

(2) البرموني، المخطوط السابق، ورقة 104 ب.

(3) السعدي، المصدر السابق، ص245.

(4) عمار جحيدر، واحة غدامس منطلقاً للتواصل الثقافي بين ليبيا وجنوب الصحراء، ملاحظات أولية من خلال مخطوط تذكير الناسي، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، مر و تق: عبد الحميد عبد الإله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1999م، ص239 وما بعدها.

الغربي هي انتقال العديد من مؤلفات علماء طرابلس في العلوم الشرعية و تداولها –كمواد دراسة– على نطاق واسع بين علماء وطلاب المنطقة.

و كذلك العالم الشهير محمد بن يوسف السنوسي (832–895هـ/1428–1490م) عالم بلاد المغرب الكبير في عصره و مؤلف التصانيف العديدة التي من أهمها: عقيدة أهل التوحيد، و تسمي العقيدة الكبرى، و عقيدة أم البراهين، و تسمى العقيدة الصغرى، كما اشتهر بوضع الشروح للمتون و التعليق على المنظومات، كما عًرف بالتصوف و نُسب إليه عدد من الكرامات[1] و رغم عدم زيارة الإمام السنوسي إلى بلاد السودان الغربي، كما فعل نظيره المغيلي، فإنه أثر ثقافياً فيها من خلال الانتشار الواسع لمؤلفاته العديدة، و خاصة المعروفة بعقائد السنوسي، و التي صارت مادة أساسية في مناهج التعليم بالمنطقة[2].

المبحث الثالث: الدور الثقافي و الإصلاحي لعلماء بلاد المغرب و آثارهم في السودان الغربي (المغيلي أنموذجاً):

و رغم الدور الثقافي المهم الذي قام به الفقهاء و المعلمون و الأئمة المغاربة في تطوير حياة مجتمعات المنطقة نحو الأفضل، واهتمامهم بنشر قيم الخير و العدالة والمساواة التي تبشَّر بها العقيدة الإسلامية وعلومها الشرعية، فإنهم لم يصلوا إلى مبتغاهم في نشر أفكارهم، وتدل قرائن الأحوال على أنه كان هناك صراع خفي قائم بين الإسلام الذي انتشر بين قاعدة عريضة من القبائل السودانية من ناحية، و التقاليد الوثنية الموروثة، و اتضح ذلك في أوائل القرن السادس عشر الميلادي و قبلها بقليل، و منها

وأيضاً الغدامسي (محمد بن محمد بن موسي بن مهلهل)، تذكير الناسي وتليين القلب القاسي بذكر شيء من مناقب الشيخ سيدي عبد الله بن أبي بكر الغدامسي، مخطوط، بمكتبة الشيخ محمد النعاس قرزة، غير مصنفة، ليبيا، ورقة 13 ب.

([1]) للمزيد حول الإمام السنوسي، انظر: ابن مريم (محمد بن محمد بن أحمد)، المصدر السابق، ص–ص257–258. و التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص–ص563–572.

([2]) نفسه ، ص602. السعدي، المصدر السابق، ص46.

تلك الممارسات التي أظهرت سني على ملك السنغاي والتي تمثلت في جوره على الرعية و اضطهاده لأهل العلم، و عدم تمسكه بالشريعة [1].

و يظهر أن الأمر تفاقم إلى درجة أن استنجد أحد فقهاء المنطقة و هو الفقيه شمس الدين اللمتوني الصنهاجي المغربي بالإمام عبد الرحمن السيوطي الذي أجاب عن تلك الاستفسارات و وردت في سفره المهم (الحاوي للفتاوي)، و يتبين من تلك الوثيقة التاريخية مدى التردي التي وصلت إليه أحوال الناس في السودان الغربي بسبب بطش بعض حكامهم –آنذاك– من آل سني و تعسفهم دون الشريعة، و تبين أن تلك الممارسات كانت تتم في غياب التوعية الدينية و الفكرية السليمة التي ينبغي أن يضطلع بها الفقهاء المغاربة في مجتمع السودان الغربي ما أدى إلى عدم التزام العديد منهم مما جاء في كتاب الله و سنّة رسوله الكريم **(صلى الله عليه وسلم)**، بل أصبحوا يجحدون الثواب و العقاب و البعث والحساب، كما تبين أيضاً ما وصلت إليه أخلاق بعض الرعية من التدني فلم يعودوا يتمسكون بمكارم الأخلاق، فانتشرت بينهم النميمة، و التجسس، و البخل، و الجبن، و القسوة، و الظلم، و شهادة الزور، و امتهان المهن الحقيرة كالتسول و القمار و الشعوذة. [2]

و رغم هذه الصورة الكاتمة في بعض فترات السودان الغربي انحطاطاً لا يمنع هذا من صورة مشرقة أخرى عن الجانب المضيء من الثقافة العربية الإسلامية و علومها الشرعية التي تنتشر يومياً و خاصة على أيدي المغاربة البيضان و الطبقة المحلية في منطقة السودان الغربي. و لكن فلماذا وصل الأمر إلى هذا السوء في بلاد السودان؟ تقريباً الإجابة معروفة ضمنا من النصوص المصدرية، و خاصة عندما استعان عالم مغربي من أبناء المنطقة السودانية و المغربية بعالم مشرقي هو جلال الدين السيوطي، هي أن تقلصت انتشار الحركة العلمية و الفكرية في السودان الغربي نتيجة قلة توافد المغاربة و تواجدهم في السودان الغربي في تلك الفترات الحالكة.

([1]) محمد عبد الكريم المغيلى، أسئلة الأسكيا وأجوبه المغيلى القرن 16م، مخطوط، تح عبد القادر زبادية، الجزائر، 1974م، ص-ص34-37. السعدي، المصدر السابق، ص60.

(2) السيوطي جلال الدين، الحاوي للفتاوي، مج1، دار الكتب العلمية، 2000م ، ص- ص284-291.

فهاهو الأسكيا محمد الكبير يستعين بأحد علماء بلدان المغرب- بعد فترة ظلم سني على-لتصحيح وإصلاح العقيدة الإسلامية و علومها الشرعية ببلاد السودان الغربي، حيث سطَّر رسالته الشهيرة طالباً الفتوى و النصحية من الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، و هي الوثيقة التاريخية المغاربية الشهيرة التي عُرفت بـ (أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي). و معلوم أن الرسالة المذكورة تتفق إلى حد بعيد في أفكارها وتشخصيها للواقع الثقافي و الاجتماعي لبلاد السودان الغربي مع ما أورده الفقيه شمس الدين اللمتوني المغربي في رسالته الآنفة الذكر إلى جلال الدين السيوطي.[1]

و غني عن البيان أن دور التجار المغاربة في هذه المنطقة لم يقتصر على التجارة و المناشط الاقتصادية فحسب، بل قاموا بنشر اللغة العربية و بناء المساجد والمدارس لتعليم القرآن الكريم، و هكذا أضحى التجار يقومون بمهمة الدعوة للإسلام و نشر العلوم الشرعية إلى جانب نشاطهم التجاري، فحملوا معهم العقيدة الإسلامية و الحضارة العربية، و كان من نتائج احتكاكهم واختلاطهم بأهالي تلك البلاد أن حدث التزاوج و المصاهرة المغربية مع العديد من الأسر المحلية في المنطقة، ما أدى إلى انتشار الإسلام تدريجياً و سلمياً في تلك المناطق[2] و بذا لم يعد من السهل وضع فاصل بين الدور الذي قام به هؤلاء التجار، و الدور الذي قام به الدعاة، بل غالباً ما كان هذان الدوران يجتمعان في رجل واحد ألا و هو التاجر. [3]

كما تحدث السعدي عن هجرة بطون من قبيلة مسوفة الصنهاجية المغربية إلى ولاتة وبطون أخرى من ذات القبيلة أسست تنبكت حوالي القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي كما أخبرنا ابن بطوطة عن هجرة بعض القبائل من الشمال الأفريقي إلى بلاد السودان الغربي و أسسوا مدينة مالي أو ينى عاصمة مملكة مالي-آنذاك-، كما أخبرنا أيضاً أن بعض الفخوذ العربية الآتيه عبر بلدان المغرب كانت تسكن جاوا [4]، و من

([1]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص155.

([2]) يوسف فضل حسن، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، ندوة أعمال العرب وافريقيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984م، ص39.

([3]) عبلة محمد سلطان، العناصر المغربية في السودان الغربي، الدار الإفريقية الدولية، القاهرة، 2012م، ص123.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص20.

أولي الهجرات القبلية الجماعية التي يمَّمت صوب السودان الغربي هي قبائل صنهاجة المغاربية بفروعها المختلفة وخاصة مسوفة و جدالة ولمتونة، والتي أدت أدوراً مهمة في حياة المنطقة و بالذات في الحياة الثقافية.. كما شهدت المنطقة سيلاً من هجرات البدو المنطلقين من الشمال الأفريقي و الباحثين عن المرعى و الماء لحيواناتهم التي هي أساس ثروتهم. (1)

فكانت الأدلة على تأثر النخبة المحلية السودانية بعلماء وعلوم المغرب الإسلامية ظهور نماذج من أعلام الثقافة العربية الإسلامية و إسهاماتها العلمية المتميزة. فبرز خلال فترة الدراسة من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجريين عدد من العلماء و الفقهاء الذين قاموا بأدوار ثقافية مهمة في حياة بلاد السودان الغربي، تشربوا الثقافة العربية الإسلامية المغاربية. و قد كتب هؤلاء العلماء إنتاجهم العلمي المتأثر بالمغاربة باللغة العربية، و خلقوا تراثاً علمياً هائلاً في شتى مناحي المعرفة الإنسانية على الطريقة المغاربية، و لا سيما في مجال العلوم الدينية و اللغوية و التاريخية، غير أن جملة من هذه المؤلفات و المخطوطات قد امتدت إليها يد الضياع، و لم يتم العثور عليها، و يرجح أن سبب ذلك يرجع في معظمه إلى الظروف السياسية المختلفة التي تعرضت لها المنطقة عبر العصور.

كما يُعتقد أن الاستعمار الأوروبي الذي صار يطوق المنطقة منذ منتصف القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر الميلادي، و الذي احتلها فعلياً عسكرياً منذ أواخر القرن الثالث عشر للهجرة/التاسع عشر للميلاد، قد عمل على تدمير الموروث الثقافي و العلمي للمنطقة، و نقل الكثير من المخطوطات و الآثار إلى مكتباته و متحافه، كما أن العديد من الأسر في تلك البقاع ما زالت في حوزتها العديد من المخطوطات التي آلت إليها من أسلافها، و هي تعدّها مقتنيات شخصية و عائلية من الصعب التفريط فيها. (2)

و لم يقف احترام العلماء ومؤلفاتهم العلمية على عهد الأساكي، بل تم الوصول إلى مادة مصدرية تؤكد استمرار ذلك التقدير و الاحترام للعلماء و الفقهاء في عهد الباشاوات

---

(1) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص-ص44-49. ص160.

(2) نفسه ، ص-ص 263-264.

المغاربة الذين حكموا بلاد السودان الغربي في القرن الحادي عشر للهجرة، السابع عشر للميلاد.[1]

و لإبراز الأهمية القصوى التي وصلت إليها الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي متأثرين بإخوانهم المغاربة الذين نشرروا علومهم وزرعوها، وجاء وقت حصادها بالدور المهم الذي قام به بعض أعلام المنطقة السودانية تأليفاً وتعليماً وفتوى بإبراز دور نماذج من هؤلاء العلماء وإنتاجهم العلمي منهم:

(1)- محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني (790-909هـ/1388-1503م):

ينتسب الإمام أبو عبدالله محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني إلى قبيلة مغيلة التي تقطن نواحي تلمسان في بلاد المغرب، و قد كان من المثقفين و أولي الفكر في عصره[2] حتى أصبح من العلماء الذين يُشار إليهم بالبنان ولا يشقُ لهم غبار و وصف بأنه خاتم الأئمة المحققين و العالم العلاّمة و القدوة الصالح[3]، و تظهر لنا قرائن الأحوال أنه حين سافر الإمام المغيلي إلى بلاد السودان الغربي كانت شهرته كفقيه وعالم من علماء زمانه قد سبقته إلى تلك الربوع.

فالمغيلي كان في مستوى علمي يُضاهي العالم المصري الشهير الإمام عبد الرحمن السيوطي، حيث اختلف الاثنان في مسألة المنطق اليوناني، و وقعت بينهما مراسلات في هذا الشأن رفض فيها السيوطي المنطق اليوناني، و أنكر على المغيلي ذهابه هذا المذهب[4].

و تظهر قرائن الأحوال أن الإمام المغيلي-بعد إقامته ببلاد الهوسا وقيامه بدور مهم في حياتها السياسية والثقافية والاجتماعية- توجه صوب مدينة جاو عاصمة مملكة سنغي-آنذاك- و التي كانت تعيش ازدهاراً ملحوظاً في ظل حكم ملوكها الأسكيين في

---

(1) محمود كعت، المصدر السابق، ص182. السعدي، المصدر السابق، ص، ص227، 291. امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص266.

(2) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص-ص576-579. كفاية المحتاج: ج2، المصدر السابق، ص-ص213-214. ابن مريم، المصدر السابق، ص-ص235-255.

(3) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص276.

(4) عبد القادر زبادية، التلمساني محمد عبد الكريم، بعض آثاره وأعماله في الجنوب الجزائري وبلاد السودان، مجلة الأصالة، الجزائر، 1975م، ص213.

بداية القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد، و اتصل بالأسكيا محمد الكبير وصار في وظيفة المستشار السياسي و الفقهي له، و ألَّف له تأليفاً حول بعض الأمور الفقهية[1].

أما عن آثاره العلمية فقد ألَّف المغيلي مؤلفات عدة في مجال الفقه و اللغة العربية و الحديث الشريف و علم الكلام و المنطق، وقد أحصاها الفقيه أحمد بابا بخمسة عشر مؤلفاً [2]. هذا بجانب تأليفه الصوفي و نشره الطريقة القادرية بمنطقة السودان الغربي و غرب أفريقيا عموماً[3]. و من أهم مؤلفاته في مجال الفقه: مصباح الأرواح في أصول الفلاح في كرّاسين، و حاشية على مختصر خليل سماها إكليل مغني اللبيب، و قطعة على البوع سماها مفتاح الكنوز، و إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل، و تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوى مقامات العارفين، ومختصر تلخيص المفتاح و شرحه[4] و غيرها.

و في مجال علوم اللغة العربية و آدابها، ألف المغيلي مقدمة في العربية [5]، كما كان الفقيه المغيلي عالماً في مجال التفسير، و قد ألف في هذا المجال، تفسير فاتحة الكتاب، و البدر المنير في علوم التفسير و غيرهما. و من أبرز مؤلفاته العلمية مؤلفه الشهير في مجال الحديث الشريف و عنوانه: مفتاح النظر في علم الحديث[6]، كما ألف الفقيه المغيلي في مجال علم الكلام والمنطق، و من أبرز مؤلفاته في هذا المجال: رجز المغيلي في المنطق[7]، و منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب وثلاثة شروح عليها،

([1]) التنبكتي،نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص577. كفاية المحتاج: ج2، المصدر السابق، ص214. ابن مريم، المصدر السابق، ص-ص255.

([2]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص-ص577-578.

([3]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص-ص172-173.

([4]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص577. كفاية المحتاج، ج2 المصدر السابق، ص214.

([5]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص578. كفاية المحتاج، ج2، المصدر السابق، ص214.

([6]) ابن مريم، المصدر السابق، ص-ص254-256.

(7) محمد عبد الكريم المغيلي، رجز المغيلي، في المنطق، مخطوط، معهد البحوث والعلوم الإنسانية، تحت رقم 202، نيامي/النيجر، (د.ت).

و ألف تأليفاً عُرف بمراسلات المغيلي مع السيوطي[1]، و قد نالت مؤلفاته في علم الكلام و المنطق حظاً معتبراً من الشروح و التعليق و التحشية، و من بينها: الرسالة التي أعدها الفقيه أحمد بن عمر أقيت بعنوان: إمناح الأحباب في منح الأحباب[2]، و الرسالتان اللتان أعدهما الفقيه محمد بن محمود بن عمر أقيت، و هما أرجوزة على شرح منظومة المغيلي و شرح وتعليق على رجز المغيلي في المنطق. [3]

و من آثاره أيضاً إجابته عن أسئلة الأسكيا محمد الكبير الذي وجَّهها له بعد أن وصل إلى بلاد سنغي[4]، و قد ظلت مخطوطة هذه الأسئلة القيِّمة في طيِّ النسيان حتى عثر عليها الباحث الجزائري عبد القادر زبادية في المكتبة الوطنية بالجزائر، وهي بعنوان: أسئلة الأسكيا و أجوبة المغيلي، حيث قام بتحقيقها وإصدارها في كتاب عن الشركة الوطنية للنشر و التوزيع بالجزائر عام 1406هـ/1974م، [5]. ثم أعاد نشرها ضمن مادة كتاب: الحضارة العربية و التأثير الأوروبي في أفريقيا جنوب الصحراء[6] الذي صدر عن المؤسسة الوطنية للكتاب عام 1410هـ/1989م، و قد أبدى الأسكيا محمد في رسالته -المُشار إليها- الشكوى من جهل علماء بلاده بالأمور الدينية و اللغة العربية، و بالتالي عدم أهليتهم الشرعية لتولي المناصب المهمة في الدولة، و قد أبدى المغيلي في إجابته للأسكيا جملة من النصائح حاثاً إياه على تقريب أهل منه و أن يسأل أهل الذكر ليحكم بمقتضى الشريعة الإسلامية[7].

([1]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص-ص578-579. ابن مريم، المصدر السابق، ص-ص254-256. وآدم عبدالله الألوري، المرجع السابق، ص98.

([2]) أقيت (أحمد بن عمر بن محمد): إمناح الأحباب في منح الأحباب، مخطوط، مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية، منطق، رقم 1945، تنبكت، مالي.

([3]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص597. محمد الغربي، المرجع السابق، ص، ص517، 545. نعيم قداح ،إفريقيا فى ظل الإسلام، مر عمر الحكم كوناكرى 1969م، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975م ، ص46.

([4]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص577. كفاية المحتاج، ج2، المصدر السابق، ص214. ابن مريم، المصدر السابق، ص-ص255.

([5]) المغيلي، أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي القرن 16م ، مخطوط حققه عبدالقادر زبادية، الجزائر، 1974م.

([6]) عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي، ص-ص119-151.

([7]) المغيلي، أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي، المخطوط السابق، ص-ص24-25.

و تعتبر أجوبة المغيلي عن أسئلة الأسكيا وثيقة تاريخية مهمة، و ذلك لأنها احتوت معلومات قيّمة عن الأوضاع السياسية و الاقتصادية والاجتماعية و الثقافية التي كانت تعيشها بلاد السودان الغربي حينذاك و قد ركز المغيلي جهوده للتأثير في أفكار حكام و علماء وأهالي السودان. أما تاريخ هذه الوثيقة فهو 908-909هـ/1502-1503م على ما استنتجه الباحث عبد القادر زبادية في مقدمته لتحقيق هذه الأسئلة. و تمخضت جهود الإمام المغيلي في بلاد السودان الغربي في أوائل القرن العاشر للهجرة/ السادس عشر للميلاد إلى تفجير ما يمكن أن نسميه الثورة الفقهية الإصلاحية الكبرى الداعية لتصحيح المفاهيم، و إحياء السنة وإماتة البدعة، وهذا ما يدعو إلى وصفه بالإمام المجدد في بداية العصور الحديثة، كما يُستنتج أن هذه الجهود الدعوية للإمام المغيلي و هذه الأفكار الإصلاحية التي صار يبثها هي التي أثَّرت في أفكار و اتجاهات قادة حركة التجديد و الإصلاح و اليقظة الإسلامية، فيما بعد، الذين فجروا و قادوا حركة اليقظة الإسلامية في غرب إفريقيا في القرن الثالث عشر الهجري: التاسع عشر للميلاد، و لعل الإطلاع على إجاباته عن أسئلة الأسكيا يؤكد ما ذهبنا إليه. (1)

و من خلال ما قرأنا و ما أدركنا من المادة المصدرية و الخطية عن الإمام محمد عبد الكريم المغيلي التلمساني المغربي، يتأكد لدينا الدور الساطع لبلاد المغرب في نشر العلوم الشرعية و أحكامها في بلاد السودان الغربي، فهذا هو المغربي التلمساني الذي أجاد في كافة العلوم إطلاعاً و تأليفاً و تدريساً، و من بينها العلوم الشرعية التي هي صدد البحث، و نشرها في ربوع منطقة السودان الغربي فهو مؤلف لكثير من علوم الفقة، و الفتوى، والحديث، و التفسير، و الكلام، و المنطق، و التصوف، و إلى غير ذلك من العلوم الشرعية.. كما ذكرنا أعلاه.

و للتدليل هنا عن انتصار الرأي و الفكر السوداني و تفوقه على الرأي و الفكر المغاربي، ما حدث بين القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت، و بين الإمام محمد بن عبد الكريم المغربي من جهة، و من ناحية أخرى يبرز هذا الموقف على شدته و صرامته و وقوفه ضد الأحكام الخاطئة حتى و لو كانت من الحكام، فهنا يمكن الإشارة إلى

(1) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص272.

مُعارضته الأمر الصادر من الفقيه محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني المغربي و المدعوم من الأسكيا محمد الكبير، و القاضي باعتقال التجار اليهود المقيمين–آنذاك– في مدينة جاو، و ذلك في قصة الصراع المعروف ما بين الإمام المغيلي واليهود المقيمين بتوات. و قد أقنع القاضي محمود بن عمر الأسكيا محمد بالعودة عن قراره و العفو عنهم[1]، و بالتالي فلا بد أن نترجم للقاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت (686–988هـ/1463–1548م) في مجال التعليم مارس محمود بن عمر التدريس مدة تقارب نصف قرن، و كانت دروسه تتعلق بصفة أساسية ببعض العلوم الشرعية مثل: التوحيد، و التفسير، و الحديث، و الفقه. و يعتقد أن أول من أدخل تدريس مختصر خليل إلى السودان الغربي[2]، و قد ساهم الفقيه محمود بن عمر من خلال دروسه في تكوين عدد من العلماء في معظم تخصصات العلوم العربية والإسلامية، ومن بين هؤلاء أبناؤه القضاة الثلاثة[3]، أما عن آثاره العلمية: و تؤكد الرواية الشفوية لتنبكت أن الفقيه محمود بن عمر قام بكتابة تعليقين على مختصر خليل وكذلك ألَّف معجماً بلغة السنغي، و لكن أي أثر من تلك الآثار العلمية المهمة لم يتم العثور عليها على ما ذكر امطير سعد غيث. [4]

(2)– العاقب بن عبدالله الأنصمني المسوفي (التكدي المغربي)(كان حياً قرب 955هـ/1543م):[5]

ينتمي الفقيه العاقب بن عبدالله الأنصمني المسوفي إلى قبائل مسوفة الصنهاجية المغربية، و لُقب بالأنصمني نسبة إلى قرية أنصمن إحدى ضواحي مدينة تكدا المغربية،

([1]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص577.

([2]) نفسه، ص607. التنبكتي، كفاية المحتاج، ج2، المصدر السابق، ص245. السعدي، المصدر السابق، ص، ص 75، 38.

([3]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص، ص 577، 608. كفاية المحتاج، ج2، المصدر السابق، ص245–246. السعدي، المصدر السابق، ص75.

([4]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص278.

([5]) عن ترجمته، انظر: التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص353. كفاية المحتاج، ج1، المصدر السابق، ص377. السعدي، المصدر السابق، ص41. مخلوف، المصدر السابق، ص278. ابن فودي، إنفاق الميسور، المصدر السابق، ص–ص64–65.

و قد جلس في مجالس الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي[1]، و عن آثاره العلمية، أهمها في أربعة مهمة: فتوى الجواب المحدود عن أسئلة الفقيه محمد بن محمود بن عمر أقيت، أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير الأسكيا محمد الكبير، وجوب الجمعة بقرية أنصمن، تعليق على قول خليل، لخصه الفقيه أحمد بابا وسماه: تنبيه الواقف على تحرير وخصصت نية الحالف. [2]

المبحث الرابع: رحلات علماء وطلاب العلم من بلاد السودان إلى بلاد المغرب وأثرهم:

المطلب الأول: إجازات علماء السودان الغربي إلى المغاربة- أحمد بابا التنبكتي (أنموذجاً)- :

و في إطار التواصل الثقافي و مثلما منح بعض العلماء المغاربة إجازات علمية لتلاميذهم السودانيين، فقد منح بعض العلماء السودانيين إجازات علمية إلى بعض تلاميذهم المغاربة، و من أشهر هؤلاء العلماء الفقيه أحمد بابا التنبكتي، الذي نقل و عائلته إلى مدينة مراكش في أعقاب امتداد الحكم المغربي إلى المنطقة، كما سيرد توضيحه لاحقاً، و قد جلس للتدريس في جامع الشرفاء بمراكش (جامع المواسين اليوم)، و انهالت عليه جموع المتعلمين من أساتذة و طلاب، بحيث استبدل بعضهم عمامة الفقيه بجلباب التلاميذ و تحدثت بعض المصادر التاريخية -المعاصرة لتلك الفترة- عن الأثر الذي تركه أحمد بابا في المغرب الأقصى من نشره للعلم و مزاولته للتدريس والتأليف.

فالعالم أبو العباس البوسعيدي السوسي، مؤلف كتاب بدل المناصحة الذي فُقد، و قد نقلت عنه بعض المصادر[3]، أشار إلى وجود عقدة بلسان أستاذه أحمد بابا، و أن منهم حديثه يحتاج إلى معاشرته طويلاً غير أنه أردف قائلاً: "... **تصدّر التدريس و تنافس كبار الطلبة على الأخذ منه و كثير منهم ممن تصدر للإقراء**...".

و أشار إلى المعني نفسه -تقريباً- المؤرخ القادري، بحيث قال: "... **و نفع الله به هذا القطر المغربي، و حمل منه علم غزير، و استفيد ما عنده من التحقيق والتمرير، و قد اشتهر فيه**

([1]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص577. كفاية المحتاج، ج2، المصدر السابق، ص214. ابن مريم، المصدر السابق، ص-ص254.

([2]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص553. كفاية المحتاج، ج1، المصدر السابق،ص377.

([3]) عبد الرحمن محمد ميغا، أحمد بابا التنبكتي وجهوده في الفقه المالكي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، غير منشورة، دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا، الرباط، 1999-2000م، ص149.

اشتهار أهله، و تحققت فيه مكانة قدره وفضله....". [1] و لم يكتف أحمد بابا بإعطاء الدروس لتلاميذه، بل منحهم الإجازات العلمية و من هذه الإجارزات التي منحها لتلاميذه المغاربة إجازته إلى أب الفضل الحاحي، وجاء في نصها: "**....ذلك إجازة الإمام المحدث أبي الفضل محمد بن عبدالله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي من يسر الله وروحه.**" و نصها: **الحمد لله وحده وصلى الله علي سيدنا محمد وآله وصحبه تسليماً. يقول العبد الفقير لرحمة ربه القدير أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت خار الله في أموره نجح قصده و لطف به و بأسلافه: أجزت لسيدي وعدتي السيد النبيه الزكي القدوة العارف بالله سيدي وبركتي أبي الفضل يحي بن سيدنا و قدوتنا من نتوسل به إلى الله أن يسعدنا أبي محمد عبدالله بن سيدي الأجلّ الولي المرابط الخيِّر سعيد بن عبد المنعم نفعنا الله بهم آمين لإخوته ولأولاد أخوته كلهم أن يرووا عني ما اشتمل عليه هذا الجزء من الكتب و الأحاديث المذكورة فيه بأسانيدها و أعني بالجزء جزء إجازة الخرقاني المتقدم أول هذه الإجازة، بحق رواية لها عن أولئك السادات المسمين فيها الجاز لهم عن الشيخ المُجيز لهم وهو قطب الدين المكي الخرقاني وبحق روايتي لما فيه عن قطب الدين المذكور بإذنه لهامة أهل بلدنا كما هو مذكور. فيه و كتب الفقير أحمد بابا يوم ثالث عشر ذي القعدة لسنة ثمانية و ألف"**[2]، و كذلك إجازته إلى الخطيب أبي زيد بن الوقاد التلمساني و نصها: **"الحمد لله وكفى صلاته وسلامه على سيدنا محمد المصطفى وعلى آله وصحبه أهل الخير و الوفاء. و بعد، فيقول الفقير الحقير ذو القصير و التقصير أحمد عرف بباب ابن الفقير الحاج أحمد بن الحاج أحمد بن عمر بن محمد اقيت هداه الله و وفقه لما يرضاه لما من الله تبارك و تعالى على مننه الوافدة بالاجتماع بسيدي الفقيه العالم الصالح المحصل المبارك المحدث أبي زيد سيدي الفقيه المفتي الجامع المحصل الكامل أبي عبد الله محمد التلمساني نزيل تردانت من سوس الأقصى و بالانتفاع به ديناً ودنيا فرأيت مخايل الخير عليه لائمه و نثار العدة معه واضحة مع ما جبل عليه من المودة و السكينة و الطهارة و حضر معنا دروس و غيرها ثم قرأ عليه من لفظه أكثر من النصف الأول من صحيح الإمام البخاري بل لم يبق له منه إلا القليل و أكثر كتاب الشفا لأبي الفضل عياض من أمية مليح السرد أنيق الفهم سديد النظر مُحصلاً أهل الحديث مع التأني و التؤدة و قرأ علَيّ أيضاً أوائل كتاب مسلم و الترمذي و ابن داود بلفظه و طلب مني مع ذلك أن أجيزه فيها وفي غيرها مما لي به إجازة ما نعمت له بذلك لكونه أهلاً له و زيادة بركة دعائه من**

---

(1) محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني ، ج1، محقق من طرف: محمد حجي و أحمد التوفيق، مكتبة الطالب، ط1، الرباط، ، 1977م، ص-ص274-275.

(2) أحمد بابا التنبكتي، إجازة منه للإمام أبي الفضل بن عبدالله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي، وثيقة مُجازة مرقونة بالخزانة العامة، الرباط، المغرب، مجموع رقم 3693.

خلواته و صلواته نفعنا الله وإياهم بالعلم النافع وحشرنا جميعاً تحت لواء سيدي ومولانا محمد صلى الله عليه و سلم فأقول و ما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب".

أما صحيح البخاري فأخبرني به سماعاً من لفظه غير ما مرة سيدي و الدي الفقيه المحدَّث العالم النبيه الرحلة الحاج أحمد بن الحاج أحمد و إجازة منه بحق سماعه له كله عن شيخه الفقيه المحدث محمد بن الفقيه محمد بن أحمد الأثري التازختي[1] قائلاً: **أخبرني به شيخ الإسلام قاضي القضاة جمال الدين بن إبراهيم بن علاء الدين القرشي القلقشندي الشافعي عن الحافظ بن حجر أخبرنا أبو علي محمد بن أحمد بن على المهدي أدناه مشافهة عن يحي بن سعيد بن جعفر المهداني...**" [2].

كما قام أحمد بابا -أثناء إقامته بمراكش- بإجازة العالم الشهير أحمد المقري التلمساني (ت1041هـ/1631م) و نصها: "**الحمد لله وكفى، وسلام على سيدنا محمد المصطفى، و آله وصحبه أولي الخير والوفاء وبعد، فيقول العبد الفقير ذو القصور والتقصير، أحمد بابا ابن الفقير أحمد ابن الحاج أحمد بن عمر بن محمد أقيت خار الله له في أموره، و حفظه من غير الدهر و شروره.. آمين، لما يسر الله تعالى لي ملاقاة السيد الفقيه المتفنن اللبيب المحصل الحافظ، أبي العباس أحمد بن محمد المقري من ذرية الإمام الأكبر العالم الأشهر، أبي عبدالله المقري التلمساني، نفعنا الله ببركته، جاسته و حادثته و استفدت منه فوائد، طلب مني-أعلي الله**

([1]) الفقيه محمد بن أحمد بن أبي محمد التازخني (ت 936هـ): المشهور بأيْدَ أحمد. كان رحمه الله فقيهاً عالماً علامة محققاً فهامة محدثاً متفنناً رحالاً شهيراً محصلاً، ثاقب الذهن جيد الخط سريع الفهم والإدراك، قوي العارضة. أخذ عن الفقيه الحاج احمد بن عمر أقيت وعن خاله الفقيه أحمد على، جد واجتهد حتى بلغ غاية في العلم، ثم رحل إلى تكدة ولقي بها الفقيه العالم محمد المغيلي وحضر بعض دروسه. وبعد فترة رحل إلى الشرق-صحبة قاضي الجماعة الفقيه محمود ن عمر-فلقي بمجموعة من علماء الأجلاء كشيخ الإسلام زكريا والبرهانين، والقلقشندي وابن أبي شريف وغيرهم وأخذ عنهم، وظل رحمه الله يلازمهم حتى تميز في الفنون وصار من المحدثين الذين لا يشق لهم غبار. حضر دروس الأخوين اللقانين (الشمس اللقاني وأخوه الناصر اللقاني) وصاحب أحمد بن محمد وعبد الحق السنباطي. أجازه من أهل مكة أبو البركات النويري وابن عمته عبد القادر وعلى بن ناصر الحجازي وأبو الطيب البستي وغيرهم من جهابذة المشرق. اجتهد رحمه الله حتى أصبح من جهابذة العلماء، ثمر رحل إلى بلده فسكن بكشن (كتسنا) واكرمه حاكمها غاية الإكرام وأسند إليه خطة القضاء، وبقي فيها يقضي بين الناس ويدرس إلى أن توفي في حدود العام 936هـ.

انظر: لتنبكتي، نيل الابتهاج،المصدر السابق، ص587. السعدي،النصدر السابق، ص-ص39-40. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص283.

([2]) أحمد بابا التنبكتي، إجازة منه للخطيب أبي زيد الوقاد التلمساني، وثيقة مُجازة مرقونة بالخزانة العامة، الرباط، المغرب، مجموع رقم 3693.

شأنه–أن أجيزه في الحديث، و فيما لي به من روية من كتبه، فأسعفته بذلك لأنه أهل لذلك وزيادة، فأقول و ما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت و إليه أنبت: أجزت الفقيه المَشار إليه، أسعده الله تعإلى– أن يروي عني جميع ما يجوز لي و عني روايته مما أخذته من شيوخنا و سادتنا الفضلاء، معقولها و منقولها متى شاء و بأي لفظ شاء، على شرطه المعتبر عند أهل الأثر، و هو البراءة من التصحيف و التحريف، و الصحيحين و البخاري و مسلم والشفا لأبي الفضل عياض، و غيرها من الكتب الستة، و غيرها من الأجزاء الحديثية، و كتب الفقه و سندها كلها يطول الآن كتبه، و لنكتب و الأبد منه أما صحيح البخاري فأرويه عن جماعة، منهم سيدي والدي سماعاً منه مراراً، بقراءاته هو مع الإتقان و التخفيف، و سيدي شيخنا العالم الصحيح المحقق محمد بن محمود بغيغ سماعاً منه أيضاً، و هما يرويانه سماعاً عن شيخهما الفقيه المحدث أبي عبد الله محمد عرف بأندغ محمد، سماعاً منه غير مأمرة و إجازة... و أما صحيح مسلم فأرويه أيضاً سماعاً عن سيدي الفقية المحدث، العالم المتفنن والدي أحمد بن أحمد، و عن شيخنا الفقيه سيدي محمد بغيغ سماعاً منه أيضاً... و أما كتاب الموطأ فأخبرني به و الدي سماعاً منه لجميعه، في نحو عشرين مجلساً، و عن شيخنا الفقيه محمد بغيغ قراءة مني عليه لجميعه و إجازة...و لنا فيه أسانيد أخرى كثيرة، لم يسع الآن كتبها، و أجزته أيضاً أن يروي عني صحيح البخاري، و السنن الأربع لأبي داود و الترمذي، و النسائي، و ابن ماجة، بحق روايتي لها، إجازة عن شيخنا الإمام محمد بغيغ بحق روايته هو لها... و أجزته أيضاً أن يروي عن كتاب الشفا للقاضي عياض بحق روايتي له قراءته هو له...و أروي كتاب الشفا أيضاً سماعاً عن سيدي و الدي لجميعه وإجازته...كتب الفقير أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن على بن يحي، الصنهاجي التنبكتي المالكي–وفقه الله وغفر له– بتاريخ السبت خامس عشر ربيع الآخر عام عشرة وألف [1010هـ/1601م] أرانا الله ختامه في عافية بمدينة مراكش المصونة حاطها الله، انتهى."[1] .

و من الأمثلة التي نسوقها من الإجازات التي منحها أحمد بابا لتلاميذه المغاربة هي الإجازة التي منحها للفقيه عبد الرحمن التمنرني صاحب الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، وذلك بالمراسلة، و قد منح أحمد بابا هذه الإجازة في آخر أيام حياته عام 1035هـ/1626م و ذلك قبيل وفاته بعام واحد، و قد تولى نجله محمد كتابة الإجازة

(1) أحمد بن محمد المقري، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش و فاس، ط2، المكتبة الملكية، الرباط، 1983، ص-ص305-312.

بإملاء والده، و لم يلتق أحمد بابا بالتمنرني، و لكنه كان يسمع عن نشاطه العلمي عندما كان في مراكش. [1]

و من الأمثلة التي نسوقها أيضاً في هذا السياق هي إجازته التي منحها لتلميذه الحاج أحمد بن محمد فهدي التواتي ثم المراكشي، و التي تحدث عنها صاحب فتح الشكور[2]. ولم تتوقف جهود أحمد بابا العلمية والفكرية في المغرب عند التدريس ومنح الإجازات لتلاميذه فقط، بل اشتغل في الفتوى أيضاً، فقد أفتى لفظاً وكتابة، بحيث صارت لا توجَّه الفتوى إلا إليه غالباً، وقد عُيّن فيها مرات عديدة رغم رفضه لها، و كان يبتهل الله تعالى أن يصرفها عنه. [3] وللتدليل على ممارسة أحمد بابا للفتوي يمكن الإشارة إلى فتواه الشهيرة في مجال التدخين، و عنوانها: قواعد أحمد بابا في حلية التدخين، وقد تحدث عن هذه القضية صاحب كتاب: الإعلام بمن حل بمراكش و أغمات من الأعلام، موضحاً أن بعضهم قد إدّعى أن عادة التدخين قد أدخلها السودانيوون إلى مراكش عام 1002هـ/1593م و إلى فاس عام 1004هـ/1595م[4] ، فقام عدد من العلماء بإصدار فتاوى بشأن هذه العادة السيئة التي صارت تنتشر بين أفراد المجتمع المغربي انتشار النار في الهشيم كما يقولون. و قد أفتى العلماء المغاربة –آنذاك– بكراهية التدخين أو تحريمه، أما أحمد بابا الذي كان آنذاك مُقيماً في مراكش، فله رأيه الخاص مفاده جواز التدخين ما دام غير منوم و غير مُفسد للوضوء، فهي ليست كالخمر، و لا تتصف بصفاته، في حين أنه حرَّم تدخين الحشيش لأن الإكثار منه مُسكر و مذهب للعقل. [5]

([1]) التمنرني (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الجزولي): الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، المغرب، مجموع رقم 3693. ومحمد حجي، المرجع السابق، ص108. وقد ألف عبد الرحمن التمنرني (ت 1070هـ/1659م) مخطوطة الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة عام 1045هـ/1636م، وتحتوي هذه المخطوطة على إجازات علماء مكة لعلماء غربي أفريقيا.

([2]) البرتلي، المصدر السابق، ص34.

([3]) أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج، ج2، المصدر السابق، ص285.

([4]) المراكشي (العباس بن إبراهيم)، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، تح عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1976م، ص68.

([5]) أحمد بابا التنبكتي، قواعد التدخين في خلية التدخين، مخطوطة، معهد البحوث في العلوم الإنسانية، رقم 251، نيامي، النيجر، ورقة 1-2.

و من استعراض هذه الشواهد التاريخية، يتضح مدى الأثر الهام الذي تركه أحمد بابا في مراكش، و العكس، في العلوم الشرعية، و هو دليل واضح على التأثير و التأثر المتبادل بين المغرب و السودان الغربي، و قد حاول الكثيرون التشكيك في إيجابية إقامة أحمد بابا بمراكش، و اعتمدوا على وصفه هو نفسه لتلك الإقامة بالمحنة، غير أن قرائن الأحوال تؤكد أهمية هذه الإقامة و فائدتها للطرفين، فالمغاربة و كما أوضحنا سابقاً استفادوا كثيراً من جلوس هذا الموسوعة الثقافية العلمية بين ظهرانيهم، و نهلوا من علمه الغزير، و في الوقت نفسه استفاد أحمد بابا نفسه من هذه الإقامة، و قد أورد في مقدمة مخطوطته: اللآلي السندسية في الفضائل السنوسية عبارة تؤكد استفادته من رحلته المراكشية، و هذا نصها: **"بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم. ربنا آتنا من لدنك رحمة و هيئ لنا من أمرنا رشداً. ما شاء الله لا قوة إلا بالله الحمد لله و كفى و صلى عباده الذين اصطفى و الصلاة و السلام على سيد الأصفياء و على آله و صحبه الأتقياء و بعد يقول عبد الله الفقير الحقير ذو القصور و التقصير أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد بن أقيت عرف ببابا التنبكتي الصنهاجي و فقه الله تعالى و هداه و جعله من أهل ودّه و تقواه لما قدّر الله لدخول بلدة مراكش على الوجه الذي أراداه في الأزل وارتضاه و ذلك في أواخر عام اثنين وألف وسهّل لي مع ما أنا فيه من التضييق الوقوف على جملة كتب غرائب لم أكن قد وقفت عليها تردد الطلبة إلى موضعي و إتيانهم إلى بالكتب فمن جملة ما جاءوا به كتاب كبير و نحو ستة عشر كراساً من القالب الكبير مُشتملاً على مناقب الإمام العلامة الولي الصالح سيدي محمد بن الشيخ الصالح العالم يوسف السنوسي صاحب العقائد المشهورة تأليف خديمه و تلميذه العالم ابن عبد الله محمد بن غبراهيم بن عمر بن على الفيلالي رحمه الله، فرأيته اشتمل على الشيخ السنوسي و ذكر فضائله و مناقبه و فوائده على الوجه الأوفى و فيه مع ذلك من كلام الصوفية و أشياء عديدة من الأحاديث و كلام السلف الصالح مفيدة فأردت نسخة لما اشتمل عليه من الفوائد ثم استطلته و عدلت عنه....** [1].

كما أن أحد العلماء السودانيين قام بإجازة أحد تلاميذه في بلدة درعة في المغرب، و نصها: **" بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم تسليماً، الحمد لله لم يزل حكيماً و بالحوادث قبل وقوعها عليماً و عن تعجيل العقوبات حليماً و بعباده رؤفاً**

([1]) أحمد بابا التنبكتي، اللآلي السندسية في الفضائل السنوسية، مخطوطة بالخزانة العامة، الرباط، المغرب، مجموع رقم د 984 ورقة 1، ورقة 108-132.

رحيماً، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رباً قيوماً و أشهد أن محمداً عبده و رسوله اختاره و فخّمه تفخيماً و أتوسل به (صلى الله عليه وسلم) إلى ربنا الكريم أن لا يفرق جماعتنا إلا بذنب مغفور و عمل مبرور و سعي مشكور و تجارة لن تبور ما شاء الله كان و ما لم يشا لم يكن ((رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي* وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي* وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي)) و لا حول و لا قوة إلا بالله العلي العظيم. و بعد، فقد أجزت للأخ المكرم السيد الطالب محمد بن محمد الدرعي المهراوي أن يروي عني كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفي (صلى الله عليه وسلم) حسبما أجازنيه شيخنا وعمّنا الفقيه الفاضل الأجلّ بركة الوقت أبوبكر بن المرحوم بكرم الله تعالى عبد الكريم الفقيه القاضي أبي زيد عبد الرحمن بن الفقيه أحمد معيا نوَّر الله ضريحه و غفر ذنوبه و أسكنه في أعالي الفراديس جنة، آمين..." (1).

و يتضح من قراءة نصوص هذه الإجازة أن المُجيز هو فقيه سوداني من عائلة معيا السودانية الشهيرة بتنبكت، كما يتضح أيضاً أن الجد الأعلى للفقيه المُجيز معيا، هو الفقيه أبو زيد عبد الرحمن بن أحمد معيا، الذي كان أبرز علماء تنبكت، و تولى بها منصب القضاء عام 1062هـ/1651م (2)، ما يدعو إلى الاستنتاج أن الفقيه المُجيز ربما يكون من رجال أواخر القرن الحادي عشر للهجرة/ السابع عشر للميلاد، ورغم أنه ربما متأخر عن فترة دراستنا، و لكن هي نموذج لإجازات أسرة معيا العلمية في تنبكت بالسودان الغربي، و التي تأثرت بثقافة بلدان المغرب منذ القرن التاسع الهجري، و هذه هي ترجمة أحد الأسلاف الجدود:

الفقيه أحمد معيا (ت 1002هـ): الفقيه العالم العلامة الولي العارف بالله. كان رحمة الله عالماً علامة، فقيهاً بارعاً، إمام العلماء المستبحرين و أحد الأولياء العارفين، زاهداً ورعاً إلى الكعب في الفقه، و له باع طويل في فنون مختلفة. أخذ العلم و التصوف عن كثير من أئمة المنطقة، و أخذ عنه كثير من سادات الأئمة و له كرامات و مكاشفات. ظل رحمه الله طوال حياته في التدريس و التأليف و الإفتاء إلى أن قُتل في فتنة الباشاوات لما اجتاحوا المنطقة و كان ذلك في 1002هـ(3).

---

(1) أحمد معيا، إجازة علمية منه لمحمد بن محمد الدرعي المهراوي، وثيقة مُجازة، مكتبة الهادي المبروك الدالي، دون تصنيف، ورقة رقم 1-أ، طرابلس، ليبيا (د،ت).

(2) السعدي، المصدر السابق، ص291.

(3) نفسه ، ص-ص58-60. البرتلي، المصدر السابق، ص71. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص308.

المطلب الثاني:أحمد بابا التنبكتي و آثاره الفكرية(963–1036) هـ/(1556–1627)م:

و ينتسب أحمد بابا إلى أسرة آل أقيت الشهيرة بالعلم و الصلاح و التقوى في السودان بعامة و في تنبكت على وجه الخاصة. و يذهب المؤرخون إلى أن هذه الأسرة توارثت العلم والرياسة في السودان الغربي أكثر من خمسمائة سنة[1]، كما يصفها بعضهم الآخر بقوله إن آل أقيت: "... **لهم الوجاهة الكبيرة و الرياسة الشهيرة في بلاد السودان ديناً و دنيا بحيث تعددت فيهم العلماء و الأئمة و القضاة و توارثوا رئاسة العلم مدة طويلة...**" [2]

و تولى والده أحمد بن أحمد أقيت تدريسه مبادئ القراءة و الكتابة و علمي الحديث و المنطق وغيرهما وأجازه بخطه[3]، كما درس في المرحلة العالية على يد شيخه محمد بن محمود بغيغ [4]،علوم التفسير و الحديث، و الفقه، و الأصول، و العربية، و البيان، و التصوف، و غيرها. و قد اختتم أحمد بابا حديثه في تقريظه لأستاذه محمد بغيغ بقوله: "**...و بالجملة فهو شيخي و أستاذي، ما نفعني أحد كنفعه، و بكتبه، رحمه الله تعالى و جازاه الجنة، و أجازني بخطه جميع ما يجوز له عني...**" [5]، كما تحصل أحمد بابا على إجازات علمية من خارج السودان الغربي، و من هذه الإجازات التي تلقاها من الإمام يحي بن محمد الحطاب الطرابلسي المكي الذي أجازه مراسلة [6]، و يقول المؤرخ ليفي بروفنسال: "**إن العالم المغربي الشهير أحمد المنجور (936–995هـ/1519–1586م) هو أحد شيوخ أحمد**

([1]) محمد بن الطيب القادري، المصدر السابق، ج1، ص275.

([2]) الناصري،المصدر السابق، ج5، ص125.

([3]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص142. كفاية المحتاج، المصدر السابق ج1، ص- ص 138-139. البرتلي، المصدر السابق، ص30.

([4]) الإمام محمد بن محمود بغيغ الونكري (930-1002هـ/1523-1593م): ومن آثاره العلمية أن له تع وطرر أوضح فيها هفوات لشرح خليل وغيره، وتتبع بدقة شرح العلامة الثنائي الكبير من أوله إلى آخره، فوضح ما فيها من السهو نقلاً وتقريراً، وقد جمعها أحمد بابا في كراريس، وله عدد من الفتاوي منها فتوي بخصوص الإفطار. ويقول حفيده محمود بابا هسي إنه لا يعرف مؤلفات مستقلة له، ولكن توجد تعليقات على بعض الكتب وفتاوي موجودة في مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية بتنبكت.انظر: التنبكتي، نيل الابتهاج،المصدر السابق، ص603. الأرواني، المصدر السابق، ص61. انظر: امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص283.

([5]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص602. كفاية المحتاج،ج2، المصدر السابق، ص240.

([6]) المقري، المصدر السابق، ص311.

بابا"[1]، أما عن رحلته المراكشية، فمن المعروف أن أحمد بابا قد تم ترحيله برفقة عدد من عشيرته آل أقيت إلى مراكش عام 1002هـ/1593م و ذلك عقب امتداد الحكم المغربي على السودان الغربي[2]، و واضح أن المنصور استهدف الدور السياسي للفئة المثقفة في تنبكت و أبعدهم عن مجال تأثيرهم السياسي إلى مراكش، حيث صار بإمكانهم ممارسة الدور الثقافي الذي صار ممكناً في تلك الأجواء الثقافية و العلمية التي كانت تعجّ بها مراكش في ظل حكم أحمد المنصور، مما أتاح فرصة مهمة لأحمد بابا ورفاقه [3].

أما عن تلاميذ أحمد بابا، فمنذ أن و طأت قدماه مدينة مراكش فقد تحدثت المصادر التاريخية عن جموع الأساتذة والطلاب الذين توافدوا على مجالسه العلمية، و منهم الشيخ القاضي أبو القاسم بن أبي النعيم الغساني، قاضي الجماعة في فاس المتوفي عام 1032هـ/1524م، والقاضي أبو العباس أحمد بن محمد المقري التلمساني (922-1041هـ/1584-1631م) مؤلف نفح الطيب في أغصان الأندلس الرطيب، و روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، و غيرهما، و أبو العباس أحمد بن محمد بن العافية المكناسي (ت1029هـ/1619م)، الشهير بابن القاضي، و قد شغل منصب قاضي مكناس، وألّف (المنتقي المقصور)، و جذوة الاقتباس، وذروة السلوك، و الشيخ محمد عبد الله الرجراجي (1022هـ/1613م)، و كان يشغل مفتي مراكش، وأبو العباس أحمد بنعلي بن محمد السوسي البوسعيدي (990-1046هـ/1582-1636م)، مؤلف كتاب بذل المناصحة في فعل المصافحة، و أبو الفضل محمد بن عبدالله سعيد الحاحي، و الفقيه أبو زيد الوقاد التلمساني، و قد أجازه الأخيران مكاتبة [4]، والفقيه العالم أبو زيد عبد الرحمن التمنرتي (ت 1070هـ/1659م)، الذي يعتبر أحد تلاميذ أحمد بابا، رغم أنه لم يأخذ عنه مباشرة،

([1]) ليفي بروفنسال: مؤرخو الشرفاء، تر عبد القادر الخلادي، مطبوعات المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1397هـ/1977م، ص79.

([2]) محمود كعت، المصدر السابق، ص174. التنبكتي، كفاية المحتاج، ج2، المصدر السابق، ص283. السعدي، المصدر السابق، ص، ص75، 38.

([3]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص288.

([4]) البرتلي، المصدر السابق، ص176. مخلوف، المصدر السابق، ص309.

بل أجازه (مراسلة) ليروي كل مروياته و مؤلفاته إجازة عامة[1]، و على عبد الله السلاسي (960-1018هـ/1553-1609م)، و الحاج أحمد التواتي، الذي و صفه البرتلي بقوله: "... **الأستاذ المتواضع الناظم الناثر ذو الأخلاق، والشيم الفاخرة**" و قد صاحب الحاج أحمد التواتي أستاذه الفقيه أحمد بابا عدة سنوات واستفاد منه كثيراً وتأثر به غاية التأثير، حتى ظهرت عبارات الإطراء و الإعجاب بشيخه ومنزلته العلمية السامقة، و ما أخذ عنه من كتب فيما نقله عن صاحب فتح الشكور بقوله: " **لما فتح الله بملاقاة عالم الدنيا و مُعلمها حامل لواء الأحاديث و مفهمها، رافع رواية مذهب الإمام مالك و مقدمها، العالم، المقبول الفاضل الفهامة سيدي وبغيتي و هداي ومسرجي و مثواني و مهجتي وأياي، أبا العباس سيدي أحمد بابا جعل الله تعالي أيامه للخير أسباباً وفتح به إلى العلوم أبواباً، تلقيت منه ما فتح الله لي بالقبول و ألفيته علقة للوصول، فلازم بابه المبارك ليالي و أياماً و شهوراً و أعواماً، و تضلعت من زمزمه بما فيه مقنع، و كنت معه كالذي يأكل و لا يشبع، فقرأت عليه -رحمه الله تعالى- القرآن العظيم بتفسير ذي الجلالين المحلي و السيوطي في عامين مرتين قراءة تحقيق و تفهم و تدقيق و عدة من تواليف رحمه الله إلى غير مما حصلت من أجوبته و تقييده و مصنفاته و أبحاثه و فوائده...**"[2] .

و لا شك أن هؤلاء الذين خرّجتهم عبقرية أحمد بابا كان لهم الأثر الكبير في ازدهار الحياة الثقافية لبلاد المغرب في القرن الحادي عشر للهجرة/السابع عشر للميلاد، و بالتالي قاموا بدور مهم في رصد أوضاع الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي من خلال تسجيل الكثير عن أحوالها المحتلفة. [3]

و بذلك يكون لأحمد بابا فضلاً كبيراً في إعداد علماء مغاربة بيضان تتلمذوا عليه لازدهار الحركة العلمية والفكرية و الثقافية في بلاد المغرب التي ظلت قرون تعطي للسودان الغربي العلوم الإسلامية دون أن تأخذ، فقد جاء الدور على علماء السودان الغربي لرد الجميل لبلدان المغرب بتخريج تلاميذ مغاربة نابغين على أيديهم، وبذلك يكون الدور الذي لعبته بلدان المغرب الإسلامي في نشر العلوم الإسلامية عامة، و الشرعية خاصة فترة من الزمن قد آتى ثماره في نهاية القرن العاشر الهجري، و جنى المغاربة خير جني.

([1]) التمنري، المخطوط السابق، ورقة 5.

([2]) البرتلي، المصدر السابق، ص-ص33-34.

([3]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص292.

و تحدث أحمد بابا عن ذلك الدور الذي له تجاه بلاد المغرب تلاميذاً و علماءً و هو يترجم لنفسه في كتابه كفاية المحتاج، و نقلته عنه بعض المصادر التاريخية، إذ يقول: "... **و لما خرجنا من المحنة طلبوني للإقراء، فجلست بعد الإبابة في جامع الشرفاء بمراكش، من أبوه جوامعها، أُقرئ مختصر خليل قراءة بحث و تحقيق و نقل وتوجيه، و كذا تسهيل ابن مالك، و ألفية العراقي... وازدحم علَيَّ الخلق و أعيان طلبتها و لازموني قراء على قضاتها كقاضي الجماعة بفاس العلامة بن أبي النعيم الغساني،... و كذا قاضي مكناس الرحلة المؤلف صاحبنا أبو العباس ابن القاضب المكناسي و هو أسن منّي، و مفتي مراكش الرجراجي و غيرهم...**" [1].

أما عن تلاميذه السودانيين فلا شك أنهم كثر، و لكن ضعف التوثيق و ضياع الكثير من المصنفات ضيّع فرصة التعرف إلى الكثير منهم، و من هؤلاء التلاميذ: الفقيه المصطفي بن أحمد بن محمود بغيغ (973-1025هـ/1565-1616م)، و قد تتلمذ على أحمد بابا بعد عودته من مراكش، وشقيقه الفقيه محمد بن محمود بغيغ (ت 1066هـ/1655م)، والإمام محمد كورد بن القاضي محمد ساج الفلاني (ت1066هـ/1655م)، و قد جالس أحمد بابا بعد عودته من مراكش، و الفقيه المؤرخ عبد الرحمن السعدي، الذي لا شك أنه تتلمذ على أحمد بابا بعد عودته من مراكش 1016هـ/1607م، و ذلك بحكم أن السعدي ولد بعد سفر أحمد بابا إلى مراكش، و قد وصف السعدي أستاذه بأنه العلاّمة فريد دهره و وحيد عصره البارع في كل فنون العلم.[2].

أما عن آثاره العلمية، فلقد ترك أحمد بابا إنتاجاً علمياً غزيراً، و قد قال عنه تلميذه محمد بن يعقوب: " **كان أخونا أحمد بابا...مطبوعاً على التأليف...**" [3]، كما وصف الباحث المغربي محمد الغربي، رسوخ قدم أحمد بابا في مجال التراجم بقوله: "**إن ما تركه أحمد بابا**

([1]) التنبكتي، كفاية المحتاج، ج2، المصدر السابق، ص-ص284-285. القادري، المصدر السابق، ج1، ص271. البرتلي، المصدر السابق، ص34.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص238-239، 321-322، ص35. الأرواني، المصدر السابق، ص82.

([3]) التنبكتي، كفاية المحتاج، ج2، المصدر السابق، ص282. و المحبي (أبو عبدالله بن محمد)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر،ج1، دار صادر، بيروت، (د. ت)، ص171.

من تراجم يعد فتحاً كبيراً ليس على مستوى السودان فحسب، بل على صعيد كتابة التراجم في العالم الإسلامي كله قديمة و حديثه"[1].

و قد امتاز أحمد بابا بأنه عالم مُشارك في عدة فنون، و لهذا ترك عدة مصنفات في مختلف علوم و معارف عصره، و من هذه المؤلفات ما هو معروف، و منها ما هو مفقود، و ذلك في الخزانات المختلفة في أنحاء العالم، و قد أجرى كل من: محمود عبدو الزبير و حسن الصادقي و عبد الرحمن ميغا، حصراً لما تمكنوا من الوقوف عليه من مؤلفات أحمد بابا[2]، و من أبرز مؤلفات أحمد بابا المعروفة، كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج، و يعد هذا الكتاب من أبرز مؤلفاته، و قد ألفه على هامش كتاب ابن فرحون، الذي كان عنوانه: الديباج في معرفة علماء المذهب، و قد ترجم فيه لثمان مائة و اثنين من علماء المذهب المالكي، و أكمله بمراكش عام 1005هـ/1596م[3] و من العوامل التي نؤكد عليها مرارا و التي ساهمت في تشكّل تكوين ثقافي خاص لأحمد بابا، هي انتقاله إلى مراكش و إطلاعه على مكتباتها المزدهرة حينذاك في ظل الأسرة السعدية، مثل مكتبة السلطان أحمد المنصور السعدي و مكتبة جامع الشرفاء و غيرهما[4].

و كان أحمد بابا مجتهداً في بداية أمره حتى فاق جميع معاصريه، و لا يناظره في العلم إلا أشياخه، واشتهر في المغرب أمره و اشتهر ذكره و سلم له علماء الأمصار في الفنون كلها[5]، و تمتعت عائلة أقيت بالقوة والتأثير الديني في تمبكتو لأكثر من قرن، و قد عمل أفراد العائلة بالقضاء، و كانت ثقافتهم، ودورهم في القضاء، فخر تمبكتو في قمة مجدها في غرب إفريقية،[6] فبعد إطلاق سراحه، قام بدور بارز في نشر العلم في المغرب، و كان الناس يحجون إليه من كل البقاع لما له من سمعة طيبة، و أصبحت كتبه أكثر الكتب تداولاً بين الناس. و كان لأحمد بابا أثر ثقافي عظيم على المغرب، فقد كان يقوم بالإفتاء وبالتدريس، و عُرض عليه منصب القضاء إلا أنه رفضه، و ما قام به

---

(1) محمد الغربي، المرجع السابق، ص549.

(2) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص293.

(3) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص641.

(4) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص294.

(5) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص194.

(6) Hunuvik, J.O: Ahmad Baba and the Moroccan Invasion, J. of H.S.N, p. 326.

أحمد بابا من أثر يؤكد متانة العلاقات الثقافية بين المغرب و السودان الغربي، و أن كلاهما كان يؤثر في صاحبه، و إذا كان الشيخ المغيلي هو المثال الذي نستشهد به في أثر علماء المغرب على السودان الغربي، فالشيخ أحمد بابا يعتبر المثال الذي نستشهد به بالنسبة لأثر علماء السودان على المغرب، و نحن لا نشك مطلقاً على أن أثر المغرب الثقافي على السودان الغربي لا يدانيه أي أثر آخر. [1]

و قد استفاد العالم السوداني أحمد بابا من مقامه في المغرب، و قام بالتأليف و التدريس. و من كتبه التي ألفها بالمغرب، كتاب نيل الابتهاج بالذيل على الديباج، و هو كتاب ترجم فيه لعلماء المغرب و السودان الغربي، ويقول في مقدمته إنه تأثر في كتابه بالقاضي عياض وبابن فرحون، و في رأيه أن ابن فرحون لم يستوف الغرض في تأليفه و لذلك ألف كتاب نيل الابتهاج و جعله ذيلاً لكتاب ابن فرحون ليكمل بعضهما الآخر، و يضيف أحمد بابا في مقدمته أن وجوده في مراكش، وتوفر المراجع هي التي أتاحت له فرصة التأليف. [2]

و لا بد هنا أن نذكر دلالة واضحة و موحية للإطار العلمي و الفكري بأحمد بابا ألا و هي إن كان تلميذه المغربي أبو العباس أحمد بنعلي بن محمد السوسي البوسعيدي يعمل ناسخاً لكتب أستاذه أحمد بابا، و قد تحدث البوسعيدي عن أستاذه أحمد بابا كثيراً في كتابه بذل المناصحة، و الذي كان قد ألف عام 1047هـ/1637م، و لكنه كان في حكم المفقود.[3]

و قد ازدحم الخلق على شيخنا أحمد بابا في حلقة العلم ، فلم يبق طالب و لا عالم و لا قاضٍ، إلا وجاء يتتلمذ عليه، و أن إقبال القضاة وكبار العلماء للتتلمذ عليه، يؤكد أن أحمد بابا–العالم السوداني– قد نفع علماء المغرب آنذاك بغزارة علمه، كما يتضح لنا تواضع العلماء لتلقي العلم دون نظر إلى كبر السن أو جنس الأستاذ [4].

([1]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص–ص194–195.

([2]) نفسه ، ص195.

([3]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص–ص290–291.

([4]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص–ص196–197.

و قد عمت شهرة عالمنا الشيخ أحمد بابا الآفاق و أصبح معروفاً في العديد من أقاليم المغرب و السودان. يقول الشيخ أحمد بابا: "**...و اشتهر اسمي في البلاد من سوس الأقصى إلى بجاية والجزائر و غيرها وقد قال لي بعض طلبة الجزائر لما قدم علينا مراكش لا نسمع في بلدنا إلا باسمك فقط...هذا مع قلة التحصيل و عدم المعرفة...**" و رغم الشهرة التي حظي بها عالمنا الجليل الشيخ أحمد بابا إلا أنه لم يعتز بكل هذا الإقبال والشهرة ويُصَبْ بالخيلاء، بل كان يصف نفسه بقلة التحصيل وعدم المعرفة ليعطينا دليلاً على تواضعه و أدبه الجم. [1]

و على هذا الأساس نخلص للقول أن كُلاً من الشيخ عبد الكريم المغيلي و الشيخ أحمد بابا التنبكتي قد قاما بأدوار هامة على صعيد الحياة السياسية و الثقافية و الشرعية في بلاد السودان الغربي.

([1]) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق ، ص197.

الفصل الثالث:

دور بلاد المغرب
في نشر العلوم الشرعية
في بلاد السودان الغربـــــي

الفصل الثالث: دور بلاد المغرب في نشر العلوم الشرعية في بلاد السودان:

المبحث الأول: المذهب المالكي ونشر الحركة العلمية الشرعية (التأسيس، النشأة، الازدهار والنضج):

و من المؤكد أن ما نعرفه عن الأنشطة المغربية في السودان الغربي لا يمثل سوى أقل القليل مما جرى في الواقع، فما توفره مصادرنا من معلومات لا يشبع احتياجاتنا كباحثين، لذلك فإن مصادرا أخرى برزت أهميتها بشكل كبير تعين على رصد الصلات المبكرة بين المنطقتين تتمثل في كتب النوازل، وكتب الطبقات والتراجم، بالإضافة إلى نتائج الكشوف الآثارية. [1]

و إذا كان الأساس المباشر للاتصال بين المنطقتين هو التجارة و تبادل السلع عبر الصحراء الكبرى التي لم تكن عائقاً تحول دون الإتصال المستمر، فإن القوافل التجارية المغربية كانت تقطع تلك الصحراء متجهة إلى مدن السودان الغربي و مراكزه التجارية. و السؤال الذي يطرح نفسه هو: متى بدأت القوافل تعبر الصحراء؟ و بالرجوع إلى أقدم المصادر الجغرافية التي تطرقت إلى هذا الموضوع نجدها ترجع إلى أواخر القرن الثالث الهجري، أي التاسع الميلادي، و أول من كتب في هذا الشأن اليعقوبي المتوفي حوالي 284هـ/897م. ولكن البكري المتوفي 487هـ/1094م يرجعنا في الإتصال بين المنطقتين إلى أوائل القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي و تؤكد القرائن أن بدايات التبادل التجاري بين المنطقتين تعود إلى أوائل القرن الثاني الهجري، أي قبل أن يكتب اليعقوبي في القرن الثالث الهجري واصفاً الطريق بين سجلماسة وبلاد السودان.

و قد أفاض جغرافيو القرن الثالث والرابع والخامس للهجرة في وصف طريق القوافل الذي يربط سجلماسة ببلاد السودان و إن كانت التجارة التي ربطت سجلماسة ببلاد السودان ترجع إلى القرن الثاني الهجري. على أية حال يعد القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي

---

(1) حسين سيد عبد الله مراد، الصلات بين بلاد المغرب والسودان الغربي (خلال ق2-6هـ/8-12م)، المؤتمر الدولي الإسلام في إفريقيا، ذكرى مرور أربعة عشر قرناً على دخول الإسلام في إفريقيا، الكتاب الحادي عشر، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، 26-27 نوفمبر 2006م، ص375.

بداية الصلات التجارية التي جمعت بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي، و قد تدعمت تلك الصلات بين المنطقتين خلال القرون التالية و يشهد على ذلك الشهادات المصدرية بالإضافة إلى نتائج الكشوف الأثرية. (1)

كما أثمرت تلك الاتصالات بين بلاد السودان و بلاد المغرب في إدخال فن الكتابة إلى السودان الغربي (2). فمن المؤكد أن جميع أساليب الخط العربي التي نجدها في تلك البلاد، ليست سوى أنماط من هذا الخط الذي يطلق عليه الخط المغربي. و قد ساهمت طرق الإتصال التي ربطت بين شمال الصحراء وجنوبها في مرور أسلوب الخط الذي نجده في السنغال و منطقة منعطف نهر النيجر، و الشيء المؤكد هو أن أساليب الخط الذي استخدمها المسلمون في مالي والسنغال و كل الغرب الإفريقي ترجع أصولها إلى بلاد المغرب (3). وتأتي شواهد القبور التي أُكتشفت في منطقة تادمكة و ترجع إلى 400هـ/1006م، مع شواهد القبور المكتشفة قرب مدينة جاو والتي يرجع أقدمها إلى 481هـ/1088م ليؤكد على استخدام الخط المغربي في السودان الغربي. (4)

و قد تمكن منسى موسى ومنسى سليمان من استقدام مجموعة من العلماء و الأدباء والفقهاء من المشرق و المغرب و أغدقا عليهم كثيراً مما جعل مالي تزخر بأهل العلم و طلابه، فانتشر التعليم في كافة أرجاء مالي. (5)

و يُعد أسكيا محمد الكبير من أعظم ملوك سنغاي الذي دعم الإسلام و الحركة العلمية و الفقهية في السودان الغربي، و تبقى رحلته إلى الحج من أهم المظاهر الإسلامية التي تركت صدى كبيراً في أوساط المؤرخين لعظمة موكبه و أبهته. و كان أسكيا داود من أهم خلفائه حتى أن محمود كعت قال عنه: **"كان مهيباً فصيحاً خليقاً للرئاسة كريماً... وسع الله عليه في دنياه و هو أول من اتخذ خزائن الكتب و له نساخ ينسخون له كتباً و ربما يهادي به العلماء."(6).**

---

(1) حسين سيد عبد الله مراد ، المرجع السابق، ص-ص375-378.

(2) إيسيفو، الإسلام كنظام اجتماعي في افريقيا منذ القرن السابع الميلادي، تاريخ إفريقيا العام، موسوعة اليونسكو، مج3، 1994 م، ص134.

(3) Hunwick J,o: Les rapports intellectuals entre le Maroc et L'Afrique sub-saharienne a travers les ages, Publications de L'institus des Etudes Africaines, Rabat, 1990, P 16.

(4) حسين سيد عبد الله مراد، المرجع السابق، ص402.

(5) عبد الرحمن محمد ميغا،المرجع السابق، ص19.

(6) محمود كعت، تاريخ االفتاش، المصدر السابق، ص94.

ففي عهد الأسكيين بلغت الإمبراطورية ذروة مجدها قوة و مساحة و رخاء وثراء، فصارت أضخم إمبراطورية في السودان الغربي، فعم الأمن والسلام في جميع ربوعها فقصدها العلماء و الفقهاء والأدباء، و انتشر التعليم في كافة أرجاء الإمبراطورية، و استمرت في التقدم و الازدهار حتى في عهد أسكيا دواد. [1]

عرفت الثقافة الإسلامية والحياة العلمية ازدهاراً كبيراً في السودان الغربي فيما بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين، فظهر علماء في المنطقة خلد التاريخ أسماءهم، و نشأت مدن أضحت كعبة يقصدها طلاب العلم من كل مكان، و شمساً تسطع نورها في كافة أرجاء غرب أفريقيا، فنشط تعليم الناشئة في الكتاتيب و المساجد في مختلف جهات السودان، و أصبحت حلقات التدريس منتشرة في المساجد وبعض البيوت يختلف إليها الطلاب بدون قيد ولا شرط يأخذون فيها القرآن والحديث و الفقه و اللغة العربية، و غيرها من العلوم الإسلامية[2].

و غدت السلطات المحلية ترعى العلماء و تقدم لهم الأعطيات و تخصص للبعض منهم راتباً شهرياً، غير الهدايا والهبات التي تأتي من كل مكان و جهة [3]. و أولى الملوك و الأمراء و الحكام في الولايات للعلم و العلماء رعاية خاصة، وبدا هذا التشجيع و الرعاية للعلم والعلماء واضحين في عهد منسى موسى و أخيه منسى سليمان و في عهد أسكيا محمد الحاج و ابنه أسكيا داود [4]، و إلى جانب الملوك و الحكام هناك أيضاً كثير من أعيان السودان وأغنيائه يمدون الطلاب والعلماء بالمكافآت والأموال تشجيعاً لهم على التفرغ لطلب العلم و تحصيله.

و انتشر في هذا العصر دكاكين الوارقين و النساخين التي يتردد إليها الطلاب والعلماء في أغلب المراكز العلمية، و خاصة في تنبكت، فازدهرت الحياة العلمية في السودان بشكل كبير، و أصبحت سوق الكتب نافقة [5].

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص22.

([2]) نفسه، ص-ص28-29.

([3]) حسن الوزان، المصدر السابق، ص167.محمود كعت، المصدر السابق، ص32.

([4]) العمري، المصدر السابق، ص-ص59-60.

([5]) حسن وزان، المصدر السابق، ص167. محمود كعت، المصدر السابق، ص32. السعدي، المصدر السابق، ص 242.

و ساد الشغف بتلقي العلم بين العلماء و الطلاب و التنافس في اقتناء الكتب و المخطوطات النادرة، و يحدثنا كثير من الرواة و الرحالين الذين زاروا المنطقة عن كثير من أهل العلم عشقوا الكتب و العلم عشقاً كبيراً حتى إن البعض منهم يستغلون الفرصة في ليلة مُقمرة للمطالعة، و انكب بعضهم في نسخ كل ما وقع في أيديهم من الكتب النادرة إن لم يكن لهم إمكانية لشرائها. على أن هذا الشغف بالعلم حمل كثير من العلماء و الطلبة إلى الرحلة لطلب العلم في مراكزه الأصلية بالمشرق و المغرب [1].

و كان طلاب الحديث يتجهون نحو أئمة الحديث، و طلاب اللغة يذهبون إلى أئمة اللغة و طلاب الفقه يرحلون إلى أئمة الفقه أينما وجدوا، و أصبح العلم أو التعليم في متناول الجميع، لم يقتصر على طبقة معينة إذ أن حلقات العلم منتشرة في المساجد و غيرها، و مفتوح للجميع دون استثناء. و هكذا ازدهرت الحياة العلمية بشكل كبير و طفرت طفرة مهمة إلى الأمام، و بلغت أوجها ما بين القرنين الخامس و العاشر الهجريين، و نشطت نشاطاً عظيماً، و استمر هذا النشاط إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري [2].

و قد ساعد على هذا الازدهار الاستقرار و الأمن و الثراء الفاحش التي عرفت به لمنطقة، بالإضافة إلى تشجيع الحكام للعلم و أهله و إنفاق الأموال الطائلة في هذا الصدد و انتشار المدارس في أغلب أرجاء المنطقة، مما جعلت الحركة العلمية و الفقهية تشع نوراً و تستقطب العلماء من كل حدب وصوب. على أنه قد شارك في إزكاء نار الحركة العلمية و الفقهية في المنطقة ثلة من علماء المذهب المالكي في السودان والمغرب (توات وغدامس و بلاد شنقيط) و الأندلس و المشرق[3].

المطلب الأول: المذهب المالكي وأثره:

و كان المذهب السائد في السودان الغربي ،إذ يعتبر المذهب المالكي أو بالأحرى المذهب الذي ينتمي أو ينسب إليه مالك مذهب الصحابة و التابعين هو المذهب السائد في السودان. أخذ ينتشر منذ أواسط القرن الثاني الهجري في العالم الإسلامي عامة و الغرب الإسلامي خاصة، و استمر في الانتشار بعد القرن الثاني الهجري إلى أن وصل في السودان الغربي مع منتصف القرن الخامس الهجري، و توطدت أركانه و دعائمه فيه،

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص29.

([2]) نفسه، ص30.

([3]) نفسه.

و بذلك " غلب مذهب مالك على الحجاز والمغرب الأقصى إلى بلاد من أسلم من السودان..." [1].

و قبل أن يصل المذهب المالكي إلى السودان في القرن الخامس الهجري عانى كثيراً.. و بقي العلماء و المذهب في محنة شديدة إلى أن وصل المرابطون إلى الحكم خلال القرن الخامس الهجري، فانتصروا للمذهب المالكي، و كان ذلك أهم حدث تاريخي لانتصار المذهب المالكي في الغرب الإسلامي، فمنذ هذا التاريخ فالمذهب المالكي في انتشار مستمر، و أصبح المذهب الرسمي للدولة المرابطية، و بات الغرب الإسلامي بما فيه السودان المعقل الرئيس له، حتى قال ابن خلدون: "**...و أما مذهب مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب و الأندلس، و إن كان يوجد في غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره إلا القليل...**" [2].

و هكذا أصبح القرن الخامس الهجري، القرن الذي انتصر فيه المذهب المالكي انتصاراً ساحقاً في الغرب الإسلامي، بعد صمود طويل، و لم يزاحمه أي مذهب أيضاً إلى يومنا هذا. فكثر إتباعه في العالم الإسلامي عامة و الغرب الإسلامي خاصة، و حظي بمساندة العامة و الخاصة، و أضحى المذهب الذي لا يبغي عنه الناس بديلاً. و قد أدى هذا الأمر إلى أن تتعالى صيحات التنويه به من طرف العلماء و الملوك في الغرب الإسلامي، و كان ذلك إعلاناً صريحاً بالانتصار النهائي للمذهب المالكي و اعتباره المذهب الرسمي للدول المتعاقبة منذ تلك الفترة إلى الآن فأصبح جميع الناس مُلزمين بإتباعه. [3]

و هذا أسد بن الفرات يقول منتصراً للمذهب المالكي: "**...إن أردت الله والدار الآخرة فعليك بمالك بن أنس ...**" [4]، على أن غلبة المذهب المالكي في الغرب الإسلامي خلال القرن الخامس الهجري تركت أثراً قوياً في السودان الغربي، إذ أسهمت في توطيد أركان الثقافة العربية الإسلامية في المنطقة، و تغلغلها في نفوس المجتمع، كما أسهمت في توحيد أحكام القضاء، و اصطباغ الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي بصبغة المذهب المالكي فأصبحت كتب الدراسة كلها تدور حول فقه مالك و العلوم المساعدة على فهمه، و أمسى

([1]) القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج1، تح وتع محمد بن تاويت الطنجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المملكة المغربية، 1965م، ص65.

([2]) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص356.

([3]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص32.

([4]) القاضي عياض، المرجع السابق، ص77.

الفقهاء مالكيين في حياتهم و تقاليدهم و انتاجاتهم و تفكيرهم، وأضحى المذهب المالكي هو المذهب الرسمي للدولة، و باتت السلطة القضائية و التشريعية و التنفيذية كلها تعتمد على الفقه المالكي لإصدار الأحكام [1].

و مما يؤكد ذلك أن الفقهاء السودانيين لم يعرفوا أو لم يدرسوا فقهاً غير فقه مالك – إلا نادراً– و لذلك انتصروا له و نبذوا غيره، و يظهر هذا الأمر جلياً في إنتاجاتهم الفقهية، و هي إنتاجات تدور حول فقه مالك وتاريخه ورجالاته، تأليفاً و شرحاً و تعليقاً و اختصاراً وتحشياً... و هكذا أصبح المذهب المالكي في السودان الغربي الوحيد الذي لا رادّ لقضائه ولا مُعقب لحكمه، فلا مذهب إلا مذهب مالك و لا فقه إلا فقهه، و هذا يعني أن السودان الغربي هي المنطقة الوحيدة في الغرب الإسلامي التي استقر بها المذهب المالكي دون أن يزاحمه مذهب آخر. و بالطبع ترجع سيادة المذهب المالكي وهيمنته في السودان الغربي و المكانة التي حظي بها في نفوس العامة و الخاصة إلى عدة عوامل منها:

– وجوده أصلاً قبل انتشاره بجانب المذاهب الأخرى ببلاد المغرب.

– حمله بواسطة سلطة دولة المرابطين.

– مذهب أتى من مدينة **الرسول (صلى الله عليه و سلم)** مهبط الوحي، و مهوى أفئدة المسلمين.

– بالإضافة إلى شهرة المدينة المنورة بالحركة العلمية و الفكرية من **الرسول (صلى الله عليه و سلم)** حتى ما بعد الخلافة الراشدة.

لذلك قصدها طلاب العلم عموماً والمغاربة خاصة [2]، و هذا ما يؤكده ابن خلدون[3] ، و يضاف إلى ذلك قلة انتشار كتب المذاهب الأخرى في الغرب الإسلامي عامة و في السودان خاصة جعلت كثيراً من الخاصة و العامة يجهلون تماماً ما يروج في المذاهب الأخرى من أحكام و ما يتميز بها من مميزات ومحاسن، و هذا من شأنه أن يزيد في ترسيخ المذهب المالكي و تقدمه على حساب المذاهب الأخرى. [4]

---

(1) حسن أحمد محمود،المرجع السابق، ص244.

(2) القاضي عياض، المصدر السابق، ص–ص74–77. الشيخ محمد المكي الناصري، المذهب المالكي مذهب المغاربة المفضل، ندوة الأمام مالك عام 1400/1980، ج1، منشورات وزارة الأوقاف، الرباط، 1980م، ص–ص67–87.

(3) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص356.

(4) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص36.

بمعنى عدم وجود منافسة فعّاله بين المذاهب الأخرى والمذهب المالكي أدى إلى سيادة المذهب المالكي المديني المُحبب في نشأته في مدينة **الرسول (صلى الله عليه و سلم).**

و صفوة القول إن السودان الغربي من أهم المناطق في الغرب الإسلامي التي ساد فيها المذهب المالكي سيادة مطلقة دون منافس يستحق الذكر، وأصبح بذلك من أكثر المناطق انغلاقاً عليه، وبعداً عن المذاهب الأخرى. هذا ومما ينبغي التذكير به أن المكانة الإجتماعية والسياسية اللتين حظي بهما المذهب المالكي في الفترة التي نتحدث عنها، وخاصة القرن العاشر منها لم يسبق لها مثيل؛ لأنه يعد الفترة التي نال فيها الفقه المالكي عناية كبيرة ووجد علماؤه سلطة مطلقة في حرية التعبير والتفكير، وأصبحوا ذوي الحل والعقد؛ فكلامهم مسموع ومُنفذ ولهذا تعتبر هذه الفترة من أهم العصور في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية عموماً والمذهب المالكي على الخصوص في السودان الغربي[1].

المطلب الثاني: الحركة الفكرية والعلوم الشرعية في السودان الغربي من التأسيس إلى الازدهار:

عرف السودان الغربي ما بين القرن الخامس و العاشر الهجريين حركة فقهية و شرعية متميزة، بدأت صغيرة ثم ترعرعت وشبت و اشتد ساقها مع مرور الأيام، بفضل جهود علماء المنطقة و الوافدين إليها، وعناية الحكام بها، و قد مرت هذه الحركة الفقهية بعدة مراحل:

(1)- مرحلة التأسيس: من القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري:

يرتبط ظهور الحركة الفقهية والشرعية في السودان الغربي بدخول الإسلام في المنطقة الذي يرجع تاريخه إلى القرن الأول الهجري على الأرجح، و قد بدأت الإرهاصات الأولية للحركة الفقهية و العلمية و نشر العلوم الشرعية تظهر في المنطقة ابتداء من منتصف القرن الثاني الهجري، واستمرت إلى القرن الخامس الهجري، و في هذه الفترة تمكن السودانيون من إرساء قواعد الحركة الفقهية و العلوم الشرعية و تأسيسها في المنطقة من خلال اتصالهم بالتجار العرب و البربر المسلمين الذين يتنقلون في كافة أرجاء المنطقة. و حسبنا دليلاً على تعمق جذور الحركة الفقهية و الشرعية في المنطقة ما ذكره ابن خلدون أن موسى بن نصير

([1]) نفسه.

أرسل مجموعة من المجاهدين الذين كانوا معه إلى جنوب المغرب ليعلموا البربر و الملثمين و السودانيين علوم القرآن والفقه[1].

و ما أن شرع الخوارج الصفرية في إقامة دولتهم بسجلماسة سنة 757م/140هـ حتى اختاروا أول أئمتهم من السودان و هو عيسى بن يزيد الأسود، و هذا يؤكد ما ذكره محمود إسماعيل أن المذهب الصفري الخارجي المتحرر انتشر في المغرب و السودان منذ القرن الثاني الهجري. و يضاف إلى ذلك أن المنطقة كانت لها علاقة و طيدة مع الدولة الرستمية الخارجية في تاهرت وخاصة في زمن عبد الوهاب و ابنه أفلح اللذين كانا لهما علاقة تجارية طيبة مع بلاد الكوكو في السودان، و كان علماؤهم (خاصة الدول الخارجية في بلاد المغرب) يتنقلون بين مدن السودان الغربي، و البعض يقطنها نهائياً يعلمون أهل السودان و يفقهونهم في الدين الإسلامي. و من العلماء الذين سكنوا في السودان عبد الحميد الفزاني، و كان ذلك ما بين القرن الثاني و الثالث الهجريين، و قد وضع الدرجيني هذا العالم الجليل في الطبقة السادسة من العلماء الذي عاشوا ما بين 250-300هـ. كما أرسل قاضي نفوسة عالماً كبيراً إلى بلاد السودان ليعلمهم في أمر دينهم؛ و استمرت هذه العلاقة الطيبة بين السودان و الإباضيين حتى بعد سقوط دولتهم بتهيرت.

و لا شك أن وجود هذا العالم الكبير في السودان في هذا الوقت، و إرسال قاضي نفوسة عالماً آخر إلى المنطقة لدليل واضح على وجود علاقة ثقافية متينة و عميقة بين السودان و الدولة الرستمية، و إن لرعايا الدولة الرستمية فضل السبق في نشر الإسلام في بعض أجزاء السودان و وضع البذور الأولى للحركة الفقهية و الشرعية في السودان الغربي منذ القرن الثاني الهجري.

و مما يؤكد ما ذهبنا إليه أن هناك مجموعة من السودانيين رحلوا في هذه الفترة إلى مصر/الأزهر، أن كل هذه الدلائل تؤكد شيئاً واحداً هو أن الحركة الشرعية و الفقهية في السودان الغربي لها جذور عميقة و متينة وقديمة، و أن الإرهاصات و البذور الأولى للحركة

---

(1) القلقشندي، المصدر السابق، ص284. حسن عيسي عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقية وقيام دولة الفولاني، دار الزهراء للإعلام، القاهرة، 1997، ص93. أبو بكر إسماعيل، المرجع السابق، ص-ص23-24.

الشرعية في السودان الغربي تعود إلى القرن الثاني الهجري، و استمر سقيها و رعيها إلى القرن الخامس الهجري [1].

(2)- طور النشأة: من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجريين: و تعتبر هذه المرحلة، هي المرحلة التي وصل فيها المرابطون إلى المنطقة و صححوا بعض المفاهيم الإسلامية، فانتشر الإسلام في كثير من أنحاء السودان، و أقبل الناس إلى تعليم الإسلام لفهمه فهماً جيداً؛ و قد أدى هذا الإقبال الكبير إلى ظهور مراكز علمية مهمة في المنطقة أسهمت كثيراً في نشر الإسلام و انتعاش الحركة الفقهية و الشرعية، و مما يؤكد حدوث نقلة نوعية في مسيرة الحركة الشرعية و الفقهية من طور التأسيس إلى طور النشأة، ظهور مراكز علمية و جامعات كثيرة في السودان، ووجود عدد كبير من الفقهاء و طلبة العلم في المنطقة، كما أوضح لنا البكري عند حديثة عن غانة[2]. و فضلاً عما ذكر، وجدت مجموعة من علماء المشارقة و المغاربة الذين وفدوا إلى المنطقة واستوطنوها، و كان لهم دور مهم في انتعاش الحركة الفقهية و الشرعية ونشأتها، و تشجيع طلاب العلم على التحصيل، و مما يعزز من قولنا ما قاله السعدي أن ملك جني لما أراد أن يسلم في القرن السادس الهجري جمع ما يقرب 4200 عالم في المنطقة و أسلم على أيديهم[3]. و لا شك أن وجود هذا العدد و إن كان فيه نوع من المبالغة في منطقة جني وحدها فإنه يؤكد أمراً واحداً و هو أن الحركة الفقهية و الشرعية في هذه الفترة قد تأسست و تجذرت جذورها في السودان الغربي، هذا و من المؤكد أن بداية هذه الحركة الشرعية انطلقت من تعليم الناس قراءة القرآن وإجادتها، ثم تعدى ذلك إلى دراسة الأحكام الشرعية التي تنطوي عليها تلك النصوص، ثم كان الاهتمام بالآثار التي يحفظها أولئك العلماء، و ذلك برواياتها مشافهة وكتابة، و الاستعانة بها على فهم أحكام القرآن والتصدي لحل المشكلات الفقهية و الشرعية التي يواجهها الناس وتبيان حكم الشرع فيها.

و تعتبر جامعات تنبكت و غيرها من المدن العلمية نقطة الانطلاق التي بدأت منها جهود الرعيل الأول من العلماء الذين استوطنوا المنطقة و الذين توافدوا إلى السودان من

([1]) محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، ط2، الدار البيضاء، 1985م، ص50، ص282، ص-ص 298-301. البكري، المصدر السابق، ص149.

([2]) البكري، نفس المصدر، ص175.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص12. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص44.

مختلف جهات العالم الإسلامي، لتنشئة جيل من الفقهاء و علماء العلوم الشرعية الذين سيتحملون مسؤولية التعليم و القضاء و الإفتاء من بعدهم. و كان هؤلاء العلماء المخلصون يحثون طلبة العلم بكل الوسائل على التعليم و التحصيل، مما جعل مجموعة منهم يرحلون إلى منابع العلم الأصلية ونهلوا منها، و قد نبغ كثير منهم كأمثال الشيخ فاتح بن عثمان التكروري المتوفى سنة 695هـ/1293م و الشيخ صبيح بن عبدالله التكروري المتوفى سنة 731هـ وكان بارعاً في علم الحديث... والشيخ راشد بن عبد الله التكروري المتوفى سنة 796هـ/1394م و الشيخ عبد الملك بن على الكانمي الذي اشتغل بالتعليم في مصر سنة 720هـ[1].

(3)- طور الازدهار و النضج والإنتاج: بدأت هذه المرحلة من القرن الثامن إلى القرن العاشر، بعد ما تأسست الحركة الفقهية و الشرعية في المنطقة وتجذرت عروقها في تربة السودان و نمت و ترعرعت. و تمتد هذه المرحلة من فترة منسى موسى و أخيه منسى سليمان إلى عهد الأسكيين أي حتى الغزو المراكشي و سقوط دولة سنغاي على أيدي المغاربة عام 1591م، فخرجت الحركة الشرعية و الفقهية في الازدهار منذ عهد منسى موسى و في عهد منسى سليمان الذين يعتبر عهدهما عهداً ذهبياً و فتحاً مبيناً في ميدان العلم و التعليم.

و تؤكد كثير من المصادر أن منسى موسى كان له اتصال و علاقة وطيدة مع ملوك العالم الإسلامي، و جرى بينه و بينهم تبادل ثقافي مهم، و خاصة بعد رحلته المشهورة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، مما أدى إلى إرسال بعثات ثقافية من السودان إلى الخارج، كما استقطب مجموعة من علماء المشرق والمغرب إلى السودان مما نفخ في الحركة الشرعية و الفقهية روحاً جديدة وطفرت إلى الأمام[2].

([1]) المقريزي، المصدر السابق، ص-ص362-364. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد، ج2، دار الجيل، بيروت،1976، ص205، ص-ص415-416. ابن حجر العسقلاني، الغمر بأبناء العمر، ج2، المحقق: د. حسن حبشي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1969م، ص582. أبوبكر إسماعيل، المرجع السابق، ص-ص24-25.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص51-57. إبراهيم طرخان، المرجع السابق، ص151. أبو بكر إسماعيل، المرجع السابق، ص37.

و حسبنا دليلاً على بداية ازدهار الحركة الفقهية و الشرعية منذ تلك الفترة اهتمام السودانيين بالعلم، و إجبارية التعليم في المنطقة، و قد استحسن ابن بطوطة هذه العادة في السودان حيث قال: "... **و منها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، و هم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهرت في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه.**" [1].

كما تتجلي هذه الظاهرة في كثرة المراكز العلمية التي بناها السلطان منسى موسى بعد رجوعه من الحجاز في كثير من أرجاء السودان، مما شجع السودانيين على الإقبال على طلب العلم، و التنافس في الرحلة إلى طلب العلم في العواصم الإسلامية الأخرى، و قد استمر هذا الازدهار حتى في عهد أخيه منسى سليمان الذي قال عنه العمري: "**بنى المساجد و الجوامع و المآذن و أقام بها الجُمع والجماعات و الأذان وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الأمام مالك رضي الله عنه، و بقي بها سلطان المسلمين و تفقه في الدين...**" [2]. و وصل هذا الازدهار قمته في عهد الأسقيين و خاصة زمن أسكيا الحاج محمد الكبير وأبنه أسكيا داود. و ظهرت في أول مرة مؤلفات السودانيين في الفقه و الشرع وغيره من العلوم الإسلامية.

و يرجع سبب هذا الازدهار إلى اهتمام الأسكيا محمد الكبير بالمراكز العلمية، و بالعلماء، و طلبة العلم، و كان يستقدم العلماء من الخارج وخاصة من المشرق والمغرب والأندلس، و كان يقوم بالتدريس في جامعات تنبكت أشهر فقهاء ذلك الزمن، و تم جلب عدد كبير من الكتب التي اشتراها سلاطين السودان من العواصم الإسلامية إلى المنطقة [3]؛ فأدى كل هذا، إلى كثرة علماء المنطقة و توافد الطلبة إليها من كل مكان.

و ظهر جيل جديد من علماء السودان تألق نجمهم في سماء العلم، قاموا بتأليفات كثيرة، وذاع صيتهم في الآفاق فأصبحت تمبكتو عامرة بالعلماء و الفقهاء و الأدباء وطلبة العلم، و في هذا يقول الحسن بن الوزان: "**...و في تمبكت عدد كثير من القضاة و الفقهاء و الأئمة يدفع إليهم جميعاً مرتباً حسناً و يُعظم الأدباء كثيراً، و تُباع أيضاً مخطوطات كثيرة من بلاد البربر وتدر أرباحاً تفوق سائر البضائع...**" [4].

([1]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص-ص672-673.

([2]) العمري، المصدر السابق، ص-ص59-60. القلقشندي، المصدر السابق، ص297.

([3]) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص137. نقولا زيادة، المرجع السابق، ص-ص349-350. أبو بكر إسماعيل، المرجع السابق، ص61.

([4]) حسن الوزان، المصدر السابق، ص167.

هذا في عهد أسكيا محمد الكبير، أما في عهد أسكيا دواد، الذي ذُكر أنه كان حافظاً للقرآن، و له شيخ يُعلمه كل مساء، فقد توقدت نار الحركة الفقهية و الشرعية و تأججت بشكل مثير للدهشة، و كان يغدق على العلماء و الطلبة بدون حساب وي ُشجعهم على طلب العلم، بل كان له نُساخ ينسخون له الكتب النادرة ليضعها في خزانته التي يرتادها أهل العلم، و أحياناً يهديها لبعض العلماء [1].

و قد استمرت الحركة الفقهية و الشرعية في الازدهار حتى في بداية الحكم المغربي، و إن كان مجيئهم أحدث صدمة كبيرة في الأوساط العامة بالسودان، و خللاً في سير الحركة العلمية إلا أن الحركة أستأنفت السير من جديد. و حسبنا دليلاً ما ذكره محمود كعت، حيث يقول بعد بيان ما أحدثته جيوش المغاربة من فساد في المنطقة: "**... ثم جبر الله كسر تنبكت و كثر قراؤها و أدباؤها من كوكي إلى جني و جمع شملها و أقامها أتم قيام و عمرها و أفاض الله البركة في برها وبحرها في أوائل دولة جيش مولانا أحمد و أكثر الخير فيها حتى كاد الناس ينسون دولة سنغاي...**" [2].

و مما يعزز هذا القول ما ذكره محمد الغربي: "**... إن ما وقع في تنبكتو لم يزد على أن يكون حادثة سير في مسيرة الحركة العلمية بتلك المدينة... و بصفة عامة فإن الحياة الثقافية و اصلت عملها بنفس الثقة و الفاعلية السابقتين، وأكثر من ذلك فقد تجدد الوجه الثقافي للسودان بعد ظهور عوامل دافعة جديدة من بينها مجيء مدرسين و علماء من المغرب...**" [3].

و زبدة القول أن الحركة الفقهية و الشرعية قد بدأت في السودان الغربي في وقت مبكر، لكنها كانت متواضعة، و استمرت في هذه الحالة مدة من الزمن، ثم ما لبثت أن نمت نمواً عظيماً و ازدهرت ازدهاراً عجيباً ونضجت نضوجاً كاملاً حسب مقاييس المنطقة و آتت ثماراً طيبة للمجتمع السوداني، إذ زودته بالأحكام و العلوم الشرعية لتنظيم مختلف أموره و شؤونه الدنيوية و الأخروية. و يرجع سبب هذا الازدهار إلى تشجيع الحكام و رعايتهم لها، وتضافر الجهود التي بذلها مجموعة من العناصر العلمية المختلفة التي توافدت على المنطقة، من أجل قيام نهضة علمية عظيمة في السودان، و نتجت عن هذا الجهد المشترك (محليين أهلين و وافدين مغاربيين) حركة علمية لها أهميتها رغم أن بدايتها كانت متواضعة،

([1]) محمود كعت، المصدر السابق، ص94.

([2]) نفسه، 181.

([3]) محمد الغربي، المرجع السابق، ص-ص519-521. نيقولا زيادة، المرجع السابق، ص-ص350-351.

إذ ظهرت ثلة من علماء السودان الذين تعلموا وأخذوا عن علماء المشارقة، و المغاربة، و الأندلس الذين استوطنوا السودان.

و في هذا الدور أيضاً ظهرت مؤلفات علماء السودان و تعليقاتهم و حواشيهم و فتاويهم. واستمرت الحركة الفقهية و الشرعية في نمو دائم وازدهار مستمر و حيوية دافقة حتى اعتراها الضعف و الركود فتعثرت وتوقفت عن سيرها الأول شيئاً فشيئاً حتى أصبحت جامدة، نتيجة لأزمات سياسية و طبيعية و خلقية و ثقافية اجتاحت المنطقة أدت إلى هجرة الأدمغة العلمية و الفكرية من العواصم العلمية و الثقافية ابتعاداً عن الفتنة و الفوضى ولضعف العلماء الأواخر و قلة اهتمامهم بالفقه الإسلامي و العلوم الشرعية[1].

و قد واصلت الثقافة الإسلامية مجدها في السودان خلال القرن التاسع و العاشر الهجريين بفضل جهود ملوك المنطقة الذي بذلوا النفس و النفيس لجلب العلماء واستقطابهم إلى المنطقة. فأصبحت جميع المعارف تُستوعب وتُدرس و تُناقش باللغة العربية التي غدت اللغة الرسمية في الكتابة والثقافة على السواء. و ازدهرت الحركة العلمية بشكل عام، و الحركة الشرعية والفقهية بشكل خاص، بفضل اهتمام العلماء بالفقه والشرع والعلوم المساعدة على فهمه؛ لكن الحركة الشرعية والفقهية رغم ازدهارها سيطر عليها طابع التقليد والاختصار و الحفظ[2].

- **طابع التقليد:** عرف السودان الغربي حركة فقهية و شرعية متميزة ما بين القرنين الثامن و العاشر الهجريين فازدهرت ازدهاراً كبيراً، لاهتمام علماء المنطقة بالفقه المالكي، و بلغوا في فهمه الغاية القصوى حتى أصبحوا ينتجون فيه، لكن هذا الإنتاج ليس مستقلاً تمام الاستقلال، فأغلب ما أنتجوه في هذا الميدان -و إن لم نقل كله- خالياً من نفحة التجديد، فإنتاجاتهم الشرعية و الفقهية تنحصر في شرح كتب السابقين و وضع الحواشي و التعليقات عليها و غير ذلك مما لا يخرج عن دائرة التقليد[3].

و من هنا خيمت ظاهرة التقليد على الحركة الشرعية و الفقهية في السودان فأصبح الفقه يدور في حلقة مفرغة، و أمسى ماؤه شبه راكد، فمن نظر إلى الكتب التي تعتمد عليها الحركة الشرعية و الفقهية، و ما أنتجه علماء المنطقة في هذا الصدد يظهر له جلياً ظاهرة

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص50.

([2]) نفسه، ص51.

([3]) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص-ص132-140.

التقليد التي تسيطر على الحركة الفقهية و الشرعية، حيث أن علماء المنطقة لم يخرجوا عن دائرة التقليد فيما أنتجوه، و كان أحسنهم حظاً من يمحص أقوال العلماء السابقين و يناقشهم، ويعلق على أقوالهم لتصحيح أخطائهم وبيان هفواتهم، و من هنا اختنقت ظاهرة التقليد الحركة الشرعية و الفقهية في السودان الغربي و لم تترك لها فرصة للتنفس[1].

و هكذا أصبح العلماء لا يرددون إلا ما قاله الأوائل، و أكثر من هذا فإن نصوص الكتاب و السنة لم تعد محل استدلال، وإنما أقوال العلماء هي التي حلت محل النصوص الشرعية[2].

و خلاصة القول: إن الفقه و الشرع الإسلامي قد تطورت دراسته في السودان الغربي ما بين القرنين الثامن و العاشر الهجريين و ازدهرت لكن سيطر عليها التقليد، حيث أن الفقهاء لم يخرجوا به أو لم ينزلوا به إلى أرض الواقع بل ظلوا يرددون ما قاله الأوائل دون أن يضيفوا شيئاً جديداً يستحق الذكر إلا ما ندر، و هذا ناتج عن غلق باب الاجتهاد، و إجبارية الالتزام بالمذهب الواحد في العصور المتأخرة، واعتبار الخروج عنه بدعة وضلالة، و إن لم نقل حراماً[3].

المبحث الثاني: خصائص حركة التأليف في العلوم الشرعية بالسودان الغربي:

المطلب الأول: طابع الاختصار:

اصطبغت الحركة الفقهية و الشرعية في السودان الغربي بطابع الاختصار، حيث نجد أن أغلب الكتب الفقهية و الشرعية المعتمدة في الحلقات الدراسية يطغى عليها طابع الاختصار، مما جعل الحركة الفقهية والشرعية تتأثر بهذه الظاهرة كما أن أغلب اهتماماتهم الفقهية انصب على المختصرات الفقهية مما أثر سلباً على مؤلفاتهم كمختصر خليل.

و قد بدأ ظهور المختصرات الفقهية في المذهب المالكي منذ القرن الثالث الهجري و ازدادت انتشاراً في القرن الرابع، ثم تضخم حجمها بشكل مُلفت للنظر في القرن السابع الهجري على أنّه سرعان ما استفحلت هذه الظاهرة مع مرور الزمن بسبب تقاعس الهمم عن تحصيل المبسوطات، و التعامل مع المطولات، وقصور الفقهاء عن الابتكار والإبداع، و لا شك أن هذه الظاهرة ناتجة عن ظاهرة أخرى لا تقل خطراً عنها، و هي ظاهرة غلق باب

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص–ص51–52.

([2]) الخليل النحوي، المرجع السابق، ص116.

([3]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص53.

الاجتهاد الذي جعل العلماء أو الفقهاء المتأخرين عالة على السابقين فركنوا إلى الخمول الفكري واقتصروا على ما وجدوه مدوناً لدى الأقدمين و اعتكفوا على كتب المختصرات الفقهية لا يبغون بها بديلاً، و اهتموا بها أَيَّما اهتمام في حلقات التدريس.

و من هنا أصبحت جهود الفقهاء منحصرة في فتح ما إستغلقه أصحاب المختصرات الفقهية فكثرت الشروح و الحواشي، مما جعل ابن خلدون يندد بهذه الظاهرة الإختصارية للعلوم الشرعية و الفقهية "**...و هو فساد في التعليم و فيه إخلال بالتحصيل...**" [1]. و من العلماء الذين نددوا بظاهرة النقول في المختصرات و ترك أمهات الكتب الإمام المقري حيث قال: "**... فصارت الفتوى تنقل من كتب لا يدري ما زيد فيها مما نقص لعدم تصحيحها، و قلة الكشف...**" [2]. و من العلماء الذين هاجموا ظاهرة الاهتمام بالمختصرات دون الأمهات الشيخ أحمد بابا التمبكتي، حين قال –في معرض حديثه عن مختصر خليل و الرسالة و اهتمام الناس بهما–: "**... فعكف الناس عليهما شرقاً و غرباً.. في هذه البلاد المغربية ..بل قصارهم الرسالة و خليل وذلك علامة دروس الفقه و ذهابه...**" [3].

و مما يعزز سيطرة طابع الاختصار على الحركة الفقهية و الشرعية في السودان الغربي، أن الشيخ احمد بابا–الذي يندد بظاهرة الاهتمام بالمختصرات و النقول منها دون الأمهات– لم يفلت من قبضة سلطة المختصرات فأغلب ما وصلتنا من كتاباته الفقهية عبارة عن شروح و حواشي على مختصر خليل أو تقارير لبعض مشكلاته و نكته، هذا و من المؤكد أن ظاهرة الاختصار قد تركت آثاراً سلبية على الفقه الإسلامي في المنطقة، إذ نجد أن المختصرات الفقهية وجدت آذاناً صاغية لدى علماء السودان فعكفوا عليها اعتكافاً وضيعوا أوقاتهم في شرحها وفتح استغلاقها، وليتهم اهتموا بأمهات الكتب الفقهية التي ترجع إليهم بفائدة جمة أكثر من المختصرات[4].

([1]) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص457. عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب ، (د.د.ن)،(د.ط)، المغرب، (د.ت)، ص–ص87–88.

([2]) أحمد بن يحى الونشريسى، المعيار المغرب والجامع المعرب لفتاوى علماء أفريقية والمغرب، وزارة الأوقاف الرباط، ج18، دار الغرب الإسلامى، بيروت، 1981م، ص479. عمر الجيدي، المرجع السابق، ص90.

([3]) أحمد بابا التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص171.

([4]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص55.

و زبدة القول أن الحركة الفقهية في العصر الذي ندرسه اصطبغت بطابع الاختصار لكثرة اهتمام الفقهاء بالمختصرات الفقهية فخيم على الحركة الفقهية كتب المختصرات الفقهية، و أصبحت جهود العلماء منحصرة في شرح هذه المختصرات وحل رموزها، و يرجع هذا الاهتمام بالمختصرات إلى ضعف الهمم، و فتور العزائم، و تقاعس الهمم عن تحصيل المبسوطات و التعامل مع المطولات وعجز الفقهاء عن الابتكار و الإبداع، و تيسير الدروس للحفظ و جمع ما هو متفرق في كتب الفروع ليكون أجمع للمسائل، لكن هذا القصد الحسن الذي من أجله اهتم العلماء بالاختصار و المختصرات انقلب إلى ضده فجنى على الفقه الإسلامي و قضى على حيويته و مرونته و نضارته[1].

المطلب الثاني: طابع الحفظ:

يعتبر ظاهرة الحفظ ناتجة عن ظاهرتين خطيرتين و هما ظاهرة الاختصار و التقليد، و لهذا نجد أن الحركة الفقهية في السودان قد سيطرت عليها ظاهرة الحفظ، إذ اهتم الفقهاء كثيراً بالحفظ حتى أصبح معياراً للتفقه، و يؤكد هذا الأمر المثل السائد في ذلك الوقت: "**من حفظ حجة على من لم يحفظ**". و لذا نجد في المنطقة مجموعة من الفقهاء و الطلاب الذي يحفظون أمهات الكتب و المختصرات الفقهية دون أن يجدوا عناء في ذلك بل أن العلماء يحثون الطلاب و كل من يشتغل بالعلم بالحفظ، ولهذا سادت ظاهرة الحفظ على الحركة الفقهية بالسودان في العصر الذي ندرسه، و هذه الظاهرة كانت منتشرة في السودان حتى وقت قريب، إذ نجد الطالب أول ما يبدأ به الحفظ.

و يستمر فيه حتى يتعود على الحفظ. فهو يبدأ بحفظ القرآن ثم المتون و يستمر في الحفظ إلى ما شاء الله، و ربما استظهر مجموعة من النصوص و السور–و قد يختم القرآن الكريم– دون أن يعرف الكتابة، مما يدل على الاهتمام بالحفظ. و قد بين ابن خلدون هذا الأمر لما تحدث عن منهج المغاربة في التلقي، حيث ذكر أن المدرسة المغربية تولي جانب الحفظ و الاستظهار أكبر عنياتها، بينما كانت المدرسة التونسية تفضل جانب التحصيل و التعمق في البحث وقوة التصرف في النصوص [2]، و يعزو ابن خلدون هذا الأمر إلى أن التونسيين في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب و مدارسة قوانين العلوم...فتربت

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص56.

([2]) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق ص343. عمر الجيدي، المرجع السابق، ص177.

فيهم ملكة الفهم و التعمق في النصوص، بينما المغاربة يقتصرون في تعليم الولدان على حفظ القرآن وحده دون غيره مما أكسبهم ملكة حفظ النصوص و استظهارها [1]. و كان من نتيجة الاهتمام بالحفظ أكثر من الفهم أنك "... **تجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون، و عنايتهم بالحفظ أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم.**." [2]. على أن الحركة الفقهية في المغرب و الحركة الفقهية في السودان وجهان لعملة واحدة، و لهذا لا نعجب إذا رأينا أن الحركة الفقهية في السودان يطغي عليها طابع الحفظ لأن المغاربة هم أوائل شيوخ فقهاء السودان، و ما أتاهم العلم إلا من قِبلهم قبل أن يأتي من جهة أخرى.

هذا و من المؤكد أن السودانيين اهتموا بالحفظ أكثر من التحصيل لا يعني أنهم ألغوا جانب التحصيل، لأن التحصيل مهم في فهم النصوص و استنباط الأحكام، فكل ما في الأمر أن جانب الحفظ غلب على جانب التحصيل على أن المنهجين اللذين ذكرهما ابن خلدون، فلكل منهما جانبه الإيجابي، فإذا كان الفهم يعين على تربية الملكة، وسرعة التحصيل، فإن الحفظ يبقي شيئاً ضرورياً لا سيما في بداية عهد الطالب بالدراسة، و لهذا فالحفظ ليس أمراً سلبياً محضاً كما يراه البعض.

و تجدر الإشارة إلى أن المدرسة الإسلامية عموماً كانت تعتمد على الذاكرة، و تعتبرها أهم وسيلة في تحصيل العلم، و لهذا معظم العلوم الإسلامية وصلت إلينا عن طريق الرواية الشفوية في بدايتها، إذن فلا غرور أن يهتم السودانيون بالحفظ اقتداءً بالسلف[3].

و من مظاهر سيطرة الحفظ على الحركة الفقهية استظهار الفقهاء مختصر خليل و الرسالة و التوضيح و المدونة و غيرها من الكتب الفقهية كما يحفظون القرآن، و لعل اهتمامهم بالحفظ أكثر من اللازم يرجع إلى تأثرهم بقول بعض العلماء: " **من حفظ حجة على من لم يحفظه**" و قولهم: "**من لم يحفظ النصوص فهو لص**" و غيرهما من العبارات التي تحفز أهل العلم على الحفظ. و يبدو أن اهتمامهم بالحفظ يرجع أيضاً إلى قلة الكتب، و الأوراق التي يكتب عليها وقلة المصابيح الزيتية في المنطقة، و شيوع الحفظ في ذلك الوقت، و من

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق ص57.

([2]) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص343.

([3]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص58.

مظاهر اهتمامهم بالحفظ أيضاً أنهم يسخرون من الذين لا يحفظون النصوص، حيث يشبهونهم "**بضبع الأربعاء**"[1].

و صفوة القول: أن الحركة العلمية الفقهية في السودان طغت عليها ظاهرة الحفظ التي نتجت عن ظاهرتي التقليد والاختصار، حيث اهتم فقهاء المنطقة بالحفظ و اعتنوا به عناية كبيرة على حساب الفهم، فحفظوا المتون الفقهية و غيرها من العلوم الإسلامية، متأثرين في ذلك بالمنهج السائد في الغرب/المغرب الإسلامي، إلا أنه رغم اهتمامهم بالحفظ فإنهم لم يهملوا كلياً جانب التحصيل و الفهم، بل اعتنوا به أيضاً وإن كان اهتمامهم به أقل من اهتمامهم بالحفظ لأن التحصيل و الفهم أمران ضروريان لاستنباط الأحكام من النصوص، و لا غرو في اهتمامهم بالحفظ لأن"حصول الملكة يكون بكثرة الحفظ و جودتها يكون بجودة المحفوظ".[2]

المبحث الثالث:أهم الكتب العلمية في العلوم النقلية و الشرعية المُعتمدة في السودان الغربي و أماكن التدريس:

تعتبر الكتب الشرعية و الفقهية من أهم الركائز التي اعتمدت عليها الحركة العلمية والفقهية في نشأتها، و نموها و ازدهارها و لهذا سنحاول أن نبين في هذا الفصل أهم الكتب التي كانت عمدة علماء الحركة الشرعية و الفقهية، كما سنحاول أن نتطرق أيضاً إلى أهم الأماكن التي يتم فيها تدريس العلوم الشرعية، و سنختم الفصل بالحديث عن أهم أساليب التقويم، وآثار الحركة العلمية. إذن ما هي الكتب المعتمدة في حركة العلوم الشرعية؟ وما هي الأماكن التي يتم التدريس فيها؟ و ما هي الأساليب التي بواسطتها يتم تقويم مستوى الطلبة؟ و ما آثار تلك الحركة العلمية على نشر العلوم الشرعية؟

أهم الكتب المُعتمدة:

إن أهم الكتب الفقهية المعتمدة في المراكز العلمية في السودان الغربي هي نفس الكتب المتداولة في الحلقات العلمية بالمغرب، لأن الحركة العلمية في منطقة السودان الغربي و الحركة العلمية في المغرب خلال الفترة التي نتحدث عنها لا يختلفان،

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق ، ص-ص58-59.

([2]) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المصدر السابق، ص496.

فهما وجهان لعملة واحدة و إن تفاوتا في التطور والتقدم والازدهار [1]، ومن أهم هذه الكتب العلمية والفقهية المعتمدة:

(أ)- الموطأ للإمام مالك بن أنس رضي الله عنه: و قد نوه العلماء بهذا الكتاب أيما تنويه حتى إن ابن العربي قال عنه: "**أول كتاب ألف في شرائع الإسلام و هو آخرة...**" [2].

و نظراً لأهمية كتاب الموطأ في المذهب المالكي إهتم به علماء الغرب الإسلامي واعتنوا به كثيراً تفقهاً و دراسة و حفظا، و وضعوا عليه عدة شروح و مختصرات و تعليقات، و قد تردد ذكره كثيراً في مؤلفات و تراجم علماء السودان الغربي، درسه أحمد بابا على أبيه و أخذه محمد بغيغ على الفقيه أحمد بن سعيد وتلقاه محمد بابا بن محمد الأمين على الفقيه عبد الرحمن بن أحمد المجتهد...[3].

(ب)- مدونة سحنون (المتوفى سنة 240هـ): تعتبر مدونة سحنون أقدم كتاب وصل إلينا في المذهب المالكي بعد الموطأ، و هي عبارة عن أسئلة سئل عنها عبد الرحمن بن القاسم فأجاب عنها بما كان يسمعه من الإمام مالك، و أستاذه أسد بن الفرات، و إذا لم يجد في المسألة جواباً للإمام مالك يجيب عنها باجتهاده.

و تعد المدونة ثمرة جهود ثلاثة من الأئمة: مالك بإجاباته و ابن القاسم بقياساته و زياداته و سحنون بتهذيبه و تنقيحه و تبويبه و بعض إضافاته. و هي أصل المذهب المالكي و عمدة الفقهاء في القضاء و الإفتاء، بعد الموطأ في الفقه المالكي، و إليها كانوا يرجعون فيما أشكل عليهم من المذهب.. و نظراً لأهمية المدونة اهتم بها علماء المذهب المالكي في الغرب الإسلامي و وضعوا له شروحاً و مختصرات و تعليقات[4].

و اشتهرت في غرب إفريقيا شهرة منقطع النظير فتداولها العلماء و الطلاب بالدراسة، و تردد اسمها كثيراً في مؤلفاته فقهاء غرب أفريقيا. و ممن كان يدرسها في تنبكت الفقيه أحمد بن عمر أقيت، و الفقيه أحمد بن سعيد... [5].

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص139.

([2]) ابن العربي المالكي، القبس في شرح موطأ الإمام مالك ابن أنس، ج1، دراسة وتح د/ محمد عبد الله ولد كريم، ط1، دار الغرب الإسلامي،بيروت،لبنان، 1992، ص75.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص43، 45، 218. و مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص-ص680-681.

([4]) عمر جيدي، المرجع السابق، ص-ص66-69.

([5]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص43-45. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص-ص670-674.

(ج)- مختصر ابن الحاجب: يعتبر هذا الكتاب الفقهي من أهم الكتب الشرعية في المذهب التي حظيت باهتمام العلماء في القرن الثامن الهجري. وأصبح كالبرنامج للمذهب المالكي.. و قد اعتنى به علماء الغرب الإسلامي و وضعوا له شروحاً كثيرة، كما اهتم به علماء غرب إفريقية اهتماماً بالغاً في الحلقات العلمية. [1]

(د)- التهذيب للبرادعي: يعتبر هذا الكتاب الفقهي عبارة عن تهذيب للمدونة و المختلطة و قد تم تصنيفه سنة 372هـ/923م من طرف أبي سعيد خلف بن القاسم البرادعي. و منذ ذلك التاريخ أصبح من الكتب الفقهية المهمة في المذهب المالكي يتدارسها العلماء و الطلاب، و جعل العلماء ينصرفون عن المدونة، و يعتكفون عليه. و قد كان من الكتب المعتمدة في الفتوى عند المالكية و ظل مقرراً في الدراسات الفقهية خلال أربعة قرون قبل أن يزحزحه مختصر ابن الحاجب، و نظراً لأهمية هذا الكتاب أقبل عليه المغاربة إقبالاً كبيراً و تنافسوا في شرحه و اختصاره حتى أصبح الكتاب المدرسي الأول[2]. ثم انتقل إلى غرب إفريقية، فعكفوا عليه، و ممن اشتهر بتدريسه في تنبكت الفقيه عبد الرحمن بن المختار النحوي و الفقيه القاضي محمد الكابري الذي لا ينسلخ شهراً إلا و يختم عليه التهذيب لكثرة طلابه. [3]

(هـ)- مختصر خليل: يعتبر مختصر الشيخ خليل بن إسحاق بن موسي المعروف بالجندي ضياء الدين أبي المودة، حامل لواء مذهب مالك في زمنه، و من أهم المختصرات التي حظيت باهتمام العلماء في الغرب الإسلامي فوضعوا عليه شروحاً وحواشي و تعليقات و تقريرات تعد بالمآت، كما يوضح أحمد بابا التنبكتي.[4] و رغم صغر هذا الكتاب فإنه قيل جمع ما يقرب "مائتي ألف مسألة مائة بالمنطوق زمائة بالمفهوم". و لأهمية هذا الكتاب في المذهب المالكي في القرون المتأخرة "كان المالكية يشترطون في المفتي أن يختم المختصر الخليلي مرة في السنة بل أن بعضهم اشترط أن يختمه مرتين..."[5]. على أن مختصر خليل خليل منذ ظهر في القرن الثامن الهجري شغل الدنيا و ملأها، ولهذا اهتم به العلماء

([1]) عمر جيدي، المرجع السابق، ص97. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص677.

([2]) عمر جيدي، المرجع السابق، ص، ص78، 97.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص، ص29، 47. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص687.

([4]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص171.

([5]) عمر جيدي، المرجع السابق، ص98.

السودانيون أَيَّما اهتمام و وضعوا عليه شروحاً و حواشي وتعليقات تعد بالعشرات و إن لم نقل بالمآت.

و من العلماء الذين وضعوا عليه حاشية جيدة أحمد بابا [1]، و يعتبر والد أحمد بابا شيخ شيوخ الشناقطة في المختصر بحيث أغلب الروايات السودانية تنتهي إليه، و بذلك يعتبر هذا المختصر من أهم المختصرات التي حظيت باهتمام العلماء في القرن الثامن الهجري دراسة و تدريساً و شرحاً وضعه صاحبه مختصراً على مذهب مالك مُبيناً لما به الفتوى مستوفياً فقه المذهب في عبارات قصيرة كثيفة. [2]

(و)- التوضيح لخليل: وضعه الشيخ خليل شرحاً لمختصر ابن الحاجب الفرعي، و قد وجد هذا الكتاب إقبالاً كبيراً عند علماء المغرب الإسلامي خلال القرن الثامن الهجري قبل أن يحل محله المختصر، و ممن درسه في غرب إفريقيا الفقيه أبو عبد الله محمد بابا محمد الأمين علي يد محمد كري. [3]

(ز)- الجامع لابن يونس: هو من الكتب الفقهية المتداولة في الحلقات العلمية بالسودان الغربي، ألفه أبوبكر محمد بن عبد الله بن يونس الصقلي سنة 451هـ، و هو إمام حافظ لمذهب مالك و هو أحد الأئمة الأربعة الذين اعتمد عليهم خليل في مختصره، و كان الناس يسمون هذا الكتاب بمصحف المذهب لصحة مسائله. [4]

(ح)- التبصرة للخمي: و من الكتب الفقهية التي كانت تدرس في الحلقات العلمية في السودان الغربي، التبصرة للإمام الحافظ، العمدة في المذهب المالكي أبي الحسن على بن محمد الربعي القيرواني المعروف باللخمي المتوفى سنة 478هـ، و كتابه هذا حاذى به المدونة، جمع علماً غزيراً، كان عليه المدار في الفقه، و كان من الكتب المعتمدة في الفتوى كما يقول عنه الشنقيطي[5].

(ط)- النوادر و الزيادات: و من الكتب الفقهية التي كانت تتداول في المجالس العلمية في السودان الغربي كتاب النوادر و الزيادات لابن أبي زيد القيرواني إمام المالكية في عصره،

([1]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص-ص171-172.

([2]) الخليل النحوي، المرجع السابق، ص- ص 199-201.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص217-218. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص678.

([4]) عمر جيدي، المرجع السابق، ص78.

([5]) نفسه ، ص79.

(المتوفى سنة 386). و يعتبر ابن أبي زيد من أبرز وجوه المالكية في زمنه، و جامع مذهب مالك و شارح أقواله، وقد استوعب مؤلفه هذا فروع الفقه المالكي و من سمة هذا الكتاب أن احتفظ بكثير من النصوص المأخوذة من الأمهات التي في حكم الضياع على الواضحة و الموازية و المجموعة.. [1].

(ي)- الرسالة لابن أبي زيد: فكانت أيضا من الكتب و المختصرات التي حظيت باهتمام العلماء في غرب إفريقية في الحلقات العلمية رسالة ابن أبي زيد القيرواني ألفها صاحبها لتكون كتاباً تعليمياً للولدان، فانتشرت في سائر بلاد المسلمين، و تنافس الناس في اقتنائها حتى كُتبت بالذهب[2]. و قد تردد ذكرها في المصادر السودانية، فيذكر السعدي أنها كانت من أكثر الكتب التي يقرؤها الفقيه محمود أقيت، و قرأها مخلوف البلبالي على الفقيه عبد الله بن عمر أقيت وقرأها أحمد بابا على محمد بغيغ[3]، و قرأها الأمير أسكيا دواد على سيخ له.. [4].

(ك)- البيان و التحصيل: من الموسوعات الفقهية في المذهب المالكي التي كانت متداولة في الحلقات العلمية بالسودان الغربي البيان و التحصيل[5] للإمام أبي الوليد ابن رشد القرطبي الجد (المتوفى سنة 520هـ)، و يعتبر ابن رشد الجد أبرز و أشهر وجوه المدرسة المالكية في عصره، له باع طويل في الفقه، ومصنفاته كلها جيدة محكمة التأليف، و يأتي في مقدمتها البيان و التحصيل الذي شرح فيه العتبية لمحمد العتبي المتوفى سنة 255هـ، و بذلك حفظ لنا مضمون إحدى أهم أمهات الكتب الفقهية في المذهب المالكي [6].

(ل)- المختصر في الفقه المالكي: من الكتب الفقهية المتداولة في السودان الغربي المختصر في الفقه المالكي للإمام أبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي (المتوفى سنة 803هـ)، و يعد ابن عرفة من أشهر علماء عصره على الإطلاق، كان عالي الكعب في الفقه، و مختصره هذا كان معتمداً في الفتوى كما أوضح الشنقيطي[7].

([1]) عمر جيدي، المرجع السابق ، ص78.

([2]) رزق الله مهدي، المرجع السابق، ص-ص674-676.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص38-39، ص، ص46، 53.

([4]) محمود كعت، المصدر السابق، ص94. رزق الله مهدي، المرجع السابق، ص-ص674-676.

([5]) السعدي، المصدر السابق، ص43.

([6])مهدي رزق الله ، المرجع السابق، ص-ص79-80.

([7]) نفسه، ص82.

(م)-أحكام البرزلي: و من الموسوعات الفقهية في المذهب المالكي المعتمدة في السودان الغربي أحكام البرزلي للفقيه الكبير والمفتي الشهير أبو القاسم بن أحمد البرزلي التونسي (المتوفى سنة 841 أو 843هـ)، و كان حافظاً للمذهب المالكي، و عليه المدار في عصره، و كتابه هذا يعرف بأحكام البرزلي و بجامع مسائل الأحكام ممن نزل بالمفتين و الحكام(1).

(ن)- المعيار المعرب للونشرسي: من الموسوعات الفقهية المعتمدة في السودان الغربي المعيار لحامل المذهب المالكي في عصره والمنظر فيه أبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي التلمساني (المتوفى سنة 914هـ)، و من أشهر مؤلفاته كتابه المعيار الذي جمع فيه فأوعى وأحاط بالفقه المالكي أصلاً وفرعاً، و هو من الكتب المعتمدة رغم ما قيل في بعض مسائله كما أوضح الشنقيطي(2)، و قد قام أحمد بابا بترتيب هذا الكتاب ترتيباً جيداً حسب الموضوعات و الأبواب لكن عمله لهذا الكتاب مفقود حتى الآن لم يتم العثور عليه.(3)

عليه.(3)

(هـ)- التمهيد و الاستذكار: و من الموسوعات الفقهية المعتمدة في السودان كتاب التمهيد والاستذكار كلاهما للإمام المجدد المجتهد حافظ المغرب أبي عمر يوسف بن عبد البر القرطبي (المتوفى سنة 463هـ)، و يشكل هذان الكتابان أهم مصدر فقهي حديثي في المذهب المالكي(4).

و من الكتب الفقهية الأخرى المعتمدة في الحلقات العلمية بالسودان الغربي، المنتقي للباجي و تحفة الحكام لابن عاصم وشرح ولده عليها، القرطبية في الفقه، جمع الجوامع، المدخل لابن الحاج، المرشد المعين لابن عاشر، لامية الزقاق، المنهج المنتخب في قواعد المذهب للزقاق، شرح أبي الحسن الصغير على المدونة، منظومة الزكاة لمحمد بن العربي الفاسي، نوازل عبد القادر الفاسي، نظم العمل للفاسي وشرحه لولده، مختصر الأخضري، تبصرة الحكام لابن فرحون، الأحكام لابن سلمون، الجواهر الثمينة لابن شاس، التفريع للجلاب مواهب الجليل للحطاب، شرح اللقاني على المختصر، حاشية أحمد بابا على

---

(1) عمر جيدي، المرجع السابق، ص82.

(2) نفسه ، ص82.

(3) التنبكتي، كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص462. المقري، المصدر السابق، ص305. محمد بن الطيب القادري، المرجع السابق، ص272. البرتلي، المصدر السابق، ص36.

(4) عمر جيدي، المرجع السابق، ص79. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص147.

المختصر، شرح المختصر للأجهوري، شرح المختصر للتتائي، شرح المختصر للسنهوري، التنبيهات للقاضي عياض، التلقين للقاضي عبد الوهاب أحكام البرزلي، النهاية و التمام للمتيطي، القوانين الفقهية لابن حزي.

هذه هي كانت بعض الكتب الشرعية و الفقهية التي كانت لها الصدارة في الحلقات العلمية بالسودان الغربي على مر العصور، و لكن هذا لا يمنع وجود مؤلفات أخرى كثيرة غيرها [1].

و لكن أهم ما نلاحظه على تلك المؤلفات في العلوم الشرعية و الفقهية المستخدمة في حلقات العلم والتدريس في بلاد السودان الغربي أن أصولها مغاربية تأليفاً و منهجاً وأسلوباً، فقد وضعت بلدان المغرب الإسلامي بذورها الفكرية والعلمية في أراضي بلدان السودان الغربي، وأُقتسمت الخريطة الثقافية و الفكرية للسودان الغربي بين تلك البلدان المغاربية (المغرب الأقصى بمدنه، المغرب الأوسط بمدنه، المغرب الأدنى بمدنه)، و لم يكتفوا بالانسياب والتمدد الثقافي من خلال مؤلفاتهم فقط، بل همَّ بهم الأمر إلى الرحلة إلى تلك البلاد ذات الوعورة الجغرافية و المخاطر الطبيعية للتعليم و التعلم هناك، و العكس كان صحيح فهمَّ السودانوون رحالهم إلى بلدان إخوانهم الشماليين ليستزيدوا من علمهم، و بذلك كان الأثر المغاربي في مؤلفات ومناهج السودانيين واضح وضوح العيان، كما كانت مصر ذات الأثر الفعّال بالنسبة للسودان الشرقي.

المبحث الرابع: حركة التأليف وأعلامها في العلوم الشرعية بالسودان الغربي:

و قد بدأ انتشار العلوم العربية و الإسلامية في المنطقة منذ القرن الخامس الهجري، فيصف البكري مملكة غانة بقوله إن بها "**علماء وحملة علم**" [2]، و لقد سبقت الإشارة إلى أن المؤثرات الثقافية العربية الإسلامية في السودان الغربي قد ساهمت في خلق جيل من كبار العلماء السودانيين الذين نالوا شهرة كبيرة ومقدرة علمية أهّلتهم إلى منح الإجازات العلمية لبعض علماء الشمال الإفريقي وغيرهم، ولم يقف الأمر عند ذلك، بل وصل إلى درجة

([1]) للإطلاع على كم الكتب الشرعية والفقهية الكثيرة، انظر التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص–ص 88–89، ص95. ص–ص341–342. السعدي، المصدر السابق، ص–ص37–47. البرتلي، المصدر السابق، ص11 و ما بعدها، مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص–ص 667–693. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص–ص 232– 235.

([2]) البكري، المصدر السابق، ص175.

مشاركتهم في حركة التأليف في مختلف العلوم المعروفة في عصرهم، و سنحاول ما أمكن ذلك الوقوف على مشاهير هؤلاء العلماء السودانيين الذين عاشوا ما بين القرن الخامس و العاشر الهجريين، والذين أثروا حركة التأليف في العلوم، ولاسيما العلوم الشرعية[1].

المطلب الأول: العلوم النقلية (الشرعية): و هي العلوم المرتبطة بالشريعة و العقيدة الإسلامية شكلاً و موضوعاً و نُقلت كما هي من بلاد المغرب، و لكن هذا لم يمنع التعليق عليها وصُنع حواشي أو تعليقات عليها، وإن اتسعت الدائرة لفتح باب الاجتهاد لنصوص ضاقت على قضايا زمنها وعصرها الآني، ودخلت التفسيرات المتعددة، و أدخل العقل والقياس عليها للإيضاح والفهم.

(1)-علم القراءات: لما كان القرآن الكريم مصدر العقيدة و المعرفة لدى المسلمين حرصوا على مداومة قراءته ليلاً، و نهاراً، صغاراً، و كباراً، رجالاً، و نساءً، وأن علمه من أحسن الأعمال التي يتقرب بها الإنسان إلى الخالق البارئ فعَنْ عُثْمَانَ رَضِي اللَّه عَنْه عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:" خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ "[2]، لذا حرص علماء المسلمين على الاهتمام بقراءته حتى أصبح علم القراءات والتجويد علماً مهماً بين علوم القرآن الكريم بخاصة و الدراسات الشرعية بعامة.

فمن البديهي أن يكون علم القراءات و التجويد القرآني آتى كمؤثر خارجي على السودان الغربي من جهة المغرب و علمائها وفقهائها، و خاصة أنه بداية سماع اللغة العربية في عنصر أساسي من عناصر العقيدة ألا و هو تلاوة القرآن وتجويده.

و قد ازدهرت علوم القراءات في السودان الغربي في فترة الدراسة، و كان من مشاهير هؤلاء العلماء الذين ساهموا في ازدهار علم القراءات سيد بن عبد المولي الجلالي حامل لواء فن القراءات في زمانه و مدرَّسها و خصوصاً روايتي ورش وقالون [3]. و من مشاهير القراء البارزين أيضاً الفقيه إبراهيم الزلفي المقرئ وعالم التجويد الشهير، كان من أشهر المدرسين في مدرسة الفقيه أبي القاسم التواتي الواقعة قبالة المسجد الجامع في تنبكت[4]، و قد تحدث السعدي عن هذا الفقيه، و أورد عدداً من المعلومات المهمة عن سيرة حياته، رغم عدم

([1]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص236.

([2]) محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، باب فضائل القرآن، رقم الحديث 4739، ط1، دار ابن كثير، دمشق، 2002.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص218. البرتلي، المصدر السابق، ص111.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص58. البرتلي، المصدر السابق، ص71.

إشارته إلى تاريخ ولادته و وفاته، يقول السعدي إن: "...**السيد الفاضل الصالح الخيِّر الزاهد المقرئ عالم التجويد الفقيه إبراهيم الزلفي و هو أستاذ والدي**" [1].

- **الفقيه إبراهيم الزلفي (ت 922هـ)**: هو الفقيه الصالح الزاهد المقرئ، كان رحمه الله عالماً فقهياً فاضلاً خيراً زاهداً مقرئاً، عالماً بالتجويد، إماماً في المسجد الجامع بتنبكت. له جاه عظيم في مجتمع السودان، و قد أخذ عن الفقيه إبراهيم الزلفي عدة علماء من السودان الغربي منهم: الفقيه عمران السعدي، والسيد أبو القاسم التواتي وغيرهما. ظل رحمه الله في الإمامة والتدريس إلى أن وافته المنية العام 922هـ[2]. و لكن السعدي يخلط و يشوبه التشويش في نسبة أول فقيه ابتدأ قراءة الختمية في المصحف بعد صلاة الجمعة بين الفقيه إبراهيم الزلفي و الفقيه السيد أبو القاسم التواتي[3].

- **الفقيه عبدالله بن عمران السعدي -والد عبد الرحمن السعدي- (ت 1014هـ)**: كان رحمه الله عالماً فقهياً صوفياً ورعاً زاهداً، خيِّراً صالحاً، حسن النية، أخذ عن عدة علماء منهم: الفقيه المقرئ إبراهيم الزلفي، و أخذ عنه مجموعة من التلاميذ منهم ابنه عبد الرحمن السعدي، و ظل رحمه الله يؤدي دوره العلمي في المجتمع إلى أن وافته المنية سنة 1014هـ.) [4].

- **الفقيه عبدالله بن عمران بن عامر السعدي (960-1026هـ)**: كان رحمه الله عالماً فقهياً ورعاً سخياً، محبوباً، مهتماً بالقراءات القرآنية و غيرها من العلوم الإسلامية، أخذ عن الفقيه المقرئ إبراهيم الزلفي حتى تمكن من العلوم، ثم اشتغل بالتدريس حتى توفي عام 1026هـ)[5].

و من مشاهير القراء **محمد بابا ستر ابن الفقيه أندغ محمد (ت 1002هـ/1599م)**، و هو من سكان مدينة جني وكان فقهياً عالماً جليلاً [6].

---

(1) السعدي، المصدر السابق، ص58.

(2) نفسه ، ص-ص58-60. البرتلي، المصدر السابق، ص71. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص304.

(3) السعدي، المصدر السابق، ص-ص16-19، ص-ص 58-60. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص،ص 282،304.

(4) السعدي، المصدر السابق، ص-ص58-60. البرتلي، المصدر السابق، ص71. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص-ص328-329.

(5) السعدي، المصدر السابق، ص58، ص-ص239-240. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص276.

(6) السعدي، المصدر السابق، ص212.

- **الفقيه محمد بابا ستر بن أندغ محمد بن أحمد بن ملوك بن الحاج الديلمي(ت 1002هـ):** المعروف بالمصلي، و كان رحمه الله عالماً فقهياً جليل القدر، له باع طويل في الفقه. توفي رحمه الله في جني سنة 1002هـ[1].

- و منهم أيضاً **سيدي عبد الرحمن بن الفقيه القاضي سيد على بن عبد الرحمن الأنصاري المسناني (ت 1008هـ/1599م)**، كان فقيهاً مؤدباً زاهداً مقرئاً، واشتهر بذلك ودفن في مقابر الجامع الكبير بتنبكت[2].

- كما برز من القراء، **عبد الله بن أحمد بري بن أحمد الفقيه أندغ محمد الجد (ت 1010هـ/1601م)**، برع في بعض الفنون وكان فقيهاً متفنناً في زمنه متواضعاً قارئاً اشتهر في زمنه بعلم القراءة و التوثيق، بالإضافة إلى النحو، واللغة والفتوى[3].

- ومن شيوخ القراءات في السودان الغربي، **الفقيه أحمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن القاضي الحاج**، و قد روي السعدي ما يفيد حرصه على تلاوة المصحف الشريف بقوله: "**...وروي عن شيخنا الزاهد الفقيه الأمين بن أحمد أخي الفقيه عبد الرحمن أنه قال: لا يحول بين الشيخ أحمد هذا و درس المصحف إلا إقراء العلم...**" [4].

- و من مشاهير القراء أيضاً **أبو عبد الله محمد بابا بن محمد الأمين بن حبيب بن الفقيه المختار (ت 1014هـ/1605م)** [5]، و قد كان بارعاً في عدد من الفنون منها القراءات، و كان تليمذاً لسيدي ابن عبد المولى الجلالي-المشار إليه-، حيث أخذ عنه روايتي ورش و قالون دراية و برع فيهما[6].

(2)-علوم التفسير: و أما في مجال علم التفسير، و هو العلم الذي يساعد على فهم كتاب الله العزيز، فقد برز عدد من العلماء الأجلاّء والمفسرين، و يأتي في مقدمتهم الفقيه الإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي، الذي كان عالماً موسوعياً بمعني إجادته لعدد من العلوم من

([1]) السعدي، المصدر السابق ، ص-ص58-60. البرتلي، المصدر السابق، ص71.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص، ص240، 250.

([3]) نفسه، ص36. البرتلي، المصدر السابق، ص39.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص83.

([5]) نفسه، ص217.

([6]) نفسه. البرتلي، المصدر السابق، ص111.

بينها التفسير، وقد ألّف في هذا المجال: (تفسير فاتحة الكتاب)، و (البدر المنير في علوم التفسير و غيرهما [1].

و الفقيه أحمد بن محمد بن عثمان بن عبد الله التنبكتي، الذي كان عالماً فقيهاً و متفنناً في التفسير، إضافة إلى علوم أخرى، و كان من كبار المفسرين و المدرّسين بسنكوري[2]. كما برز في ذلك الوقت و في مجال التفسير نفسه العالم العلاّمة الفقيه محمد بن محمود بن بغيغ الونكري، الذي كان من خيار الصالحين، و اشتهر بحبه للعلم و رجاله، و قد أمضى أغلب أوقاته في تدريس مختلف العلوم ومن بينها التفسير، و اشتهر بأستاذيته للفقيه أحمد بابا التنبكتي الذي درس عليه العديد من العلوم من بينها علوم التفسير[3].

و هذا يدلنا على أن المغاربة قد وضعوا بذورعلم التفسير و نشره في بلاد السودان الغربي على الطريقة المغاربية، من خلال مخطوطاتهم و كتبهم و علمائهم، و نهل منه السودانيون و برعوا فيه و في بعض الأحيان تفوقوا على أساتذتهم المغاربة.

و كذلك العلاّمة الفقيه أحمد بابا التنبكتي صاحب المؤلفات العديدة في مختلف العلوم، و من بينها علم التفسير الذي كان مبرزاً فيه، وي ُحدثنا عن ذلك تلميذه الفقيه أحمد بن الحاج محمد فهدي بن أبي فهدي التواتي ثم المراكشي، فيما أورده صاحب فتح الشكور: "**لما فتح الله تعالي علَيّ بملاقاة عالم الدنيا ومعلمها...فقرأت عليه رحمه الله تعالى القرآن العظيم بتفسير ذي الجلالين المحلي والسيوطي في عامين مرتين قراءة تحقيق وتفهم وتدقيق...**" [4].

و لكن ذلك النص السابق يؤكد بما لا يدع مجال للشك أن الدور المغربي والتأثيرات الشمالية الثقافية و الفكرية وخاصة في نشر العلوم الشرعية التي اختمرت في السودان الغربي منذ انتشار الإسلام بدأت منذ أواخر القرن العاشر الهجري ترد باتجاه مُعاكس لتأثيرات سودانية غربية ثقافية على بلاد المغارب من خلال تلاميذ أحمد بابا المغاربة (التواتي والمراكشي)، و أصبح التأثير لا يسير في اتجاه واحد بل أصبح يتمدد في كلا الطرفين المغربي و السوداني.

([1]) ابن مريم، المصدر السابق، ص-ص254-256.

([2]) البرتلي، المصدر السابق، ص39.

([3]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص341. وكفاية المحتاج، ج2، المصدر السابق، ص-ص237-240. البرتلي، المصدر السابق، ص32.

([4]) البرتلي، المصدر السابق، ص33.

و من الراجح أن أحمد بابا لم يترك مصنفاً مستقلاً في مجال التفسير، فإن جلوسه لتدريس هذا العلم يدل بشكل قاطع على اهتمامه الكبير بهذا العلم وتضلعه فيه، لأن تدريس علم معين وخاصة في ذلك العصر لا يتأتي لمن لا يكون مبرزاً في ذلك العلم [1].

(3)- علوم الحديث الشريف: و يأتي في المرتبة الثالثة بعد علوم القرآن الكريم علم الحديث الشريف الذي يُعد ثاني مراتب المعرفة الإسلامية و مصادرها، و تأتي أهمية الحديث النبوي الشريف من كونه هو أقوال **الرسول صلي الله عليه و سلم** وأفعاله، و قد جاء مُكملاً لما ورد في القرآن الكريم.

و انطلاقاً من ذلك كله اهتم مسلمو السودان الغربي بدراسة الحديث الشريف، بعد تعلم فنونه من إخوانهم المغاربة، و من هؤلاء الإمام محمد عبد الكريم المغيلي (مغربي تواتي)، صاحب الباع الطويل في هذا الفن، و أبرز رواده و مؤلفيه و أساتذته، و من أبرز مؤلفاته في هذا الشأن (مفتاح النظر في علم الحديث)[2].

و من علماء المنطقة الذين تأثروا بمناهج و أسلوب المغاربة في علوم مصطلح الحديث الشريف الفقيه محمد بن أحمد التازختي، و قد كان عالماً و فقيهاً و محدثاً متفنناً متقناً، درس العلوم في بلاده، ثم رحل إلى المغرب والمشرق لمزيد من التحصيل العلمي، فأخذ عن علمائها علم الحديث، و سمع وروي و حصّل و دأب حتى تميز في فنونه، و صار في عداد المحدثين، و صُنف في ذلك كثيراً[3].

و من علماء الحديث الذين عاشوا في المنطقة، الشيخ عبد الرحمن بن على بن أحمد القصري (ت 1549/956م)، الذي تلقّي علوم الحديث و غيرها من العلوم الأخرى من خلال رحلته المشرقية، وقد جلس في مراكز السودان الغربي العلمية مدرساً للموطأ والكتب الستة المعتمدة في علم الحديث، وله عدة تآليف في علم الحديث و غيره[4].

و من هؤلاء العلماء أيضاً العلاّمة المحدث الفقيه أحمد بن أحمد بن عمر أقيت، الذي كان بارعاً في عدد من العلوم من بينها علم الحديث، و كان مادحاً **لرسول الله صلى الله عليه**

([1]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص-ص239-240.

([2]) ابن مريم، المصدر السابق، ص-ص254-256.

([3]) التبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص587. السعدي، المصدر السابق، ص39.

([4]) التبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص264. كفاية المحتاج، ج1، المصدر السابق، ص284. محمد الغربي، المرجع السابق، ص51.

و سلم، ومدرساً للصحيحين في مسجد سنكوري في أشهر رجب و شعبان و رمضان نحو خمس و عشرين سنة [1]. و من رجال الحديث الشيخ محمد بن محمود بغيغ الذي كان بارعاً في ثلة من العلوم منها علم الحديث، و أشتهر بقدرته على التدريس وتبحّره في فنون العلم حيث ارتحل لطلب العلم وتتلمذ على أشهر علماء عصره و تخصص في عدة علوم من بينها علم الحديث[2].

و من هؤلاء الرجال أيضاً أبو حفص القاضي عمر بن محمود أقيت، الذي درس في تنبكت على أشهر علمائها و فقهائها، و جلس للتدريس، و كان فقيهاً صالحاً بارعاً في عدة علوم من بينها علم الحديث[3]، و شقيقه عبدالله بن محمود أقيت، الذي عرف بتضلعه في نوازل الفقه وكتب خليل والرسالة، وقد جلس للتدريس بجوامع تنبكت، و ما زال على الحالة نفسها حتى رحل إلى مراكش مع أفراد عائلته و توفي هناك عام 1006هـ/1597م [4].

فقد طُوِّرت ببطء حركة نقل العلوم الشرعية من بلدان المغرب إلى السودان الغربي، الحركة العلمية في الأخيرة عبر قرون حتى اشتد ساعدها و وقفت على قدميها لتقوم بدور العطاء لمجتمعها السودان الغربي وما حولها من بوادي و قرى و دواشر أولاً ثم إلى غرب أفريقيا بصورة عامة ثم تتعدى ذلك في التأثير على المؤثر المغربي ذاته داخل أراضيه.

و من أعلام السودان الغربي في الحديث الفقيه أحمد بابا التنبكتي، الذي وإن لم يترك أثراً معتبراً في الحديث، فإن استدلاله به، و طريقة تناوله و استثماره في استنباط الأحكام يؤمي إلى أن له إلماماً كبيراً و اهتماماً به، و لا أدل على ذلك أنه كان مدرساً لهذه المادة دراسة نقل و تحقيق و توجيه[5].

و إلى جانب هذا كان ينصح الخطباء أن يعتمدوا على الأحاديث الصحيحة دون الموضوعة، بل كان يعيب عليهم إيرادهم الأحاديث الموضوعة في خطبهم[6]. و هذا ينم على عقل مدقق و يقظ و ذاكرة قوية و أسلوب علمي منهجي في الجرح و التعديل لغربلة

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص217. الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص205.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص34. محمد الغربي، المرجع السابق، ص523.

([3]) التبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص607. محمد الغربي، المرجع السابق، ص523.

([4]) التبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص236.

([5]) عبد الرحمن محمد ميغا، أحمد بابا التنبكتي وجهوده في الفقه المالكي، الرسالة السابقة، ص131.

([6]) القادري، المرجع السابق، ص–ص254–258.

الأحاديث الشريفة و تمييز الغث من الثمين، كما يتبع علماء المشرق و المغرب، و بذلك كان يحكم عقله و أدواته البحثية في نقد المتون و الأسانيد للأحاديث الشريفة.

و لا شك أن جلوس عالم لتدريس مادة يؤكد تضلعه فيها كما سلفت الإشارة كما أن الاعتماد على عالم ما في رواية علم يؤكد رسوخ قدمه فيه، و قد أكد هذه الحقيقة أحمد المقري بقوله: "... **و لصاحب الترجمة –حفظه الله– يد طولي في نوازل الفقه و التاريخ لا يجاري في ذلك، و كذا في علم الحديث**..." [1]. و من بين الأدلة على تلقي أحمد بابا دروساً في علم الحديث الشريف، ما أورده عن حصيلة أستاذه محمد بغيغ في هذا المجال بقوله: "... **فأخذ – أيضاً– عن ابن سعيد الفقه و الحديث و قرأ عليه المدونة و الموطأ و المختصر و غيرهما**...." [2].

كما تدل إجازته التي منحها لتلميذه أحمد بن محمد المقري، ما يفيد تضلعه في هذا العلم، حيث يقول: "... **و أجزته –أيضاً– يروي عني كتاب الشفا للقاضي عياض....صحيح مسلم**..."[3].

فعلم الحديث و مصطلحه و فنه من المؤكد إن كان للمغاربة الدور الكبير في نقله إلى منطقة السودان الغربي ضمن نقلهم للعلوم الإسلامية و خاصة العلوم الشرعية، فهو المكمل الأساسي لكتاب **الله تعالى القرآن الكريم**، و للدلالة على تأثر السودان الغربي بالمؤثر المغربي الخارجي في نشر علم الحديث ما إدعاه أهالي المنطقة المحليين حكاماً كانوا تجاراً أو قبائل بأكملها النسب العربي الشريف **للرسول صلى الله عليه وسلم**، عبر انتسابهم و إدعاءهم لآل البيت النبوي الشريف.

(4)– علوم الفقه و الأصول:

لقد عرفت دور العلم والعبادة في هذه الفترة من تاريخ السودان الغربي انتشار كتب الفقه المالكي المعروفة آنذاك في بقية أنحاء العالم الإسلامي، و خاصة المغاربي، الذي كان لهم الدور الأعظم بحكم الجوار بنقل تلك العلوم الشرعية، و من بينها الفقه و الأصول إلى منطقة السودان الغربي، و تعليمها وتلقينها للطبقات المحلية السودانية على كافة الفئات

([1]) المقري، المصدر السابق، ص314.

([2]) التبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص601. السعدي، المصدر السابق، ص39.

([3]) المقري، المصدر السابق، ص–ص306–312.

النوعية و العمرية، وهي: مختصر خليل، و جامع المعيار، و تحفة الحكام، و مختصر الفروع، و المدونة، و الرسالة و موطأ مالك وغيرها[1].

و قد أورد أحمد بابا في نيله ما يفيد انتشار هذه المؤلفات في بيئة السودان الغربي الفكرية و الثقافية، حيث أشار إلى أنه درس العديد منها على يد أستاذه محمد بغيغ، وقد قال: "...**لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل و فرعي ابن الحاجب قراءة بحث و تحقيق و تحرير ختمتهما عليه، أما خليل فمراراً عديدة...و حضرته كثيراً في المنتقي و المدونة بشرح المحلي ثلاث...و كثيراً من تحفة الحكام لابن عاصم في الأحكام مع شرح ولده عليها، و سمعت بقراءته هو كثيراً من البخاري و مسلم...و سمعت بلفظه جامع معيار الونشريسي كاملاً...**" [2]. و من أشهر علماء الفقه المغاربة الذين مكثوا في بلاد السودان الغربي، و أثروا حياتها الثقافية و الفكرية، هو الإمام محمد عبد الكريم المغيلي، إمام المحققين و تاج الدعاة و المدرسين و الرحالة القدوة، و قد استفاد من علمه الغزير جماعة من علماء المغرب والسودان، منهم: الفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمني[3]. و الفقيه أيد أحمد، و محمد بن عبد الجبار الفجيجي و غيرهم[4].

و من أهم مؤلفاته في مجال الفقه: (مصباح الأرواح في أصول الفلاح) في كرّاسين، و حاشية على خليل سماها (إكليل مغني اللبيب)، و قطعة على البوع سماها (مفتاح الكنوز) و(إيضاح السبيل في بيوع آجال خليل)، و(تنبيه الغافلين عن مكر الملبسين بدعوي مقامات العارفين)، و(مختصر تلخيص المفتاح) و شرحه و غيرها[5].

و هناك لفيف من العلماء أثّروا في هذا المجال، و منهم الفقيه محمد بن أحمد التازختي، الذي ألف شرحاً لمختصر خليل. و الفقيه العاقب بن عبدالله الأنصمني، الذي رحل إلى المشرق و نهل من علومه، و رجع إلى السودان الغربي، و اشتغل بالتدريس. وله عدة مؤلفات من أهمها: (الجواب المحدود عن أسئلة القاضي محمد بن محمود)، و(أجوبة الفقير عن أسئلة الأمير)، و هو جواب عن أسئلة وجَّهها إليه الأسكيا محمد الكبير، و كتاب

---

(1) السعدي، المصدر السابق، ص93.

(2) التبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص602. كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص-ص239-240.

(3) التبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص535. محمد الغربي، المرجع السابق، ص517.

(4) التبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص587. ابن مريم، المصدر السابق، ص256.

(5) التبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص577. كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص214.

وجوب الجمعة في قرية أنصمن[1] و غيرها، و الفقيه محمود بن عمر أقيت الذي ألَّف كتاباً حول مختصر خليل جزءين. والفقيه أحمد بن أحمد أقيت، الذي علق على موضع خليل وعلى شرحه للتتاي بيّن فيه مواضع السهو منه[2]. كما ألَّف سيدي أحمد بن أبي بكر الواداني الحاجي الذي كان حياً عام (933هـ/1525م) شرحاً على مختصر خليل في مجلدين سماهما: (موهوب الجليل بشرح مختصر خليل)، و قد وصف صاحب فتح الشكور هذا التأليف بأن فيه نكتا عجيبة، ومسائلا مفيدة، و نقولا صحيحة[3]،. و ألَّف أحمد بن محمد بن سعيد (931-976هـ/1523-1559م) سبط الفقيه محمود بن عم أقيت، حاشية لطيفة على مختصر خليل اعتنى فيها بالنقل و اعتمد على نقل البيان و التحصيل[4].

و من علماء الفقه في السودان الغربي في فترة الدراسة، الفقيه أحمد بابا التنبكتي، الذي كان عَلَماً من أعلام الفقه المالكي، و مما يؤكد ذلك آثاره العلمية التي تركها في هذا الميدان[5]. و قد ألف أحمد بابا مجموعة من الكتب والرسائل و الفتاوى والآراء على ضوء الفقه المالكي، و من الأدلة على علو كعبه في الفقه المالكي، هو جلوسه للإفتاء وتدريس أمهات كتب الفقه المالكي. [6].

و إلى جانب اشتغاله بالفقه فهو مهتم بالأصول، و يتجلى ذلك في تعقيباته ومناقشاته لآراء العلماء حيث يتعرض لبعض المسائل الأصولية، و يناقشها بدقة توحي بإلمامه الجيد بأصول الفقه، و يعلل الباحث عبد الرحمن ميغا عدم تأليف أحمد بابا لمؤلف مستقل في الأصول يرجع إلى أنه عاش في فترة تقهقر التأليف في الأصول، و اكتفاء العلماء بما كتبه السابقون[7]، و من علماء المنطقة في مجال الفقه الكثير و الكثير لا يسعنا لإبراز القليل منهم لعدم الإطالة، و هم الذين نهلوا و شربوا من معين مؤثرات الحياة الثقافية و الفكرية المغاربية من طرابلس الغرب في الشرق حتى مراكش في الغرب، و تأثروا بحركة المغاربة

([1]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص353. محمد الغربي، المرجع السابق، ص517.

([2]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص142. الأرواني، المصدر السابق، ص-ص50-51.

([3]) البرتلي، المصدر السابق، ص113. المختار بن حامد، حياة موريتانيا، ج2، الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس-ليبيا، 1990م، ص8.

([4]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص143. كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص139.

([5]) عبد الرحمن محمد ميغا، أحمد بابا التنبكتي وجهوده في الفقه المالكي، الرسالة السابقة

([6]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص244.

([7]) عبد الرحمن محمد ميغا، أحمد بابا التبكتي، الرسالة السابقة، ص131.

فـي نقـل العلـوم الإسـلامية، و فـي منتصـفها العلـوم الشـرعية للمنطقـة بـل و أبـدعوا و أثـروا بالمؤثر المغاربي الأقوى ذاته.

(5)- علـوم التصـوف و آدابـه: و مـن العلـوم الإسـلامية التـي ازدهـرت بالسـودان الغربـي التصـوف و آدابـه، و يتحـدث ابـن خلـدون عـن ماهيـة علـم التصـوف بقولـه: "... **مـن علـوم الشريعة الحادثـة فـي الملـة، و أصله أن طريقـة هـؤلاء القـوم لـم تـزل عنـد سلف الأمـة و كبارهـا مـن الصحابة و التابعين و من بعدهم طريقة الحق و الهداية و أصلها العكوف على العبادة و الانقطاع إلى الله تعالى و الإعراض عن زخرف الدنيا و زينتها، و الزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة و جاه و الانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة...فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني و ما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة**"[1].

و يرجـع الفضـل فـي ظهـور هذا العلـم إلـى الطـرق الصـوفية، و أبرزهـا فـي هـذه الفتـرة التاريخية هي الطريقة القادرية التي دخلت إلى هذه البلاد حوالي القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد[2].

و غنـي عن البيـان الـدور المهـم الـذي قـام بـه دعـاة الطـرق الصـوفية فـي نشـر الإسـلام، و ذلـك بالقـدوة الحسـنة، و لـذلك لـم يمـض وقـت طويـل حتـى أصـبح هـؤلاء الـدعاة مـن رجـال الطـرق الصـوفية يتغلغلـون فـي أقصـى أقاصـي بـلاد السـودان الغربـي ينشـرون الإسـلام والعلـم و التصوف[3].

- دور الطرق الصوفية في نشر الإسلام و إثراء الحركة العلمية الشرعية:

لقد قامت الطـرق الصـوفية بـدور مهـم فـي نشـر الإسـلام و نقـل المـؤثرات الثقافيـة العربيـة الإسـلامية إلـى السـودان الغربـي، و رغـم فقـر المعلومـات عـن تـاريخ الطـرق الصـوفية فـي السـودان الغربـي، فـإن بعـض المـؤرخين و مـن بيـنهم السـعدي قـد أشـار إلـى وجـود بعـض الأشـخاص المشـهورين بـالتقوى و الـورع ممـن عاشـوا بالمنطقـة، و قـد وصـف تمبكتـو بأنهـا كانت: "**...مألف الأولياء و الزاهدين**" [4]. كما قال عن مدينة جني: "**...و قد ساق الله تعالى لهذه لهذه المدينـة المباركة سكاناً من العلماء والصالحين من غير أهله [يقصد البيضان المغاربـة] من قبائـل**

([1]) ابن خلدون ، المقدمة، المصدر السابق، ص517.

([2]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص-ص171-173.

([3]) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص44.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص21.

شتى و بلاد شتى." [1]. وقال أيضاً: "**...و كفى في ذلك ما رواه الشيوخ التقات عن الشيخ العالم الفاضل الصالح الولي ذي الكرامات و العجائب الفقيه محمد الكابري رحمه الله تعالى أنه قال أدركت من صالحي سكندي من لا يقدم عليهم في الصلاح إلا أصحاب رسول الله (صلى الله عليه و سلم) و رضي عنه أجمعين، منهم الفقيه الحاج جد القاضي عبد الرحمان ابن أبي بكر بن الحاج تولى القضاء بتنبكت في أواخر دولة أهل ملي و هو أول من أمر الناس بقراءة نصف حزب من القرآن للتعاليم في جامع سنكري بعد صلاة العصر و بعد صلاة العشاء جاء هو و أخوه السيد الفقيه إبراهيم من بير فسكن في نبك و قبره معروف هنالك."** [2].

و من هؤلاء الصوفية محمد ساقو، و قد كان فقيهاً عالماً عابداً صالحاً و لياً مُكاشفاً ذا كرامات شاهدها الناس، و ذلك على حسب رواية السعدي[3]. و منهم سيدي يحي التادلسي[4]. و منهم الشيخ الزاهد العارف بالله الولي الإمام أبو القاسم التواتي الذي سكن بجوار المسجد و كان يُعلم الأطفال[5]. و من الملفت إلى النظر أن العالمين الأخيرين و غيرهم هم بالفعل من أبناء المغاربة في الشمال، و من الأسماء التي لها وضعها الفكري و الثقل العلمي في السودان الغربي، و بذلك تكون الطرق الصوفية شقت طريقها من الصحراء إلى السودان الغربي عن طريق بلاد المغرب الإسلامي، الذي ابتدعها و ألف فيها أورادا و مصادرا أساسية نُقلت بجانب العلوم الشرعية إلى تلك الأصقاع جنوباً، سواء وحدها أو مع الوافدين من العلماء و التجار.

و مما يميز رجال الطرق الصوفية أنهم يميليون إلى سكن القرى والنجوع بينما يميل التجار إلى الاستقرار بالمدن. و إذا كان التجار يسعون للربح فرجال الطرق الصوفية لا يكترثون بالمال و لا يسعون إلا لما يسد رمقهم ويكفيهم ذل السؤال من هنا لُقب المريدون بالفقراء، و إذا كان نشاط المُهاجر أو التاجر المغربي يطيب أن يكون بالنهار فإن نشاط الطرق الصوفية يكون بالليل[6]. هذا في الشكل ربما يكون صحيح و لكن في المضمون من

([1])السعدي، المصدر السابق ، ص16.

([2]) نفسه ، ص27.

([3]) نفسه، ص16.

([4]) نفسه ، ص23.

([5]) نفسه، ص52.

([6]) أحمد شلبي، المرجع السابق، ص210.

الراجح أن يكون غير صحيح، لأن التجار المغاربة إذا كانوا يريدون الكسب فقط فإنه لما كان داعي لهم نشر الإسلام ولغته العربية من أساسه، و من ناحية أخرى لا يمنع التاجر أو الوافد المغربي أن يحمل معه أفكاره الروحية الخاصة به و التي كانت رائجة حينذاك في مجتمعه الأصلي في الشمال، علاوة على أن التجار المغاربة كما حبذوا الاستقرار في المدن كمراكز للتجارة، لا يستطيعوا أن ينسوا أو يتناسوا تلك القرى و النجوع التي بها مصادر الثروة و الموارد التي تأتي منها لتزدهر عمليات الرواج والتبادل في المدن، فكان لا بد أن ينتشروا و يتمددوا وإلا فكيف انتشر الإسلام بتلك السرعة لو اكتفوا بأماكن الراحة و الدعة في المدن؟ و كيف تم نشر العلوم الشرعية المغربية في تلك القرى والأحراش؟ وبذلك نصل لنتيجة ذهاب الإسلام بطرقه الصوفية إلى الجنوب عبر أيدي المغاربة.

و قد ساعد على انتشار الطرق الصوفية تكيفها مع بيئة المجتمعات الإفريقية و عاداتها وتقاليدها، و كانت الطقوس واستعمال الدفوف والطبول في حلقات الذكر قد وجد قبولاً لدى الإفريقيين لأنها تخلط بين العبادة و الحركات الراقصة [1].

و الجدير بالذكر أنه كان لكل شيخ أتباع و مريدون يطيعونه طاعة عمياء و يمتثلون لأوامره و يقدرونه حق تقدير ويدعمونه مادياً حتى أصبح شيوخ الطرق الصوفية لهم القدرة الكافية لتوسيع دائرة نفوذهم و لتأسيس المدارس و المساجد و استقطاب مزيد من العناصر الموالية لهم.

و لقد لعب رجال الطرق الصوفية دوراً بارزاً في توجيه الأهالي و إرشادهم إلى أمور دينهم[2]، و عملت الطرق الصوفية على غرس القيم الفاضلة و تجذيرها مثل حب الجار و حسن التعامل. و بالإضافة إلى ذلك ساهموا مُساهمة فعالة في توسيع رقعة الإسلام و انتشاره عن طريق الإكثار من بناء المساجد والمدارس و مصاهرة الوطنيين الأفارقة وشراء العبيد وعتقهم بعد تلقينهم أصول العقيدة الإسلامية وثقافتها حتى يتمكنوا من استيعابها و نشرها عند رجوعهم إلى أوطانهم.

و تُعد الطريقة القادرية التي تأسست في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي في العراق على يد عبد القادر الجيلاني هي الطريقة التي وجدت رواجاً و انتشاراً ملحوظاً في

---

(1) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص179.

(2) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ص42.

السودان الغربي و قد كان اتباع هذه الطريقة يرسلون لإتمام دراستهم بمدارس القيروان و طرابلس وغيرها[1]. و قد انتشرت الطريقة القادرية في السودان الغربي حوالي القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي على يد مهاجرين من قبيلة كنته، و يقال إن هذه القبائل قد جاءت من توات بالمغرب الأوسط، واتخذوا من ولاتة أول مركز لطريقتهم. و المعروف أن جد قبيلة كنته الذي هاجر إلى السودان الغربي هو محمد الكنتي، غير أن الطريقة حملت اسم ابنه أحمد البكاي (ت 1504م)، أما الفضل في نشر الطريقة و مبادئها فيرجع إلى عمر الشيخ بن أحمد (1460–1553م)، الذي تلقي مبادئ العلم و الإسلام على يد الفقيه محمد عبد الكريم المغيلي، و يحدثنا بول مارتي عن العلاقة التي ربطت عمر الشيخ بالمغيلي المغربي (ت 1532م) [2].و بذلك يتأكد لنا الدور المغاربي في تسرب علمائها و فقهائها و نشر علومها الشرعية، و امتداد طرقها الصوفية حول المنطقة السودانية بواسطة المغاربة أنفسهم.

و إذا كانت قبائل كنتة هي التي قامت بالدور المهم في نشر الطريقة القادرية في منطقة السودان الغربي و المناطق المحيطة بها، فهل كان الفقيه محمد المغيلي أول شيوخ الطريقة القادرية في المنطقة؟ و هل تلقى عنه هذه الطريقة تلميذه عمر الشيخ البكاي الكنتي، و ذلك كما جاء في سلسلة الذهب في الورد القادري التي تصعد إلى القادريين المشارقة الأوائل[3]. رغم أن هذا هو الرأي المشهور في هذه القضية، فإن هناك من يشكك أصلاً في انتساب المغيلي للطريقة القادرية[4].

و لكن الباحث يؤكد الرأي الذي يعتبر المغيلي قادري الطريقة، بل يعتقد أنه هو ناشر الطريقة القادرية في السودان و الغرب الأفريقي عموماً، و الدليل على ذلك ما يلي:

1– و رود المغيلي في صدر السند القادري ضمن سلسلة الذهب في الورد القادري المُشار إليه.

---

(1) حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق ، ص43. توماس أرنولد، المرجع السابق، ص366.

(2) بول مارتي، كنتة الشرقيون، عربه و علق عليه محمد محمود ولد دادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1985، ص33.

(3) مجهول، سلسلة الذهب في الورد القادري، مخطوط، مكتبة حبيب عمر الفهري الكنتي، دون تصنيف، نيامي، النيجر، ورقة 1.

(4) السعدي، المصدر السابق، ص191 وما بعدها.

2- وجود نفس صوفي قادري في فتواه و أجوبته لأسئلة الأسكيا محمد الكبير.

3- ظنه أن الطريقة القادرية آنذاك هي التي كانت مؤهلة لتأدية دور حملته الشعواء ضد يهود توات.

4-إن قبائل كنتة التي تولت مهمة نشر القادرية في تلك الربوع و صلت إلى بلاد السودان الغربي في الفترة نفسها التي وصل فيها المغيلي إلى المنطقة و هي أواخر القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد[1].

و من الطرق الصوفية التي نشرت الإسلام و الثقافة العربية في السودان الغربي هي الطريقة العروسية [2] التي انتشرت في مناطق الشمال الإفريقي و كذلك في السودان الغربي و كان لها دور فعال و تأثير بالغ في تعميق الصلات الروحية و الثقافية بين شمال إفريقيا و السودان الغربي، و قد انتشرت الطريقة العروسية في السودان الغربي حوالي القرن العاشر للهجرة/السادس عش الميلادي، بفعل جهود بعض المتصوفة، و من بينهم الشيخ عبد السلام الأسمر، الذي صار داعياً لهذه الطريقة في تلك الربوع و الدليل على ذلك العبارة التي أوردها في رسالته الشهيرة إلى علماء وأهالي تنبكت، التي قال فيها: "... **فأوصيكم أيها الفقراء المنتسبون إلينا و إلى الطريقة العروسية بأن لا تكونوا...مبدلين و لا مغيرين و لا معاندين و لا مجادلين...**"[3].

و هذا ما يؤكد عناية بعض علماء السودان الغربي بالتصوف، و اهتمامهم بآدابه و جمع الأذكار و التعرف إليها وتأليفهم في هذا المجال و من أمثلة ذلك: الإمام محمد عبد الكريم المغيلي، الذي كان صاحب فضل في نشر التصوف وعلومه في المنطقة، و ذلك عقب زيارته إليها، ويتأكد ذلك إذا ما عرفنا أن الإمام المغيلي هو أستاذ لسيدي عمر بن الشيخ سيدي احمد البكاي الكنتي (ت 959هـ/1551م)، و هو أحد الأقطاب الذين ساعدوا

([1]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص173.

([2]) الطريقة العروسية، نسبة إلى الشيخ أحمد بن عروس، دفين تونس عام 868هـ/1462م. وهي طريقة سلفية سنية ترتبط بالطريقتين القادرية والشاذلية، وهي من الطرق الصوفية التي انتشرت في بلاد السودان الغربي، وقد زاد من تدعيم الطريقة العروسية وذيوع صيتها تبني الشيخ عبد السلام الأسمر لها، وانتماؤه وانتماء أولاده وأتباعه من بعده لها. انظر: مخلوف، مواهب الرحيم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم، مكتبة النجاح ،د.ط ، طرابلس، د.ت، ص-ص337-338. وعلي فهمي خشيم، المرجع السابق، ص-ص143-151.

([3]) البربوني، المخطوط السابق، ورقة رقم 104 ب.

على نشر التصوف في بلاد السودان الغربي[1]. و القاضي عثمان درم، الذي كان عالماً صالحاً ورعاً زاهداً ولياً مكاشفاً، و له من الكرامات و المناقب الكثيرة، و الدعاء عند قبره مُستجاب و مجرّب، كما يقول صاحب تاريخ الفتاش[2]، و الفقيه المتصوف الزاهد في الحياة الدنيا، أبو بكر بن أحمد أقيت صاحب **(معين الضعفاء في القناعة)** [3] و غيره.

و من الأدلة على انتشار علم التصوف في السودان الغربي، أن الفقيه أحمد بابا يقول إنه درسها على يد شيخه محمد بغيغ[4] و بذا برز أحمد بابا في مجال التصوف، و كتب في هذا المجال عدة كتب من بينها (الدر النضير في كيفيات الصلاة على الشفيع البشير) و(خمائل الزهر ونشر العبير)، و ما يؤكد الميول الصوفية لأحمد بابا حرصه الدائم على طلب الدعاء و البركة من شيوخ الصوفية، فلا يكاد يمر باسم شيخ من شيوخهم إلا وقال: "**نفعنا الله ببركته**" ، إلى غير ذلك مما يدل على أن له نزعة صوفية، و كذلك زيارته لقبور الأولياء و الصالحين، و قد روي أنه زار قبر أبا العباس السبتي أكثر من خمسمائة مرة [5]، كما أشار تلميذه أحمد المقري المغربي إلى مُشاركة أستاذه أحمد بابا في زيارة الأولياء و الصالحين، بقوله: "**...و كنت كثيراً ما أذهب معه إلى زيارة الصالحين بحضرة الإمامة مصحوبين بجملة أعلام...**" [6].

و من المتضح أن الحركة الصوفية بدأت تظهر في القرن التاسع الهجري و عن التصوف في القرن التاسع الهجري و أحد أمثلته الفقيه مودي محمد الكابري (و لد خلال القرن التاسع الهجري و توفي خلال القرن العاشر): "**كان رحمه الله عالماً فقيهاً ولياً صالحاً...**" [7]. و امتدت و توغلت في القرن العاشر الهجري فعن التصوف في القرن العاشر الهجري و أحد أمثلته: الفقيه محمد بن محمد بن على عريان الرأس (955-1027هـ): " **هو الفقيه**

([1]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص172.

([2]) محمود كعت، المصدر السابق، ص-ص10-11.

([3]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص151. السعدي، المصدر السابق، ص42.

([4]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص602. كفاية المحتاج، المصدر السابق، ج2، ص239.

([5]) عبد الرحمن محمد ميغا، أحمد بابا التبكتي، الرسالة السابقة، ص137.

([6]) المقري، المصدر السابق، ص303.

([7]) السعدي، المصدر السابق، ص، ص219، 308. البرتلي، المصدر السابق، ص109. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص286.

الولي العارف بالله صاحب الكرامات... من خيار عباد الله الصالحين..." [1]. الفقيه سيدي أبي القاسم التواتي(ت 935هـ): "...**كان رحمه الله عالماً فقيهاً فاضلاً صالحاً خيراً زاهداً عابداً عارف بالله تعالى....**" [2]. الفقيه فودي بن محمد ساقو(ت في القرن العاشر): "..**كان رحمه الله عالماً فقيهاً ولياً...**"[3].

و لكن الصوفية بدأت في الإزدهار فعلياً بعد فترة الدراسة وخاصة خلال القرن الحادي عشر و ما بعده. و لكن لا ننكر وجود الاستعداد في منطقة السودان الغربي لتقبل الحركة الصوفية خلال القرن التاسع الهجري في بعض السلوكيات التي يفعلها الناس مع شيوخهم و علمائهم من التبرك وإلصاق الخوارق والبدع إليهم، و هذا ما حدث مع الفقيه سيدي يحي التادلي أو التادلسي (ت866هـ): "...**الفقيه الإمام الولي السالك العارف الرباني، القدوة المكاشف القطب الغوث...عابداً زاهداً ربانياً..ولياً صالحاً...**" [4]. فمن خلال روايات أحمد بابا والسعدي و بول مارتي فالأول يروي عن الفقيه أبوبكر أحمد بن عمر أقيت (932-991هـ): "**.. و له عدة مؤلفات في التصوف وغيره منها: كتابه معين الضعفاء في القناعة وغيره من المؤلفات**"[5]. أما الثاني فعند ترجمته عن الفقيه أحمد معيا (ت 1002هـ): "...**أخذ العلم والتصوف عن كثير من أئمة المنطقة، و أخذ عنه كثير من سادات الأئمة وله كرامات ومكاشفات..**" و عن الفقيه عمران السعيدي أو السعدي(ت 977 أو 1011هـ)-جد المؤرخ الفقيه عبد الرحمن السعدي-كان رحمه الله عالماً فقيهاً زاهداً ورعاً غلب عليه التصوف، مشتغلاً بأمور الآخرة. توفي رحمه الله سنة 977هـ وقيل أيضاً 1011هـ، و دفن في تنبكت بجوار أبي القاسم التواتي[6]. و عن الفقيه عبد الله بن عمران السعدي -والد عبد الرحمن السعدي- (ت 1014هـ): "**كان رحمه الله**

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص53-55، ص241. الأرواني، المصدر السابق، ص-ص43-44.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص16-19.

([3]) نفسه، ص-ص16-19. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص281.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص50-51. البرتلي، المصدر السابق، ص-ص217-218. الأرواني، المصدر السابق، ص-ص 22-23.

([5]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص151. كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص181. السعدي،المصدر السابق، ص-ص41-42. الأرواني، المصدر السابق، ص28.

([6]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص58-60. البرتلي، المصدر السابق، ص71. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص-ص333-334.

عالماً فقيهاً صوفياً ورعاً زاهداً، خيراً صالحاً"[1]. وعن الفقيه أحمد بن محمد الفلاني الماسني (ت 1035هـ): "...**كان رحمه الله فقيهاً متمكناً، عالماً علامة، ولياً من أولياء الله صوفياً تقياً زاهداً ورعاً**..." و أيضاً الإمام أحمد بن عثمان الوداني (ت 1158هـ): "**كان رحمه الله عالماً فقهياً عاملاً بعلمه صالحاً، عابداً زاهداً صوفياً غلب عليه التصوف**.." و أيضاً روي لترجمته للفقيه سن شرف الصقلي (ت 1198هـ): "**كان رحمه الله فقيهاً علامة لغوياً نحوياً مفسراً ولياً صوفياً ورعاً زاهداً عن الدنيا مقللاً فيها سخر الله له الخلائق كلها**..." و أيضاً قال عند ترجمته للفقيه سيدي أحمد بين سيدي صالح بن الوافي (ت خلال القرن الثاني عشر أو بداية القرن الثالث الهجري): "...**متصوفاً عابداً...عالماً بتعبير الرؤيا من أهل الباطن... و كان عنده مجلس علم، كثيراً ما يشنف آذان طلابه فيه بأخبار الأولياء والصالحين**..". و عن الفقيه باب عثمان بن محمد (ت 1290هـ): "**كان رحمه الله عالماً فقيهاً زاهداً ورعاً تقياً صوفياً**..."[2]. أما الثالث فيروي عن الفقيه العالم مختار بن وديعة الله (ت 1280هـ): "...**كان رحمه عالماً فقيهاً عاملاً بعلمه محققاً صوفياً زاهداً**..."[3].

و للتأكد من الدور المغاربي و الوجود الشمالي في السودان الغربي حتى في عصور متأخرة لاحقة عن فترة الدراسة خاصة في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي نتحسس دور الشيخ الفقيه العالم سيدي المختار الصغير بن سيدي محمد الكنتي (1790-1846م) بتوسطه عدة مرات لأنقاذ مدينة تنبكت من هجمات الفلاتة و غيرهم من المحاربين الذين تموج بهم المنطقة آنذاك ففي عام 1831م طلب منه تجار المغاربة و التواتيين و الغدامسيين أن يحميهم من هجمات قُطاع الطرق من وغدة الصحراء فاستجاب لطلبهم[4].

(6)- علم الكلام والمنطق:

وجد علم الكلام والمنطق طريقه إلى السودان الغربي رغم خلوّه -تقريباً- من الصراعات المذهبية التي عرفتها بقاع العالم الإسلامي الأخرى، و لا يعني هذا أن المذهب المالكي هو

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص58-60. البرتلي، المصدر السابق، ص71. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص329.

([2]) السعدي،المصدر السابق، ص-ص58-60. البرتلي، المصدر السابق، ص71. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص-ص308-309، ص،ص ،ص 312، 317، 323.

([3]) انظر بول مارتي،المرجع السابق، ص-ص89-91.

([4]) نفسه.

المذهب المُسيطر تماماً في المنطقة، بل لاحظ ابن بطوطة أن قرية زاغري بالسودان الغربي تضم فريقاً من الإباضية، وهؤلاء هم من المغاربة البيض المقيمين في تلك البلاد، و كان أهل السودان يسمونهم (صغنغو)، و ينتسب الإباضيون إلى عبد الله بن أباض التميمي مؤسس الفرقة، و هي إحدى فرق الخوارج المعروفة في التاريخ الإسلامي، و قد لعب الفقهاء الإباضيون دوراً مهماً في نشر الإسلام في السودان الغربي، و خاصة في الفترة السابقة لسيادة المذهب المالكي بعد القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي[1].

و في تاريخ السعدي لأول مرة تظهر المذهبية في لفظه سنياً و هو يترجم لأحد فقهاء و علماء القرن الحادي عشر الهجري، الفقيه إبراهيم بن عبدالله (ت 1162هـ): "**.... كان رحمه الله عالماً فقيهاً سنياً ورعاً زاهداً...**" **و الإشارة الثانية عند ترجمته للفقيه باب بن سعيد (ت1198هـ): "كان رحمه الله عالماً فقهياً متمكناً محدثاً سنياً بيانياً...**" [2]. و هذا دليل على عدم تصارع المذهبية في بلاد السودان رغم أن الفترة متأخرة و القرن الحادي عشر خارج عن نطاق الدراسة.

و عادة ما كانت مجالس العلم و المناظرات هناك تخلو من الجدل في تفسير الأمور الاعتقادية، و قد ظهر عدد من العلماء الذين تضلعلوا إلى حد بعيد في علم الكلام والمنطق، و من بينهم: محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي يُعد أحد أساتذة ذلك العلم في السودان الغربي –وقتئذ– ، و قد ألَّف في ذلك مؤلفات عديدة نالت حظاً وافراً من بعده في الشرح و التعليق و التحشية، و من أهم هذه المصنفات: (رجز المغيلي) في المنطق[3]، و(منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب)، و ثلاثة شروح عليها، و له مراسلات مع الإمام السيوطي، حيث تجادلا في ماهية ومشروعية علم المنطق[4]. و من هؤلاء العلماء: أحمد بن

([1]) أحمد إلياس حسين، دور الفقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي قبل القرن الثالث عشر الميلادي، ندوة العلماء الأفارقة ومُساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية، الخرطوم، 1983م، ص91 وما بعدها.

([2]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص، ص305، 316.

([3]) محمد عبد الكريم المغيلي، رجز المغيلي في المنطق، مخطوط، معهد البحوث والعلوم الإنسانية، تحت رقم 202، نيامي/النيجر، (د.ت).

([4]) فعندما سمع المغيلي برفض السيوطي لعلم المنطق، أنشده بقوله:

سمعت بأمر ما سمعت بمثله — وكل حديث حكمه حكم أصله

هل المنطق المعني إلا عبارة — عن الحق أو تحقيقه حين جهله

فرد عليه السيوطي قائلاً:

عمر أقيت الذي اشتهر بإجادته علم المنطق، و قد ألَّف في هذا المجال كتابه: (إمناح الأحباب في منح الأحباب) [1]، و هو عبارة عن شرح وضعه لكتاب الإمام المغيلي المُسمى: (منح الوهاب في رد الفكر إلى الصواب). و كذلك محمد بن محمود بن عمر (909-973هـ/1503-1565م)، و قد اهتم هو الآخر بمؤلفات المغيلي و تتبعها دراسة وشرحاً و تعليقاً، و قد صنف مصنفات منها: (أرجوزة على شرح منظومة المغيلي)، و(شرح وتعليق على رجز المغيلي في المنطق) [2]. وكان رحمه الله أستاذاً بارعاً ومتفنناً في المنطق و البيان، و تخرَّج على يديه عدد من علماء المنطقة، و من أبرزهم الشيخ عبد الله بن عمران السعدي، والد عبد الرحمن السعدي مؤلف كتاب تاريخ السودان[3].

و منهم أيضاً الفقيه أحمد معيا (ت 1002هـ/1593م)، و هو من علماء تنبكت البارزين و من مدرسيها المشهورين و مؤلفيها المعروفين، و قد صار له باع في علم الكلام[4]. أما الشيخ محمود سري بن سليمان (ت 1028هـ/1618م) كان من مشاهير العلماء و انتقل من جني إلى تنبكت وتولي التدريس فيها، و عاد في آخر أيام حياته إلى مسقط رأسه جني وكان عالماً محدثاً منطقياً[5].

و من أمثلة العلماء الآخرين و الذين لا يسع الوقت لذكرهم في علم الكلام و المنطق: أحمد بن أحمد والد الشيخ أحمد بابا (929-991هـ): "**كان رحمه الله فقيها علامة فهامة ذكياً داركاً محصلاً متفنناً محدثاً أصولياً، بيانياً منطقياً مشاركاً في فنون العلم...**" [6]. و كذلك أحمد بن

عجبت لنظم ما سمعت بمثله   أنا في من حبر أقر بنبله

وللمزيد انظر: التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص-ص578-579. ابن مريم، المصدر السابق، ص- ص 254-256. آدم عبدالله الألوري، المرجع السابق، ص89.

([1]) أقيت (أحمد بن عمر بن محمد)، إمناح الأحباب في منح الأحباب، مخطوط، مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية، منطق، رقم 1945، تنبكت، مالي.

([2]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص597. محمد الغربي، المرجع السابق، ص، ص517، 545. نعيم قداح، المرجع السابق، ص46.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص40.

([4]) نفسه، ص211. محمد الغربي،المرجع السابق، ص526.

([5]) السعدي، المصدر السابق، ص241. محمد الغربي، المرجع السابق، ص528.

([6]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص-ص141-142. كفاية المحتاج،المصدر السابق، ص-ص 137-139. السعدي، المصدر السابق، ص-ص42-43. البرتلي، المصدر السابق، ص-ص 29-30.

محمد بن سعيد (ت 931-976هـ): "**...كان...محدثاً أصولياً بيانياً لغوياً منطقياً..**" [1]. و كذلك سيدي أحمد بن أغ الشيخ أحمد بن الشيخ بن أحماد بن محمد السوقي المعروف بـ: أَنْك أو أَنْغ يعني (الأخ) في لهجة الطوارق (توفي خلال القرن الثاني عشر الهجري): "**...كان رحمه الله تعالى فقيهاً نحوياً لغوياً محدثاً أصولياً بيانياً منطقياً متفنناً...**" [2]. و في الحديث عن الفقيه محمد بن محمود بغيغ (930-1002هـ) يتبين أنه أخذ المنطق: "**...و أخذ عن الفقيه الحاج أحمد بن أحمد الأصول و البيان والمنطق...**" [3]. و أيضاً عند الإشارة إلى الفقيه سليمان بن داود الحسني التنبكتي (ت مجهول): "**كان رحمه الله فقهياً متمكناً، داركاً، محدثاً، منطقياً، متفنناً، محصلاً...**" [4].

و لكن كلمة ختامية لا بد من إبرازها هنا في علم الكلام و المنطق فمن الراجح كثرة الفرق و الطوائف الفكرية في المغرب الإسلامي حتى القرن الخامس الهجري، و لكن خلال هذا القرن الأخير المذكور بالفعل توحدت معظم بلدان المغرب على مذهب واحد و هو المذهب المالكي، و الذي امتد إلى بلاد السودان الغربي مع توسعات دعوة ودولة المرابطين الذين هم في الأساس دولة إصلاحية قامت لمحاربة تلك الفرق و تصحيح العقيدة، وبذلك منذ ذلك القرن لم يبق إلا مذهب توحيدي واحد هو المذهب المالكي مع بعض المذاهب القليلة هنا و هناك، و التي كانت ليس لها أدنى تأثير على الوحدة المذهبية المالكية، و بذلك قلت منازعات المذاهب العقدية و الفكرية مما أدى بتطوير بطئ النمو لعلم الكلام و المنطق، و بذلك كان الأثر المالكي المغربي واضحاً في بلاد السودان الغربي، و حتى المذاهب قليلة الأهمية التي تسربت إلى بلاد السودان أتت أيضاً من بلدان المغرب، و لذلك يُبرز الدور المغاربي في نشر العلوم الشرعية بحلوها و مرها في بلاد السودان الغربي.

و لكن فيما يبدو أن تطور علم الكلام و المنطق بعد فترة الدراسة تطوراً بطيئاً ملحوظاً، و من علمائه: الفقيه عمر الولي بن الشيخ محمد عبد الله بن عبد الله المحجوبي: عاش

([1]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص-ص142-143. كفاية المحتاج ، المصدر السابق، ص139. السعدي، المصدر السابق، ص-ص43، 53، 108. البرتلي، المصدر السابق، ص28. الأرواني، المصدر السابق، ص-ص28-40.

([2]) البرتلي، المصدر السابق، ص-ص50-51.

([3]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص- ص 600-603. كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص-ص237-240. السعدي، المصدر السابق، ص-ص43-47. الأرواني، المصدر السابق، ص-ص38-39.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص58-60. البرتلي، المصدر السابق، ص71.

خلال القرن الثاني عشر، و أخذ عنه الفقيه سيدي محمد بن المختار بن الأعمش و غيره، و لرحمه الله قصيدة في علم الكلام[1]. وأيضاً سيدي محمد الأمين بن الطالب سيدي أحمد بن البشير بن محمد السوقي (1135هـ): كان رحمه الله إماماً يُقتدى به و علامةً كلامياً محدثاً، فقيهاً نحوياً له باع طويل في النحو والصرف، مُتقناً للقراءات السبع فاق أشياخه فيها عالماً بتوجيهها رواية و دراية...[2].

(7)- علم المناظرات الفقهية: و هو علم يبحث عن كيفية تردد الكلام بين اثنين قصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال دعوى صاحبه[3]، و هذا العلم من أهم العلوم التي ينبغي أن يتسلح به كل فقيه كما قال عنه الإمام الباجي[4]، و من المسائل التي أثارت جدالاً بين العلماء و أبدى كثير من العلماء رأيه فيها: مسألة التبغ، و الدعاء، و القبض و الإرسال، والتعامل مع النصارى. و قدم لنا الدكتور عبد الرحمن محمد ميغا نموذجا من تلك المناظرات الفقهية، و التي كانت على نفس المنوال المغاربي، حتى كانت حجج العلماء السودانيين من كل طرف علماء و فقهاء مغاربة[5].

المطلب الثاني: علوم إسلامية أخرى:

و بذلك نكون قد طرحنا كل جوانب العلوم الشرعية وعلمائها في السودان الغربي و التي انتشرت عن طريق بلاد المغرب، ولكن لا يسعنا أن نقول أن بجانب هذه العلوم الشرعية الآتية من بلاد المغرب علوماً أخرى مساعدة مهمة لها و هي علوم اللغة العربية و آدابها وذلك لارتباطها أيضاً بفهم الكتاب والسنة النبوية، وذلك لا يمكن تعلم العبادات و معرفتها وممارستها إلا بإتقان اللغة العربية لغة القرآن وآدابها.

و قد تحدَّث عن هذا المعنى ابن خلدون بقوله: "**...و معرفتها ضرورية على أهل الشريعة إذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب و السنة و هي بلغة العرب و نقلتها من الصحابة و التابعين**

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص16-19.

([2]) البرتلي، المصدر السابق، ص-ص149-150. الأرواني، المصدر السابق، ص48.

([3]) عمر جيدي، المرجع السابق، ص165.

([4]) أبي الوليد الباجي، كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، تح عبد المجيد تركي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1987م، ص8.

([5]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص-ص109-112.

عرب و شرح مشكلاتها من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة..."[1].

و من علوم اللغة العربية و آدابها: علم النحو و البلاغة، علوم الأدب من شعر و نثر[2]. و لا ننكر الدور الواضح لبلدان المغرب الإسلامي من طرابلس الغرب شرقاً إلى مراكش شرقاً في نشر تلك العلوم للغة العربية وآدابها في منطقة السودان الغربي سواء بنقلها مباشرة عن طريق التجار و العلماء و الفقهاء، أو بنقلها عن طريق انتقال وتسرب المخطوطات و الكتب إلى تلك المنطقة.

و ما يدلنا على ذلك أنها كانت من أغلى السلع في بلاد السودان الغربي المخطوطات و الكتب، و التي وجدت رواجاً مزهراً، مما شجع إلى ازدهار مهنة الوراقة و نسخ المخطوطات و الكتب في بلاد السودان الغربي و التي أصبحت من أهم طوائف الحرف و المهن في السودان الغربي. و يدلنا أيضاً أنه حتى الخط المنتشر إلى وقتنا هذا هو الخط العربي المغربي.

و أيضاً من العلوم المساعدة لانتشار العلوم الشرعية في بلاد السودان الغربي هي بعض العلوم الإنسانية الاجتماعية كعلم التاريخ، و التراجم، و السير، و التي كُتبت بالخط العربي المغربي، بمؤلفيها المحليين، و ننهل منها حتى الآن لمعرفة مجتمعات بلاد السودان الغربي، و مدى تأثرها و تأثيرها ببلدان المغرب الإسلامي، و معرفة حركة نقل العلوم الشرعية إلى تلك الأصقاع والتأثر بها حتى تم التأليف فيها على يد النخبة المحلية المتأثرة بعلوم المغرب و المؤثرة فيها خاصة في نهاية القرن العاشر الهجري.

([1]) ابن خلدون، المقدمة، المصدر السابق، ص603.

([2]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص-ص249-256.

الفصل الرابـع:

دور علماء المغرب

في نشر و توسيـع العلوم الشرعيـة

في بلاد السودان الغربـي

الفصل الرابع: دور علماء المغرب في نشر و توسيع العلوم الشرعية في بلاد السودان الغربي:

و عند الحديث عن دور علماء المغرب في نشر العلوم الإسلامية، و من بينها العلوم الشرعية يتأتى لنا الحديث عن مظاهر ازدهار الحركة العلمية، و العناصر المُساهمة فيها و اتجاهاتها و ميادينها داخل بلاد السودان الغربي، و هي أيضاً لا تخرج عن الدور المغاربي الثقافي و الفكري المرسوم لها بجانب أهم طرق التدريس و التقويم لأنها خاصة بالعامل البشري، أما فيما يخص النواحي المادية من الأبنية و المؤسسات التعليمية فقد وضعناه آنفاً مع مؤسسات الحركة العلمية والتعليمية في المراكز الثقافية.

المبحث الأول: مظاهر ازدهار الحركة العلمية الشرعية في السودان الغربي:

(1)- كثرة الطلبة و الكتاتيب:

و لا شك أن النصوص توضح أن تنبكت التي تعد من أهم المراكز العلمية في السودان كانت تزخر بالكتاتيب، و قد ذهب بعض المؤرخين إلى أن عدد الطلاب في مدارس تنبكت خلال القرن العاشر بداية القرن الحادي عشر يبلغ ما يقرب خمسة و عشرين ألف طالب[1]، و أوصلها بعضهم إلى ثلاثين ألف طالب[2] على أن هذا العدد و إن كان يظهر قليلاً بمقياس وقتنا الراهن إلا أن له قيمته و وزنه في الفترة التي نتحدث عنها.

(2)- كثرة الأساتذة الوافدين من المغرب والمشرق والأندلس إلى السودان الغربي.

(3)- تضلع علماء السودان في العلوم الإسلامية، و مما يذكر في هذا الصدد أن منسى موسى لما رجع من الحج استقدم أحد علماء المشارقة ليدرس في تنبكت فوجد أن علماءها يفوقونه في العلم فسافر إلى فاس ليتعلم ثم رجع إلى السودان.

(4)- ظهور إنتاجات علماء السودان، و تتجلى هذه الإنتاجات في شروحهم لبعض المؤلفات العلمية و الفقهية و تعليقاتهم عليها.

---

(1) سليم زبال، أنقذوا تمبكت من أجل التاريخ الإسلامي، مجلة العربي، ع 244 ربيع الثاني/مارس1979م، ص70.

(2) سيكيني مودي سيسكو، حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، الع الثاني سنة 1417هـ/1996م، ص237.

(5)– ظهور فقهاء نوابغ من السودان لهم كعب عال في العلوم الإسلامية تصدو للتدريس في أعظم العواصم الإسلامية وقد وصف السعدي أحدهم بأنه لو كان حياً في زمن ابن عبد السلام بتونس لاستحق أن يكون مفتياً فيها لتمكنه من العلوم الإسلامية [1].

(6)– تقسيم السنوات الدارسية إلى مراحل مختلفة يمكن أن نصنفها إلى ابتدائية و ثانوية و عالية تجاوزاً[2].

(7)– كثرة الكتب و المخطوطات في الأسواق وإقبال الناس على شرائها بأثمان غالية كما قال الحسن الوزان[3].

(8)– كثرة المكتبات و زخرها بالكتب النادرة النفيسة و خاصة عند الأسر العلمية كأسرة أقيت و بغيغ...

(9)– تعدد الأسر العلمية في بلاد السودان وخاصة في تنبكت، و من أشهر هذه الأسر: أسرة أقيت، و أندغ، و بغيغ، و كعت، و زنكتو...

(10)– كثرة الطلبة الأجانب الوافدين على بعض المدن العلمية في السودان مثل تنبكت و جاو و جني، حتى أن السعدي قال في ترجمة سيد يحي التادلسي: "... **قيل لا ينسلخ شهر إلا و يختم عليه تهذيب البرادعي لكثرة قرائه و البلد حافلة يومئذ بالطلبة السودانيين، أهل المغرب المجتهدين في العلم والصلاح**...."[4].

(11)– كثرة أماكن التدريس للمراحل العليا و خاصة في تنبكت التي توجد فيها مساجد يمكن اعتبارها جامعات للتعليم العالي لكثرة خريجيها و لتوافد الطلاب عليها بكثرة مثل جامعة سنكري..

(12)– اعتماد القضاء و الفتوى على الفقه.

(13)– تطور حرفة الكتابة و كثرة دكاكين النساخين و الوارقين.

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص51، 34. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص70.

([2]) عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، المرجع السابق، ص142. محمد الغربي، المرجع السابق، ص-ص549-553. عبد القادر زبادية، ملامح الحركة التعليمية في تمبكت خلال القرن السادس عشر، المجلة التاريخية المغربية، تونس، ع 8، يناير 1997م، ص32.

([3]) حسن الوزان، المصدر السابق، ص167.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص47-48.

(14)- انتشار التعليم في وسط العامة و الخاصة و بين الرجال والنساء، و إجبارية التعليم على جميع المسلمين[1].

(15)- إعطاء الإجازات العلمية للطلبة المتخرجين، و هذا مظهر واضح على ازدهار الحركة العلمية في السودان بصفة عامة.

(16)- انتشار العلم في صفوف الأمراء والملوك، فهذا منسى موسى و أخوه منسى سليمان لهما إلمام كبير بالفقه المالكي ويتحدثان باللغة العربية بطلاقة[2]. و هذا أسكيا دواد، حافظ للقرآن، و قرأ الرسالة فأتمها، وله شيخ يعلمه كل يوم.

(17)- استيراد الكتب من الخارج، فالبحث عن الكتب النفيسة أينما وجدت في أنحاء العالم الإسلامي بأي ثمن، مظهر من مظاهر تقدم الحركة العلمية عامة.

(18)- كثرة الرحلات العلمية: فالسودانيون لما تذوقوا حلاوة العلم، لم يكتفوا بما أخذوه من العلماء المحليين، بل استزادوا العلم، فرحلوا إلى المشرق و المغرب ليأخذوا عن جهابذة علماء المشارقة و المغاربة و يناقشوا معهم بعض المسائل العلمية كالناصر اللقاني، و الأجهوري، و برهان الدين البقاعي، و خالد الأزهري، و ابن غازي، و السيوطي، و غيرهم من جهابذة علماء القرن التاسع و العاشر الهجريين.[3]

المبحث الثاني: العناصر المُساهمة في ازدهار الحركة العلمية الشرعية:

المطلب الأول: العنصر المحلي:

كما أن الكثير من العناصر المحلية رحلوا إلى الخارج وتتلمذوا على أيدي علماء المشرق والمغرب، ثم عادوا إلى السودان يحملون راية العلم وشعلته -كما يعود النحل محملاً بالعسل الشهي- ينشرونه بين أبناء جلدتهم بحماسة متوقدة، و منهم من استغل فرصة أداء فريضة الحج فعمد إلى لقاء كبار الشيوخ في المراكز التي بها و حضر مجالسهم التعليمية لمدة قصيرة قبل أن يستجيزهم ليضيف سنداً جديداً أسانيده القديمة، أمثال: أحمد أقيت محمد محمود بغيغ و أحمد محمود بغيغ... [4].

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص30.

([2]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص71.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص37-47. عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، المرجع السابق، ص140. الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص198.

([4]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص-ص41-43، ص-ص 600-603.

المطلب الثاني: العنصر المغربي:

يمثل علماء المغاربة العنصر الأساسي و الغالب في الحركة العلمية بالسودان بصفة عامة نظراً لقرب المنطقة من المغرب، و لصلات المغرب الثقافية التي تربطها بالسودان منذ وصول المرابطين إلى المنطقة الذين تاخمت مضاربهم الأولى المنطقة و أدت حركتهم الإصلاحية في مطلع القرن الخامس الهجري إلى تدفق الإسلام إلى المنطقة [1]. و منذ هذا التاريخ ما فتئ علماء المغاربة يقصدون المنطقة و خاصة تنبكت، إما للإقامة بها نهائياً أو مؤقتاً.

و من هذه الأسماء اللّامعة التي تركت بصمات واضحة على الحركة العلمية: سيدي يحي التادلسي، الفقية عبد الواحد محمد بن الفقيه الجزولي، الفقيه المقرئ عبد الواحد، أبو العباس الدكالي، محمد بن عمر المكناسي، الحاج محمد الوجدي التازي، الفقيه محمد الفلالي، الشيخ أبو عثمان سعيد الدكالي، عبد الرحمن بن على بن أحمد القصر ثم الفاسي السفياني شيخ المنجور...[2]، و هكذا شكل العنصر المغربي أهم عنصر ازدهار الحركة العلمية في السودان الغربي، و لا زالت سلالة بعضهم ساكنة في بعض مدن السودان – كتنبكت وجني– إلى يومنا هذا[3].

– العنصر الجزائري:

لعب هذا العنصر دوراً طلائعياً في النهضة العلمية والفقهية في المنطقة نظراً للصلات الثقافية التجارية بين المنطقتين منذ القرن الثاني الهجري في عهد بني رستم[4]. و قد جاء علماء كثيرون من مختلف أرجاء الجزائر من توات، و ورجلان، و تلمسان، و فزان إلى السودان، و قد وفد كثير منهم إلى المنطقة على هيئة تاجر أو عالم، أو عالم تاجر فشاركوا في نشر الإسلام و الثقافة العربية الإسلامية، و لما طاب لهم المقام في المنطقة سكن كثير منهم تنبكت، و كان لهم حي خاص فيها يدعى حي التواتيين، و قد كان بعضهم يجوبون

---

(1) محمد حجي، المرجع السابق، ص70.

(2) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص–ص664–665، ص 672. السعدي، المصدر السابق، ص37. محمد الغربي، المرجع السابق، ص–ص514–533. أبوبكر إسماعيل، المرجع السابق، ص–ص42–43.

(3) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص73.

(4) بحاز إبراهيم بكير، المرجع السابق، ص–ص387–390. عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، المرجع السابق، ص573. سليمان باشا الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، (د.دار.ن)، (د.ب)، (د.ط)، (د.ت)، ص–ص238–241، ص–ص 180–281.

المنطقة في كل حين و آخر رغم صعوبة المنطقة و وعورتها وخطورتها للتجارة، و قد أجاد التاجر العالم الورجلاني أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم المتوفي سنة 570هـ في وصف متاعب السفر ومشقته في منطقة السودان حين رجع سالماً بعد ما رأى شبح الموت بعينه في مفاوز السودان في قصيدة من نسجه[1]. و لعل من أبرز رموز هذا العنصر الذين أسهموا في نشر الإسلام ونشر و إزهار العلوم الشرعية في السودان الغربي، الشيخ عبد الحميد الفزاني، و محمد عيسى التلمساني، و أبو القاسم التواتي و صالح تكن و المغيلي...[2].

- العنصر الغدامسي:

يرجع ظهور هذا العنصر في المنطقة إلى ظهور المدن العلمية في السودان، و قد لعب هذا العنصر دوراً ثقافياً و تجارياً في نفس الوقت، و قد توافدوا إلى المنطقة على هيئة تجار، و كان لهم حي خاص بتنبكت، و ظهر الدور المهم لهم في تنشيط الحركة العلمية في المنطقة من خلال مؤلفاتهم و فتاواهم، والوثائق الفقهية التي زودت بها الحركة الفقهية في المنطقة.

و **خلاصة القول** أن الحركة العلمية في السودان قد ساهمت في تأجيج نارها مجموعة من العناصر الثقافية من مختلف البلدان الإسلامية من المغرب، و الجزائر، و ليبيا، و مصر، و السودان، و غيرها من البلدان الإسلامية، ولهذا جاءت هذه الحركة فريدة من نوعها عم نورها كافة أنحاء السودان واستفاد منها خلق كثير[3].

المبحث الثالث: ميادين الحركة العلمية والفكرية في العلوم الشرعية: فيتجلى أثر الحركة الشرعية و الفقهية في ميادين علمية كثيرة، لكن برز بشكل ملموس في ميدان التأليف والفتوى و الرسائل و الوثائق.

المطلب الأول: ميدان الفتوى والنوازل:

من المناصب الشرعية التي اهتم بها علماء الإسلام و حاطوها بسياج من الرعاية و العناية خطة الإفتاء لما لها من أهمية كبرى في نظر الإسلام و حياة المسلمين، لأن عليها تتوقف مصالح الناس وبها يهتدون إلى شؤون دينهم ودنياهم، و بها تنتظم أمورهم

([1]) بحاز ابراهيم، المرجع السابق، ص-ص222-223.

([2]) الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج2،(د.دار.ن) (د.ب)، (د.ط)، (د.ت)، ص517. السعدي،المصدر السابق، ص-ص 36-60. محمد الغربي، المرجع السابق، ص-ص514-517.

([3]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص-ص76-77.

و تصـان حقوقهم و ترعـى مصـالحهم... و مـن أهم هـذه النـوازل و الفتـاوى مـا أورده عبـد الرحمن محمد ميغا و خص منها البعض بالسرد بلغتها المغربية وعلـى رأسـها فتوى الشيخ باي وأحمد بابا و الشيخ أحمد البكاي، [1] و من الملاحظ عليه التأثير المغربـي الواضـح في اللغة و الخط والأسلوب في سردها ومحتواها.

المطلب الثاني: ميدان التوثيق والكتابة/علم الشروط و السجلات: وحث عليه **القرآن الكريم** و **السنة النبوية**... و ألف في هذا الميدان عدة مؤلفات فـي القرن الرابـع الهجري، و وصـل ذروة مجده في القرن الخامس الهجري، و الذي يعتبر من أجل عصور التوثيق و أكبرها إذ فيه ألفت الكتب القيمة التي يرجع إليها الفقهاء و القضـاة ، و عليها اعتمد من جاء بعد هذا العصر... إذ هو من فروع الفقه [2]، و يسرد عبد الرحمن محمد ميغا بعض النماذج من الوثائق السودانية كوثيقة الحرمة التي كتبها أسكيا محمد الكبير لأحفاد الشيخ مور محمد هوكار، و وثيقة بيع محزن، و و ثيقتي عتق [3]. و يغلب على هذه الوثائق المكتوبة أيضـاً الطابع المغربي في الكتابة خطاً و أسلوباً شكلاً و مضموناً.

المطلب الثالث: ميدان التأليف و الإنتاج العلمي:

التأليف من أهم الجوانب التي ظهرت فيها الحركة الفقهية في السودان الغربي بشكل واضـح، و قـد تركـز التـأليف علـى ثلاثـة جوانـب مهمـة و هـي: الشـروح و الحواشـي، و التعليقات، الرسائل الفقهية. أما التأليف المستقل في الفقه فهو نـادر جداً و إن لم نقل منعدم و يبدو أن اقتصار العلماء على هذه الجوانب الثلاثة في التأليف راجع إلى المقولة السائدة آنذاك "**ما ترك الأوائل للأواخر شيئاً**"، أو لعلهم يرون أن الاهتمام بما كتبه الأوائل أفيد و أحسن، و ذلك بشرح ما يحتاج إلى شرح من مؤلفاتهم، و وضع الحاشية عليها إذا اقتضى الأمر، و التعليق على بعض موضوعاتهم و ذلك ببيان بعض هفواتهم في المسائل و التنبيه عليها.

و من الكتب التي نالت إعجاب علماء السودان و حظيت بنصيب الأسد في الشرح و التعليق و التحشي مختصر خليل الذي ملأ الدنيا وشغلها خلال القرن الثامن الهجري و ما بعده، حيث و ضع علماء السودان على هذا المختصر عشرات الشروح و الحواشي و مئات

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص–ص81-90.

([2]) عمر جيدي، المرجع السابق، ص–ص18-19.

([3]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص–ص93-97.

التعليقات، بعضها لا زالت مخطوطة و بعضها عبثت به أيدي الاستعمار و الزمان، و إلى جانب الحواشي و الشروح والتعليقات هناك الرسائل الفقهية التي كُتبت في موضوعٍ جزئي أو فرعي لبيان آراء العلماء و هذا النوع من الكتابات و إن كان يتناول موضوعاً مستقلاً فلا يمكن تسميته مؤلفاً، لأنه عبارة عن بضعة أوراق لا يتجاوز عشرة أو عشرين صفحة.

و من يمعن النظر في آثار الحركة الفقهية في السودان و التي هي جزء من الحركة العلمية يجد أن أغلبها على هذا المنوال [1]. و هناك الكثير من النماذج لما يُسمى بالمؤلفات الفقهية سواء في الشروح والحواشي أو التعليقات، و الرسائل الفقهية، كلها يُغلب عليها الطابع المغربي، و محفوظة أغلبها في شكل مخطوط بالخط المغربي يحمل ترقيم فهرسي في الخزانة الملكية بالرباط، و غيرها من الخزائن المغربية الأخرى، و مركز أحمد بابا التنبكتي[2].

المبحث الرابع: اتجاهات الحركة العلمية و الشرعية: ساد الحركة الفقهية في السودان الغربي اتجاهان أسياسيان:

المطلب الأول: الإتجاه التأصيلي: نقصد به ذلك الصنف من العلماء الذين يؤصلون أحكامهم من الكتاب و السنة، قبل أن يدعم ما يقوله بأقوال العلماء السابقين في المسائل الفقهية، و هذا الصنف نادراً ما يفتي في مسألة أو يبدي رأيه في حكم دون أن يعزز ما يقول بنص من الكتاب أو السنة، و من العلماء الذين يتوفر لدينا إنتاجاتهم الفقهية في هذا الصنف: الشيخ أحمد بابا التنبكتي ذات الاتجاه التأصيلي وغيره، و يغلب أيضاً الطابع المغربي على إنتاجهم المخطوط المحفوظ في الخزائن المغربية[3].

المطلب الثاني: الإتجاه التقليدي: و نقصد بهذا الاتجاه، صنف من العلماء الذي لا يؤصلون مسائلهم إلا نادراً، فمنهجهم سرد أقوال العلماء السابقين في المسألة دون تأصيل، و إن أصل مسائله أحياناً فإنما ذلك من باب التبرك لا من باب التأصيل، و لعل السبب راجع إلى أنهم لا يرون ضرورة لتأصيل المسائل، أو أن الإستدلال بقول عالم مشهور يغني عن التأصيل. و يمكن القول أن الأمر يعود أيضاً إلى ماهو سائد في هذه الفترة من الاكتفاء بأقوال العلماء دون تأصيل، مع أنهم على علم تام بأصول المسائل، و من العلماء الذين

---

(1) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق ، ص-ص97-98.

(2) نفسه ، ص-ص99-105.

(3) نفسه، ص-ص106-107.

ينتمون إلى هذا الاتجاه: محمد بن محمد بغيغ بن محمود كورد الفلاني، و أحمد بن أحمد عمر أقيت و غيرهما، و يغلب أيضاً الطابع المغربي على إنتاجهم و يحفظ مخطوطاً في الخزائن المغاربية و مركز أحمد بابا.[1]

المبحث الخامس: الرسائل والإجازات و الفتاوى والنوازل:

المطلب الأول: دور الفقهاء والعلماء والمُعلمين و الأئمة في نشر العلوم الشرعية:

فقد قام أولئك السابقون بدور مهم في تدفق المؤثرات العربية الإسلامية و ازدهار الحضارة العربية الإسلامية بالسودان الغربي، حيث كان هؤلاء الفقهاء يدعون الناس إلى الإسلام و يحفظونهم القرآن و يفقهونهم في أمور دينهم، و ذلك لإلمامهم بأصول الدين و الشريعة الإسلامية و مبادئها، و لذا حظي هؤلاء الفقهاء و المعلمون بتقدير عال من الأهالي و الحكام، و أصبحت قرى السودان الغربي تضم دوراً لإستقبال هؤلاء المعلمين و الفقهاء الذين صاروا يعاملون بأعظم مظاهر التقدير والاحترام.[2].

و نظراً للتشجيع الكبير الذي حظي به هؤلاء المعلمون من قِبل الملوك المسلمين السودانيين، تعاون هؤلاء المعلمون مع المحسنين في تأسيس المدارس و الخلاوي و التي صارت قبلة لأبناء المسلمين الوثنين على حد سواء ودون تمييز، الأمر الذي أدى إلى انتشار الإسلام و الثقافة العربية على نطاق واسع، وأصبحت هذه المدارس و الخلاوي تتكاثر و تزدهر حتى أن بعضها أضحى مركز إشعاع حضاري يستقطب أبناء السودان الغربي عموماً و المناطق المجاورة بصفة خاصة و دون أي اعتبار لفارق اللون أو الدين.

و وجدت الحياة الثقافية و الفكرية تشجيعاً كبيراً من الملوك السودانيين المسلمين الذين شجعوا تلك المراكز العلمية الذي نبغ فيها لفيف من العلماء الوطنيين الذين ذاع صيتهم في المجالين العربي و الإفريقي[3] و أشاد المؤرخون باهتمام ملوك السودان الغربي بالعلماء والفقهاء فأشاروا إلى ذلك في كتبهم: "**...و كان ملوك مالي و رعاياهم متمسكين بالإسلام...و استقدموا الفقهاء والعلماء من البلاد الإسلامية، و تفقهوا في الدين.**"[4]

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق ، ص-ص108-109.

([2]) توماس ارنولد، المرجع السابق، ص392.

([3]) جميلة التكتيك، مملكة سنغاى الإسلامية فى عهد الأسكيا محمد الكبير(1493 – 1528) م ، منشورات مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، رقم 26، طرابلس، 1998م، ص174.

([4]) القلقشندي، المصدر السابق، 297.

و قام الأئمة والمعلمون والفقهاء بدور كبير في حياة مجتمعات السودان الغربي، فهم يؤمون الناس في الصلاة، و يخطبون الجمعة، و يكلفون بجمع الزكاة، و يقبلون الصدقات، و يوزعونها على الفئات المشار إليها في كتاب الله، و ينفقون منها على الصالح العام، و يعقدون القران و يديرون حفلة الزواج، و يسمون المولود، و ينحرون الضحية الأولى في الأعياد و المناسبات الدينية و يغسلون الميت، و يتولون الإمامة في صلاة الجنازة، و يفقهون الناس في الإسلام، و يحفظون الصغار القرآن، و يعلمونهم مبادئ الإسلام، و لا يتم عمل في حياة القرية إلا بوجودهم، و تعيينهم ولي أمر المسلمين في المناطق الإسلامية، و يشرك المسلمون في اختيارهم في المناطق التي يكون فيها المسلمون أقلية. و بالرغم من أنه ليس للإسلام كهنوت؛ فإن له رجال دين أو فقهاء و معلمون حفظوا القرآن، و تفقهوا في الدين، كما أنه لم يخصص فئة للدين وفئة للدنيا، لأنه دين الدنيا و الآخرة؛ و ليس فيه واسطة بين العبد وربه. و هو يقرر أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة حتى لا تكون المعرفة احتكاراً لأحد. و لقد كان للفقهاء و العلماء و الأئمة مكانة رفيعة بين أهالي السودان الغربي المسلمين و الوثنين معاً، فكانوا يجلونهم و يعاملونهم بالترحاب في كل مكان، بل كان الوثنيون يلتمسون خيراً على أيديهم، و يوكلون إليهم تعليم أبنائهم.[1]

و قد أشار الرحالة ابن بطوطة إلى المنزلة السامقة التي كان يتمتع بها العلماء و الفقهاء و الأئمة في بلاط ملوك مالي و قال أنهم كانت لهم منزلة رفيعة و حظوة، و أنهم كانوا خاصتهم و أهل مشورتهم، بل إن ملوك مالي كانوا لا يلبسون الطيلسان إلا في أيام العيدين. أما العلماء و الفقهاء فكانوا يلبسونه دون سائر الأهالي طيلة أيام السنة [2].

و أشار كل من محمود كعت[3] و عبد الرحمن السعدي[4] إلى أن ملوك سنغاي و جني المسلمين كانوا يجلون الفقهاء و العلماء يأتمرون بأمرهم، و أن مكانتهم لدى السلاطين فاقت كل وصف، حتى أن بعض العلماء كانوا ينهون السلاطين عن المنكر و يعنفونهم إذا ارتكبوه. و من أمثلة ما تمت الإشارة إليه ما قاله السعدي عن مكانة الفقيه

([1]) توماس ارنولد، المرجع السابق، ص-ص392-393.

([2]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص447.

([3]) محمود كعت، المصدر السابق، ص11، 12، 59.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص18.

أحمد بن أحمد بن عمر: "**... وافر الحرمة عند الملوك وكافة الناس نفاعاً بجاهه لا يرد له شفاعة يغلظ على الملوك فمن دونهم و ينقادون له أعظم الانقياد و يزورونه في داره....**" [1].

و استقدم منسى موسى إلى مملكته الكثير من العلماء والفقهاء من سائر أقطار الوطن العربي و العالم الإسلامي مثل: أبو إسحاق إبراهيم الساحلي المشهور بالطونجق[2]. و عبد الرحمن التميمي[3]، و استقدم من المغرب الفقيه عبد الله البلبالي الذي تولى إمامة الجامع الكبير في تمبكتو ثم خلفه في إمامة ذات الجامع أبو القاسم التواتي[4]. و قد وفد على المنطقة كثير من العلماء ونزلوا بالمدن التي بها معاهد العلم، و تشير المصادر إلى أن الفقيه أحمد بابا التنبكتي الذي جلس للتدريس في مسجد سنكري الشهير الذي كان معظم أساتذته من قبيلة جدالة الصنهاجية المغربية[5]. و لعب دوراً مرموقاً في إثراء الحياة الثقافية و العلمية، كانت ثقافته من منابع مغاربية و على الطريقة البيضانية الشمالية و التي نشرت الإسلام و لغته العربية، و علومه الشرعية الملتصقة بالإسلام و أركانه، و نشرت مؤلفاته و مصادرة المخطوطة على أبناء السودان الغربي.

و قد وفد العديد من العلماء والفقهاء من الشمال الإفريقي إلى المراكز العلمية بالسودان الغربي، البعض منهم بعاصمة مملكة مالي و منهم: على الزواوي المراكشي و أبو حفص المسوفي وابن شيخ اللبن التلمساني[6]. و كان المعلمون و الفقهاء يعقدون جلسات علمية في في المدارس و المساجد و في بيوتهم التي يقصدها الطلاب و عامة الناس ليحفظوا القرآن الكريم و يتفقهوا بالدين و يتعلموا اللغة العربية. و قد نبغ الكثيرون منهم و ألفوا باللغة العربية الفصحى العديد من الكتب الدينية واللغوية و الأدبية [7]، نتيجة للدور المغاربي الفعال سواء بوجوده داخل منطقة السودان الغربي للتجارة و من ثم تعليم الأهالي مبادىء الدين من قراءة وكتابة... أو لنشره الكتب و المصادر المغاربية للعلوم الشرعية لتعليم و تفقيه أهالي السودان

([1]) السعدي، المصدر السابق ، ص42.

([2]) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ص200.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص51.

([4]) نفسه، ص57.

([5]) نفسه، ص35.

([6]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص-ص448-450.

([7]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق والسعدي، المصدر السابق، صفحات متفرقة.

الغربي و محاولة السودانيين بعد قراءتهم المغربية المتعددة و إجازتهم من أساتذتهم تقليدها أو الكتابة عنها أو التعليق و عمل الحواشي لها.

و يبدو أن سقوط الأندلس عام 1492م و ما تعرض له الشمال الإفريقي من فتن سياسية و مذهبية قد دفع بالعديد من العلماء و الفقهاء للهجرة إلى مناطق متعددة من بينها السودان الغربي [1]. و أنشأ بعض هؤلاء العلماء و الفقهاء و المعلمين و الدعاة الآتيين من الشمال مدارس و كتاتيب في القرى و المدن التي استقروا بها. و كانت مهنة التعليم في أول الأمر مقصورة على هؤلاء الوافدين المغاربة من الفقهاء و المعلمين و الدعاة القادمين من مناطق الوطن الإسلامي وتكونت بعد مدة طبقة محلية مثقفة من الأهالي الوطنيين تولوا مهمة التعليم و كانت غالبية هؤلاء من الفقهاء و الذين أتقنوا اللغة العربية، لغة الدين والثقافة والتجارة[2]؛ و لكن حتى هذا أيضاً بمساعدة أشقائهم المغاربة البيضان الذين يرجع الفضل لهم في تكوينهم العلمي و الفكري لهذه الطبقة المحلية و أن يصلوا بهم إلى هذه الحالة من إيلولة الأمر لهم، و لكن من ناحية أخرى لا نستطيع أن نخرج الدور المغاربي من المنطقة بعد وصول الطبقة المحلية إلى هذه الحالة الفكرية المتميزة، و لكن استمر الوجود المغاربي متمثل في جالياته الإسلامية سواء التجارية أو الثقافية، و استمر الدور المغاربي في العطاء لهذه المنطقة السودانية و أهلها بدون انقطاع، و امتدت و تسربت كل مشاعل فروع العلوم الإسلامية و العربية المغربية وخاصة العلوم الشرعية الذي برع فيها المغاربة دون سقف أعلى.

المطلب الثاني: التفاعل الثقافي بين السوداني الغربي و المغرب الإسلامي:

التفاعل الثقافي عملية تنجم عن ظاهرة التقاء ثقافتين، إحداهما وافدة مغاربية ذات عناصر أقوى و أفضل من الأخرى المحلية، كما هي الحال بالنسبة إلى الثقافة العربية الإسلامية و الثقافات الإفريقية المحلية التي بدأت تحتك بعناصر الثقافة الواردة الوافدة المذكورة و تأخذ منها ما يلائمها تأثيراً وتأثراً، و لعل ما انبثق عن التفاعل الذي وقع بين الثقافة العربية الإسلامية و الثقافات المحلية عدة ظواهر حضارية مهمة أثرت في عدد كبير

---

[1] F. Dubois, Op.cit, P.353.

[2] عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص168.

من المجتمعات الإفريقية و أبرزها –إلى جانب الدين الإسلامي– اللغة العربية. فهذه اللغات الإفريقية المحلية القديمة قد كتبت، و ظلت آدابها تكتب قروناً عديدة بالحرف العربي[1].

و يعزى الفضل الأكبر في ذلك إلى أن انتشار الدعوة الإسلامية قد ارتبط باللغة العربية لغة **القرآن الكريم** و العلوم الإسلامية الشرعية، و لعل تنشيط الحركة التجارية كان من العوامل الرئيسة التي ساهمت في اتساع رقعة الإسلام و اللغة العربية في السودان الغربي، و قد كان للإمام محمد المغيلي دور مهم في نشر الثقافة العربية الإسلامية في بلاد الهوسا و غيرها من مناطق الغرب الإفريقي، ولعل دور الإمام المغيلي في نشر اللغة العربية في تلك الأنحاء لا يضاهيه إلا جهاد الشيخ عثمان بن فودي وخلفاؤه في القرن الثالث عشر للهجرة/التاسع عشر الميلادي، و معروف أن ذلك الجهاد قد واكبه ترسيخاً لدعائم اللغة العربية و تفاعلها مع لغة الهوسا[2].

و نضيف بأن تلك المساواة التي بسطها الإسلام على من اعتنقه من السودانيين في الحقوق و الواجبات، و الأخلاق الفاضلة التي جاء بها العلماء، ساهمت بالفعل بأن بلغت اللغة العربية مكانة مهمة، و كان لها الفضل الكبير في انتشار الإسلام و التعليم و كل العلوم المتصلة بهما من نحو و صرف و تفسير، و قرآن، و فقه، و تاريخ، و علم الكلام و غيرها فصار القانون الإسلامي، أو الشريعة، و المعتقدات، و الممارسات جنبا إلى جنب مع اللغة العربية بمحو الأمية. و حتى الذين بقوا على وثنيتهم و لم يعتنقوا الإسلام عرفوا اللغة العربية.[3]

و لقد ساهم الأئمة المسلمون في نشر اللغة العربية حيث أفتوا بعدم جواز ترجمة القرآن الكريم و الإكتفاء بترجمة معانيه و عدم جواز قراءته بغير اللغة العربية و وجوب أداء الصلاة إلاّ بها.[4]

كما تأثرت طريقة الكتابة عند أهالي السودان الغربي بما هو معروف عند المغاربة في الهندسة و نقوشها ، و الخط و الأعاجم الحروف و ترتيبها، و يظهر ذلك

([1]) محي الدين صابر، العرب وإفريقيا، العلاقات الثقافية، المكتبة العصرية، بيروت، 1987م، ص–ص12–13.

([2]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص176، 181.

(3) كلود الدوكو فضل، العلماء الأفارقة ودورهم الحضاري في غرب افريقيا ، حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر ،اليوكيلي للطباعة و النشر، المملكة المغربية، 1995 م، ص 70.

([4]) نفسه، ص-ص 176-177.

فيما تحفل به جدران مساجد المنطقة من الخطوط المختلفة و ما يتجلى به رسوم الآيات القرآنية، حيث أن النقوش التي وجدت بالمساجد كان يستخدم فيها الخط الكوفي و الخطوط الهندسية في كتابة الآيات القرآنية و هذا الأثر المغربي واضح[1].

إضافة إلى مساعدة المراكز الثقافية العربية المنتشرة في الشمال الإفريقي مثل فاس و تلمسان، و توات، و القيروان في تأطير تلك الثقافة، خاصة في مواسم الحج و العمرة و مدى رغبتهم في التعلم بالحروف الهجائية مثل لغة الطوارق في الصحراء و هي لغة الأمازيغ و لغة الفلان و لغة الهوسا و قد دونت بهاتين اللغتين مخطوطات كثيرة مكتوبة بحرف و خط عربي، و قد وصف القلقشندي ذلك بقوله "**و كتاباتهم بالخط العربي على طريقة المغاربة**"[2].

و لا تزال إلى اليوم العديد من الكلمات العربية مستخدمة في بلاد السودان الغربي في مختلف مظاهر الحياة الدينية و العلمية و في مجال القضاء و المكاتبات الرسمية حيث يعطي إبراهيم طرخان أمثلة على ذلك، و من ذلك كلمة "**الله**" التي صارت (ياللا) أو بالألف عند الولووف و السنغال وكلمة "إمام" التي صارت (اليمام)[3].

و لقد عرفت اللغة العربية ازدهارا كبيرا خلال القرن 8هـ / 14م بالنسبة لإمبراطورية مالي، حيث سجلت نهضة علمية راقية العمل، حيث روى العمري و القلقشندي أن السلطان منسى موسى و أخوه سليمان كانا يتقنان اللغة العربية قراءة و كتابة و حديثا، و قد عمل على هذا على جعل اللغة العربية لغة رسمية إلى جانب اللغة المحلية، كما أنه قام منسى موسى من قبل بإرسال بعثات إصلاحية إلى مدن المغرب الإسلامي لمتابعة دراستهم. و خلال حجه عام 1325م اشترى الكثير من الكتب العربية، و عند عودته من الحج انشأ مدرسة كبيرة في مالي من أجل تعليم اللغة العربية و القرآن الكريم؛ و ما يؤكد مكانة اللغة العربية مراسلات منسى موسى إلى سلطان مصر المملوكي الناصر محمد بن قلاوون و التي كانت تكتب باللغة العربية؛ و كذلك في عهد الأسقيين احتلت اللغة العربية مكانة رئيسة، غير أن الدروس و الحلقات في المساجد و التي كانت للعامة فكانت تستعمل فيها اللهجات المحلية، إلا أن خطب الجمعة كانت باللغة العربية و تتبع بعد الصلاة بمترجم

---

(1) امطير سعد غيث ، المرجع السابق، ص - ص 177 - 178

(2) القلقشندي،ج5، المصدر السابق، ص 98.

(3) امطير سعد غيث ،المرجع السابق، ص 179 .

يؤتى بـه ليترجم و يلخص للعامـة محتـوى خطبـة الإمـام و نفـس الشـيء كـان يحدث في الأعياد[1] .

و قد أشار القلقشندي أن الخط السائد في مالي و في غيرها من الممالك خط فاسي، كما أنـه فـي مملكـة سـنغاي كـان انتشـار اللغـة العربيـة واسـعا و ذلـك بسـبب دخـول المعارف الإسلامية إليها و لقد أثر هذا الانتشار في المملكة و ظهر هذا التأثير في الحياة الفكريـة فـي ميـادين مختلفـة مثـل الأدب، و التـاريخ، و العلـوم الإسـلامية، و علـوم اللغـة العربية، و شتى مظاهر الحياة، إضافة إلى ظهور نوع من الكتابات الأدبيـة و بذلك ظهـر الشعراء و البلغاء و رجال الفكر، و بذلك ازدهرت حركة التأليف و المعرفة.[2]

كما أن الحرف العربي انتقل إلى اللغات المحلية كاللغة السواحلية و لغة الهوسا اللتين تعدان أكثر اللغات السودانية تأثيرا بالحروف العربية، و بذلك بلغ عدد اللغات الإفريقيـة التي كتبت بالخط العربي منذ دخول الإسلام إلى يومنا هذا أكثر من ثلاثين لغة.

و بالرغم من تـأثير العربيـة فـي اللهجات المحليـة مـن خـلال دخـول عـدة مصـطلحات و كـذلك مـن خـلال تعبيـر بعـض الحـروف و مخارجهـا و مـدلول بعـض الكلمـات فقـد اسـتمرت اللغـة العربيـة إلـى جانـب اللهجـات المحلية كلغـة للتعامل و الثقافة قبـل أن يعمـل الاسـتعمار الأوروبـي علـى فـرض ثقافتـه حيث قـام بحـذف أحـرف اللغـة العربيـة، و بعـد أن كانت المؤلفات الإفريقية تـدون باللغة العربية التي كانت بـأحرف عربيـة علـى أسـلوب الخط المغاربي فـي محاولة متعددة للقضـاء علـى مؤثرات الثقافة العربية الإسلامية.[3]

و نسـتنتج مـن ذلـك أن اللغـة العربيـة أصـبحت فـي الممالـك السـودانية لغـة الـدين و الثقافـة و الحيـاة الإدارية و أصبح الحـرف العربـي هو الـذي تكتب بـه أشـهر اللغـات الإفريقية، كما كان للطرق الصوفية دورا في نشر اللغة العربية و الثقافة العربية الإسلامية، إلـى جانـب ما نقله الملوك و التجار و الدعاة الأفارقـة مـن ثقافـة و لغـة، و يظهـر ذلـك فـي اسـتخدام الملوك و الأمـراء الأفارقـة لبعض العلمـاء لتعليمهم اللغـة العربيـة الحـاملين معهـم

---

(1) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص139.

(2) محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية، المسلمون في غرب افريقيا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان،1971م، ص - ص 125 - 126.

(3) عثمان منادي، الحياة العلمية في حواضر الممالك الإسلامية في غرب افريقيا بين القرنين (8-9)ه/ (14-16)م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر،2011 م، ص 103 .

كتب من العلوم الإسلامية، و العربية، و بهذه الطرق وصلت كتب كثيرة إلى السودان الغربي .

هذا عن انتشار اللغة العربية ، أما عن الحديث عن العلماء و الأئمة المغاربة الذين تولوا إمامة الجامع الكبير، فنجد (جنقريبر) في تنبكت: فتؤكد المصادر التاريخية أن أول إمام للجامع الكبير هو الإمام كاتب موسى، الذي استمر في ذلك حوالي أربعين سنة، و لم يستتب في صلاة واحدة لأجل صحة بدنه التي رزقه الله **تعالى** بها[1]. و من الأئمة المغاربة الذين تعاقبوا على إمامة الجامع الكبير الفقيه عبد الله البلبالي و ذلك في بداية حكم سنغاي لتنبكت ، و لقد حظي بتقدير عالٍ لمنزلته و علمه، و لم يتعرض لأي إيذاء من سني علي ، و ظل في إمامته حتى انتقل إلى رحمة الله تعالى، فتولى من بعده سيدي أبو القاسم التواتي، الذي عرف بزهده و تقواه، و استمر في إمامته حتى توفي حوالي (عام 935هـ/1528)، ثم تولى من بعده الإمامة تلميذه منصور الفزاني. و في شهر شوال من عام 977هـ/1569م تولى إمامة الجامع الكبير الإمام عثمان بن الحسن التشيتي، و مكث إماماً حتى وفاته و دفن في المقابر القديمة [2]. و يدل تعاقب المغاربة الواحد تلو الآخر على أهم وظيفة دينية في تنبكت بعد القضاء، و هي إمامة المسجد الكبير في تنبكت على ثقة أهل السودان الغربي في العلماء و الأئمة المغاربة، وازدهار علومهم الشرعية و الأخذ والنهل منها، هذا جانب، أما الآخر لو نظرنا لخريطة تولية أولئك الأئمة سنجدهم موزعون بالعدل والتساوي على كافة أقطار و بلدان المغرب الإسلامي (فزان/المغرب الإدني، توات/المغرب الأوسط، المغرب الأقصى، بلاد شنقيط/موريتانيا) و هذا معناه أن العلم و العلماء و الفقهاء و سائر الحركات الفكرية و العلمية كان لا يختص بها مغرب واحد فقط بل كل بلدان المغرب الإسلامي، مما أدى إلى نشر العلوم الشرعية على مستوى أفقي عرضي وليس رأسي طولي.

و حتى أن ثالث أكبر جوامع تنبكت (سيدي يحي) من الراجح أنه سُمي بهذا الإسم نسبة للولي الصالح سيدي يحي التادلسي المغربي في أول دولة الطوارق التي حكمت تنبكت، و الذي و لاه محمد نض الطارقي الشنقيطي، حكم المدينة و إمامة الجامع، و قد استمر في ذلك المنصب إماماً حتى وفاته 886هـ/ 1463م. أما آخر الأئمة لجامع سيدي

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص57. الأرواني، المصدر السابق، ص79.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص12-13.

يحـي فـي فتـرة مـا بعـد الدراسـة، فهـو المغـاربي الأصـل الإمـام إبـراهيم بـن عبـد الله التـواتي، (ت 1140هـ /1727م)[1]. ليظهر مرة أخرى عمق التأثير المغربـي فـي اقتنـاص الوظـائف الدينية الكبيرة و المبجلة في السودان الغربي عامة، وتنبكت خاصة.

و مـن روايـة إسـلام جنـي بعـد جمـع ملكهـا العلمـاء لكـي يعلـن إسـلامه، طلـب منهـم أن يـدعوا بـثلاث دعـوات أساسية تـدل و تؤكـد علـى أن المدينـة كانـت ذات السـمة المغاربيـة فـي إسـلامه و قبـل إسـلامه مـن فحـوى تلـك الـدعوات التـي تؤكـد أنهـا كانـت مدينـة المهـاجرين و الوافـدين المغاربـة: "...**فأسـلم علـى أيـديهم و أمـرهم أن يـدعوا الله تعـالى بـثلاث دعـوات لمدينتـه و هي: أن كل من هرب إليها من وطنه ضيقاً و عسراً أن يبدلهما الله له سعة و يسراً حتى ينسى وطنه ذلك و أن يعمرها بغير أهلها وأن يسلب الصبر من الواردين إليها لتجارة في ذات أيديهم لكي يمِلّوا منها فيبيعونها لأهلها بناقص الثمن فيربحون بها. فقرؤوا الفاتحة على هذه الدعوات فكانت مقبولة....**"[2].

و يبـدو أن الثقافـة العربيـة الإسـلامية فـي جنـي قـد شـهدت دفعـة قويـة فـي عهـد الأسـكيا محمـد الكبيـر، الـذي اهـتم بالعلمـاء و الطـلاب، و صـاروا محـل عنايتـه، و وفـر لهـم الكتـب و المخطوطـات و أدى إلـى انتعـاش ملحـوظ فـي حياتهـا العلميـة، و نشـر العلـوم الشـرعية المغاربية مما دعى الحسن الوزان إلى تسجيل ذلك بقولـه: "...**و سكنها [جنـي] الملك، و الأئمة و الفقهاء و التجار و الأعيان...**" [3]. و لم تزل جنـي تؤدي ذلك الدور الثقافي المهم حتـى قال عنها السعدي: "...**و قد ساق الله تعالى لهذه المدينة المباركة سكاناً من العلماء الصالحين من غير أهلهـا مـن قبائـل شتى و بـلاد شتى....**" [4]، و هذا دليل آخر علـى الوجود المغاربي فـي تلك المدينة سواء الاقتصادي أو الفكري و العلمي.

و تعتبـر أجـادس مدينـة عريقـة فـي الإسـلام، و قـد أسسـت فـي أوائـل القـرن التاسـع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، و بها أعداد هائلة من أماكن العبادة مثل: مسجد أسكيا الحـاج محمد، و مسجد محمد الفزاني، و مسجد محمد عبد الكريم المغيلي، كما أن مساجدها مراكز

---

(1) الأروانــي، المصــدر الســابق، ص-ص41-42، ص-ص 46، 82. الســعدي، المصــدر الســابق، ص23، ص-ص49-50.

(2) نفسه، ص،ص 59، 109.

(3) حسن الوزان، المصدر السابق، ص163.

(4) السعدي، المصدر السابق، ص16.

علمية أمّها العديد من الطلاب[1]. و قد اشتهرت أجادس بأنها موطناً لعدد من الفقهاء و العلماء الأفذاذ الذين كان لهم دور مهم في تجذير قواعد الثقافة العربية الإسلامية بتلك الربوع، و من بينهم الفقيه العاقب بن عبد الله الأنصمني المسوفي المغربي[2].

و قد قام الأساتذة المنتمون إلى مدينة ولاتة بدور مهم في نشر الإسلام و اللغة العربية، و من هؤلاء أحمد بن أحمد التارختي، الذي "**قرأ ببلده...ثم رحل إلى تكدة فلقي بها المغيلي و حضر دروسه....ثم قفل للسودان فنزل ببلدة كشن [كتسيا] فأكرمه صاحبها غاية الإكرام و ولاه قضاءها**"[3]. و يؤكد لنا النص المذكور أن إشعاع ولاتة العلمي من ناحية و تأثر علمائها بالعلماء المغاربة من ناحية أخرى قد جاوز حدود السودان الغربي، و وصل إلى بلاد الهوسا (جنوب بلاد السودان الأوسط)، كما أن أغلب الأسر العلمية التي أعطت لتنبكت أهميتها العلمية هي من أصل ولاتي[4].

و قد أدى انتشار الإسلام وتعاليمه بين غالبية شعوب السودان الغربي إلى ازدهار اللغة العربية، لغة القرآن الكريم في المنطقة، و كان من الطبيعي أن تطغى مؤثرات الثقافة العربية الإسلامية على مختلف وجوه الحياة الثقافية في تلك البقاع، و لا سيما في مجال النظام التعليمي و روافده، وكذلك في تأليف العلوم الشرعية (النقلية)، و علوم اللغة العربية و آدابها و علوم التاريخ والتراجم. و بديهيا أن يرجع الفضل إلى لفيف من العلماء الأفذاذ في دفع مسيرة حركة التأليف و إثراء مظاهر الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي، و كان النظام التعليمي السائد في بلاد السودان الغربي خلال فترة هذه الدراسة من الراجح أنه لا يختلف كثيراً في سماته عن النظم التعليمية المتَّبعة في كل من: المغرب الأقصى، الجزائر، تونس، طرابلس الغرب ومصر. غير أن النمط المغربي كان أكثر رسوخاً، نسبة لأن المذهب المالكي قد ضرب بجذور عميقة في المنطقة[5].

---

(1) الهادي المبروك الدالي، التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، ط2، طرابلس،2001م، ص128.

(2) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص204، ص-ص273-274.

(3) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص587. التنبكتي، كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص223.

(4) السعدي، المصدر السابق، ص21.

(5) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص-ص218-219.

المطلب الثالث: النظام التعليمي في السودان الغربي من الكُتّاب إلى الإجازة و تأثره ببلدان المغرب:

(1)- مراحل النظام التعليمي:

- **مرحلة التعليم الأولى (الكتاتيب):** و يتعلم فيها الصبيان مبادئ القراءة، و الكتابة، و الحساب و حفظ القرآن الكريم، و أصول الدين، و قصص الأنبياء، و السيرة النبوية، و كان أشهر هذه الكتاتيب و المكاتب مكتب الفقيه أبو القاسم التواتي المغربي، الذي كان يقع في قبالة المسجد الجامع في تنبكت لاصقاً به [1].

- **مرحلة التعليم المتوسط:** و كانت الحلقات الدراسية فيما يعرف تجاوزا بالتعليم المتوسط تعقد بالمدرسين و العلماء الأَكْفَاء في مواد دراسية في علوم التفسير، و الحديث، و الفقه المالكي، و التاريخ، و السيرة النبوية، و علوم العربية، و المنطق، و غير ذلك [2].

- **مرحلة التعليم العالي (الجامعات):** و تتميز الدراسة فيها بالعمق، و الولوج إلى القضايا التفصيلية و الشروح الدقيقة، و لها أساتذتها المختصون، و تمتد الدراسة فيها لأكثر من عشر سنوات، و ربما قضى بعض الطلاب نصف عمره في هذه المرحلة، و بعد إكماله الدراسة يُمنح الطالب إجازة من شيخه بعد اجتيازه امتحانات صعبة يُشارك فيها لفيف من الأساتذة الكبار في المنطقة. [3]

و كان بفضل المؤلفات التي تركها الذين تخرجوا من مجالسها العلمية (جامعة سنكوري بتنبكت) صار من الممكن رسم صورة عن أحوال المنطقة المختلفة أقرب للتكامل[4].، و خاصة في دور بلاد المغرب في نشر العلوم الشرعية فيها، و من ثم قاموا كنخبة ثقافية محلية بالتأليف، أو التعليق، أو تهذيب تلك العلوم النقلية.

و قد امتازت جامعة سنكوري بشهرة بعض أساتذتها التي اجتذبت الطلاب من بلاد أنحاء السودان الغربي و الشمال الإفريقي؛ و معلوم أن العديد من هؤلاء الأساتذة قد نالوا إجازات علمية مرموقة من علماء المشرق العربي الإسلامي وذلك أثناء أدائهم لفريضة الحج، و كانت رحلات الحج تلك تزيد من مدارك هؤلاء الأساتذة و ترفع مكانتهم العلمية، و يعتقد

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص58.

([2]) نفسه، ص16.

([3]) عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص144.

([4]) دادود ولد عبدالله، المرجع السابق، ص24.

علماء السودان الغربي أن الإجازات العلمية التي يتم الحصول عليها من مصر و الحجاز و المغرب بأنها دليل على سعة علم أصحابها[1].

و معروف أن هؤلاء الأساتذة لا يصلون إلى وظيفة التدريس في مراكز التعليم العالي في السودان الغربي إلا بعد حصولهم على تزكية من عالم مشهود له بالقدرة العلمية، فضلاً عن أن تكون لهذا الأستاذ نفسه الكفاءة و المقدرة و التضلع في المادة التي يدرسها، و عادة ما تكون الدروس التي تلقي غير مقتصرة على الطلاب المنتظمين، بل مفتوحة للجميع[2].

و رغم المكانة العلمية العالية التي حازتها المراكز العلمية في السودان الغربي، فإن أفواجاً عديدة من طلاب المنطقة قد تدافعوا نحو المنارات العربية الإسلامية في الشمال الإفريقي ومصر و الحجاز، لينهلوا من منابعها ثم يعودون إلى أوطانهم لينشروا الإسلام و اللغة العربية و مختلف العلوم في ربوعها، و قد تمّت الإشارة إلى نماذج من هؤلاء العلماء، و إلى نماذج من الإجازات العلمية التي تحصلوا عليها سواء عن طريق مجالسة أساتذتهم مباشرة، أو عن طريق المراسلة. [3]

(2)- المواد الدراسية ومقرراتها: يأتي في مقدمة المواد التي كانت تدرَّس في بلاد السودان الغربي، علوم **القرآن الكريم**[4]، و ذلك لأنها أساس العلوم الإسلامية، و قد كان القرآن الكريم أساساً للنظام التعليمي في مساجد، أو مدارس، أو كتاتيب، أو جامعات المنطقة، حتى أن بعض الأساكي مثل: أسكيا داود كان حافظاً له[5]، و قد كان تحفيظ القرآن الكريم وقراءته – في الغالب الأعم – على روايتي الإمامين ورش وقالون المغربين، اللتين كانتا منتشرتين بعموم المنطقة، و قد أورد ذلك المؤرخ عبد الرحمن السعدي حين أشار إلى أحد أعلام

---

(1) Umar Al- Nagar, The pilgrimage Tradition, Karthoum University Press, 1972 , p. 125.

(2) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص224.

(3) نفسه، ص-ص226-227.

(4) تحدث ابن بطوطة الذي زار المنطقة في خلال فترة البحث لهذه الدراسة في القرن الثامن الهجري عن حرص أهالي السودان الغربي على تحفيظ أبنائهم القرآن الكريم بقوله: "**...ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود، إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه، فلا تفك عنهم حتى يحفظوه...**" ابن بطوطة، المصدر السابق، ص450. وأيضاً أشار إلى هذا الحسن الوزان في القرن العاشر الهجري: "**....ويقتصر درس كل يوم على آية من القرآن، ويختم القرآن في سنتين أو ثلاث سنوات، ثم يستأنف ذلك عدة مرات إلى أن يجيد الطفل تعلمه بصورة مُتقنة جداً ويحفظه عن ظهر قلب...**" جميلة أمحمد التكيتك، المرجع السابق، ص168.

(5) محمود كعت، المصدر السابق، ص64.

القراءات في المنطقة و هو سيدي عبد المولى الجملالي الذي كان يعلِّم تلاميذ السودان الغربي القرآن الكريم على روايتي ورش و قالون[1].

و بجانب تعليم القرآن الكريم و علومه كانت هناك علوم أخرى تدَّرس، و منها كتب الحديث الشريف مثل الصحيحين: البخاري و مسلم[2]، كما كانوا يدرّسون الكتب المشهورة في الفقه المالكي مثل: المدوَّنة لأبي سحنون و الرسالة لأبي زيد القيرواني، فقد قرأها و أتمَّها الأسكيا داود عدة مرات، و ذلك على يد شيخ يُعلمه ويقرئه منذ الصباح الباكر حتى الظهر[3].

كما أشار السعدي إلى تداولها على نطاق واسع بين أيادي طلاب السودان الغربي و علمائهم، مما يترجم أهميتها و قيمتها العلمية العالية [4]، أما مختصر خليل، فقد أدخل لأول مرة إلى السودان الغربي على يد الفقيه محمود بن عمر[5]، و قد تحدثت مصادر تاريخية عديدة عن تدريسه على نطاق واسع في المنطقة[6]، و كذلك موطأ الإمام مالك، و كتاب الشفا للقاضي عياض السبتي، و الأسدية، و العشماوية، و في علوم اللغة يركزون على ألفية ابن مالك وشروحها المختلفة، و يدرسون الصرف، و البلاغة، و الأدب، و الخزوجية في العروض، وفقه اللغة، و كتب الفتاوى و النوازل، مثل: المعيار للونشريسي، كما يدرسون رجز المغيلي في المنطق و شروحه. و من العلوم الأخرى التي كانت تدرَّس في المنطقة: علم الخط، و التاريخ و التراجم، و التصوف، و السيرة النبوية، و الجغرافيا، و الحساب، و الهندسة، و الكمياء، و الفلك، و الطب، و الفلسفة و غيرها [7].

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص218.

([2]) نفسه، ص– ص 46–47.

([3]) محمود كعت، المصدر السابق، ص64.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص53.

([5]) التبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص607. وكفاية المحتاج، المصدر السابق، ص245. السعدي، المصدر السابق، ص38.

([6]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص، ص143، 607. وكفاية المحتاج، المصدر السابق، ص–ص239–245. البرتلي، المصدر السابق، ص32. محمد بن الطيب القادري، المصدر السابق، ص331. السعدي، المصدر السابق، ص38.

([7]) نفسه، ص46.عبد القادر زبادية، المرجع السابق، ص–ص124–125. نعيم قداح، المرجع السابق، ص–ص144–145.

(3)- الإجازات العلمية:عرفت الحياة الثقافية في بلاد السودان الغربي نظام الإجازات العلمية أو الشهادات (المعتمدة لإجتياز مرحلة الدراسات العليا أو التدريس)، و هي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب بعد تحصيله التام لفن من الفنون و يتم النطق بذلك الإقرار أو يُحرر على ورقة (وثائقية) تعطي للطالب المتخرج [1]. و قد تحدَّث الفقيه أحمد بابا عن حصوله على إحدى شهاداته من أستاذه الفقيه محمد بغيغ، بقوله: "**لازمته أكثر من عشر سنين فقرأت عليه بلفظي مختصر خليل و فرعي ابن الحاجب قراءة بحث و تحقيق و تحرير ختمتها عليه... و حضرت عليه التوضيح كذلك، لم يقتض منه إلى اليسير من الوديعة إلى الأقضية، و ختمت عليه الموطأ قراءة تفهم، و حضرته كثيراً في المنتقي و المدونة بشرح المحلّي ثلاث مرات وألفية العراقي في علم الحديث مع شرحهما و حضرتهما عليه مرة أخرى وختمت عليه تلخيص المفتاح مرتين و بعض الثالث بمحضر السعد و صغري السنوسي مع شرح الجرزية... و بالجملة فهو شيخي و أستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به و بكتبه، رحمه الله و نفعه، و أجازني جميع ما يجوز له و عنه و كتب لي بخطه في ذلك...**" [2].

و تنقسم درجات الإجازات العلمية التي كانت تمنح للطلبة في السودان الغربي إلى ثلاث درجات، هي: شهادة السماع، و تعني أن الطالب يتبع المادة التي ألقاها الأستاذ و حفظها، وشهادة العرض أي سرد الطالب على أستاذه و استذكاره للنصوص و معرفته بشروحها، ثم الإجازة الكاملة، و هي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع معها ذكر الأسانيد و إرجاعها إلى مصدرها الأول و ذكر الفروق في الروايات بعد الإلمام بفن معيَّن من الفنون[3].

و قد تتعد الموضوعات التي يتقنها الطالب و لكن الإجازة لا تعطي إلا في أحوال نادرة أي عندما يتأكد الأستاذ أن الطالب متمكن من مادة و أنه يتقنها إتقاناً تاماً، و يلاحظ مواظبته على دراستها و اهتمامه بها، و أيضاً عندما يطمئن الأستاذ إلى بلوغ الطالب مرحلة

Zouber, A. M: Ahmed baba de Tomboctou (1556-1627) Sa Vie et son Oeuvre, Maison neuve et La Rose, Paris,1977,p.p. 52-54.

(1) محمد الغربي، المرجع السابق، ص554.

(2) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص602. كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص-ص239-240.

(3) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص602. كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص-ص239-240. أحمد فتوح عابدين، الحواضر الإسلامية في غرب افريقيا في القرنين السادس عشر و السابع عشر، تاريخها السياسي و الحضاري و الاقتصادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث و الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1990، ص264.

التعليق و المناقشة و الاجتهاد، و يُكلف الطالب المُجاز أن يلقي درساً بمحضر أستاذه لتحصل لديه القناعة بحكم إجازته الذي سيصدره و الشهادة التي سيشهد بها [1].

و لا تعطى الإجازة أو ينطق بها لأكثر من شخص واحد ما لم تكن شهادة جماعية، و تتضمن الإجازة المكتوبة تصريحاً من المدرس أو الأستاذ بأن الطالب حضر عليه مواد متعددة و لكنه برع في مادة خاصة، ولذلك فهو يجيزه في جميع ما يجوز له إن كان للمدرس كتب من تأليفه و لا يجوز للمدرس إجازة الطالب في كتب من تأليف أستاذ آخر[2]، و قد اهتم علماء السودان الغربي بتلقي الإجازات العلمية من بعض علماء العالم الإسلامي الذين التقوا بهم خلال موسم الحج، وأثناء تلقيهم العلم مباشرة في المراكز العلمية و عن طريق المراسلة، و لم يقف الأمر عند ذلك بل قام بعض علماء السودان الغربي بإجازة تلاميذهم من أهالي المغرب و المشرق الإسلاميين[3].

و يجتهد أولئك الطلبة في الحصول على إجازات علمية مكتوبة من أساتذتهم لأن ذلك يفتح لهم الأبواب للتدريس أو لشغل وظائف أخرى في بلادهم[4]. و قد أُعطيت الإجازة مباشرة، كما سلف الإيضاح، أو عن طريق المراسلة، أي أن يقوم الطالب بمراسلة أستاذه الذي لم يتمكن من الجلوس إليه مباشرة لبعد الشقة بينهما، و يكون الأستاذ عارفاً بقدرات الطالب و نبوغه وبعد إطلاعه على مؤلفاته. و من أمثلة الإجازات التي تلقاها علماء السودان الغربي مراسلةً: الإجازة التي تلقاها أحمد بابا –مراسلة– من قِبل الإمام يحي بن محمد الحطاب، نزيل مكة المكرمة، و قد أشار أحمد بابا إلى تلك الإجازة أثناء حديثه عن إجازته التي منحها للفقيه أحمد المقري، الذي نقلها في كتابه: (روضة الآس) [5].

و لم يقف الأمر عند تلقي علماء السودان الغربي إجازات علمية عن طريق المراسلة، بل قاموا هم أنفسهم بمنح إجازات علمية عن طريق المراسلة لبعض تلاميذهم، و من أمثلة ذلك: الإجازة التي منحها أحمد بابا –مراسلة– لتلميذه عبد الرحمن التمنرتي، الذي سبق لأحمد بابا أن سمع بأخباره و علمه و تقواه أثناء إقامة الأخير في مراكش. و كان الفقيه عبد

---

(1) السعدي، المصدر السابق، ص46. أحمد فتوح عابدين،المرجع السابق، ص264.

(2) نفسه، ص265.

(3) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص-ص114-148.

(4) أحمد فتوح عابدين، ص255.

(5) المقري، المصدر السابق، ص311.

الرحمن التمنرتي و قبل حصوله على هذه الإجازة قد ولّي القضاء و اشتهر بالإفتاء و الاجتهاد، ما جعل أخباره العلمية معروفة لدى أستاذه أحمد بابا التنبكتي[1].

و توضح لنا هذه الإجازات بمختلف أنواعها ومصادرها على حرص علماء وفقهاء السودان الغربي على الاستفادة و الإفادة والاستزادة من العلوم النقلية أو الشرعية عملاً بالقول المأثور: "**الحكمة ضالة المؤمن أنّي وجدها أخذها**"[2].

و لكن المُلفت للإنتباه أن كل الإجازات التي أطلعنا عليها أو عرفناها أو سمعنا بها عبارة عن إجازات في العلوم النقلية و منها في القلب الشرعية، فلم نرَ إجازات في العلوم التطبيقية كالكيمياء أو الفلك و إلى غير ذلك حتى لم نجد إجازات في بعض العلوم الاجتماعية كالجغرافيا، و إن وجدنا في التاريخ و التي كانت تحت مُسمى آخر، فقه التراجم و السير، و التي لم تخرج عن عباءة علم مصطلح الحديث أيضاً، في نقد الراوي و الروية أو المتن و أسانيده، و إن وجد تاريخ اليوم فربما من وضعه لم يتحسس يوماً أنه سيصبح تاريخاً مثل الفتاوى و النوازل وموضوعات الحياة اليومية من خلال المعاملات الدينية...

و لكن لابد لنا أن نقول إن الإجازات كانت في علوم اللغة العربية و آدابها، و علوم القرآن، و علوم الحديث، و السيرة، و علوم التفسير، و علوم الصوفية و علم الكلام و المنطق...إلى غير ذلك، و لهذا فإن نماذجنا لتلك الإجازات كلها ستؤدي إلى موضوع دراستنا العلوم الشرعية حتى ولو في علم اللغة وآدابها كالنحو، و العروض، و الأدب، لأنها في الأخير ستمثل بالفعل علوم مساعدة أساسية لفهم العلوم الشرعية.

(4)- الكتب والمكتبات: لقد تدفقت الكتب التي تحوي العلوم العربية الإسلامية، و خاصة العلوم الشرعية على بلاد السودان الغربي من بعض أنحاء العالم الإسلامي و خاصة بلدان المغرب، و كان يتم نسخها وبيعها في مختلف أرجاء المنطقة وكانت تلقى رواجاً في فترة هذه الدراسة و ما بعدها، وقد أشار إلى ذلك الحسن الوزان، الذي لاحظ وفرة أعداد المخطوطات و الكتب المنسوخة بالسودان الغربي، و أنها تدرّ أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع التي تتم المتاجرة فيها [3]، و كانت أثمان الكتب المنسوخة في السودان الغربي مرتفعة بالقياس إلى

([1]) أبي زيد عبد الرحمن التمنارتي، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان،2007، ص34. محمد حجي، المرجع السابق، ص108.

([2]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص231.

([3]) حسن الوزان، المصدر السابق، ص167. إبراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، المرجع السابق، ص152.

أثمانها في بلاد المغرب الإسلامي، و ذلك في فترة الدراسة وما بعدها، و ما يؤكد ذلك ما ورد في كتاب الفتاش من أنه قد بيعت نسخة من قاموس عربي في مدينة تنبكت بثمانين مثقالاً من الذهب[1]. و قد تحدث الحسن الوزان عن توافد الكتب والمخطوطات على بلاد السودان الغربي من بلاد المغرب الإسلامي، بقوله: "...**و تباع ايضاً مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر**"، و يقصد بها بلاد الشمال الإفريقي، و يدل هذا النص على أن المؤثرات الحضارية قد توافدت على بلاد السودان الغربي من الشمال الإفريقي؛ كما أنه يدل أيضاً على أنه كان في بلاد السودان الغربي إقبال كبير على التحصيل وحب الاطلاع و الثقافة الفكرية و اقتناء الكتب وخاصة الشرعية منها، وعلى كثرة العلماء والمُعلمين و طلاب العلم، و يقول الحسن الوزان: "...**و في تمبكتو عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة، يدفع الملك إليهم جميعاً مرتباً حسناً، و يُعظم الأدباء كثيراً**..." [2]. و يدل هذا النص التاريخي كما هو واضح على مكانة العلماء في المجتمع السوداني، و لكن العلماء الذين يشتغلون في العلوم الإسلامية و ما تفرع عنه من العلوم العقلية و النقلية، و الذي يرتبط بالدين الإسلامي **بكتاب الله و سنة رسوله (صلى الله عليه و سلم) فقط.**

و من أشهر المكتبات الخاصة التي عرفت في فترة الدراسة هي مكتبة آل أقيت التي اقتنوها من التجار و مما كان يجلبه الحجيج معهم من المشرق العربي، و تظهر قرائن الأحوال أن مكتبة آل أقيت المشتملة على مختلف صنوف المعارف قد نُقلت-أو بعضها على الأقل-إلى مراكش عند ترحيل آل أقيت إليها عقب امتداد الحكم المغربي على السودان الغربي[3].

كما كان للفقيه محمد محمود بغيغ مكتبة خاصة زاخرة بنفائس الكتب و المخطوطات و كان لا يقفل أبوابها في وجه طلاب العلم كما يوضح أحمد بابا[4]. و لم يقف الأمر في اقتناء المكتبات الخاصة عند العلماء و الأثرياء و التجار، بل امتد الأمر إلى حكام المنطقة، فها هو الأسكيا داوود يقتني نفائس المخطوطات و ينشئ خزانة كتب في منزله، و قد رتَّب عدداً من النساخ لينسخوا له الكتب الجديدة النادرة، و كان يهدي بعضها للعلماء مثل

([1]) محمود كعت، المصدر السابق، ص108.

([2]) حسن الوزان، المصدر السابق، ص167.

([3]) امطير سعد غيث، المرجع السابق، ص-ص233-234.

([4]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص600. كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص238.

القاموس المحيط الذي قدمه هدية للفقيه محمود كعت[1]، و من الأساكي الذين اهتموا بإنشاء المكتبات أسكيا محمد فكان جامعاً للكتب وافر الخزانة، وقد حوت مكتبته الخاصة رسالة أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي، والجامع الصحيح للإمام مسلم والشفا للقاضي عياض والمحكم لابن سيدة الأندلسي، وقد نُسخت هذه الكتب في أواخر القرن العاشر للهجرة/السادس عشر للميلاد، وكان له مجلس من النساخ يرأسه العالم أحمد بن دنبل الفلاني (ت 995هـ/1586م). [2]

و كانت عملية جلب الكتب من الشمال الإفريقي والمشرق العربي عملية مستمرة، لأن الإنتاج العلمي في السودان الغربي لم يكن بمستوى الوفرة كالتي عليها بقية مناطق العالم الإسلامي مثل المغرب و مصر والحجاز وغيرها، و لذا أصبحت عملية نسخ الكتب و المتاجرة فيها عملية رائجة في بلاد السودان الغربي، و كان الحكام، و العلماء، و التجار يكلفون النساخ بتولي نسخ الكتب و المخطوطات، و من ثم يتم توزيعها على المشائخ و المتعلمين[3].

المطلب الرابع: أساليب التدريس و التقويم لعلماء السودان الغربي و تأثره بعلماء بلاد المغرب:

(1)- أساليب أو طرق التدريس والتعليم: تعددت طرق التدريس و تنوعت في السودان الغربي، فما هي؟

أولاً: أسلوب التلقين أو الترديد: و يطبق هذا الأسلوب على المبتدئين من التلاميذ الذين لا يجيدون القراءة و لا الكتابة، و يُلْجَأُ له غالباً في تدريس القرآن و حفظه في الصغر[4] و من الغريب أنك ترى أحياناً من يحفظ القرآن بهذا الشكل دون أن يعرف القراءة و لا الكتابة.

ثانياً: أسلوب الكتابة: و هذا الأسلوب يتبع غالباً في مرحلة ما بعد التلقين أي في "المرحلة المتوسطة" حيث يستطيع الطالب أن يكتب.

---

(1) محمود كعت، المصدر السابق، ص94.

(2) السعدي، المصدر السابق، ص215.

(3) أحمد فؤاد بلبع، مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة، المجلس الأعلى للثقافة، 2003م، ص100. محمود كعت، المصدر السابق، ص، ص99، 108.

(4) مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص615.

ثالثاً: أسلوب العرض: أو ما يسمى بالقراءة على الشيخ عند المحدثين ، و كان هذا الأسلوب مستعمل في السودان الغربي بدليل ما يذكره بعض المترجمين عن ترجمة بعض شيوخهم كقول أحمد باب في ترجمة شيخه محمد بغيغ: "...**ختمت عليه مختصر خليل بقراءتي وقراءة غيري عليه نحو ثمان مرات...وكثيراً من تحفة الحكام لابن عاصم مع شرحها لابنه كلها بقراءتي...**"[1]. وغير ذلك من العبارات التي تدل على أن هذا الأسلوب كان متبعاً في السودان الغربي [2].

رابعاً: أسلوب الشرح: و هذا الأسلوب السائد في المرحلة الثانوية وما بعدها من مراحل متقدمة. **خامساً: أسلوب السماع:** و مما يبين أن هذا الأسلوب كان متبعاً في السودان الغربي ما يتردد على لسان أحمد بابا في ترجمة شيخه مثل قوله: "...**قرأت عليه صحيح البخاري نحو النصف و سمعته بقراءته...و سمعت بلفظه جامع المعيار للونشريسي كاملاً..**" [3]، و يقول في ترجمة والده "...**وسمع-أي بغيغ- بقراءته الصحيحين والموطأ والشفا...**" [4]، و غيرها من العبارات التي تؤكد أن هذه الطريقة كانت مطبقة في المنطقة، و هو لا زال شائعاً في منطقة السودان الغربي وخاصة في البوادي التي لم تتطور فيها الكتابة، بل يعتمدون على الحفظ أكثر من التوثيق. **سادساً: أسلوب الأملاء:** و صورة هذا الأسلوب أن الأستاذ يملي على الطالب بعض المسائل العلمية المهمة، فيقوم الطالب بتدوين ما يمليه عليه الشيخ في كراسة. و يحق له أن يروي ما يدونه عن أستاذه أو شيخه، و ربما أُعطيت إجازة علمية بجواز رواية ما دونه من شيخه، و في هذا الصدد قيد بعض طلاب أحمد بن أحمد أقيت بعض ملاحظاته و تعليقاته -التي يمليه عليهم- على بعض النصوص الفقهية في سفرين[5].

سابعاً: أسلوب المراسلة: و من هذا الأسلوب أيضاً أن يرسل التلميذ إلى أستاذه البعيد عنه يستفتيه فيما أشكل عليه من المسائل العلمية فيجيبه خطياً، و يدخل في هذا الإطار رسائل أحمد بابا إلى يحي بن الحطاب في بعض ما استشكله[6]، ورسائله إلى علماء مصر،

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص56.

([2]) مهدي رزق الله، المرجع السابق ص615.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص46. البرتلي، المصدر السابق، ص30.

([4]) نفسه، ص30. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص616.

([5]) السعدي، المصدر السابق، ص38. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص616.

([6]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص639.

و رسائل التواتي إلى أحمد بابا في قضية استرقاق العبيد، و رسائل ابن أبي محلة إلى أحمد بابا في حكم طابا ورسائل أبي عبد الله محمد بابا بن محمد الأمين إلى محمد بغيغ في بعض القضايا الفقهية[1]، و غيرها من الرسائل التي تؤكد أن هذا الأسلوب كان متبعاً في السودان الغربي.

ثامناً: أسلوب الإجازة: و صورته أن يأذن الأستاذ لتلميذه أن يروي عنه مؤلفاته أو مسموعاته و لو لم يسمعها منه، و لم يقرأها عليه[2]، و لا يتم هذا الأمر إلا بعد ما يتأكد الأستاذ أن الطالب قد وصل مرحلة عالية من العلم تؤهله لأن يؤدي ما حمله من العلم بدقة وأمانة.

و يلمس هذا النوع من الأسلوب في قول أحمد بابا في ترجمة شيخه: "... **و أجازني جميع ما يجوز له و عنه.....**" [3]. و في هذا الإطار طلب التمنارتي من أحمد بابا أن يجيزه في رواية مروياته، فأجازه أحمد بابا إجازة عامة. [4].

تاسعاً: أسلوب الحوار والمناقشة: و هذا النوع من أساليب التدريس تدور أحياناً في بعض المجالس العلمية في السودان الغربي، بل أن الأستاذ-أحياناً- إذا رأى أن ما يذهب إليه الطالب أقرب إلى الصواب لا يتردد في الأخذ به، و بيان ذلك أثناء تدريسه، و يؤكد هذا ما قاله أحمد بابا عن شيخه بغيغ... [5]. هذه هي بعض الأساليب التي توصل إليها البحث من من خلال كتب التراجم و النوازل و التاريخ لمنطقة السودان، و حاصل الحديث أن أسلوب التدريس على كافة أشكاله و عديد مستوياته في المنطقة لا يختلف في شكله العام عما كان عليه الأمر في الغرب الإسلامي وخاصة المغرب الأقصى الذي يعد المرآة المصقولة للسودان الغربي، إذاً فلا عجب أن يكون التدريس في السودان الغربي و في المغرب وجهين لعملة واحدة وإن اختلفا في بعض التفاصيل [6].

([1]) مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص616.

([2]) صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه،(د.ط)، بيروت، (د.ت)، ص95.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص46. البرتلي، المصدر السابق، ص32.

([4]) انظر مخطوط الفوائد الجمة لعبد الرحمن التمنارتي، مخطوط بالخزانة العامة بالمغرب تحت رقم 3693 د، ص-ص210-213، نقلاً عن عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص171.

([5]) السعدي، المصدر السابق، ص46. البرتلي، المصدر السابق، ص32. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص616.

([6]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص-ص171-172.

(2)- أساليب التقويم: عرفت الحركة العلمية عدة أساليب لتقويم المستوى العلمي لطلبة العلم، و تختلف أهمية هذه الأساليب حسب قوة مصدرها، و من هذه الأساليب الإجازة ترشيح الشيخ للتلميذ للإقراء في مجلسه والاختبار.

أ-الإجازة: ففي العصور الماضية كان العلماء والطلبة يسعون إلى حصول الإجازة من العلماء المتضلعين الذين اعترف لهم أهل عصرهم بعلو الكعب و الرسوخ في العلم، و هذه الإجازة بمثابة شهادة علمية في عصرنا الحاضر، و هي أيضاً أسلوب من أساليب تقويم مستوى الطالب العلمي، فبقدر تضلع العالم المجيز و تبحره في العلوم التي يدرسها، وعلو كعبه فيها بقدر ما تعظم قيمة إجازته لدى أهل العلم، و هذا يعني أن الإجازة تستمد قيمتها من مكانة العالم المجيز و مستواه المعرفي و التلقي [1].

و الإجازة عند الإصطلاحيين هي "**إذن الشيخ لتلميذه برواية مسموعاته أو مؤلفاته، و لو لم يسمعها منه و لم يقرأها عليه و ذلك بقوله: أجزت لك أن تروي عني الكتاب الفلاني أو ما صح عندك من مسموعاتي**"[2]. و لأهمية الإجازة اشترط العلماء "**أن يكون المجيز عالماً لما يجيزه، ثقة في دينه وروايته، معروفاً بالعلم، وأن يكون المجاز من أهل العلم متسماً به...**" [3]. ونظراً لقيمتها العلمية أيضاً ذهب بعض العلماء إلى أنه لا غنى لطالب الحديث عنها خاصة وطالب العلم بصفة عامة. بل كان يعتبرونها "**من أنفس الحليات ويعتقدونها رأس مال الطالب و يرون أن من عدمها المغلوب غير الغالب فإذا ذكر حديثاً قراءة أو معني ما أو رواية قالوا: أين إسناده و على من عماده، فإن عدم سنداً ترك سدى ونفي قوله ولم يعرف فضله**"[4]. ومن أجل هذا "**تسابق العلماء و الأئمة و الملوك إلى نيل الإجازة والحصول عليها وطلبها، وصار الحصول عليها أمنية مُحببه ومقصداً مطلوباً من جميع الطبقات، حتى كانوا يبذلون النفس و النفيس و يرحلون المسافات الطوال من أجل الحصول على إجازة عالم في كتاب أو حديث أو نحوهما...**"[5].

و تعتبر الإجازة من أهم أساليب تقويم مستوى طالب العلم؛ و لهذا اهتم بها علماء السودان، فقد طلب كثير منهم من علمائهم المشارقة الإجازة، و هم بدورهم أجازوا كل من

---

(1) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق ، ص172.

(2) ابن الصلاح، مقدمة ابن الصلاح (سلسلة علوم الحديث،الحديث النبوي)، مطبعة السعادة، ط1، مصر، 1326هـ، ص110. يوسف الكتاني، المرجع السابق، ص129.

(3) ابن الصلاح، المصدر السابق، ص111. يوسف الكتاني، المرجع السابق، ص135.

(4) نفسه، ص131.

(5) نفسه.

يرون من طلبة العلم أنه يستحق الإجازة. على أن الإجازة لا تقدم للطالب إلا بعد ملازمة طويلة للشيخ، الأمر الذي يؤكد على أن الإجازة من أهم أساليب التقويم، و من نماذج هذه الإجازات: إجازة أبي البركات النويري لمحمد بن أحمد التازختي لما حج و إجازة ناصر اللقاني للعاقب ابن محمود اقيت و إجازة الفقية الزموري للمختار النحوي و إجازة محمد بغيغ لأحمد بابا، حيث يقول بعدما ذكر مجموعة من الكتب التي درسها عنده "...**و أجازني بخطه جميع ما يجوز له وعنه**..." [1]. و إجازة يحي الحطاب لأحمد بابا مكاتبه[2]. و غيرها من الإجازات التي تؤكد أن علماء السودان اهتموا بها كثيراً لتقويم مستوى الطلبة.

ب- ترشيح الشيخ لتلميذه للإقراء في حلقته:... و من الذين نابوا عن أساتذتهم بعد وفاتهم الشيخ محمد بغيغ حيث ناب عن شيخه أحمد بن أحمد أقيت بعد وفاته و ناب السيد منصور الفزاني عن شيخه أبي القاسم التواتي في حلقته بعد وفاته. ولما توفي هو أيضاً ناب عنه تلميذه إبراهيم الزلفي في حلقته [3]. و هذا النوع من التقويم كان موجوداً في المنطقة حتى عهد قريب، إذ يفوض بعض الأساتذة أو الشيوخ أمر مجلسهم عند غيابهم لأحد طلابهم ليواصل في إحيائه أثناء غيابه إلى أن يرجع، أو يوصي بعض طلابه أن يواصلوا في أحياء مجلسه بعد وفاته، و لا شك أن ثقة الشيخ بتلميذه إلى درجة يجعله ينوب عنه في مجلسه عند غيابه، يدل على أن الشيخ اطمأن إلى مستوى تلميذه العلمي و المعرفي، و أنه يمكنه أن يؤسس حلقة أو مجلساً آخر لنفسه يلقي فيه ما أتقنه من العلوم، و أعتقد أن هذا النوع من التقويم من أهم أساليب التقويم، و هو غالباً ما يكون قبل الإجازة [4].

ج- الإمتحان أو الإختبار: و من أساليب التقويم في السوداني الغربي، الإختبار أو الإمتحان...و إنما يتم تقويم مستوى الطالب بواسطة اختباره فيما درسه، و هو إمتحان مستمر في كل الأوقات، حيث كلما أتقن فناً أو درساً لا ينتقل إلى آخر إلا بعدما يمتحنه فيه، و هذا الامتحان قد يكون حل إشكال فقهي أو لغز أو غيرهما، فإذا خرج الطالب من هذا الإمتحان سالماً بدون ارتباك أو خطأ عد متقناً لما درسه فيجيزه الشيخ وهكذا.

---

(1) السعدي، المصدر السابق، ص-ص39-41، ص65، 46. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص623.

(2) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص639.

(3) السعدي، المصدر السابق، ص، ص43، 58.

(4) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص-ص174-175.

و خلاصة القول أن من أهم أساليب التقويم في السودان الغربي، اختبار الطالب فيما درسه و إجازته، و ترشيحه للإقراء في مجلس شيخه أو مجلس آخر.[1]

المبحث السادس: آثار الحركة العلمية و الشرعية و تقييمها العلمي و المنهجي:

بعدما ما رأينا فيما مضى نشأة العلوم الشرعية و الفقه الإسلامي في المنطقة و ازدهاره، و الميادين التي ازدهر فيها، و المراكز التي انتعشت فيها الحركة العلمية و الفقهية، و أهم الكتب المتداولة، و طرق تدريسه و أساليب التقويم، سنحاول أن نبين في هذا المبحث أهم ما خلفته الحركة العلمية و الفقهية في المنطقة من آثار ثم نقوم بتقييمها.

المطلب الأول: آثار الحركة العلمية و الشرعية: خلفت الحركة العلمية و الفقهية في السودان الغربي عدة آثار علمية و فقهية من كتاب و نوازل و رسائل فقهية و وثائق للحديث وعلوم القرآن والتفسير وغيرها ، و كان لها أثر طيب في تكوين الأجيال في المنطقة علمياً و فقهياً.

(1)- في مجال التأليف: تركت الحركة العلمية و الفقهية عدة آثار علمية و فقهية من مؤلف مستقل، و شروح، و حواشي، و رسائل فقهية، و تقريرات، أو تعليقات، لكل ما يخص العلوم الشرعية، و من هذه الآثار مؤلفات أسرة أحمد بابا، و أسرة بغيغ، و أسرة السيوطي، و كورد الفلاني، و المجتهد، و زنكتو، و مغيا، و أندغ محمد، و كعت، و السعدي... و نذكر من هذه المؤلفات المخطوطات ، و التي عَدَّدَها عبد الرحمن ميغا بحوالي سبعة و أربعين مؤلفاً مخطوطاً، و استطاع حصر جزء منها على سبيل المثال و ليس حصرا [2]؛ و لكن المهم أن أماكن تواجدها في الخزانات المغاربية بأرقام مسلسلة، و يغلب على خطها و أسلوبها و تفسيرها و إلى غير ذلك الطابع المغربي.

(2)- في مجال النوازل أو الفتاوى:.. و من هذه النوازل أو الفتاوى: فتاوى أسرة أقيت و فتاوى أسرة بغيغ و فتاوى كورد الفلاني و فتاوى أسرة مغيا و المجتهد و السيوطي و زنكنو و السعدي وكعت و أندغ محمد و محمد بابا بن محمد الأمين.. و غيرها من الفتاوى؛ على أن ما ينبغي الإشارة إليه هنا أن مجموعة من هذه الفتاوى قد ضاعت أو أحرقت أثناء الفتن و الاضطرابات التي اجتاحت المنطقة و لم يبق منها إلا نتف يسيرة.

---

(1) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص175.

(2) نفسه ، ص-ص176-180.

و قد حاول أحد العلماء المعاصرين أن يجمع بعض هذه الفتاوى في كتاب ضخم يتكون من أربعة أجزاء سماه نوازل التكرور على غرار المعيار للونشريسي، و يوجد كثير من هذه الفتاوى في مركز أحمد بابا و بعض المكتبات الخاصة و العامة في منطقة السودان الغربي و خزانات بلدان المغرب الإسلامي و خاصة المغرب الأقصى، و قد عدد عبد الرحمن ميغا من هذه الفتاوى التي استطاع حصرها فقط حوالي اثنين وخمسين فتوى و نازلة و أجوبة[1] يغلب عليها أيضاً الطابع المغربي من النشأة و حتى الازدهار و من البسملة و حتى خواتمها و من الشكل إلى الموضوع و المضمون، و تقريباً نفس المنهج المتبع في الكتاب و السنة في أساسها، و نفس القضايا و الإشكالات المجتمعية و طرق حلها شرعياً و فقهياً.

المطلب الثاني: تقييم آثار الحركة العلمية و الشرعية: بعد ما رأينا مخلفات الحركة العلمية للعلوم الشرعية و الفقهية من كتب و شروح و حواشي و تقريرات و نوازل و رسائل و وثائق فقهية، سنحاول أن نقومّ هذه الآثار و نبين بعض محاسنها و مساوئها أو إيجابياتها و سلبياتها.

(1)- المستوى الكمي (التقليدي): إذا نظرنا إلى المؤلفات التي خلفتها الحركة العامة لنشر العلوم الشرعية - و التي تبلغ المئات و المئات- يتجلى لنا أن علماء السودان المتأثرون بحركة العلوم الشرعية المغاربية قد أسهموا بشكل فعّال في إثراء تلك العلوم الشرعية في المنطقة و على رأسها الفقه الإسلامي حيث ألفوا عدة مؤلفات في المجالات الشرعية كانت معتمدة لدى طلاب العلم وأهله في المنطقة، كما شرحوا عدة كتب للعلوم الشرعية و الفقهية، لكن شرحهم تركز أساساً على مختصر خليل الذي كان عمدة المفتين و القضاة في الفتوى و القضاء في ذلك العصر؛ كما وضعوا عليه عدة حواشي، ومن أهم هذه الحواشي التي حظيت باهتمام علماء المغاربة و السودان حاشية أحمد باب المسمى بمنن الرب الجليل، حيث كانت هذه الحاشية من الحواشي المعتمدة في المذهب المالكي في الصور المتأخرة [2].

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا،المرجع السابق، ص-ص180-185.

([2]) الملك مولاي عبد الحفيظ، المنهل العزب، السلسبيل في حل ألفاظ خليل، مطبعة أحمد يمني، فاس، 1326هـ، ص- ص 64-65.

و إلى جانب هذه الشروح والحواشي وضعوا عليه عدة تقريرات أو تقييدات بينوا فيها الهفوات التي وقع فيها بعض شراح مختصر خليل، و تعد هذه التقريرات بالعشرات و إن لم نقل بالمئات.

أما من حيث الفتاوى و النوازل فإن الحركة الفقهية خلفت مئات من الفتاوى التي ما زال بعضها موجوداً إلى الآن.

أما من حيث الوثائق الفقهية فإن الحركة الفقهية تركت عدة وثائق تبين المعاملات و القضايا التي كانت تجري بين الناس من تجارة و شراء و بيوع و نكاح و عتق.. ما بين القرنين الخامس و العاشر الهجريين.

و قد أدى هذا الإنتاج الكمي للعلوم الشرعية والفقهية في دوره الكامل في وقته حيث سد فراغاً كبيراً كان موجوداً في ذلك الوقت، و يكفي لهذا الإنتاج فخراً انه استطاع أن يحل المشاكل و الظروف التي كانت قائمة آنذاك.. كما أنه كان مرجعاً لمختلف طبقات علماء السودان في عدة قرون، كما حفظ لنا كثيراً من القضايا التي كانت تجري في المنطقة، و يعتبر هذا الإنتاج من أهم مظاهر الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي. [1]

(2)- المستوى الكيفي (الجدية والابتكارية): ذكرنا أن الحركة الإنتاجية لنشر العلوم الشرعية تركت آثاراً كثيرةً تعد بالمئات و المئات من حيث الكم، لكن من حيث الجدة و الابتكار فإننا نرى أن الحركة العلمية لم تضف شيئاً جديداً على تلك العلوم الشرعية المغاربية الأصل. و هذا الأمر يرجع إلى الوضع السائد في ذلك الوقت، حيث أن العلماء منذ القرن الخامس الهجري لم يضيفوا شيئاً جديداً على هذه العلوم الشرعية الآتية من بلاد المغارب و إنما يكررون ما قاله الأوائل بطريقة أخرى، و لهذا لا يمكن أن نعتبر عدم إضافة شيء جديد على العلوم الشرعية المغاربية أمراً خاصاً بعلماء السودان الغربي وحدهم بل بقيت العلوم الشرعية المغاربية في انتشارها على قالبها و طابعها التقليدي منذ بدايتها في بلدان المغرب/بلاد المنشأ و حتى ما بعد القرن العاشر الهجري.

و ما يمكن قوله أن الحركة العلمية في السودان الغربي و إن لم تضف شيئاً جديداً على صرح العلوم الشرعية من حيث الابتكار و الإبداع، فإنه يكفيها فخراً أنها حاولت تبسيط تلك العلوم لطلاب العلم و حل القضايا المطروحة في المنطقة آنذاك في مجالات متعددة

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص186.

و على رأسها الأحوال الشخصية و غيرها؛ و هكذا نرى أن إنتاج الحركة العلمية في المنطقة استطاع أن يسد فراغاً كبيراً و يحل مشاكل بطريقة شرعية و أن ينير الطريق لأجيال متعددة التي لا زالت تنهل من معينه الصافي الذي لا ينضب، كما أن علماء السودان الغربي قدموا خدمة جليلة للثقافة العربية الإسلامية قلما نجد من قام بها في إفريقيا السوداء، و منها انطلقت هذه الثقافة إلى المناطق المجاورة [1].

و الخلاصة: أن الحركة العلمية الشرعية في السودان الغربي استهلت صارخة على أيدي التجار و الدعاة الذين زاروا المنطقة منذ القرون الهجرية الأولى ثم تربت في حجر بعض علماء المغاربة و المشارقة و السودان الذين استوطنوا المنطقة خلال القرن السادس و السابع و الثامن، ثم ترعرت و بلغت أشدها في نهاية القرن الثامن و بداية القرن التاسع برعاية العلماء و حكام مالي، ثم نضجت و آتت ثماراً طيبة خلال القرن العاشر بعناية الأسكيين و العلماء، ثم توقف نموها في القرن الحادي عشر الهجري فترة من الزمن... على أن الحركة العلمية الشرعية ازدهرت في عدة ميادين و برزت فيها عدة اتجاهات، و ظهرت في السودان مراكز علمية لعبت دوراً كبيراً في إيواء الحركة العلمية و عناصرها، لا يقل دورها عن العواصم الإسلامية الأخرى في المغرب و المشرق و الأندلس، في النهضة العلمية في العالم الإسلامي.

كما اعتمدت الحركة العلمية في السودان على مصادر متنوعة و وسائل عدة لتقويم مستوى الطلبة، و خلفت آثاراً مهمة لا زال جلها أو كلها مخطوطاً ينتظر من يقوم بخدمتها. [2]

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق ، ص-ص186-187.

([2]) نفسه ، ص-ص187-188.

الفصل الخامس:

الحراك العلمي الفقهي و أثره في نظام الحكم في السودان الغربي سنغاي (أنموذجاً) في الفترة ما بين:

(869–899)هـ/ (1464–1493) م

الفصل الخامس:الحراك العلمي الفقهي و أثره في نظام الحكم في السودان الغربي سنغاي (أنموذجاً) في الفترة من (869-899)هـ/ (1464-1493) م:

المبحث الأول: مكانة العلماء في السودان الغربي و ألقابهم:

سوف نتناول في هذا المبحث مكانة العلماء في المجتمع السوداني في الحياة العامة و الخاصة بالسودان الغربي و ألقابهم؛ كما سنقدم نبذة مختصرة عن أهم العلماء الذين أسهموا في نشأة الحركة العلمية و الفقهية و نموها و ازدهارها في المنطقة ، و الذين تركوا بصمات واضحة على الحركة العلمية والفقهية.

فقد حظي العلماء في المجتمع السوداني الغربي بمكانة مرموقة، و احترام كبير فهم ورثة الأنبياء، و قد أدت مكانتهم في المجتمع و احترام الناس لهم، إلى إعطائهم ألقاباً خاصة تميزهم عن غيرهم. كما أن هذه المكانة العالية التي أذاعت شهرتهم في سماء العلم، جعلت دورهم لا يقتصر على التدريس فحسب، بل شمل مجالات أخرى، لما يتمتعون به من ثقة و احترام لدى العامة و الخاصة، و من المجالات التي شارك فيها العلماء للإسهام في الحياة العامة و الخاصة في السودان الغربي: القضاء، و الإمامة، و الخطابة، و السفارة في الأغراض المختلفة، و الإشراف على مشروعات الدولة و غيره من الوظائف التي أُسندت إليهم لثقة المجتمع بهم.[1]

المطلب الأول: مكانة العلماء : و نجد المكانة المرموقة و الإحترام الكبير الذي حظي به العلماء في المجتمع السوداني يتجلى لنا عندما يتحدث محمود كعت و أحمد بابا و عبد الرحمن السعدي عنهم ، حتى أنه يُخيل إلى القارئ أن سلطة العلماء أعظم من سلطة الحكام لما يتمتعون به من امتيازات و تقدير إلى حد التقديس[2]. و هؤلاء ملوك الماليين لشدة احترامهم للعلماء، يتواضعون لهم ولا يسمحون لأحد لبس الطيلسان في غير أيام العيد إلا العلماء [3]، و هذا أسكيا الحاج محمد الكبير لما وصل إلى الحكم سنّ قانوناً يسقط عن العلماء بموجبه وظائف الدولة و غراماتها، و لا يطالب أحد منهم بشيء من ذلك، ومنع عنهم ظلم الحكام، و إذا دخل عليه العلماء قام لهم إجلالاً وتقديراً وأجلسهم على سريره.. [4].

([1]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص193.

([2]) نفسه، ص-ص195-196.

([3]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص668.

([4]) محمود كعت، المصدر السابق، ص73.

و سار على هذا النهج جميع أو أغلب خلفائه في المنطقة حتى أصبح سنة متبعة، و علاوة على هذا فإن شفاعتهم تقبل في جميع الأحوال لدى السلاطين و من دونهم، و يأمن كل من احتمى بدار أحد العلماء من عقاب السلاطين أو الحاكم[1].

و قد وصل احترام المجتمع للعلماء حد المبالغة، حيث اعتقد فيهم الولاية و نسبوا لهم كرامات ترفعهم إلى مصاف الأولياء أو الأنبياء ويقيمون الأضرحة لمن مات منهم ويزورونها[2]، فالعلماء في السودان الغربي، و في تنبكت خاصة يشكلون النخبة التي لا راد لقضائها و لا مُعقب لحكمها، بيدهم الحل والربط، فهم قلب المجتمع النابض و مُحركه و أمرهم نافذ في جميع الظروف[3]. و هذا أسكيا دواد أيضاً الذي عرف باحترام العلماء و التواضع لهم يقول: "**لولا العلماء لكنا من الهالكين...**" [4].

و مما يدل على مكانة العلماء أيضاً مجاهرتهم بالحق تجاه السلاطين دون خوف، و في هذا الصدد نجد الفقيه محمود بغيغ يجهر بالحق أمام أسكيا إسحاق دون خوف[5]. و هذا الفقيه القاضي محمود بن عمر أقيت يقول عنه أحمد بابا في ترجمته: "**...لا يخاف في الله لومة لائم...**"[6].

و لا شك أن هذه النصوص التي ذكرنا و غيرها مما لم نتمكن من سردها تؤكد أنه كانت للعلماء مكانة و مراكزا مرموقةً في المجتمع السوداني، و أن سلطتهم كانت تضاهي سلطة الحكام والسلاطين أو تفوقها. وهكذا يظهر أن فئة العلماء في المجتمع السوداني تمثل القلب النابض للمجتمع، الذي إذا توقفتِ شُلت الحركة، و لذا فإنهم يستحقون كل تقدير و إجلال [7].

و نظراً لهذه الامتيازات التي يحظى بها العلماء في المجتمع السوداني فإنه ليس من العجب أن نرى جميع فئات المجتمع يخضعون لهم، و إذا وقعت حادثة بينهم وبين أحد فإن

---

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص671. محمود كعت، المصدر السابق، ص178. السعدي، المصدر السابق، ص، ص83، 130. مجهول، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان، المصدر السابق، ص138.

(2) السعدي، المصدر السابق، ص50.

(3) نفسه، ص59. مجهول، تذكرة النسيان، المصدر السابق، ص–ص112–113.

(4) محمود كعت، المصدر السابق، ص113.

(5) نفسه، ص89.

(6) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص–ص607–608. السعدي، المصدر السابق، ص38.

(7) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص–ص198–199.

ضمير هذا الأخير لا يطمئن حتى يستشفع عندهم و يطلب الصلح خوفاً مما قد يلحقه من سوء العاقبة و اللعنة[1]. و من تصفح تاريخ الفتاش و نيل الابتهاج و تاريخ السودان و تذكرة النسيان وقف على كثير من أمثال هذه الحوادث التي تنتهي في أغلبها أو كلها لصالح العلماء.

المطلب الثاني: ألقاب العلماء:

عرفت الحياة العلمية في السودان معايير دقيقة لبيان درجة العالم و مكانته العلمية، و تمكنه مما يحمل من علم و حجته فيه. و هذه المعايير الدقيقة التي تبين درجة العالم و مكانته العلمية هي التي تسمى الألقاب العلمية، و هي مصطلحات علمية متداولة بين العلماء تبين درجة كل واحد منهم ومكانته، و من هذه الألقاب العلمية المعروفة في الحياة بالسودان الغربي و التي لا تختلف عما هو سائد في العالم الإسلامي ما يلي:

(1)-الإمام: و من العلماء الذين أطلق عليهم هذا اللقب القاضي محمود بن عمر أقيت، كما أوضح أحمد بابا في ترجمته [2]. و أطلقه أيضاً أحمد بابا على شيخه محمد بغيغ [3]. و من العلماء الذين أطلق عليهم هذا اللقب أيضا "شيخ الشيوخ الإمام محمد بن محمد كري"، و الفقيه الإمام المصطفى بن أحمد بن محمود بغيغ، و الفقيه الإمام محمد بن محمد بن أحمد الخليل...[4].

(2)- الأستاذ: و هذه الكلمة غالباً ما تُطلق و يُراد بها المعلم أو المدرس، كما استعملها السعدي عن الفقيه إبراهيم الزلفي: "و هو أستاذ والدي" [5]، و استخدمها أحمد بابا عن شيخه شيخه محمد بغيغ "...فهو شيخي و أستاذي..." [6]. على أن استعمال هذه الكلمة نادر جداً، جـــــــــــــداً،

و لهذا قل إطلاقها على العلماء.

([1]) مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص-ص533-534.

([2]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص607. كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص245. السعدي، المصدر السابق، ص37.

([3]) المقري، المصدر السابق، ص313.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص 312، 222، 244. الأرواني، المصدر السابق، ص46.

([5]) السعدي، المصدر السابق، ص58.

([6]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص602.

(3)- ألفا أو الفع أو الفقي: و هي من الألقاب العلمية التي تطلق على العلماء في السودان الغربي، و قد اختلفت آراء الباحثين في أصل (ألفا أو الفع)، فهناك من يرى أنها اختصار و تحريف للكلمة العربية "الفاهم" أو "الفقيه"، و منهم من يرى أنها تحريف لكلمة "مؤلف" أي من ألف يؤلف تأليفاً. أما (الفقي) فهو تحريف أو اختصار لكلمة "الفقيه" بدون خلاف، و هذا المصطلح معروف عند الطوارق، فهم الذين يستعملونه كثيراً؛ أما مصطلح (ألفا و الفع) فهو معروف عند الفلانيين و السنغاويين خاصة لاستعمالهم له أكثر. و من العلماء الذي حملوا هذا اللقب: الفع محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش، الإمام ألفا بابير، الفع أبكر الفلاني، الفا عبدالله بن الفقيه أب موي، الفقيه محمود المعروف بالفع سر... [1].

(4)- الحافظ: هذه الكلمة مشتقة من الحفظ، و هي من ألقاب المحدثين، و تطلق على كبار علماء الحديث، وقد اختلف العلماء في تحديد عدد الأحاديث الذي يشترط حفظه لعدّ العالم حافظاً. و كما استعمل هذا اللقب في المشرق و المغرب فقد استعمل في السودان الغربي أيضاً لكن لم يبين السودانيون المعيار أو عدد الأحاديث التي إذا حفظها العالم عُدّ حافظاً. و من العلماء الذين لُقبوا بلقب الحافظ: الفقيه المحدث الحافظ أبو العباس أحمد بن الحاج أحمد بن عمر و الفقيه أحمد بن سعيد الذي قال عنه أحمد بابا "**كان عالماً حافظاً**" والفقيه عبد الله بن عمر الذي وصفه السعدي بأنه كان حافظاً و الفقيه مخلوف بن على بن صالح البلبالي الذي وصفه السعدي: بالحافظ الرحلة[2].

(5)- المُحدث: يطلق هذا اللفظ عند أهل الحديث عادة على العالم المتخصص المتمكن من علوم الحديث، و كان السلف يطلقونه مرادفاً لكلمة الحافظ. و قد اختلف العلماء في حد هذا اللقب: فقيل هو " **من عرف الأسانيد و العلل و أسماء الرجال و أكثر من حفظ المتون و سماع الكتب الستة و المسانيد و المعاجم و الأجزاء الحديثية**"[3].

---

(1) السعدي، المصدر السابق، ص، ص 241، 295. الأرواني، المصدر السابق، ص، ص 48، 51. محمود كعت، المصدر السابق، ص48، 54، 108. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص515.

(2) السعدي، المصدر السابق، 38، 39، 55. التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص142، 235، 608.

(3) الترمسي، منهج ذوي النظر في شرح منظومة علم الأثر، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2003، ص ص184. جمال الدين القاسمي، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1979، ص-ص76-77.

و قال ابن سيد الناس: "**المحدث في عصرنا من اشتغل بالحديث رواية ودراية و جمع بين رواته و اطلع على كثير من الرواة و الروايات في عصره و تميز في ذلك حتى عُرف فيه حظه، و اشتهر فيه ضبطه، فإن توسع في ذلك حتى عرف شيوخه و شيوخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من كل طبقة أكثر مما يجهله فهذا هو الحافظ....**" [1].

و قيل المحدث: "**هو من مهر في الحديث رواية و دراية و ميز سقيمه من صحيحه و عرف علومه واصطلاحات أهله والمؤتلف والمختلف من رواته وضبط ذلك عن أئمة هذا العلم كما عرف غريب ألفاظ الحديث و غير ذلك، بحيث يصلح لتدريس و إفادة...**" [2]. و هناك من اختصر تعريف المحدث فقال: هو من دون الحافظ رتبة[3].

و مهما تعددت هذه التعاريف فإنها تصب في قالب واحد وهو أن المحدث هو من اشتغل بعلوم الحديث و تمكن منها متناً وسنداً.

و لبيان مراتب علوم الحديث، الذي ينتج عنه معرفة درجة علماء الحديث، قسم الإمام أبو شامة علوم الحديث إلى ثلاثة أقسام حيث قال: "**علوم الحديث ثلاثة: أشرفها حفظ المتون ومعرفة غريبها و فقهها. و الثاني: حفظ أسانيدها و معرفة رجالها و تمييز صحيحها من سقيمها. و الثالث: جمعه وكتابته و سماعه و تطريقه وطلب العلو فيه**" و علق ابن حجر على هذا النص بقوله: "**من جمع هذه الثلاثة كان فقيهاً محدثاً كاملاً و من انفرد باثنين منها كان دونه**" [4].

و قد ورد هذا اللقب في تراجم بعض العلماء في السودان الغربي، لكن لم يصرح المترجمون بالمعيار المعتبر لإطلاق هذا اللقب على من ترجموا لهم. ومن العلماء الذين حظوا بهذا اللقب في السودان الغربي والد أحمد بابا حيث جاء في ترجمته: "**... كان رحمة الله علامة فهامة، دراكاً محصلاً، متقناً محدثاً أصولياً...**" [5] ، و الشيخ أحمد بابا التنبكتي الذي قال عنه التواتي إنه: "**... عالم الدنيا و معلمها و حامل لواء الأحاديث ومفهمها، رافع مذهب الإمام مالك**

---

(1) السيوطي جلال الدين ، تدريب الراوي في شرح تقريب النووي، ج1،(ت: الفريابي)،دار الحديث، ط2، القاهرة، 1415هـ، ص-ص28-29. جمال الدين القاسمي، المرجع السابق، ص-ص76-77.

(2) محمد عجاج الدين الخطيب، المختصر الوجيز في علوم الحديث، الشركة المتحدة للنشر، ط1، مصر،2001، ص235.

(3) الترمسي، المصدر السابق، ص184.

(4) نفسه، ص-ص 76-77.

(5) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص141. كفاية المحتاج، المصدر السابق، ص137. السعدي، المصدر السابق، ص42. البرتلي، المصدر السابق، ص29.

ومقدمها..." [1]. و الفقيه محمد سعيد بن الإمام محمد كداد الذي قال عنه السعدي: "**الشيخ الفاضل المحدث الفقية الإمام...**" [2]، و الفقيه محمد بن أحمد التازختي، الذي قال عنه أحمد بابا "**...كان فقيهاً عالماً علامة محققاً فهامة محدثاً متفنناً...**" [3]، و الفقيه باب سعيد بن عبد الرحمن الذي وصفه الأرواني بأنه فقيه محدث [4]، و غيرهم من العلماء الذين حملوا هذا اللقب من الذين لا مجال لذكرهم هنا.

و خلاصة القول:

أن لقب الحافظ و المحدث –الذي يعتبر دون الحافظ مرتبة– قد لقب بهما علماء السودان لبيان علو كعبهم في علوم الحديث رواية ودراية، لكن المترجمين لم يبينوا لنا المقاييس التي اعتمدوها لإطلاق هذين اللقبين الرفعين–في علوم الحديث– عليهم؛ ولكن ما يهمنا من تلك التراجم و نصوصها و أيضاً النصوص المصدرية عامة أن التأثير المغاربي في جانب أحد العلوم الشرعية و هو علم الحديث أو علم مصطلح الحديث كان واضحاً بيناً لأنه أخذ كما هو من بلاد المغرب تأليفاً و تعليماً و تدريساً و وضع ببلاد السودان كما هو، و كل ما حدث من تطور بعد نشره في بلاد السودان الغربي ما هو إلا تعليم أبناء وأهالي المنطقة المحليين، تلك العمل بتلك المهنة، مما خلق نخبة حديثية سودانية على أيدي علماء بلدان المغاربة قامت هي بالتأليف في علم الحديث بالمعنى التقليدي و ليس الابتكاري و التجديدي من خلال تعليقاتهم و حواشيهم و تقريراتهم و شروحهم و توضيحاتهم فقط ، دون العبث بالنصوص التي اعتبروها مقدسة، والذين أخذوها من علماء بلدان المغرب الإسلامي في علم الحديث، فمثلاً تعودنا من علماء المشارق و المغارب المحدثين طلب الرحلة حتى البادية والصحراء لجمع الأحاديث من صدور الرواة البكر التي لا يخالطها صخب المجتمع المدني متوناً و أسانيداً، و الذي كان بكل المقاييس و الاعتبارات جهداً شاقاً و مضنياً بالنسبة لهم، أما بالنسبة للإخوة السودانيين و الصحراويين فيما يلي الصحراء، فقد اكتفوا هذا العناء و أخذوا الأحاديث عن علماء بلاد المغرب و مؤلفاتهم الثرية على جاهزية كاملة ليس إلا.

([1]) البرتلي، المصدر السابق، ص33.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص243.

([3]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص587. السعدي، المصدر السابق، ص39.

([4]) الأرواني، المصدر السابق، ص50. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص512.

(6)- سـيدي: مـن الألقـاب التـي اسـتعملت وشـاعت فـي السـودان الغربـي لقـب "سـيدي" أو "سيدنا" و هذا اللقب يطلق على بعض العلماء، لكن الغالب إطلاقه على العلماء الذين بلغوا رتبة معينة في التدين و العلم، و الذين لهم نزعة صوفية كأصحاب الكرامات و"الأولياء" و الصالحين و غيرهم من العلماء الذين نسب إليهم كرامات كثيرة.

و من الذين حظوا بهذا اللقب: سيدي يحي التادلسي، و سيدي محمد البكري، و سيدي عبد الرحمن التميمي، و السيد إبراهيم الزلفي، و سيدي عبدالله البلبالي، و سيدي أبو القاسم التواتي، و سيدي أحمد بابا... [1]. و لعل استعمال هذا اللقب في السودان الغربي راجع إلى تأثر السودانيين بالمغاربة، لأن هذا المصطلح يستعمل في المغرب أكثر من غيره.

(7)- الشيخ: ومن الراجح أن أُطلق هذا اللفظ على من يجب توقيره كما يوقر الطاعن في السن، و من ثم أُطلق على العلماء، كما استخدم هذا اللفظ للدلالة على وظيفة تعليمية إذ أطلق على المُعلم أو المُدرس، و أحياناً يُضاف إلى لفظ الشيخ بعض الألفاظ لتحديد العلم الذي يقوم الشيخ بتدريسه كأن يُقال: شيخ القرآن أو شيخ الزاوية..كما دخل هذا اللفظ أيضاً في تكوين بعض الألقاب الفخرية، و ربما تحمل دلالة وظيفية مثل لقب شيخ الإسلام.. و هكذا يظهر أن هذا اللفظ يختلف مفهومه باختلاف سياق وروده، فطالب العلم يطلق على من درسه لقب شيخه دون اعتبار للعلم الذي درسه عليه[2]. و الشيخ بهذا المفهوم لا يدل على مكانة علمية بقدر ما يدل على أنه لقب لكل من علّمك او درّسك[3]. و في هذا السياق نجد كثيراً من المترجمين السودانيين يطلقون هذا اللقب على من تتلمذوا عليه فيقولون: "**شيخنا فلان أو شيخي فلان**". و الذين لم يتتلمذوا عليه: "**الشيخ فلان**"، على أن هذا اللفظ كثيراً ما استعمله المترجمون السودانيون لبيان مكانة المترجم له. وولإستيزاد في التأكيد يمكننا الرجوع إلى ما كتبه كعت وأحمد بابا و السعدي، و صاحب تذكرة النسيان، و من الذين لقبوا بهذا اللقب: القاضي محمود بن عمر حيث قال السعدي فيه: "... **شيخ الإسلام أبو البركات محمود بن عمر**..."، و الفقيه محمد بن الفقيه أحمد بغيغ الذي وصف بشيخ الإسلام، و الإمام محمد

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص47-63. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص516.

([2]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص209. حسن الباشا، الفنون الإسلامية و الوظائف على الآثار العربية، ط2، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت)، ص-ص627-639.

([3]) يوسف بن علي العريني، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، مكتبة الملك عبد العزيز،الرياض، 1995، ص203.

بن محمد كري الذي وصفه السعدي بشيخ الشيوخ، والفقيه محمد بغيغ الذي وصف بشيخ الإسلام و مفيد الأنام، و الخطيب محمد سيسي الذي وصفه السعدي بالشيخ المبارك عمدة المسلمين[1].... و غيرهم من العلماء الذين أطلق عليهم هذا اللقب؛ كما استعمل المترجمون السودانيون هذا اللفظ للدلالة على أعلى مرتبة في العلم و الدولة، و بذلك استعملوه بمختلف دلالاته، حيث أطلق على العلماء و هو الغالب، كما أُطلق أحياناً على من يجب توقيره إما لسنه أو علمه، أو لوظيفته الدينية و التعليمية، أو لمكانته في القبيلة...

(8)- الفقيه:.. و قيل الفقه في الأصل: هو الفهم، يُقال أوتي فلان فقهاً في الدين أي فهماً فيه. و قال الأزهري: "**و أما فَقُه بضم القاف فإنما يستعمل في النعوت يُقال: رجل فقيه: أي عالم... و كل عالم بشيء فهو فقيه...**"[2]، أما عند الأصوليين: "**فهو العلم بالأحكام الشرعية العلمية المكتسبة من أدلتها التفصيلية**"[3]. و لقب الفقيه يُطلق في الجملة على العالم بالأحكام الشرعية. كما استخدم الفقيه كاسم وظيفة وكلقب فخري في كثير من الكتابات على الآثار العربية الإسلامية[4]. و في السودان الغربي و غرب أفريقية عامة لم يقتصر المترجمون على إطلاق هذا اللقب على المشتغل بالفقه فحسب، بل أطلقوه أيضاً على من اشتغل بالعلوم الإسلامية الأخرى غير الفقه كالنحو و اللغة و الأدب إجلالاً له؛ لأن لقب الفقيه-في السودان الغربي- من أجل الألقاب و أرفعها و أكثر تأثيراً و وقعاً عند العامة من غيره.

و هذا اللقب يكاد يكون مشتركاً بين العلماء السودانيين الذين ترجم لهم أحمد بابا و السعدي و كعت و البرتلي[5].

و بذلك يكون لقب الفقيه من أكثر الألقاب انتشاراً في السودان الغربي بين العلماء، و قد توسع المترجمون في مدلوله فلم يعد مقتصراً على المُشتغل بالفقه، بل من الأرجح أن أُطلق على كل مثقف بالثقافة العربية الإسلامية بصفة عامة إجلالاً و تقديراً، و أن أهمية

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص 30، 33، 108، 312، 322. محمود كعت، المصدر السابق، ص16، 24، 33. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص-ص513-514.

([2]) ابن منظور، لسان العرب ، ج13، المصدر السابق، ص-ص522-523.

([3]) عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه، ط7، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1420هـ/2000م، ص8.

([4]) حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج2، دار النهضة العربية، القاهرة،(د.ت)، ص807.

([5]) السعدي، المصدر السابق، ص30. التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص137، 141، 151، 353، 597، 600، 607. البرتلي، المصدر السابق، ص27. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص511.

هذا اللقب ترجع إلى الدور الكبير الذي يلعبه الفقهاء و الذي يتناسب مع مركز الدين في نفوس المسلمين شعوباً و حكاماً.

و المهم في ذلك أن هذا اللقب مأخوذ بكل دلالاته عبر الفترات التاريخية الإسلامية السابقة لبلدان المغرب الأسبق في إسلامها و ترتيب علومها الشرعية –أي قبل انتشار الإسلام في مناطق الصحراء و السودان و مواكبة نشر العلوم الشرعية– و تسرب إلى بلدان السودان و الصحراء، و كل ما حدث أن صار اللقب مع انتشار العلوم الشرعية الآتية من بلاد المغرب و اتسع نطاقه ليشمل الكثير من الدلالات الوظيفية و المهنية العلمية....

(9)– المتفنن: من الألقاب التي لُقب بها بعض العلماء في السودان الغربي لقب المتفنن، و يطلق هذا اللقب على العالم المشارك الذي تبحر في عدة علوم أو فنون من العلوم الإسلامية المنتشره في عصره أو في بيئته.

و جاء في لسان العرب: "**رجل متفنن أي ذو فنون**"(1). و من العلماء الذين لقبوا بهذا اللقب في السودان الغربي، والد أحمد بابا حيث جاء في ترجمته: "...**كان رحمة الله علامة فهامة ذكياً داركاً مُحصلاً متفنناً، محدثاً أصولياً**..." و الفقيه محمد بن أحمد التازختي الذي جاء في ترجمته: "...**كان فقيهاً عالماً علامة محققاً فهامة محدثاً متفنناً**..." و الفقيه محمد بن محمود بغيغ الذي جاء في ترجمته "...شيخنا و بركتنا الفقيه المتفنن الصالح..." و الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد الذي وصفه السعدي بأنه "**فقيه لغوي متفنن في علوم الأدب و التفسير و الأشعار**..." (2)؛ و بذلك يكون هذا اللقب من الألقاب النادرة التي استعملها المترجمون في السودان الغربي في وصف من ترجم لهم، و ذلك لبيان أن المترجم له عالم مشارك في علوم كثيرة، أي له باع في أكثر من علم، كما في بلاد المغرب الأسبق في النهل من الحركة العلمية الإسلامية.

و إذا تحدثنا عن اشتراك العالم و براعته في أكثر من علم من العلوم الشرعية كما توضح النصوص و المصادر سنجد أثر بلاد المغرب الواضح في انتشار العلوم الشرعية على ذلك الأسلوب المختلط بين العلوم، فنجد الشخص العالم الواحد يحمل لقب الفقيه و المحدث و المُفسر المحدث القارئ...

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، دار الجيل ودراسات العرب، 1988م ، مج13، ص328.

(2) السعدي، المصدر السابق، ص42، 39، 43، 37. التنبكتي، نيل الابتهاج، ص141، 587، 600. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص512.

(10)- المدرس: من الألقاب التي تطلق على العلماء في السودان الغربي مصطلح "مدرس"، و هو يطلق على كل من يمارس مهنة التدريس بغض النظر عن وظيفته الأخرى التي يمارسها أو ألقابه الأخرى، لأن هناك من العلماء من جمع بين معظم الألقاب العلمية و المهنية -كما في بلدان المغرب الإسلامي- مثل القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت الذي جاء في ترجمته: "...**قاضي تنبكت أو الثناء و أبو المحاسن، عالم التكرور و صالحها و مدرسها و فقيهها و إمامها بلا مدافع**..."، والفقيه أحمد بن سعيد الذي وُصف بأنه: "**كان عالماً حافظاً مدرساً**"[1]. و غيرهما من العلماء.

(11)-: المقرئ: تعتبر قراءة القرآن من أجل الوظائف الدينية نظراً لتعلقها بكلام الله تعالى، و يُطلق على من يقوم بقراءة القرآن و تجويده، وحفظه لفظ القارئ، و كان القراء يحظون بمكانة رفيعة في المجتمع.

و قد يُطلق هذا اللفظ على قارئ الكتب الدينية على العامة (العوام) في المؤسسات الدينية كالجوامع و المساجد والمدارس[2]. هذا عن معنى القارئ بصفة عامة، لكن المقرئ عند أهل التخصص هو: من له الإحاطة بعلم قراءة القرآن و تجويده بأن يكون عالماً بالقراءات و وجوهها عارفاً بقواعدها نظرياً و تطبيقاً[3].

و قد استعمل المترجمون السودانيون هذا المصطلح في وصف بعض من ترجموا لهم، دون أن يبينوا المعيار الدقيق الذي اعتمدوه لإطلاق هذا اللقب عليهم، و لكن إذا قلنا أن بلاد المغرب و علماءها و مؤلفاتهم كانت كثيراً ما تتميز بالدقة و الانضباط في رسم ذلك المصطلح على قراءة القرآن فقط، لا يمنعنا أن نقول في بعض الأحيان أنه قد شاب هذا المصطلح في بلدان المغرب في بعض الفترات الخلط بين قراءة القرآن و الكتب الدينية الشرعية الأخرى. بالإضافة أن من الطبيعي أن ينال هذا المصطلح عند النقل إلى شعوب أخرى و بيئة مختلفة بعض التغيير و اختلاف في المدلول و إطلاقه على أشياء ربما لم يكن يقصده المصطلح في بلدان المغرب الإسلامي، حيث عمليات الحراك الفكري والعلمي...

([1]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق ص، ص 142، 607 . السعدي، المصدر السابق، ص40. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص511.

([2]) حسن الباشا، المرجع السابق، ص-ص828-833.

([3]) العريني، المرجع السابق، ص193.

و من العلماء الذين أُطلق عليهم هذا اللقب في السودان الغربي إبراهيم الزلفي الذي جاء في ترجمته: "...**السيد الفاضل الصالح الخير الزاهد المقرئ عالم التجويد الفقيه إبراهيم الزلفي**". و الفقيه أبو العباس أحمد بن أندغ محمد الذي قال السعدي في ترجمته " **كان مُفتياً في زمنه نحوياً لغوياً متواضعاً شهر في زمنه بعلم القرآن و التوثيق**..." [(1)]، و الفقيه المقرئ عبد الواحد، و الفقيه المقرئ سيدي عبد الرحمن بن سيد على بن عبد الرحمن الأنصاري[(2)].

و تجدر الإشارة إلى أن الذين اهتموا بقراءة القرآن و علومه في منطقة السودان الغربي هم الفلانيون.. و بذلك يكون لقب المقرئ من الألقاب النادرة التي استخدمها مترجمو السودان في بيان تخصص بعض علماء و فقهاء السودان في العلوم الشرعية التي انتشرت بفضل علماء بلاد المغرب و مؤلفاتهم التي وصلتهم.

إن العلماء في منطقة السودان الغربي كأقرانهم في الشمال ببلاد المغرب كانوا في موضع إجلال واحترام من قِبل شعوبهم وحكامهم لأنهم مثلوا الواسطة بين الجماهير و السلاطين حتى كأنهم كانوا ملوكاً غير متوجين لقوة سلطانهم الروحي في نفوس العامة و الخاصة، و للدور الكبير الذي يلعبونه في المجتمع، و الذي يتناسب مع مركز الدين في نفوس الجماهير و الحكام، الأمر الذي جعل بعضهم يشتهرون بقول الحق و التمسك به، و عدم خشية الملوك اعتماداً على تعلق الشعب بهم. و قد أدت هذه المكانة الاجتماعية أيضاً إلى ثقة المجتمع بهم، و نسب كرامات و خوارق للعادات إليهم ترفعهم إلى مصاف الأولياء، و تلقيبهم بألقاب تميزهم عن غيرهم، و تبين مكانة كل واحد منهم في العلوم أو العلم الذي يتقنه.

المبحث الثاني: أهم الوظائف الرسمية لحاملي العلوم الشرعية في السودان الغربي:

و بعد ما بيننا مكانة العلماء في المجتمع و ألقابهم، سوف نتطرق في هذا المبحث إلى دور العلماء حاملي العلوم الشرعية في الأعمال الرسمية و شبه الرسمية، و من جملة المناصب التي أسندت إلى العلماء: القضاء، الإمامة، الكتابة، الحسبة، الخطابة...

المطلب الأول: القضاء: ... و يُعد القضاء من أهم المناصب والخطط الإدارية في الدولة الإسلامية التي لها صلة مباشرة برأس الدولة، و ذلك للمهام الجسام المُلقاة على عاتق

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص، ص 30، 58.

([2]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 240، 299، 664.

القاضي و لخطورته. و من هذه المهام المُلقاة على عاتق القاضي التي وردت في بعض المصادر و المراجع: الفصل في المنازعات، استيفاء الحقوق، الولاية على بعض الناس، الإشراف على الأوقاف، تنفيذ الوصايا، تزويج الأيامى، إقامة الحدود، النظر في المصالح العامة، الإشراف على معاونيه، العدل و التسوية في الحكم.[1]

و نظراً لأهمية القضاء في الدولة الإسلامية وخطورته فإن ملوك السودان الغربي، أحاطوا بهذه الوظيفة عناية كبيرة وقاموا باختيار العلماء المناسبين لهذا المنصب، فاختاروا القضاة المُلمين بأحكام الشريعة المتضلعين فيها المعروفين بالتقوى و الورع وتحري العدل و غير ذلك من الصفات التي يجب توفرها فيمن يُختار لهذا المنصب، كأن يكون ذكراً حراً بالغاً عاقلاً عدلاً، عالماً بالأحكام الشرعية ورعاً[2]، و نظراً لحرص سلاطين السودان على أن يتولى هذا المنصب من يستحقه فقد كانوا يولون البيض الأجانب المغاربة هذا المنصب، ولم يعتمدوا فقط على السودانيين و هذا أمر طبيعي لأنهم ببساطة حملة و كتبة العلوم الشرعية.

و لا شك أن تحفظ علماء السودان على تولي هذا المنصب يدل على معرفتهم الحقيقية بخطورة هذا المنصب و ما يترتب عليه من واجبات[3].

و من مشاهير القضاء في السودان و الذين تأثروا بدور المغاربة في نقل العلوم الشرعية إلى بلاد السودان: القاضي محمود بن عمر أقيت، و القاضي العاقب بن محمود بن عمر أقيت[4]، و القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ الونكري، و القاضي عباس كب، و القاضي أحمد ترف بن القاضي عمر[5]، وغيرهم من مشاهير قضاة السودان الذين لا يمكن ذكر أسمائهم جميعاً في هذا المقام.

المطلب الثاني: الإمامة: يعتبر منصب الإمامة من أهم المناصب التي تولاها علماء السودان بعد خطة القضاء. ومهمة الإمام هي إمامة المصلين في المسجد يومياً، و في

([1]) أبي الحسن على بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية في الولايات الدينية، ط3، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1393هـ/1973م، ص-ص70-71. العريني، المرجع السابق، ص361.

([2]) ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج2، تح وتع ودراسة الشيخ على محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1420هـ/2000م، ص674.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص118، ص-ص44-45. محمود كعت، المصدر السابق،ص-ص 89-90.

([4]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص607، ص-ص353-354.

([5]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص 16-20، 27-71، 308-309. الأرواني، المصدر السابق، ص51.

المناسبات الدينية و الأسبوعية و السنوية، و يعتبر هذا المنصب مفتاح الولوج في سلك القضاء لأنه لا يسند القضاء إلى أي عالم إلا بعد ما يتولى الإمامة و يقضي فيها عدة سنوات، و لا يتم إسناد الإمامة إلى أي عالم إلا باتفاق أهل المدينة أو البلدة وبموافقة القاضي، و هذا يعني أن القاضي يقوم بتعيين الإمام بعد إجماع أهل القرية أو المدينة عليه. و من مشاهير الأئمة في السودان الغربي و الذين تأثروا بنقل إخوانهم المغاربة لعلومهم الشرعية و حتى أيضاً استعارة علمائهم: الفقيه القاضي كاتب الملك منسى موسى الذي مكث في الإمامة أربعين سنة و لم يستبدل و لو مرة واحدة. والفقيه الإمام سيدي عبد الله البلبالي الذي يعتبر أول البيضان المغاربة الذين تولوا الإمامة في السودان، و الفقيه الإمام سيدي أبو القاسم التواتي، و الفقيه الإمام أندغ محمد، و الفقيه الإمام أحمد ترف... و غيرهم من الأئمة الذين تركوا بصمات واضحة على الحياة الدينية و العلمية في السودان الغربي نتيجة لأثر احتكاكهم بالعلماء المغاربة و دور الأخيرين في نقل علومهم الشرعية ذات الطابع المغاربي إليهم دون عناء علماء و مؤلفات[1].

المطلب الثالث: الخطابة: و للخطابة أهمية كبيرة فهي "**صفة راسخة في نفس المتكلم يقتدر بها على التصرف في فنون القول لمحاولة التأثير في نفوس السامعين و حملهم على ما يراد منهم بترغيبهم و إقناعهم...**" **علاوة على الوعظ و الإرشاد الديني.** "[2]، و من أشهر الخطباء في السودان الغربي، الخطيب أحمد ترف الذي جمع بين الإمامة و القضاء و الخطابة في مدينة جني، و الفقيه الخطيب عمر الذي كان خطيب مدينة غاو في عهد سني على بير، و الفقيه الإمام المصطفى بن أحمد الذي كان خطيب تنبكت، و الفقيه الخطيب محمد كب بن جابر كب، و الشيخ المبار عمدة المسلمين الخطيب محمد سيسي[3].

و من الملاحظ أهمية مركز الخطيب ومقام الخطابة، فأول من اشتغل به في السودان الغربي و قام عليه لالتصاقه مباشرة بصيروروة وعي الجماهير الخطباء المغاربة من العلماء، بالإضافة إلى أنه من الطبيعي أنه طالما أن المغاربة قاموا بنشر الإسلام في تلك الجهات

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص-ص 18-20، 27-63، 308-309. مجهول، تذكرة النسيان، المصدر السابق، ص-ص179-180. الأرواني، المصدر السابق، ص62. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص-ص526-527.

([2]) الإمام أبو زهرة، الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت)، ص19. ابن منظور، لسان العرب، مج1، المصدر السابق، ص261.

([3]) انظر السعدي، المصدر السابق، ص 73، 126، 108، 239.

فتلقائياً سيقومون بخطب ومخاطبة الأهالي المحليين، علاوة على أن الخطباء يستعينون بكل العلوم الشرعية لعرض إنتاجهم الفكر الكلامي على الجماهير، و بالتالي كان من الضروري و من المحتم للإخوة المغاربة بروز دورهم في نشر تلك العلوم الشرعية.

المطلب الرابع: متولي الشرع:

و هي من المناصب التي اختص بها العلماء في السودان الغربي، و هذا المنصب لم يرد ذكره كثيراً في كتب تاريخ السودان الغربي، ولهذا معلوماتنا قليلة جداً حول هذه الخطة. و يظهر أن صاحب هذا المنصب هو الذي يقوم بجمع تركات أو أموال الذين ماتوا من الحكام أو الباشاوات قبل توزيعها إلى من يستحقها. و من الراجح أن الذي يقوم بتعيين متولي الشرع هو القاضي، و في المراحل السابقة في الإسلام أو المبكرة بالفعل كان حصر تلك الممتلكات للمتوفي من صميم عمل القضاة، و الذي تشعب بعد ذلك عملهم و احتاج إلى نواب و مساعدين لهم في الوظيفة و المهنة القضائية.

و من الراجح أن هذا المنصب جاء نتيجة من تحويرات العلوم الشرعية المنقولة من بلدان المغارب إلى السودان الغربي في عصر متأخر سواء بالتعليق عليها، أو وضع حواشي و تفصيلات لها. و إذا رجعنا إلى الذاكرة منذ أيام مملكة غانا نجد أن أملاك المتوفي من البيضان المغاربة لا يمسها أحد بسوء حتى ظهور مستحقيها لشدة العدل وضبط الخطة القضائية في تلك البلدان و الذين تأثروا بها من وجود التجار المغاربة و كثرة تعاملاتهم اليومية، و تثبيت العلوم الشرعية التي نقلوها معهم إلى تلك البلدان.

و لعل عمل متولي الشرع ينحصر في عد وحفظ أموال الأموات من التجار و الباشوات الذين ليسوا سودانيين أصلاً، أعني الذين يعتبرون أجانب (مغاربة) في السودان حتى لا تضيع أموالهم أو تختلس.

المطلب الخامس: الكاتب:

و إلى جانب إطلاق لفظ الكاتب على الموظف الذي يقوم بتحرير المكاتبات، أطلق أيضاً على محرر العقود والوثائق على اختلافها كعقود البيع و الزواج و الأحكام و الوصايا... و يشترط لمن يتولى هذا المنصب أن يكون ذا ثقة عالية و أن يأخذ بأطراف العلوم كافة و خاصة منها الشرعية "**لأنه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس**

الملوك و مقاصد الحكام.." [1]. و كان يسند هذا المنصب دائماً إلى العلماء سواء كانوا من السود أو البيض.

و مما يدل على اهتمام السلاطين بهذا المنصب الذي خُصص للعلماء ما ذكره العمري عندما تحدث عن منسى موسى حيث قال: "**... ولـه قضـاة وكتـاب ودواويـن...**"، و قوله أيضاً "**...و لقد جاء كتاب هذا السلطان إلى الحضرة السلطانية بمصر و هو بالخط المغربي في ورق عريض، السطر إلى جانب السطر و هو يمسك فيه ناموساً لنفسه مع مراعاة قوانين الأدب**"[2].

و لا شك أن هذا النص يدل على أن هذه الوظيفة كانت معروفة في السودان، و أن المغاربة أدخلوها معهم، و لاسيما في المكاتبات التي تخص العلوم الشرعية، و أن علماء السودان كانوا على علم تام بآداب الكتابة كما هو معروف عند العباسيين، و أن كتّاب السودان تأثروا كثيراً بالمغاربة، و من رجع إلى كتاب "**إبداع الأساليب في إنشاء الرسائل والمكاتب**" لأحمد البكاي سيتبين له هذا الأمر.

و من مشاهير الكتاب في السودان الغربي: كاتب منسى موسى الذي جاء به من المشرق، و الفع أبوبكر لنبار أو الأنباري الذي كان كاتبا للأسكيين، و الكاتب على بن عبد الله بن عبد الجبار اليمني الذي كان كاتباً في عهد الأسكيين. [3]. و محمود كعت صاحب تاريخ الفتاش، و السعدي الذي رتبه الباشا محمد بن محمد بن عثمان كاتباً، و الحسن بن على الكاتب، و إبراهيم الخضر الفاسي الذي رتبه سني علي كاتباً [4].

المطلب السادس: شاهد القاضي:

يعتبر هذا المنصب منصباً ثانوياً يسند دائماً إلى العلماء الكبار، و هو منصب له صلة وثيقة بالقضاء كما يظهر من الإسم، و كثيراً ما يتردد الإسم على لسان السعدي، و يبدو أن شهود القاضي هم العلماء أو الفقهاء الذين يساعدون القاضي في قضائه و يوقعون معه على الوثائق المهمة كوثائق الصلح التي تعقد بين الجماعات السياسية المتخاصمة أو بين القبائل المتحاربة.

([1]) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ص247. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص227.

([2]) العمري، المصدر السابق، ص، ص67، 74.

([3]) محمود كعت، المصدر السابق، ص150، 74، 114. السعدي، المصدر السابق، ص57.

([4]) نفسه، ص، ص68، 277. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص528.

و هؤلاء الشهود يكونون دائماً مع القاضي في "المحكمة"، يستشيرهم في الأمور المهمة أو في المشاكل العويصة مع أعيان البلد، وهم يشبهون إلى حد كبير أعضاء المحاكم اليوم:عضو اليمين والشمال أو ما يمكن تسميته مساعد القاضي[1]، و يبدو أن شهود القاضي ليس لهم عدد معين، أحياناً يكونون اثنين وأحياناً ثلاثة، وقد يكونون أكثر[2].

و من مشاهير العلماء الذين أسندت إليهم هذه المهمة، الفقيه محمود بغيغ الذي يعتبر من أكبر شهود القاضي العباس كب، و الفقيه الإمام باب عم الفقيه المصطفى بن عبدالله كري الوداني، و الفقيه أحمد بن عثمان بن محمد بن محمد تاشفين الوداني، و الفقيه العالم فريد دهره و مفتاح زمانه المفتي بابير بن الفقيه سيدي أحمد، الذين كانوا شهود القاضي بابا المختار[3].

و من خلال النصوص المصدرية يظهر أن هذا المنصب ازدادت أهميته في عهد المغاربة و دخولهم المنطقة أكثر مما كان عليه الأمر في عهد الأسكيين، كما أنه لا يسند إلا إلى العلماء الكبار الذين اعترف بفضلهم وعلمهم و ورعهم.

المطلب السابع: صاحب تحرير الوثائق والعقود:

و اشترط على من يتولى هذا المنصب...أن يكون عالماً بفقه الوثائق...، و أن يكون خطاطاً يقرأ خطه بسرعة و سهولة و بألفاظ غير محتملة و لا مجهولة[4]. و نظراً لأهمية هذا المنصب فقد كان يُسند –دائماً– إلى العلماء لأن شروطه لا تتوفر إلا في العلماء؛ و لهذا حرص سلاطين السودان على أن يسندوه إلى العلماء الملتزمين العارفين لقوانين التوثيق المرتبطة بالعلوم الشرعية، و خاصة المغاربة البيضان الذين كان لهم الدور في نشر تلك العلوم، بل وأصبحوا قائمين عليها في وظائفها في بلاد السودان.

و من مشاهير الموثقين في السودان الغربي: الفقيه أبو العباس أحمد بن أندغ محمد الذي جاء في ترجمته: "...**كان مفتياً في زمنه نحوياً لغوياً متواضعاً شهر في زمنه بعلم القرآن**

([1]) مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص-ص528-529. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص229.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص276. مجهول، تذكرة النسيان، المصدر السابق، ص، ص41، 115. محمود كعت، ص110.

([3]) السعدي، المصدر السابق، ص96. مجهول، تذكرة النسيان، المصدر السابق، ص115.

([4]) عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت،(د.ت)، ص-ص55-58. عمر جيدي، المرجع السابق، ص-ص111-117.

و التوثيق..." [1]. و باب بن عبدالله بن محمود بن محمد بن محمد بغيغ بن كورد الفلاني، و عبد الرحمن السيوطي بن محمد بغيغ بن الفا بني، وباب سعيد بن الحاج عبد الرحمن بن إسماعيل يورو بن محمد كورد الفلاني... [2].

و يبدو أن الموثقين يوثقون الوثائق أمام القاضي أو شهوده، و لهذا نجد في نهاية أو في ختام مجموعة من الوثائق ذكر مجموعة من العلماء الذين تم كتابة الوثيقة أمامهم. و من تلك الوثائق التي نجد آخرها مُذيلة بمجموعة من الشهود الذين حضروا العقد، وثائق العتق.. و لعل زيادة عدد الشهود على اثنين أحياناً يعود إلى الخوف من التزوير، كما أن كتابة هذه الوثائق تتم أمام القاضي أو شهوده؛ و لا يستبعد أن شهود القاضي هم الذين يقومون بتحرير الوثائق أحياناً. و يمكن القول أيضاً بأن هذا المنصب له علاقة وطيدة بالقضاء، فلهذا جميع أعماله أو جلها تتم أمام القاضي وشهوده، وي ُلاحظ أيضاً من خلال ما أثبتنا أن نفس الشهود هم الذين تتكرر أسماؤهم، الأمر الذي يوحي بأن هناك أسراً علمية في السودان اشتهرت بهذه الصناعة، مثل أسرة كورد الفلاني، والسيوطي[3].

المطلب الثامن: المستشار (الاستشارة):

و هي من الوظائف التي قام بها علماء السودان الغربي لدى الحكام والسلاطين في الأمور السياسية و الدينية، كما فعل أسكيا الحاج محمد بمشوررة العلماء، و كذلك أسكيا داود في أموره الخاصة و العامة، و من مستشاريه الفقيه الخطيب محمود جعيت خطيب كاغ و ألفع كعت، و أسكيا الفع بكر لنبار وشريف على أحمد و كاغ زكريا بن أحمد و ولي الله ياجور بن ولي الله صالح جور ويوسف بن محمد تل...وكذلك استشارهم أسكيا إسحاق و أحاطوا به[4].

و لا شك أن نصوصاً كثيرة و غيرها لم نتمكن من إيرادها تؤكد أن علماء السودان كانوا في طليعة المستشارين للحكام، و أنهم قبلوا هذا المنصب لضرورة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر.

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص30.

([2]) نفسه.

([3]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص-ص231-232.

([4]) محمود كعت، المصدر السابق، ص54، 116، 149-150.

المطلب التاسع: السفارة في الأغراض المختلفة:

فقد أسندت الكثير من وظائف ومناصب السفارة إلى العلماء الذين عندهم القدرة على العقد و الحل.

و مما يدل على اهتمام سلاطين السودان الغربي بالسفارة ما ذكره العمري أنه من عادة منسى موسى "...**إذا عاد إليه أحد ممن ندبه في شغل أو مهمة يسأله عن كل ما تم له من حال من حين مفارقته إلى حين عودته مُفصلاً**..."[1]، و مما يؤكد ما قلناه أن منسى موسى أرسل سفراء إلى ملك المغرب الحسن المريني و معه هدايا[2] ، و كذلك أرسل الأسكيا الكبير سفراءه العلماء لدرء الحرب بينه و بين خصومة أكثر من مرة، و خاصة من القبائل الوثنية[3]. ومن رجع إلى تاريخ السودان و كعت و تذكرة النسيان سيقف على كثير من المهمات التي كُلفت بها العلماء كسفراء، و في أغلب الأحيان نجحوا في مهمتهم[4].

المطلب العاشر: الإشراف على مشاريع الدولة:

من المهمات التي أُسندت إلى العلماء في السودان الغربي أحياناً الإشراف على بعض المشروعات المهمة التي تقوم بعض حكومات السودان بإقامتها مثل بناء المساجد أو ترميمها و بناء المدارس، أو الإشراف على الأوقاف، و توزيع الصدقات على مستحيقها، ففي عهد الأسكيين نجد أن أسكيا داود يسند إلى القاضي العاقب ترميم بعض المساجد في تنبكت، و يرسل إليه في كل سنة جزءاً من صدقاته ليوزعها بين الفقراء المستحقين[5].

كما أسند بعض سلاطين السودان إلى بعض العلماء، الإشراف على بعض الأوقاف التي وقفوها إما على طلبة العلم أو على بعض المؤسسات الدينية أو التعليمية، و تجدر الإشارة إلى أن أغلب المشاريع تسند إلى القاضي، ثم يقوم هو بدوره باختيار بعض العلماء للإشراف على بعضها. إذن فلا غرو أن يثق سلاطين السودان بكفاءة العلماء نزاهتهم و عدلهم، فيسندوا إليهم بعض مشاريع الدولة.

---

(1) العمري، المصدر السابق، ص6.

(2) ابن خلدون، العبر، ج6، المصدر السابق،ص201.

(3) محمود كعت، ص-ص53-54، 84.

(4) مجهول، تذكرة النسيان،المصدر السابق، ص، ص 54، 71، 88. محمود كعت، المصدر السابق، ص74، 82، 83، 54، 150.

(5) السعدي، ص-ص108-111. محمود كعت، المصدرالسابق، ص115.

المبحث الثالث: إسهام العلماء و حملة العلوم الشرعية في الأعمال التطوعية:

المطلب الأول: التوسط في قضاء حوائج أفراد مجتمعهم:

... و من العلماء الذين لم يألوا جهداً في قضاء حوائج أفراد مجتمعهم، الفقيه العالم أحمد بن أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد أقيت الذي جاء في ترجمته: "**كان عظيم الجاه وافر الحرمة عند الملوك وكافة الناس نفاعاً بجاهه، لا يرد له شفاعة**..." و مجدد القرن العاشر في السودان الفقيه محمد بن محمود بغيغ الذي قال عنه أحمد بابا "...**يسعى في حوائجهم (الناس) و يضر نفسه في نفعهم و يتفجع لمكروههم و يصلح بينهم و ينصحهم**..." و الفقيه العالم سيدي يحي التادلسي الذي قال عنه السعدي "...**و هو من له جاه بليغ وعظيم عند الأمراء**...." [فنفع الناس بجاهه حيث توسط لهم في عدة مناسبات] و الفقيه صالح بن محمد اندعمر المعروف بصالح تكن الشيخ المعمر المستحرم عند السلاطين، قال عنه السعدي: "**كان يشفع للمساكين عندهم(السلاطين) و لا يردون شفاعته على كل حال**..." [1]. و الفقيه العالم القاضي سيدي أحمد بن الفقيه القاضي إبراهيم الذي سعى بالصلح بين القائد عبد الغفار و القائد باحد[2] ، و لا شك أن هذه النماذج التي ذكرناها و غيرها من التي لم نتمكن من إيرادها تبين مكانة العلماء و دورهم في التوسط وقضاء أغراض أو حوائج مواطنيهم و مدنهم لدى الحكام، الأمر الذي يجعل من العلماء حلقة وصل بين العامة والخاصة و وسيطاً فعالاً بين الحكام والرعية.

و هنا نقول أيضا أنه لا عجب أن يحظى العلماء والفقهاء باحترام كبير في المجتمع السوداني، طبقاً لنفس الحالة في الشمال بمجتمعات بلاد المغرب، الذين تأثروا منهم مادياً و أثروا فيهم معنوياً وروحياً.

المطلب الثاني: إسهام العلماء في أعمال الخير وأوجه البر والإحسان:

... فهذا الفقيه العالم أبو بكر بن أحمد بن عمر أقيت يصفه السعدي : "....**ظاهر الزهد و الورع و البر، متين الدين كثير الصدقة والعطاء، قلّ أن يمسك شيئاً مع قلة ذات يده مبرزاً في الخير لا نظير له نشأ على ذلك**..." و هذا الفقية الصالح الولي أبو عبدالله القاضي مودب محمد الكابري أعطي ألف مثقال ففرقه بين الفقراء في الحال لما رأى من حاجات الناس إلى ذلك[3].

---

(1) السعدي، المصدر السابق، ص، ص52، 44، 48، 36.

(2) مجهول، تذكرة النسيان، المصدر السابق، ص، ص54، 122.

(3) السعدي، المصدر السابق، ص، ص41، 49.

و لا شك أن هذه النماذج التي ذكرناها و غيرها التي لم نوردها تؤكد أن العلماء لم يكتفوا بتوجيه الناس في خطبهم إلى فعل الخير فحسب، بل شاركوا بدورهم في أعمال البر والإحسان للقضاء على الفقر، و مواساة الفقراء و المساكين و المحتاجين، و مساعدة الأرامل و الأيتام.

المطلب الثالث: مُشاركة العلماء في الحروب (الجهاد):

عرف السودان فيما بين القرنين الخامس و العاشر الهجريين حروباً و نزاعات يمكن أن نعتبر بعضها جهاداً، و بعضها الآخر نزاعاً مُسلحاً. و قد شارك العلماء في كثير من هذه الحروب التي اجتاحت منطقة السودان الغربي؛ ففي عصر الحاج الأسكيا الكبير نجد العلماء في طليعة الجيوش الذين يجاهدون معه لإدخال القبائل الوثنية في الإسلام[1].

إن العلماء لم يكتفوا بحثّ الناس على الجهاد و المشاركة في الحروب، بل شاركوا فيها و أبلوا فيها بلاء حسناً.

المطلب الرابع: الحسبة: .... ففي عهد الماليين أضحت للعلماء مكانة عالية في المجتمع، مما ساعدهم على القيام بمهمتهم الأساسية التي هي نشر الإسلام والوعي و التعليم، و محاربة كل فساد، فكانوا يجوبون أنحاء السودان لأداء هذه الرسالة السامية. و لأهمية هذه المسؤولية الجسيمة لم يتهاون علماء السودان في توجيه كل من رأوه يمس أو يخالف التعاليم الإسلامية ملكاً كان أوغيره. و في هذا الصدد تعرض كثير منهم لمضايقات و أخطار، لكن ذلك لم يثنهم عن القيام بدورهم التوجيهي. و لا أدل على ذلك من موقفهم مع الملك سني على بير، حيث عارضوه في بعض أفعاله القبيحة فاعتبر العلماء مُعارضين ينبغي التخلص منهم، فقتل منهم كثيراً؛ و لهذا وصفه مؤرخو السودان بالظالم الفاجر و الفاسق، و شبهوه بالحجاج بن يوسف الثقفي.

و هذا السعدي يقول عنه "**.... أما الظالم الأكبر والفاجر الأشهر سني على فإنه كان ذا قوة عظيمة...ظالماً فاسقاً، متسلطاً، سفاكاً للدماء قتل من الخلق ما لا يحصره إلا الله تعالى و تسلط على العلماء و الصالحين بالقتل و الإهانة...**" [2]. و وصفه كعت "**بالظالم الفاجر الملعون سني على... وهو سلطان جبار قاس القلب...و كان فاجراً فاسقاً... و انظر في أفعال كفره يقتل الفقهاء...**"[3].

---

(1) السعدي، المصدر السابق، ص242. عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص242.

(2) السعدي، المصدر السابق، ص62.

(3) محمود كعت، المصدر السابق، ص43.

و مع قساوته لم يداهنه العلماء، بل وقفوا أمامه موقف الشجاع الذي لا يزحزحه أي موقف رهيب، حتى أهلكه الله في إحدى غزواته. و لا غرو أن يعرض العلماء أنفسهم لهذا الخطر؛ لأن أكبر جهاد الصدع بالحق عند سلطان جائر، هذا هو موقف العلماء مع كل سلطان جائر. أما إذا كان السلطان يلتزم بأمور الدين و قواعد الشرع فإن العلماء يقتربون منه و يحترمونه، كما حدث مع السلطان أسكيا محمد الكبير وبعض خلفائه، حيث و صفوهم بأسمى الأوصاف و دعوا لهم بأسمى الأدعية من طول البقاء و السداد و التوفيق في مهمته. كما يصف السعدي وكعت أسكيا الكبير[1].

و هكذا يمكن القول بأن العلماء في السودان بصفة عامة لم يتهاونوا في دورهم التوجيهي، فإذا كان السلطان عادلاً متبعاً لأحكام الشريعة فإنهم يحترمونه و يجلونه و يدعون له بطول العمر و التوفيق، أما إذا كان فاسقاً فاجراً منتهكاً لحرمات الله فإنهم لا يتهاونون في الصدع بالحق أمامه و يضعونه في مكانه، و لا يترددون في الدعاء عليه. و تحدثنا كتب تاريخ السودان عن كثير من علماء السودان الغربي الذين كانوا قدوة في دورهم التوجيهي، فلم يقصروا في بيان الحق أمام السلاطين و من دونهم، مما جعلهم يضربون أروع مثل في تاريخ السودان الغربي و غرب أفريقيا ويُخلد التاريخ أسماءهم في صفحاته الخالدة[2]. و من القصص التي تبين شجاعة العلماء الأدبية و عدم خوفهم لومة لائم أمام الحق: ما حدث بين أسكيا الحاج محمد الكبير وشيخ الإسلام القاضي محمود بن عمر أقيت، و نزوله على رغبة الأخير، و في هذا الصدد أيضاً نجد القاضي محمود بغيغ يواجه أسكيا إسحاق بقول الظلم في ذاته لو صدر من أي شخص غيره لكان جزاؤه التعذيب والتنكيل، و هذا ابنه محمد بن محمود بغيغ رفض أمر تهديد الباشا محمود زرقون بقطع أصابعه بالشهادة الزور[3].

و هكذا يتبين لنا أن العلماء في سبيل أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يهابون سلطان ذي سلطة و لا تأخذهم رأفة في دين الله و لا هوادة في إقامة حقه و الأخذ بناصر دينه[4]، و هذا ما يجده المتصفح لكتب التاريخ و التراجم التي تبين لنا دور العلماء في توجيه رعايا السودان ملوكاً و حكاماً، و هذه النماذج التي ذكرناها ما هي إلا

---

(1) السعدي، المصدر السابق، ص72. محمود كعت، المصدر السابق، ص-ص11-12، 59.

(2) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص- ص 245-246.

(3) محمود كعت، المصدر السابق، ص-ص60-61، 80-88، 175-177.

(4) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص- ص 247-248.

غيض من فيض[1]. و التاريخ الإسلامي في غرب إفريقيا خصب بأخبار هذه النفوس الأبية الذين صبروا و صابروا و جاهدوا و جالدوا في سبيل الله و لم يجعلوا لغير الله على قلوبهم سلطاناً لا يخشون في الحق لومة لائم و لا يجعلون رضا الغير أو غضبه مقاماً بجوار رضا الله أو سخطه... و بذلك فإن شجاعة العلماء الأدبية و صدعهم بالحق دون خوف و وعيهم بمسؤوليتهم في المجتمع جعلتهم مهاب الجانب محترمين لدى المجتمع، يهابهم السلطان فمن دونه، و غدت كلمتهم ذات تأثير كبير في نفوس العامة و الخاصة، و توجيههم توجهياً سليماً موفقاً[2].

المطلب الخامس: الإفتاء:

من الوظائف الشرعية التي اهتم بها الإسلام والمسلمون خطة الإفتاء لمكانتها في المجتمع الإسلامي، فعليهما تتوقف مصالح الناس و بها يهتدون إلى أمور دينهم و دنياهم من عبادات و معاملات، و بها تنتظم أمورهم و تصان حقوقهم و ترعى مصالحهم. و إلى المفتي يفزع الناس عندما تحل بهم الملمات و تداهمهم المعضلات، و تكثر بينهم النزاعات[3]، و لجسامة هذه الخطة أكد عليها الإمام الشافعي في أقواله[4]، على أن الأصل في هذه الخطة أن لا تقيد بقيود ول ا تخضع لتنظيم أو تقنين، بحيث تقوم السلطات بتنصيب شخص فيها بل شأنها أن تبقى مُطلقة يتصدى لها كل من أنس في نفسه القدرة على إفتاء الناس فيما يعرض لهم من مشاكل و حوادث، و لهذا نجد أنها بقيت مرسلة في السودان الغربي، فالعلماء تولوها تطوعاً، و لم نجد أحداً عينته السلطات المحلية في هذه الوظيفة، وإنما ترك أمرها لأفراد المجتمع، فيستفتون من العلماء من وثقوا به و أنسوا فيه العلم و الورع. و لعل عدم تعيين السلطات السودانية مفتياً رسمياً لكل منطقة من مناطق السودان، و ترك هذه الخطة مرسلة يرجع إلى تأثرهم بالمغاربة حيث ذكر الدكتور عمر

([1]) محمود كعت، المصدر السابق، ص-ص111-113. مهدي رزق الله، المرجع السابق، ص-ص537-542.

([2]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص248.

([3]) عمر جيدي، المرجع السابق، ص125.

([4]) ابن القيم الجوزية، أعلام الموقعين، ج1، رتبه وضبطه وخرج آياته محمد عبد السلام إبراهيم، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ/1996م، ص37.

الجيدي أن المغاربة تركوا هذه الخطة مرسلة يتولاها كل من أنس في نفسه القدرة على ذلك[1].

و من العلماء الذين اشتهروا بالفتوى في السودان الغربي، الفقيه المفتي أبو العباس أحمد بن اندغ محمد الذي قيل إنه كان مفتياً في زمنه. و الفقيه القاضي أبو حفص عمر الذي قيل فيه: "**لو كان حياً في زمن ابن عبد السلام لاستحق أن يكون مفتياً بتونس.**"[2]، و الفقيه المفتي أحمد معيا، و الفقيه محمد بغيغ، و الفقيه أحمد بابا، وكثير من العلماء الذين ينتمون إلى أسرة أقيت و بغيغ و المجتهد و معيا و كورد الفلاني و غيرهم من العلماء الذين تركوا لنا آثاراً خصبة في هذا المجال[3].

و من يرجع إلى مركز أحمد بابا التنبكتي و مركز ماما حيدرا بتنبكت و خزائن بعض الأسر العلمية في المنطقة سيجد أنها مملوءة بهذه الفتاوى العلمية التي أفتي بها علماء السودان في مختلف العصور في قضايا متعددة متأثرين بعلماء و مؤلفات بلدان المغرب، الأمر الذي يدل على إسهاماهم في حل قضايا عصورهم بمساعدة دور الغاربة في نقل العلوم الشرعية إليهم. على أن هذه الفتاوى، وإن كانت الحروب و النزاعات المسلحة التي حدثت في المنطقة، و التهمت الكثير منها، لكن بقي جزء مهم منها، وهو لا زال حبيساً بين الرفوف، يتعرض لهجمات الأرضة تارة أو أحياناً أخرى للرطوبة، مما جعل كثيراً منه يتآكل و يتفتت[4].

و نظراً لأهمية دور العلماء في المجتمعين السوداني و المغربي و بالعودة إلى الإشارات المصدرية و بعد حصر نسبي لها أخرجنا منها بعض الألقاب العلمية و الوظيفية المهنية و أيضاً المعنوية لمعظم العلماء الذين وقعوا تحت أيدينا وأعيننا، نذكر بعضها كالآتي:

(متفنناً مشاركاً في علوم عديدة، فقيهاً، نحوياً، لغوياً، أصولياً، بلاغياً، مفسراً، مقرئاً، محدثاً، بيانياً، منطقياً، متفنناً، تصريفياً، شهيراً بعلم العربية، مادحاً، مسرداً، مسيراً، شاعراً،

([1]) عمر جيدي، المرجع السابق، ص129.

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص، ص30، 34.

([3]) التنبكتي، نيل الابتهاج، المصدر السابق، ص، ص600، 607. السعدي، المصدر السابق، ص30. البرتلي، المصدر السابق، ص27.

([4]) عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص250.

ناثراً، عروضياً، حسابياً، موسوعياً) وتلك الألقاب العلمية كانت خاصة بالعلوم الإسلامية التي كانوا يدرسونها أو يؤلفونها تحت التأثير الحضاري الثقافي المغربي. وأيضاً من الألقاب الوظيفية (مدرساً، مؤلفاً، مقضياً، مناظراً، أديباً، مفتياً، معلماً لعلم السير، إماماً، تاجراً، مؤرخاً، كاتباً)؛ أما ألقاب الصفات المعنوية (عالماً، صاحاً، جواداً، ورعاً، صموتاً، ذاكراً، واعظاً، كريماً، شجاعاً، سخاء النفس، باراً، قوي العارضة، ذكياً، مصلحاً، محنكاً، علامةً، تقياً، ورعاً، متواضعاً، واثقاً، زاهداً، أواهاً، خيراً، صيناً، مستقيماً، متيناً، منفقاً، بحراً، الفهامة، فريد دهره، و مصباح زمانه، عالى الكعب في العلوم الإسلامية، عادلاً، نافعاً، تقياً، عابداً، مربياً، محباً، ملازماً، خبيراً، مجالساً، سخياً، قواماً في العلوم العقلية و النقلية، ماهراً في علوم التفسير واللغوية والحديث، متبحراً في العلوم الإسلامية، شجاعاً، مجاهداً، مخلصاً، قوياً، شجاعاً، متفتحاً، خفيفاً للظل، تاجراً، مؤرخاً، ناجحاً، مبجلاً، محارباً، لطيفاً، ذا دهاء، موهوباً، صواماً، فاضلاً، نبيلاً، رئيساً، رفيع الدرجة ،عالى الهمة، راسخ القدم في الدارية والرواية، نبيهاً، متصوفاً، متسامحاً، زاخرا بالكتب في مختلف الفنون، وحيد عصره، فريد دهره، قطب أوانه، مصباح زمانه، تميز بالإيثار، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، معظماً، شمس ضحاها وقمر سناها، متقشفاً، داركاً، فطناً، متفنناً، غواصاً، ناسكاً، ليناً، نزيهاً، محبوباً، جماعاً للكتب.. العارف بالله، صاحب الكرامات، ثبوتاً، صباراً، ضابطاً، متصدقاً، مُعتقاً، جليلاً، أميناً، راسخ القدم في العلوم الإسلامية، شيخ الإسلام، مفيد الأنام، عاملاً، ولياً، ماهراً في الفقه والأصول و الحديث، قارئاً، خجولاً، مواظباً، مجتهداً، ورعاً، القطب الرباني والغوث الحمداني، الولي الصالح، مبجلاً، محترماً، المحقق، العارف، العامل، الواصل، الصوفي، متفنناً في العلوم العقلية والنقلية ولا ينزع الكتاب من يده إلا ظلمة الليل، واسع المعرفة، لطيفاً، كاتباً مرموقاً، محارباً نجيباً، الفاضل، البارع، الكامل، النافع، متمكناً، المتدين، قاضياً، راسخاً، بارعاً، مقرئاً، معلماً، أميناً، متمكناً، مؤرخاً، موثقاً، ناسكاً، ناسخاً، مؤلفاً، وله باع طويل في علوم شتى، مطبوعاً على التأليف، عالي الكعب، طويل الباع، سخياً، راسخ القدم، منفقاً، تقياً، متديناً، ملازماً للعبادة، قل نظيره في هذا الشأن، مقرئاً، مجوداً، مشهوراً، موثقاً، خبيراً، محققاً).

و من الملاحظ أن جميعها خاصة بالعلوم الدينية الإسلامية و العلوم الشرعية، مما يدل على رواج تلك العلوم في بلاد السودان الغربي تحت المؤثر المغاربي؛ لأن تلك الألقاب

و الصفات كان معمولاً بها حرفياً في بلاد المغرب الإسلامي، و ما فعله علماء السودان الغربي هو مجرد نقلها فقط إلى مؤلفاته العلمية و الشرعية... فياله من أمر حتى الأسماء والألقاب نقلت من المغرب كما هي، فما بالنا في المجالات و الميادين و الاتجاهات العلمية الأخرى، و ذلك دليل قوي كي نصمت بعدها عن الكتابة في التأثيرات المغربية على السودان الغرب في العلوم الشرعية.

المبحث الرابع: الإسلام المغربي ودوره السياسي وتنظيم الحكم في سنغاي:

بدأت المرحلة الحاسمة في تاريخ هذه الدولة السنغائية في منتصف القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، حين اعتنق ملوكها الإسلام، و بدأ هذا الدين ينتشر بين صفوفها[1]، و كان اعتناق شعب سنغاي للإسلام في ظروف مشابهة لاعتناق أهل مالي له[2]، حيث اعتنقه في الحركة الإسلامية الضخمة التي اضطلع بها المرابطون في ذلك الوقت[3]؛ و ليس ببعيد أن تكون قد تلقت بعض التأثيرات الإسلامية الضخمة عن طريق هذه العلاقات التجارية التي نشأت بينها وبين المغرب الإسلامي الكبير.[4]

([1]) يذكر السعدي أن ملك سنغاي زاكوسي Za – Kossi قد أسلم حوالى سنة 400هـ/1009م ولذا يطلق عليه في لغتهم "سلم دم" أي أسلم طوعا بلا اكراه وهو الذي نقل عاصمة سُنغاي من كوكيا إلى جاو انظر السعدي، المصدر السابق، ص3.

([2]) لمزيد من الدراسة حول امبراطورية غانا ومالي القديمة وعن دور المرابطين انظر:

ابراهيم طرخان، دولة مالي الإسلامية، المرجع السابق. وأيضا نفسه، غانا في العصور الوسطى ،ط2، مصر، 1967م. محمد عبد العال أحمد، الإسلام في غرب القارة الإفريقية، نشرة معهد البحوث والدراسات الإفريقية 2 ،رقم 23 ن، ص4 وما بعدها:

Nehemia Levtzion, Ancient Ghana and Mali, Methuen Publishing, London , 1973.

N.Levtzion, J.F.P.Hopkins, eds., Corpus of EARLY Arabic Sources for Western African History (Cambridge,1981), revised by H. J. Fisher, Early Arabic Sources and the Al moravid

Conquest of Ghana, T. Afr., XXIII, (1982),p-p 549 –650.

([3]) عبد الهادي التازي ، المغرب في خدمة التقارب الإفريقي العربي، العلاقة بين الثقافة العربية و الثقافات الإفريقية، تونس، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، 1985م ، ص- ص 98 – 99.

([4]) نفسه، ص- ص 98 – 99.

و لعل انتشار الإسلام على هذا النحو[1]، و دور التجار في ذلك، هو ما دفع ملوك سنغاي إلى التماس حاضرة جديدة، إذ انتقلت الدولة إلى مدينة جاو (Gao) ، أو كاكاو[2] على مقربة من طريق القوافل الرئيسية التي تصل المغرب بالسودان الغربي [3]؛ و بالرغم من ملاحظة البكري من وجود خليط من العناصر التقليدية والإسلامية في داخل القصر الملكي[4]، إلا أن التأثير الإسلامي قد نما بشكل أكبر، بفضل ازدياد أعداد الداخلين في الإسلام. و هذا الخليط المكون من العبادات الإسلامية، مع الاحتفاظ ببعض الطقوس غير الإسلامية يكشف عن إسلام متميز؛ بالإضافة إلى توافقهما، و عدم تنافرهما؛ فهذا الخليط يعتبره نحميا لفتسون (Nehemia Levtzion) سمة مميزة للمجتمعات الإسلامية في غربي إفريقيا في العصور الوسطى[5].

و لم يتغير هذا التكافل بشدة، بدليل أنه في سنة 754هـ/1353م عندما قضى الرحالة ابن بطوطة في مدينة جاو شهراً، وجدها مدينة عظيمة، مزدهرة تتصف بالرخاء [6]، فالإسلام كما نلاحظ طبقا لرأي الرحالة المسلمين في حالة ازدياد وتأثير طبقاً لظروف

([1]) لتأكيد النصوص العربية حول انتشار الإسلام في سنغاي على وجه الخصوص نشير إلى البكري الذي أرجعه إلى سنة 461 هـ/ 1068م بدليل أن الملك كان مسلماً واتفق معه المؤرخ ابن خلدون الذي ناقش فكرة تأسيس مجتمع إسلامي هناك يرجع إلى القرن التاسع الميلادي و وصف عاصمة سُنغاي جاو بأنها مدينة عامرة مزدهرة وتجذب إليها هجرات عربية من الشمال الإفريقي.

هذا مع الأخذ بالإعتبار أن القصر الملكي في سُنغاي كان يستوعب العناصر التقليدية و الإسلامية في آن واحد. انظر: البكري، المصدر السابق، ص- ص 178 – 179.

ابن خلدون، العبر، المصدر السابق، ص 931

([2]) ابن خلدون، العبر، المصدر السابق ، ص 931 ، انظر الخريطة شكل رقم (5) بملحق البحث

N. Levtzion, Islam in West African Politics , Accomodation and Tension between the Ulama and the Political Authorities , Cahiers Etudes Africaines , 71 , XVIII (1978) , p-p 333 – 45

([3]) البكري، المصدر السابق، ص- ص 178 – 179.

([4]) Nehemia Levtzion, Islam in West African Politics ,The previous reference, p-p 333-45 , The Sahara and the Sudan ,The pervious reference, p. 678.

([5]) ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 395. ابراهيم طرخان، المرجع السابق، ص 102.

([6]) القلقشندي، المصدر السابق، ص 294 . انظر الخريطة شكل رقم 3.

اقتصادية، و سياسية مواتية؛ و مع توسع دولة مالي في دلتا النيجر في أواخر سنة 679هـ/1280م، و إقبال التجار عليها [1].

و بمعنى آخر نحن أمام مدن إسلامية جديدة مثل: جني و رأس ألما على بحيرة فاجبيين، و جاو، و تمبكتو[2] جذبت تجارا و مُعلمين، أغلبهم من أصل الماندنجو[3]، و على الرغم من أن مجيئهم قد أحدث تناقضاً، إلا أنه أحدث أيضا أثرًا مع عناصر الوطنيين من التجار والمعلمين، و لذلك تسبب في تحولات عقائدية جديدة [4] ؛ و برغم حداثة عهدهم بالإسلام، إلا أنهم ظلوا متسامحين، و لم يكونوا يرغبون في إثارة الحروب، و كانوا قانعين بالموعظة الحسنة، دون أن يفرضوا عقيدتهم بالقوة. و هنا نلاحظ أن هناك علاقة تكافلية مع دين المجتمع، و نقصد به الإسلام، و الديانات الفطرية المحلية التي كانت موجودة ومتوارثة من الطبيعة[5].

و على هذا الأساس، يمكن أن نقسم مجتمع سنغاي من الناحية العقائدية إلى فئتين: أولهما: فئة عبادة أرواح السلف (وهم الوثنيون) [6] ؛ أما الثانية: فهم المسلمون الذين يؤمنون

([1]) لقد ورد اسم هذه المدينة بصورة مختلفة فبعض المصادر تسميها تنبكت (السعدي، المصدر السابق، ص 20) وبعض المصادر يطلق عليها اسم تنبكتو (ابن بطوطة، المصدر السابق، ص680) كما وردت في بعض المصادر باسم تمبكتور بالميم (الحسن الوزان، المصدر السابق، ص539 .انظر الخريطة ، شكل رقم 2 بملحق البحث.

([2]) الماندنج: هي مجموعة القبائل التي كونت مملكة مالي وتنطق بأشكال مختلفة منها: المانكا Manenka أو الماندنكا Mandinka أو الماندن Mandin أو مانِنج Maning ومانِنجا Manenga أو ماندنج Mandeng

([3]) Ivar Wilks, The Transmission of Islamic Learnings in the Western Sudan , in Jack Goody (ed.) Literacy in Traditional Societies, p-p 96 – 162 .

Paul Lovejoy, The Role of the Wangara in the Economic Transformation of the Central Sudan in the 15 th & 16 th Centuries , Journal of African History, vol. 19, No.2, 1978, p-p 93 – 173.

([4]) C-F. Jean. Rouch, La Religion et la magie des Songhay, presses universitaires de france, Paris, 1960, p 48.

([5]) انظر المغيلي، نهاية الوجه الأول من الورقة الثامنة في (أ).

([6]) الإمام مالك (97 – 179 هـ/715 – 795م): ولد في الحجاز واعتمد في استخراج الأحكام على ظاهر النص فسمى إتباعه بالظاهرية لأنهم جعلوا أحكامهم منحصرة في النصوص بالإجماع وهو ما عرف أيضا بالمصالح المرسلة. ومن الكتب التي تناولت الإمام مالك بالشرح المدونة الكبرى لسحنون بن سعيد (240هـ/854م)، كما ظهرت مختصرات و ملخصات في فقه مالك مثل: المختصر في الفقه على مذهب الإمام مالك لخليل بن إسحاق (القرن 7هـ/14م). وقد وصل فقه الإمام مالك بلاد التكرور عن طرق المغرب العربي فالفقهاء مالكيون في حياتهم وتقاليدهم وإنتاجهم وتأليفهم و تدريسهم، وقد انتشرت في دول نهر النيجر دراسة كتب المالكية مثل الموطأ للإمام مالك أو كتب المغيلي. ودرست

يؤمنون بالتوحيد على المذهب المالكي [1]، و بالتدريج فإن التغير الثقافي و الذي أحدث تغيرا

و تحولاً في النهاية، إنما هو جزء لا يتجزأ من حياة المجتمعات الإسلامية، و علامة مميزة، علاوة على أنه تعبير حقيقي عن الانتشار الأوسع للحضارة الإسلامية، و مع الاستمرار في الاستقرار الأمنى، نتيجة الرواج الإقتصادي خاصة لمدينتي تمبكتو[2]، و جني[3]، لتحكمهما في طرق التجارة[4]، و من ثم فقد انعكس ذلك على زيادة التمدن، و تغير الأوضاع الاجتماعية و الثقافية في بلاد السودان الغربي.

و منذ القرن الخامس عشر الميلادي، أخذ نجم دولة مالي في الأفول، فقد أحدقت بها الأخطار من قبل الطوارق، و زعيمهم السلطان عقيل أجملول، الذي نجح في الاستيلاء على مدن أوران، وولاتة في سنة 837هـ/1433م، و ارتكبوا كثيرا من الشنائع في مدينة تمكتو،

هذه الكتب في مدن جني وتمبكتو. انظر: السعدي، المصدر السابق، ص 33،38،46. عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1978، ص- ص 175 – 176.

و قد أشار منسى موسى وهو في مصر إلى أنه مالكي المذهب، كما اشترى من مصر بعض الكتب في فقه المالكية. انظر المقريزي، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، المصدر السابق، ص 123.

([1]) ظل الطوارق يحكمون تمبكتو حتى عاد منسى موسى ملك مالي من الحج، فاتجه إلى عاصمة سُنغاي واحتلها، ثم توجه نحو تمبكتو و اخضعها لحكمه سنة 730هـ تقريبا، ومنذ ذلك التاريخ ظلت تمبكتو تحت سيادة دولة مالي الإسلامية، انظر محمود كعت، المصدر السابق، ص38.

([2]) تُعد جني المركز الثاني في السودان الغربي وتقع على نهر باني أحد فروع نهر النيجر إلى الجنوب من تمبكتو، على مسيرة 300 ميل وقد بنيت هذه المدينة كما يذكر السعدي في أواسط القرن 2 هـ، و يعود الفضل في بنائها لبرابرة صنهاجة الذين أرادوا أن تكون مركزا تجاريا ليلتقي فيه تجار الملح بتجار الذهب. وسرعان ما غلبهم عليها الزنوج من قبائل النونو والبوزر حينما كانوا وثنيين. و سرعان ما انتشر الإسلام بينهم نتيجة لجهود الدعاة المسلمين واختلاط هؤلاء الزنوج بالتجار المسلمين، و كذلك نتيجة الهجرة التي كان لها عظيم الأثر و نشر الإسلام حيث أن كثيرا من القبائل البربرية اتجهت من الصحراء إلى المناطق الجنوبية و استقرت فيها و اندمجت مع السكان المحليين. وقد مكنها موقعها من التحكم في طرق التجارة، ومن ثم أصبحت مركزا تجارياً هاماً. السعدي، المصدر السابق، ص120.

([3]) J. S. Trimingham, A History of Islam in West Africa , Oxford University press., London , 1970 , P. 190.

([4]) الطوارق أو الملثمون الذين قاموا بدور الوسيط بين المغرب الأقصى من ناحية وبين إقليم غرب إفريقية من ناحية أخرى و هم الذين حملوا الإسلام إلى هذه الجهات وكانوا العامل الموجه لتاريخه وثقافته. انظر البكري، المصدر السابق، ص164. السعدي، المصدر السابق، ص65 .حسن محمود، المرجع السابق، ص202 .عبد العزيز بن راشد، المرجع السابق، ص71.

و أهلها[1]. و منذ ذلك التاريخ، عجزت دولة مالي عن استرجاع هذه المدينة، و ظل الطوارق بها حتى طردهم منها ملك سُنغاي سني علي في سنة 873هـ/1468م [2].

و لقد كان هناك في مدينة تمبكتو نخبة – أو صفوة – ترجع أصولهم إلى هؤلاء الطوارق، و هم الذين رحبوا بقدومهم عام 837هـ/1433م [3]، و بهذا سيطروا على مقاليد الأمور التي انعكست على مدينة تمبكتو في النمو الإقتصادى، و الازهار الثقافي، و يمكن إرجاع هذا النمو الإقتصادى إلى ثلاثة عوامل رئيسية:

أولا: هو سيطرة الطوارق على المنطقة الممتدة من أروان Arawan جنوب الصحراء حتى نهر النيجر[4]؛ فلقد جذبت تمبكتو الكثير من التجار الفقهاء، و كان من بين هؤلاء الوافدين الجدد الفقيه أبو عبد الله أندا غمد حمد بن محمد بن عثمان، و هو عالم جليل، تولى القضاء في تمبكتو في أواسط القرن التاسع الهجري هي دولة الطوارق [5].

و الفقيه أحمد بن عمر بن محمد أقيت، ثالث ثلاثة إخوة اشتهروا بالعلم والفقه، و هم: عبدالله، ومحمود، ثم أحمد الذي خلف نحو سبعمائة مجلد، وحج في سنة 890هـ/1485م[6]، و التقى بالعالم جلال الدين السيوطى، و خالد الأزهري النحوي في مصر؛ ثم رجع و انقطع للتعليم، فتخرج على يديه أعداد كبيرة من أهل سُنغاي[7]، فعندما جاء هؤلاء العلماء، سرعان ما دعموا مركزهم من خلال روابط المصاهرة التي أثمرت من

([1]) انظر السعدي، المصدر السابق، ص 22، ص–ص 25 – 26 .محمود كعت، المصدر السابق، ص 48.

([2]) مع ضعف دولة مالي في بداية القرن الخامس عشر جعلها فريسة سهلة للسلطان عقيل أجملول زعيم جماعات الطوارق والملثمين من عشيرة مغشرني إحدى قبائل الطوارق وهي المجموعة الصنهاجية في غرب الصحراء.

انظر: Sékéné Mody Cissoko, Tombouctou et l'Empire Songhay , l'Harmattan, Paris, 1996, P. 52-3.

ابراهيم طرخان، دولة مالي، المرجع السابق، ص111 .عبد العزيز بن راشد، المرجع السابق، ص 71.

([3]) انظر الخريطة شكل رقم 4 بملحق البحث.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص 28.

([5]) انظر مزيدا من الدراسة عن علماء سُنغاي. التنبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، المصدر السابق، ص–ص37–38 عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين، المرجع السابق،ص 104.

Sékéné Mody Cissoko, Op.cit, P 220

([6]) محمد بلو، المصدر السابق، ص219.

([7]) يذكر السعدي أن سيدة ثرية شيدته وأوقفت عليه بعض المال للحفاظ عليه. و قيل: أنه كان يعادل مساحة الكعبة وقد شيدت معظم أجزائه بالحجر، المصدر السابق، ص62 .محمود كعت، المصدر السابق، ص121.

تقاربهم كجماعة متماسكة حول مسجد سنكري، الذي أصبح رمزاً لكل علماء و مفكري سنكري و سُنغاي [1].

ثانيا: أن السلطان عقيل زعيم جماعات الطوارق كان صديقا للعديد من الأسر النبيلة، استطاع بنفوذه أن يستميل حاكم مدينة تمبكتو محمد أندا، و في النهاية سمح الحكم الذاتي المدني للحاكم في أن يطور علاقاته مع حاكم سنغاي، و على الرغم من أن حكومة المدينة كانت تابعة للطوارق، إلا أنها اعترفت بسيادة سنغاي الدولة المجاورة التي أصبحت القوة العظمى للإقليم [2].

ثالثا: ساءت العلاقة بين سنغاي ومدينة تميكتو بعد موت محمد أندا سنة 872هـ/1467م. و لإحباط أي هجوم لسُنغاي، فإن ابنه وخليفته عمر تباهى بقوته لدرجة أنه أهان سني علي في أول خطاب له، و في تصرف سريع أخذ سني علي الرسالة على أنها إعلانا للحرب، و سرعان ما حرك قواته لغزو مدينة تمبكتو [3]، فقد فرض القتال نتيجة خطأ الحاكم، و ربما ربما خشي السلطان عقيل المواجهة من جيش سُنغاي على أرضه، فعمد إلى عزل عمر من منصب الحكم، و انتشر بقواته من الطوارق داخل حدود المدينة من أجل السيطرة على الموقف.

و في تلك الفترة الحاسمة، قدم عمر خدماته لسني علي و أحاطه بالمشاكل المحلية، و بصحة السلطان العليلة، ودعاه لكي يغزو تمبكتو [4]. و قد سببت حالة جيش سُنغاي في كبارا في عام 873هـ/يناير 1468م مفاجأة كبيرة بخروجها المهيب، مما جعل السلطان يفر إلى ولاتة في الصحراء مع أخلص أصدقائه من العلماء، و لكن عمر أمد الغزاة بقوارب لكي يعبروا نهر النيجر، وخوفاً من انتقام وحقد حاكم سُنغاي، فإنه أيضا فر بعد أن نصح أخاه المختار أن يكون أول النبلاء الذين يسرعون لنجدة حاكم سنغاي لكي يحافظوا على الحكم في عائلتهم [5].

---

(1) تولى إمامة هذا المسجد عدد من الشيوخ جلهم من آل أقيت منهم محمد بن عمر ثم ابن خاله انغمحمد بن الفقيه المختار وآخرهم عبد الرحمن بن محمود الذي عاصر الغزو المغربي لتمبكتو.السعدي، المصدر السابق، ص63.

(2) Op.cit, 38.

(3) Op.cit , P 105.

(4) محمود كعت، المصدر السابق،ص-ص 48 – 50. السعدي: المصدر السابق، ص-ص67 – 69.

(5) عبد الله بن عمر بن محمد أقيت من أسرة أقيت كان فقيهاً حافظاً زاهداً ورعاً صالحاً انقطع للتدريس بولاته وتوفي بها سنة 929 هـ. التنبكتي، المصدر السابق، ص38 .محمد بلو: المصدر السابق، ص217.

و تشير تلك النصيحة التي كانت للرجل الذي عمل حاكما حتى سنة 892هـ/1486م إلى أن تنافسا خطيرا بين الأسرة الحاكمة قد بلغ مداه، و تجلى ذلك في رد الفقيه عبدالله أقيت في منفاه بتازكتا، حينما أرسل لأخيه الذي ناشده أن يرجع إلى تمبكتو، و لكنه رفض أن يعود "لأن الناس يساعدون بعضهم البعض، ويتجاهلون صلة القرابة، و يفترون على بعضهم البعض أمام الناس الذين يمتلكون الجاه والسلطان[1].

و تشير هذه المعلومات إلى شروخ عميقة في داخل المجتمع في مدينة تمبكتو، و إلى أزمات كبيرة في أنحاء المدينة، حيث أصبحت تمبكتو عاصمة للتجارة، و الثقافة، و المعرفة[2]. وكذلك ميداناً وحلبة للتنافس السياسي؛ و قد وصلت حدة تلك التنافسات إلى ذروتها بعد غزو سُنغاي[3]؛ و في أغلب الأحيان، فإن الصراعات تمركزت حول نقاط الخلاف فيما يتعلق بالتجارة و السياسة[4].

و هناك جماعتان رئيسيتان، تنافستا من أجل النفوذ و الثروة في تمبكتو، و هما: الأولى اتحدت بقوة مع الطوارق، فأفرزت بذلك ذرية من البطون والعشائر الصنهاجية الكبيرة مثل: آل أقيت[5]، و الفقيه آندغ محمد بن الفقيه المختار النحوي، و منهم الفقيه سنتاعو بن بن الهادي المعاصر للمؤرخ السعدي (1005هـ/1596م). و لقد استقروا جميعا في مدينة تمبكتو في السنوات الأخيرة لحكم مملكة مالي أو عند غزو الطوارق في سنة 837هـ/1433م [6].

أما الجماعة الثانية، فكانت غالبيتها تنتمي إلى الأسرة السودانية المثقفة ذات الأصول العربية العريقة، و التي وصل أسلافهم بعد حج السلطان "منسى موسى" في عام

([1]) انظر السعدي، المصدر السابق، ص 21. أمطير سعد غيث، المرجع السابق، ص-ص 182 – 185 .

([2]) السعدي، المصدر السابق، ص 21 .محمود كعت، المصدر السابق، ص179.

([3]) أن حاكم تمبكتو كان يتمتع بحكم شبه ذاتي لأنه يمثل السادة الإقطاعيين والمشرف على إدارتها على أن يمنح ثلث الريع للدولة، فالثروة كانت ذات قيمة وتقدير كبير في المجتمع ولذا فان العلماء اضطروا أن يزيدوا دخلهم وثرواتهم بالمعاملات التجارية.

N. Ievtzion ,The Western Maghrib and the Sudan, in Cambridge History of Africa,III: From c. 1050 to c. 1600, ed. R.Olivier.

([4]) داوود ولد عبد الله، المرجع السابق، ص 3.

([5]) السعدي، المصدر السابق، ص22.

([6]) أمطير سعد غيث، المرجع السابق، ص 63.

725هـ/1324م. و قد أعجبت الجماعة الأولى بالسلطان عقيل، و نزاهته، و سماحته، و التي رأوها كمصدر رئيسي للأمن، والتقدم الاقتصادي [1]. و قد تعرضوا للقمع على يد السلطان سني علي في عام 873هـ/يناير 1486م، إذ كان ينظر إليهم على أنهم عناصر هدامة [2].

المبحث الخامس: دور العلم والعلماء في الصراع السياسي و الديني في تمبكتو:

كان الصراع في مدينة تمبكتو معقدا، بحيث أنها تقع على مفترق طرق لأراضي برية، و عدة أنهار[3]، و قد حدد الحسن الوزان موقعها، بقوله: "**على بعد إثني عشر ميلا من أحد فروع النيجر**"[4]، مما أكسبها موقعا ممتازا في منحنى نهر النيجر، لكونها أقرب محطة للقوافل للقوافل التجارية القادمة من الشمال الأفريقي كما أن موقعها جعلها حلقة اتصال بين تجار بلاد السودان و بين تجار الشمال الإفريقي[5].

و لهذه الاعتبارات الجغرافية، و الإقتصادية، و السياسية دواعي أمنية في المحافظة على مركزها الإقليمى، إذ تدين مدينة تنبكت بانتعاشها الاقتصادي لتجارة الذهب و الملح، فضلاً عن موقعها الممتاز على طريق تغازة حيث يجلب الملح، و طريق جني حيث يرد الرقيق، و الذهب بالقوارب، أما بلدة كبرا الميناء الرئيسى لتنبكت، فكانت تستقبل الملح لتصدره إلى المناطق الداخلية بالسودان الغربي[6].

---

(1) Kaba, L. Les Chroniques Musulmans et Sonni Ali , Bulletin de l'Institut fondamental d'Afrique,t.40, n°1, série B, Dakar, 1978, P–P 49–55.

(2) لقد ورد اسم هذه المدينة بأشكال مختلفة في المصادر ،فالبعض يذكرها باسم: "تنبكت"(السعدي،المصدر السابق،ص20) و البعض الآخر يدعوها باسم: تنبكتو (ابن بطوطة، المصدر السابق، ص680) ،كما وردت في بعض المصادر الأخرى: تمبكتو بالميم (الحسن الوزان، المصدر السابق، ص539).

(3) حسن الوزان، المصدر السابق ، ص 539.

(4) و قد فصل السعدي في كتابه تاريخ السودان عن تأسيس تمبكتو والتطورات التي عرفتها عمرانياً وبشرياً وسياسياً إلى عصره (منتصف القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي)، انظر السعدي، المصدرالسابق، 20 وما بعدها. الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص– ص 136 – 137.

(5) الشيخ الأمين عوض الله، المرجع السابق، ص 138. سيسوكو(Sékéné Mody Cissoko)، المرجع السابق، مج 4 ، ص204. انظر الخريطة شكل رقم 1.

(6) نفسه.

لقد انطلق السلطان سني علي في إرساء قواعد دولته الجديدة بنظرة اهتمام الى مدينة تنبكت، وخاصة بعد نجاحه في غزو مدينة جني حتى عام 882هـ/1477م[1]، وكان هذا جزءا من خطته العسكرية القائمة على التوسع العسكري في منطقة حوض وادي النيجر، ذات المكانة الاقتصادية من ناحية فاعلية الإنتاجية الزراعية، و التمدن السريع في المنطقة[2].

لقد شهد المجتمع في سنغاي تحولات اجتماعية، ببروز نخبة من المثقفين و العلماء، و هم الذين قاموا في عام 898هـ/1492م بالمعارضة، و الاحتجاج ضد حكم سني علي[3] نتيجة سياسة القمع والاضطهاد[4]؛ و يتضح من ذلك أن وجود طبقة كبيرة متعلمة في أوقات أوقات التغير الإجتماعى و الصراع السياسي يمكن أن تمثل تأثيراً في طريقة حل الأزمات وخاصة أننا بصدد مجموعة من المفكرين والعلماء البارزين في العلوم الدينية و الفقهية، في مدارس تمبكتو، و جني، و جاو، و ولاتة [5].

و مع انتشار الحركة العلمية و الثقافية، و الانتقال الحر للكتب و الأفكار عبر مجتمع سنغاي، لوجود نخبة من العلماء المهتمين بكل من الدين و السياسة في آن واحد؛ فقد أبرزت الأحداث قصوراً واضحاً في حكم السلطان سني علي بالنسبة للقيم الإسلامية، و لذلك

([1]) أمطير سعد غيث، المرجع السابق، ص 156.

([2]) السعدي، المصدر السابق ص–ص 66 – 68 ، فقد أثارت هذه الحوادث السعدي فوصف سني على بالظالم الأكبر و الفاجر الأشهر.

([3]) نفسه، ص–ص 67 – 68.

([4]) محمود كعت، المصدر السابق ص–ص10 – 12.

J. Goody & Ian Watt, The Consequences of Literacy, Comparative Studies in History & Society, Cambridge University Press, vol. 5, No. 3 , 1963 , p–p. 304 – 345.

([5]) إن الخلاف في المواقف الدينية كان الأساس لما سماه جون هونويك "مشكلة سني علي" في تاريخ السودان قبل القرن 16م لقد تقلد العرش في سُنغاي لمواقفه وبراعته الحربية الفائقة وقلل من شأنه نتيجة ممارسته السياسية مع انتصاراته عبر أراضي حوض النيجر، إلا أن روع رعيته ولهذا لعنه علماء كثيرون ووصفوه بأنه الطاغية الشرير والمؤذي الآثم. للمزيد انظر:

Hunwick, Religion & State in the Songhay Empire , 1464 – 1591 ,Islam in Tropical Africa, Oxford Press 1966.

جاء صوت المعارضة في الوقوف أمام سني علي من أجل إضعاف حكمه، و إعلان أمر الجهاد في سبيل الله [1].

و بنظرة تحليلية لشخصية سني علي الذي وصفته المصادر بأنه "**محاربا قديرا**"، و لكن نحن أمام شخصية معقدة، فكيف لنا أن نحكم عليه، و خاصة أن الأسكيا محمد قد طرح هذه الأسئلة على الفقيه محمد المغيلي[2]، عقب توليه الحكم بعد سني علي عام 1492م[3].

إن السجلات الإسلامية المكتوبة و المدونة عن هذه الفترة، تعتبر شكلاً من أشكال الأدب التي قد توضح طبيعة العمل السياسي، فأسكيا محمد وضع نفسه في صورة ايجابية[4]، و لذا فالكلمة تقدم إمكانية صادقة للخلود، و أن النقص في التاريخ لحكم سني علي يعتبر فجوة خطيرة كما هو الحال في نقاط الخلاف الفكرية[5].

([1]) انظر محمد عبد الكريم المغيلي، المصدر السابق، ص151 .إن السجلات الإسلامية تشكل مصدرنا الرئيس لحكم سني علي على الرغم من صورته القوية والشعبية في التراث الشفاهي إلا أنها قد شوهت نظراً لأنها صبغت بواسطة خصمه، حيث دونت سيرته بعد موته انظر:

Jean.Rouch, Contribution a L‘ histoire des Songhay ,Swets et Zeitlinger N.V, Amsterdam,1968, P. 184.

Boubou Hama: l ‘ Empire Songhay , (ses ethnies, ses légendes et ses personnages historiques, Paris, P. J. Oswald, 1974 ,P.141.

([2]) Sékéné Mody Cissoko, Op.cit, P 206.

([3]) ذكر السعدي أنه لما بلغ خبر انتصار محمد الطوري وتوليه العرش إلى بنات سني علي قلن: "أسكيا" وهي تعني في كلامهم: "لا يكون إلا هو" فلما سمع الطوري ذلك أمر ألا يلقب إلا به، فقالوا أسكيا محمد (السعدي، ص 72).

([4]) لا زالت سيرة سني علي عالقة بأذهان الناس في منطقة دلتا النيجر كملك غير عادي لشجاعته وقدرته على تغيير دولته فقد وضع في أساطير الأدب الشعبي كما هو في المقتطفات التالية:

- لقد طار سني Shi في الليل
- لقد حلق السني Shi مع أول أغنية لصياح الديك
- آل السني Shi يأخذ أي روح
- بأن يقتل الرجل بين الحذاء والقدم
- ويقتل بين السرة والرقبة. انظر:

Jean.Rouch, Op. Cit , P. 141.

([5]) المغيلي، مخطوط الجزائر نهاية الوجه الثاني من الصفحة الخامسة (أ) حيث يؤكد أن سني علي لم يكن على قواعد الدين الصحيح.

و إذا نظرنا إلى الحاكم "سني علي"، نجد أن تصرفاته الخاصة من عدم فهمه الصحيح للدين الإسلامي كانت من العوامل التي أدت إلى انقلاب العلماء، و رجال الدين ضده [1]، حيث أنه بنظامه السياسي لم يتوافق مع الشريعة الإسلامية، على الرغم من أن دولة سُنغاي ذات هوية إسلامية، إلا أن أربعة قرون منذ دخول الإسلام إلى المنطقة لم تستطع أن تزيل آثار التقالد الموروثة[2].

و يمكن القول أن رؤية العلماء و رجال الدين في دولة سنغاي كانت تنبع من تطبيق الشريعة الإسلامية، فلم يكن لهم تطلعات نحو تولي السلطة، و لكن كان عليه أن يلتمس نصيحتهم فيما يخص المسائل التشريعية، وكذلك القضائية. و بمعنى آخر فإنه كان على الحاكم الأخذ بروح المشورة التي تتفق مع الشريعة الإسلامية[3].

نحن إذن أمام صراع في الثقافات، فالعرش يمثل رمزا للثقافة السُنغائية التقليدية أمام قوة العلماء ورجال الدين للمحافظة على روح الإسلام.

و لقد تعارضت أهداف وثقافة سني علي مع العقيدة الإسلامية أثناء تتويجه عام 869هـ/1464م إذ تذكر بعض المصادر التاريخية أنه استوعب بعضا من التعاليم الإسلامية، في الوقت نفسه ظل مُحافظاً على الأمور التقليدية الوثنية التي تخص عبادة

([1]) عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص136.

([2]) المغيلي، مخطوط الجزائر، نهاية الوجه الثاني من ص 5 (أ) حيث أن فكرة الاستشارة ستدل عليها في تلك الأسئلة والإجابات ولذلك فقد نظر إلى الأسكيا محمد على أنه حاكم مسلم طبق تعاليم الإسلام فهو يأخذ بنصيحة المستشارين قبل أن يضع القوانين الهامة.

- El-Haji Ravane Mbaye (translation and annotation), " Un aperçu de l'islam songhay ou Réponses d'Al-Maghili aux questions posées par Askia el-Hadji Muhammad, empereur de Gao," Bulletin de l'IFAN Série B XXXIV, no. 2 (1972), P-P 23-26

- Louis Gardet, La cité musulman, Vie sociale et Politique , Revue des Sciences Religieuses, Paris , 1969 , p. 23.

([3]) المغيلي، المخطوط السابق نفس الصفحة، حيث يؤكد أن سني علي لم يكن مطلقاً على قواعد الدين الصحيح ويعتقد سيسوكو وجون هونويك أن فارا منطقة الإقليم الخاص بأم سني علي وهي ضمن إقليم الهوسا في حين أن مباي يرى أنها تقع في داهومي (وهي بنين حاليا).

الأسلاف، وكان ذلك من خلال تأثير أمه، في أن يصبح مخلصاً و وفياً لهذه الأمور الخفية، كما ورث أيضاً الطقوس السحرية، و مزاولتها[1].

لقد كان سني علي ملكاً ساحراً بلا منازع، وربما واحداً من أكثرهم قوة و موهبة في السحر الذي عرف به السودان الغربي[2]؛ وهذه الطقوس الدينية و اعتقادها في الغيبيات ربما كانت ترى على أنها الديانات الأصلية و التي تطور و نما حولها الإسلام في صورة متسامحة حتى السنوات الحرجة من حكم سني علي[3].

و علاوة على ذلك، يمكن أن نعتبر سني علي مسلماً حقيقياً كما يستدل عليه من اسمه، فكل المؤرخين يشيرون إلى أنه اتبع تعاليم الإسلام من خلال صومه لشهر رمضان، و تقديمه فروض الزكاة، والصدقات الكثيرة على شكل حيوانات و ذبائح، هذا بخلاف أشياء كثيرة من الهبات إلى ذوي الحاجة و الفقراء كذلك لم ينس تقديره للعلماء، إذ وزع جزءا من الغنائم بين المعلمين و الفقهاء[4]؛ فمن شدة حرصه على تقديرهم، ذكر على حد قوله (لا تطيب الدنيا بدون هؤلاء العلماء) [5].

و قد تقرب منه القضاة، و منهم القاضي حبيب ذو المنزلة الرفيعة حفيد الشيخ عبد الرحمن التميمي الذي جاء من بلاد الجزيرة العربية مع السلطان منسى موسى[6]، و أبدى احتراماً للمأمون ابن عم حبيب بأن قربه من مجلسه [7]، و مع ذلك فالمؤرخون يتساءلون عن عن ماهية عهده ومدى التزامه بالإسلام ؟ فطبقا للمغيلي الذي علق على ما يتردد من الشائعات التي تخص التزاماته الشرعية، فقد منع السلطان بطانته و حاشيته من أداء شعائرهم بانتظام، و تجاهل قواعد أحكام الزواج الإسلامية[8].

([1]) بوفيل، الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، تر: زاهر رياض الأنجلو، 1968، ص-ص 134 – 135.

([2]) Cissoko,Op.cit, P.51 .J.Rouch, La Religion et la magie des Songhay,Op.Cit ,P-P 8- 48
و أيضا: عبد الرحمن زكي، المرجع السابق، ص 136.

([3]) هناك رواية تقول بأن جدة السعدي من ناحية الأم كانت جارية تم أسرها في منطقة مسينا وقدمت إلى جد السعدي حيث أنجبت له السعدي.

([4]) السعدي، المصدر السابق، ص 68.

([5]) نفسه، ص 51 .أمطير سعد غيث، المرجع السابق، ص176.

([6]) التنبكتي، المصدر السابق، ص26 وما بعدها.

([7]) El-Haji Ravane Mbaye, Op. cit , P. 250.

([8]) Ibid , P. 110.

و قد كتب مؤرخ آخر عنه بأنه تلاعب بالدين فلم يأخذه على محمل الجِد، بأن أجل صلواته الخمس حتى المساء، أو حتى اليوم التالي[1]، و لذلك فهو خروج عن تطبيق الدين الإسلامي الصحيح. علاوة على ذلك، فإن طريقة سني علي بالنسبة للحكم قامت على نظام صارم تجاه رعيته، إذ أنه كان يشك في المعارضة، و فرض العمل الإجباري القائم على السُخرة، و فرض التجنيد الإلزامي ليؤكد استعدادات جيشه للحرب[2]، و يذكر عنه أنه في ثناء نوبات من الغضب و الشك غالباً ما يسجن، أو يقتل بعض المقربين الرسميين إليه بغض النظر عن دينهم[3].

و لمرات عديدة هاجم واستعبد مجتمعات الفولاني، ربما بسبب بداوتهم، وكذلك لاستبداده، و فرض ضرائب باهظة على الأسر النبيلة في تمبكتو من أعوام 1469 إلى 1473م، و مرة ثانية بين أعوام 1485م إلى سنة 1492م[4]. و على الرغم من أن أسباب ظلمه على المستوى الواسع لازالت مجهولة، إلا أن الحقائق واضحة تماما، فعند غزواته ارتكب العديد من المذابح، و سبى النساء الشابات، و أبعد الكثير من القادة المحليين[5].

و لعل هذا يوضح الخروج الجماعي لنخبة العلماء و الفقهاء عليه في العديد من المدن مثل ولاتا أو تشيت و تاكيدا في الصحراء.

و سرعان ما خبت حدة عملية الصراع القائمة بين العرش و النخبة المثقفة في الأعوام 882هـ/1477م الى 890هـ/1485م، مما جعل العديد من الأسر الهاربة تعود إلى موطنها بفضل تدخل القاضي حبيب. و بصورة عكسية في منتصف عام 885هـ/1480م نشهد موجة جديدة من البطش و الظلم سجلها المؤرخ محمود كعت باختطاف النبيلات الشابات

---

(1) C. F. Hunwick, Op. Cit . , P. 320.

(2) السعدي، المصدر السابق، ص 44.

(3) كراهية سني علي لشعب الفولاني من الصعب أن نشرحها لأن النصوص لا تقدم أي مفتاح لهذا اللغز ومن المحتمل أن نجد مجتمعات الفولاني دائماً متقلبين في منطقة مسينيا وذلك ليحافظوا على استقلالهم وأسلوب حياتهم كبدو يعيشون بين الناس المقيمين الغير رحل. انظر: محمود كعت، المصدر السابق، ص 44.

(4) لقد تركت المذبحة انطباعا مريراً بأن أمداغا وهي المنطقة التي وقعت فيها هذه المذبحة ولا زالت معروفة لدى البعض من الناس، انظر السعدي، المصدر السابق ص–ص 266 – 68 وانظر المغيلي، المخطوط السابق، نهاية الورقة 6 (ب).

(5) انظر محمود كعت، المصدر السابق، ص43 . بوفيل، المرجع السابق ص– ص 136 – 37.

من قبل الجنود بصورة وحشية والقبض التعسفي[1]. و بعد أن أطيح بحاكم تمبكتو المختار وسجنه في عام 891هـ/1486م، حكم المدينة رئيس جديد مستبد، و زاد الخروج بفرار الناس بشدة في سنة 894هـ/1489م عندما صدر مرسوم ملكي أجبر جزءاً من السكان المتبقيين على أن يتجهوا الى بلدة هاويكيتHawikit و هى مدينة من السهل السيطرة عليها و هى تقع على بعد خمسة أميال جنوب كبارا Kabara على نهر النيجر[2].

لقد اشتد الصراع بين العرش وكبار العلماء و الفقهاء نتيجة الممارسات من قبل التاج إزاء رعيته، ولصراع الثقافات في سُنغاي ما بين الهوية الإسلامية و الثقافات التقليدية القديمة[3]. و قد مات رمز الثقافة السنغائية سني علي الكبير بعد حكم استمر قرابة ثمانية و عشرين عاما، وذلك في يوم 15 محرم سنة 898هـ/7 نوفمبر 1492م [4]. وقد اختلف المؤرخون في سبب موته، إلا أننا أمام تحولات في مجتمع سنغاي فقد نظر إليها بعض المؤرخين من منظور إسلامي على أن تبرير نجاح نخبة المثقفين من العلماء و الفقهاء في صدهم لسياسة سني علي الكبير على الرغم من سيطرته على منطقة منحنى حوض نهر النيجر من ناحية الرقعة السكانية و الطرق التجارية.

و بعبارة أخرى، فقد فشل سني علي في المحافظة على التوازن الدقيق بين المثقفين من العلماء و الفقهاء المسلمين و الوثنيين المحليين [5]. و قد عاش سني علي في فكرة المحافظة على التوازن بين قوة الإسلام و عبادات الأسلاف، و شكل الحكم مهتما بسياسة التحالف على أن يتخلى المتعلمون و المثقفون عن تمسكهم بوجهة نظرهم في التحالف مع الطوارق. و مع ذلك فإن هذه التسوية لم تكن مقبولة لدى العلماء الذين أعطوا إخلاصهم للطوارق إخوانهم في الدين بالإضافة إلى أنها مُتعارضة مع مُثُلِهم الدينية التي تنكر الوثنية[6].

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص43 . انظر الخريطة شكل (1).

([2]) المغيلي، المخطوط السابق، نهاية الوجه الثاني من ورقة 5 (ب).

([3]) محمود كعت، المصدر السابق، ص–ص 43 – 44.

([4]) C. F. Hunwick, Op. Cit ., P. 301 – 2.

([5]) C. F. Horton, On the Nationality Convention , Part 2 , Africa , XLVIV , 1975 , P. 375.

([6]) في الحقيقة أن حج أسكيا محمد إلى مكة سنة 1495م حقق هذا الهدف حيث أصبح قائما بأعمال الخليفة انظر: السعدي، المصدر السابق، ص73 . محمد أنور أبو علم، المرجع السابق، ص40 وما بعدها.

و لقد فكر هؤلاء العلماء في أن يجعلوا سُنغاي دولة تابعة، أو خاضعة للخلافة الإسلامية[1]، و لذلك نشروا أفكارهم التي تبرر خروجهم على السلطة في سُنغاي بعد وفاة السلطان سني علي كبير في سنة 898هـ/1492م[2].

المبحث السادس: دور العلم و العلماء في تبديل وإحلال نظام الحكم في سُنغاي:

ارتقى العرش في مملكة سُنغاي في سنة 898هـ/21 يناير 1492م ابن سني علي الكبير المدعو أبوبكر و كنيته: سني بارو وسط أجواء من المعارضة، و خاصة من جانب محمد طوري المدعو باسم: منسى كورا (والباراكوي) ، و هو من قادة المنطقة العسكرية حول "بحيرة ديبو"Debo ، مما أدى إلى حدوث انقسام حاد في الجيش الملكي [3]. و حسب إشارات المؤرخ محمود كعت فإن المجابهة قد بدأت تحتد بعد أن اتبع محمد طوري الشروط الأساسية لإعلان الجهاد في سبيل الله.

و قد رفض "سني باروا" أن يقسم بالولاء للدين الإسلامي، و من ثم الاعتراف به دينا رسمياً للدولة، و هو ما كان سببا في حدوث الكثير من مظاهر التمرد و العصيان. و بعد حرب فاشلة في فبراير سنة 899هـ/1493م، فإن محمد طوري وجيشه المسلم هزم الموالين لمملكة سُنغاي في ساحة "معركة أنافو"، بالقرب من مدينة جاو في 12 أبريل سنة 899هـ/1493م. و هرب سني علي باروا إلى دنديDendi في الأقاليم الجنوبية كما ذكر ذلك أحد المؤرخين بقوله: "**إن الله حرر المسلمين من الكرب ومن الأسى..**" [4]. و من خلال الملك الجديد فإنه وضع حداً للمعاناة التي كانوا يكابدونها.

([1]) السعدي، المصدر السابق، ص– ص 66 – 68.

([2]) محمود كعت، المصدر السابق، ص– ص 54 – 55.

([3]) أرسل وفدا بقيادة الشريف محمد طوري يطلب من سني بارو أن يعتنق الإسلام وقد رفض الملك لأنه كان لديه خوف على ملكه فثار على السني الجديد حزب إسلامي بقيادة الهومبو ريكو محمد وأخيه عمر كومدياغو وهزمه في أنفاو قرب جاو واستولى محمد طوري أو سيلا على السلطة و أطلق على نفسه الأسكيا محمد وأسس أسرة حاكمة مسلمة. انظر:

J. O. Hunwick, its author and textual history , Research Bulletin of the center of Arabic documentation , Ibadan University (Dec. 1969) , P. 57 – 65.

([4]) عبد الكريم، عصر المولا أحمد المنصور الذهبي، رسالة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة، مصر، (د.ت). انظر الخريطة شكل (6).

و بهذا النصر بدأ عهد جديد من السلام بعد أن استسلمت الأسرة الحاكمة إلى حكم الأسكيا على الرغم من أن كل الأسكيين لم يكونوا مسلمين أتقياء بمعنى الكلمة و إن اهتموا بمكانة و مصالح العلماء. و لذلك فإن سرعة انتشار الإسلام زادت حتى وصول الغزو المغربي في سنة 1000هـ/1591م[1]، و إن نجاح هذا التحالف القائم بين العلماء و جزء كبير من القادة العسكريين كان قادراً على نجاح الإسلام في الانتصار على سني علي و ابنه بعد انتشار روح السخط و الازدراء تجاههم. و لعل هذا يوضح أن سياسة الكبت و القهر التي اتبعها سني علي ساهمت بطريقة غير مباشرة في صنع هذا التحالف بين نخبة العسكريين و النخبة المثقفة من العلماء و الفقهاء و هي إن دلت على شيء فإنما تدل على روابط اجتماعية جديدة قد برزت في مجتمع سُنغاي[2].

و يمكن القول بأن الجيش صار يمثل قوة حقيقية، و أن التحالف بين كل من الصفوة الفكرية والعسكرية، كان عملاً حاسماً وقوياً للثورة ضد السلطان سني علي و ابنه، و نستطيع أن نوجز أسبابها فيما يلي:

– أن الأحداث في مدينة تمبكتو أظهرت أن هيبة التاج قد أفلت نتيجة نجاح التحالف القائم بين المثقفين من العلماء و العسكريين و من ثم أصبح لها تأثير سياسي كبير في سياسة و حكم مملكة سُنغاي[3].

– إذا كانت السياسة الملكية قد حاولت أن تستقطب قوة العلماء والفقهاء فإن سياسة العنف و القهر لا يمكن أن تؤدي إلى سياسة الإذعان، و لهذا فإنه في سنة 898هـ/1492م ضاعت هيبة التاج بسبب الصراع الداخلي في صفوف الجيش و من ثم حدث الانقسام الذي نادى بعزل الملك نتيجة عدم قدرته على حل المشكلة الإسلامية و أقصد بها تطبيق الشريعة الإسلامية بشكلها الصحيح.

– على الرغم من نجاح سني علي الكبير في غزواته و معاركه العسكرية التي كرس لها أغلب وقته إلا أنه أهمل الشؤون الداخلية[1].

---

(1) Kaba , Archers , Musketerrs Moroccan Invasion of the Sudan & the Songhay resistance (1951 – 1612) , Afr , Hist. xxii , iv , (1481) , p. 457 – 75.

(2) المغيلي، المخطوط السابق، الورقة 9 ف (ب) نسخة الجزائر.

(3) نفسه، نهاية الوجه الثاني من ورقة 4 في (ب).
انظر أيضاً: N.Levtzion, The Western Maghrib & Sudan, Op. cit. , P. 427

– جاء محمد طوري و قد أخذ على عاتقه واجب الإنصاف لكل المظالم ضد أسرة سني علي الحاكمة فهو سليل أسرة تتمتع بسيرة إسلامية محافظة[2].

و في الواقع مع صعود أسرة الأسكيا محمد سنة (899هـ-1001هـ/1492-1592م) فإن الإسلام صار هو الأساس للنظام الجديد، إذ برزت نخبة من رجال الدين و العلماء الذين صاروا في ركاب سياسة القصر الملكي، و من ثم تحققت مصالحهم السياسية و بروز النظام الإسلامي في حكم سُنغاي[3]. لقد اكتسب عهد الأسكيا سمعته التاريخية كفترة ذهبية في تاريخ حضارة السودان الغربي وكنموذج للأجيال اللاحقة للقادة المسلمين في غربي إفريقية[4].

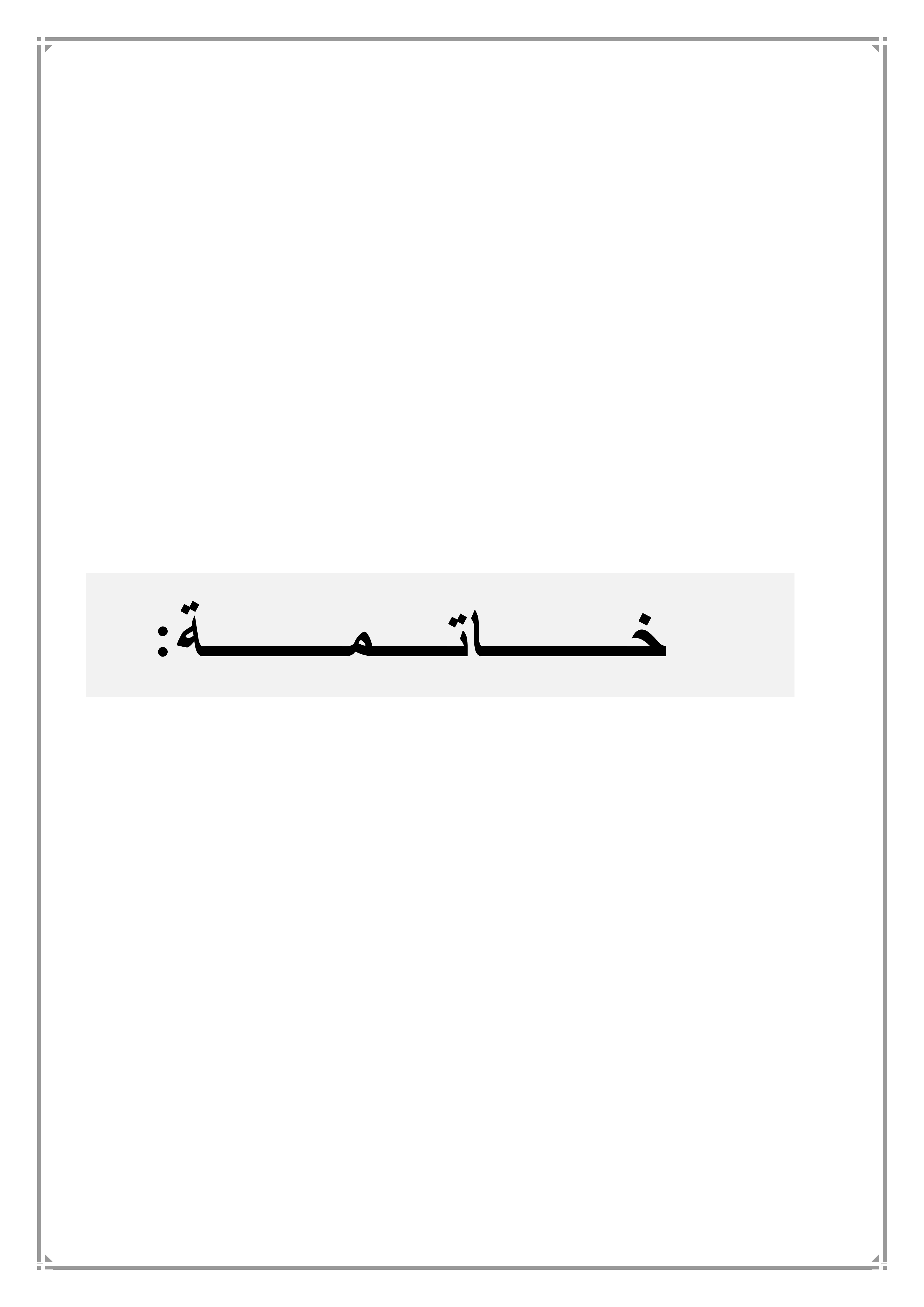
([1]) انظر المغيلي، المخطوط السابق، نهاية الوجه الثاني من ورقة 4 (ب).

([2]) نفسه، نهاية ورقة 15 (P).

([3]) عبد الله بن فودي، إيداع النسوخ من أخذت الشيوخ، مقال منشور في:

Bulletin of the School of Oriental & African Studies, No.19 , 3, 1957, P. 555.

([4]) نفسه.



خـــــاتــــمــــة:

خـــــاتـــــمـــــــة:

نخلص من هذه الدراسة بعدة نتائج نحاول إبرازها في الآتي:

أولاً: خرجنا بأن لم يوجد يوماً قط انقطعت فيه الصلة بيننا و بين بلاد السودان على مر العصور، هذا رغم وعورة و صعوبة الطرق و المسالك المؤدية من و إلى المغرب و السودان، فلم تقف الصحراء عائقاً في سبيل تقابل وتواصل الطرفين، بل قد كانت محبَذاً و مُشجِعاً على طلب الرحلة.

ثانياً: بدأت التأثيرات المغاربية بالمؤثرات الإقتصادية و التجارية وانتهت بالتأثيرات و المؤثرات الفكرية، من خلال نشر الدين الإسلامي و نظمه و علومه.

ثالثاً: دائماً و أبداً كان السودان الغربي يتطلع إلى الشمال أي بلاد المغارب و البيضان حيث الحضارة و الثقافة و الفكر.

رابعاً: أدت الهجرات المغاربية و جالياتها دوراً واضحاً في نشر الإسلام و تعريب العلوم تعريباً تاماً.

خامساً: قامت بلاد المغرب بدور واضح في نشر كافة العلوم الإسلامية و خاصة الشرعية، و ما ينتج عنها من تسرب و توغل العلماء و الأفكار و نقل الكتب و المكتبات المخطوطة إلى السودان الغربي.

سادساً: من يقرأ الكتب السوادنية و إبرازها للأحوال الاجتماعية و الإقتصادية و الثقافية يتصور أن يقرأ من أرض المغارب و الى المغارب، فالتأثر بالمغاربة في كل المجالات هو السمة المُميزة للسودان الغربي.

سابعاً: ساعد المغرب على بناء أجيال من الطبقات المحلية أخذت عدة قرون تنهل من المغاربة علومهم، حتى جاء أواخر القرن السادس عشر، و شاء السودان الغربي أن يعطي ما أخذه باحتكار العالم السوداني للأستاذية على المغاربة و في عقر دارهم بمراكش.

ثامناً: وجدنا تعلق دائم وحتى الآن من شعوب السودان الغربي بالإسلام الحنيف، و حاولوا بقدر إمكانهم على تنفيذ كل تعاليمه السمحة و أركانه الخمسة، حتى الحج.

تاسعاً: بالفعل وجدنا علماء سودانيين بارزين في منطقة السودان الغربي لا يقلوا بأي حال من الأحوال في رواية و تدريس العلوم الشرعية عن العرب و المغاربة، رغم أنهم دائماً يتعلمون و يتأثرون بالمغارب، و لكن في كثير من اللحظات يتفوق التلميذ على أستاذه.

عاشراً: أيضاً أن العلماء كانوا دائماً و أبداً مُقربين من ذوي الأمر و كلامهم مسموع، و على الجانب الآخر لا يخاف العلماء من قول الحق حتى أمام السلاطين أنفسهم، و هذا نابع عن تلعلقهم بتعاليم الدين الحنيف.

حادي عشر: أكد البحث أن تلك المنطقة من بلاد المغرب و بلاد السودان و ما يليهما كانت مرتبطة بعدة طرق، و وفرة من المسالك، و كثر من المراكز و المحطات التجارية أدت دورها الحضاري في التواصل ما بين الشمال و الجنوب على أكمل وجوهها و أتم مستوياتها- رغم الصعوبات الطبيعية و الجغرافية- و كافة أشكالها، أفضل و أحسن من العصر الحديث و العصر المعاصر لنا و الذي نعيش فيه، فلا نسمع الآن في عصرنا عن تلك الإرتباطات الحضارية الإسلامية الجمة، و الاتصالات المتعددة، و العلاقات المتوفرة!!!

ثاني عشر: أن هذا العصر الذي درسناه و ما قبله و ما بعدة مثلّ، ذروة انتشار العلوم الإنسانية و الاجتماعية الإسلامية، و في القلب منها العلوم الشرعية، و التي بدونها لا يفهم الدين الإسلامي و أمور العقيدة الإسلامية، و من غيرها ما انتشر الإسلام حاملاً معه

كافة النشاطات الحضارية الأخرى (السياسية و الإقتصادية...) و المؤثرات الثقافية و الفكرية إلى تلك المناطق.

ثالث عشر: وصلنا إلى أنه بالعلم و العلماء، و العلوم الشرعية و حملة مشاعلها، دخل النمط الحضاري الإسلامي في شؤون الحكم المحلي و التنظيم السياسي الأهلي في تلك المناطق، و حل محلهم، و توطدت أعمدته و تمكنت مؤسساته من السريان في جسد الأنظمة السياسية، مما أنتج لنا أول انقلاب إسلامي في المنطقة ممثل في تحالف العسكر و العلماء لتغيير و تبديل الحكم في سُنغاي من أسرة سني على الوثنية إلى أسرة الأساكي الإسلامية.

رابع عشر: لاحظنا وتأكدنا من خلال بحثنا المتواضع أن الطابع المميز لبلاد السودان الغربي هو نقل العلوم الإسلامية وفي وسطها العلوم الشرعية غير التطبيقة، أما العلوم التطبيقية و العلمية البحتة كعلم الطب و علم العمارة و الكمياء و غيرة، و الذي كان مزدهر في المشرق و المغرب و الأندلس حينذاك لم ينقل إلا في استهلاكه دون البراعة و التأليف فيه من الطبقات الثقافية المحلية مثل العلوم الشرعية.

خامس عشر: لاحظنا بعد مواصلة سيرنا في تلك الدراسة أن التأثيرات الحضارية الإسلامية المغاربية في تلك المنطقة في الاتصالات و العلاقات و الصلات أدت دورها و لعبت عواملها في التغيير الاجتماعي على قدر ما استطاعت، و لكن دائماً و أبداً ستظل العوامل المحلية و معتقداتها و موروثاتها، تسير إلى جانب تلك التأثيرات الحضارية الوافدة ما سيتم تغيره سيتغير، و ما غيره يستطيع البقاء.

سادس عشر: تأكدنا أن العلوم الشرعية و حملتها لا تقف عند حد العلوم التي رُسمت لنا في بحثنا، بل كانت و لابد أن يساعدها على مهام أنشطتها علوم مساعدة أخرى كعلوم اللغة و الآداب و غيرها، على الأقل حتى تفهم اللغة العربية.

سابع عشر: و جدنا أن الحركة الشرعية و علومها و علمائها في السودان الغربي تميزت بالنقل و التقليد والأصالة، رغم ظهور حركات التأليف المتعددة على كافة مستوياتها و إطاراتها، إلا أنه كان ينقصها بالفعل المرحلة الابتكارية و السمة الإبداعية كما حدث في بلاد المغرب والأندلس كعلماء كابن خلدون و ابن رشد..وغيرهم.

ثامن عشر: وجدنا أنه لأول مرة في تاريخ المنطقة (السودان الغربي)، تتوحد سياسياً و عقدياً و مذهبياً و جغرافياً – بعد مراحل التفكك و التشرذم – تحت إطار واحد إلا و هو الإطار الحضاري الإسلامي، حتى و لو كان البعض منه ظاهرياً.

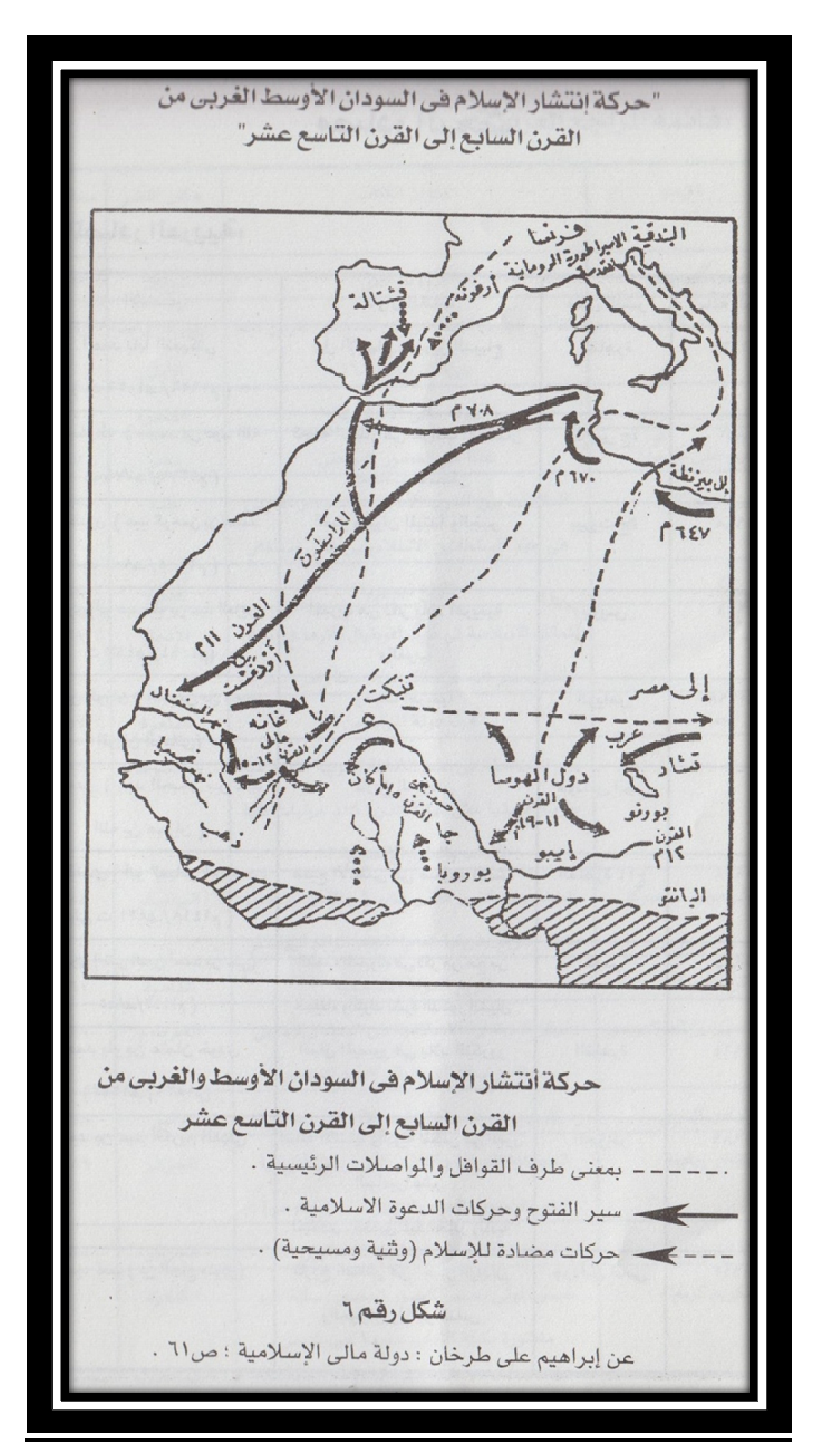
تاسع عشر: لا ننكر وجود بعض الصلات والمؤثرات الأندلسية على منطقة السودان الغربي عبر بلدان المغرب العربي، فقد كانت المدن الأندلسية على علم تام بما يدور في منطقة السودان العربي و تشكّلاتها الحضارية.

العشرون: إذا كان للمغاربة الفضل في نشر العلوم الإسلامية و منها الشرعية إلى منطقة السودان الغربي و المناطق الأخرى و ما حولها، فيرجع لمحلي و وطني السودان الغربي الدور الأكبر في وصول تلك العلوم الإسلامية و الشرعية الى المناطق المجاورة و حتى غابات غينيا عن طريق تجار الماندينج و الونقارة، و دليلنا على هذا هو إدعاء الشعوب الساحلية و حتى الآن النسب لتلك الإمبراطوريات التي قامت في السودان الغربي كغانا/أكرا، و نيجيريا/أبوجا.

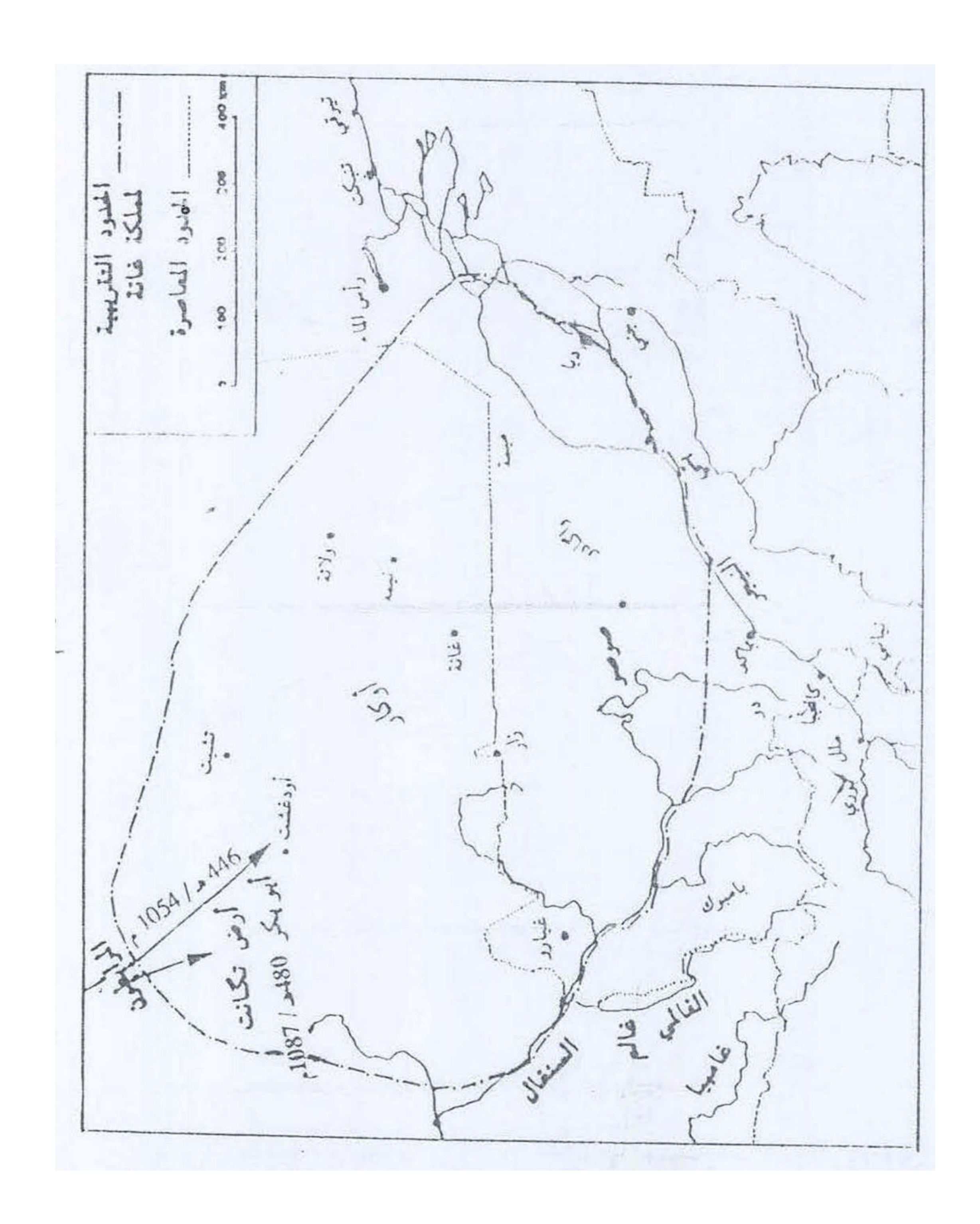
و في الختام نسأل الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم
و صلى الله و سلم على سيدنا محمد و آله أجمعين.

ملاحق البحث

أشكال و خرائط توضيحية:



الخريطة رقم 01

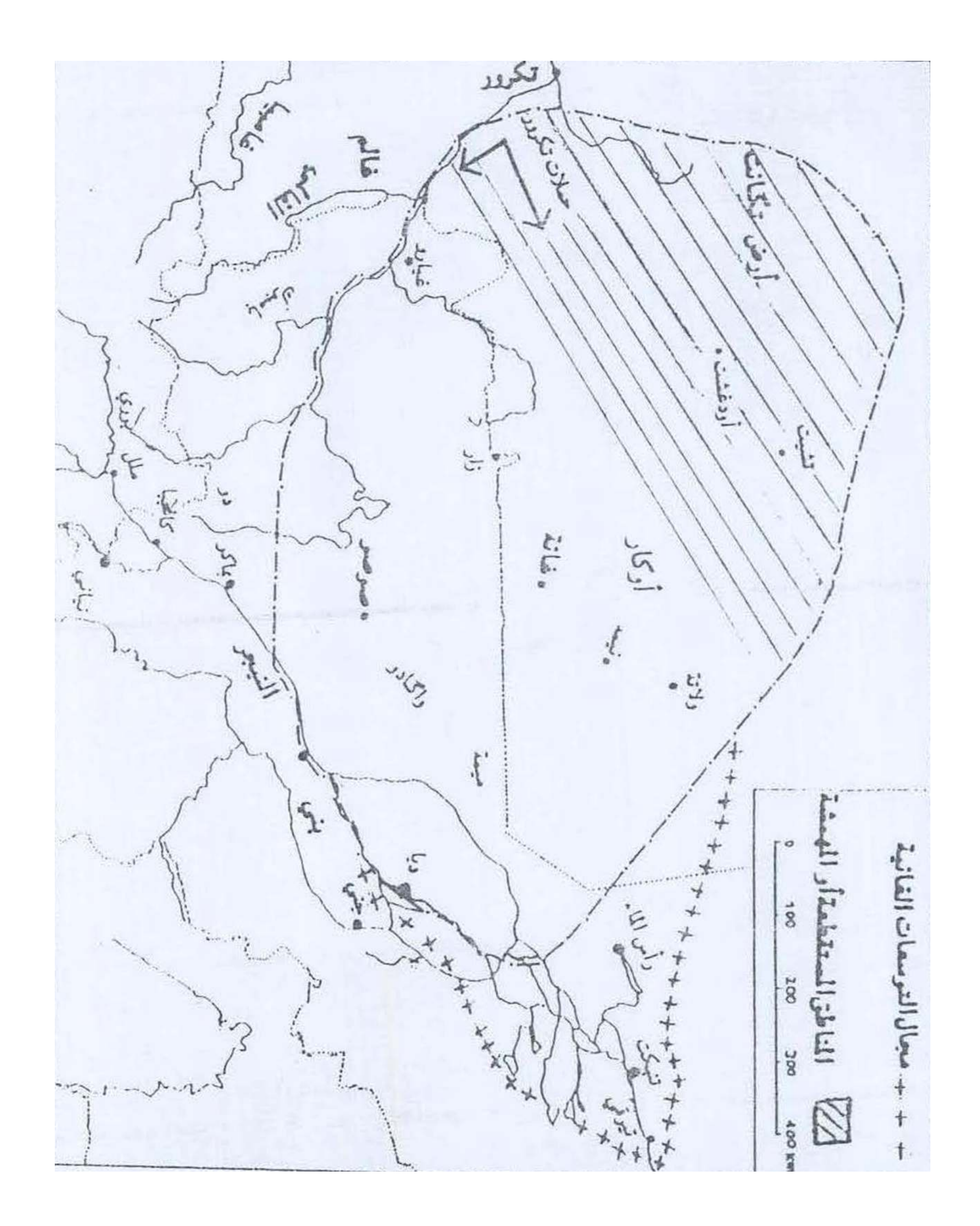


مملكة غانة في بداية القرن الخامس الهجري (11م)

نقلا عن ريموند مونى بتصرف

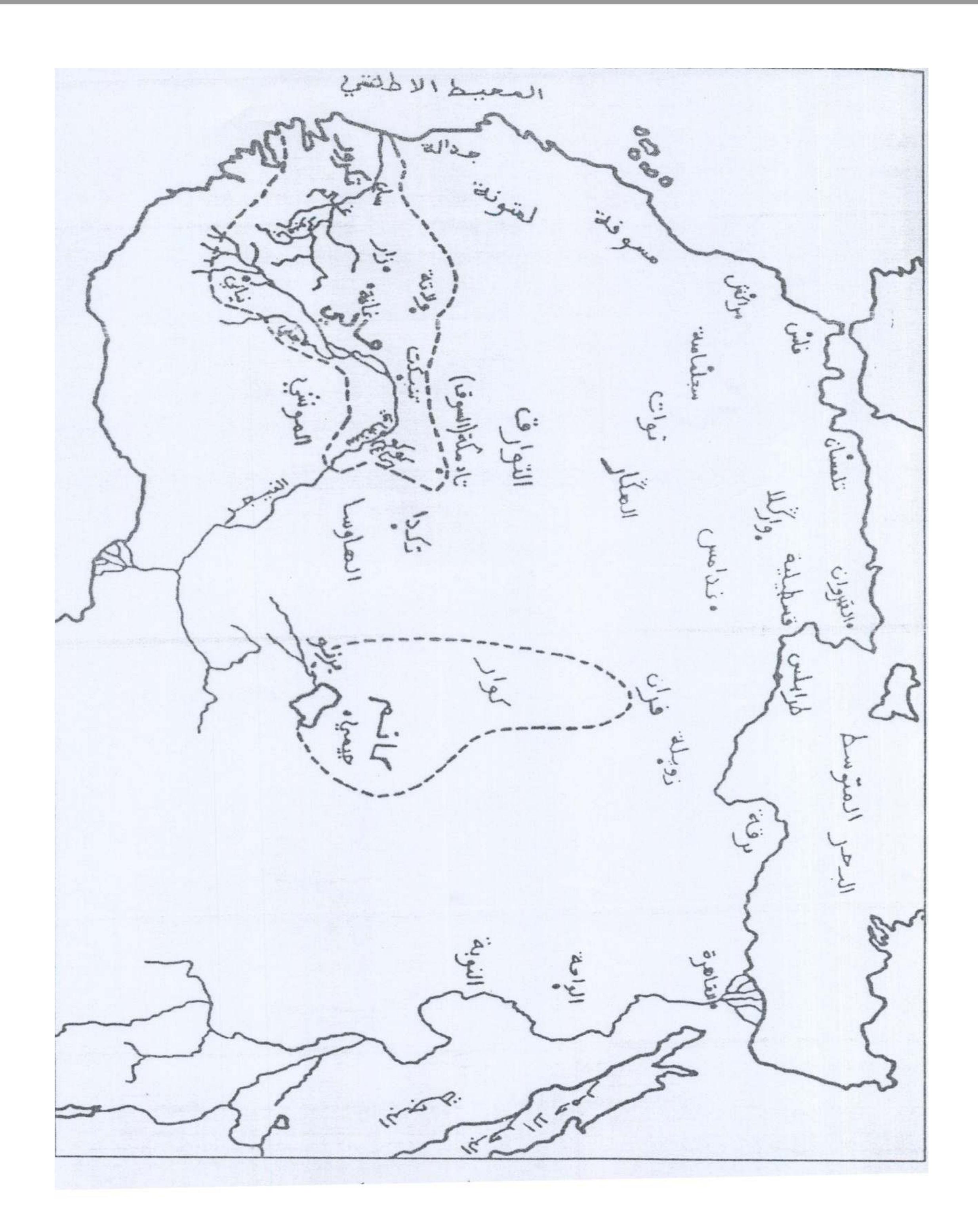
Tableau Geographique.., P. 510

الخريطة رقم 02



مملكة غانة بعد تعديلات منتصف القرن السادس الهجري (12م)

الخريطة رقم 03

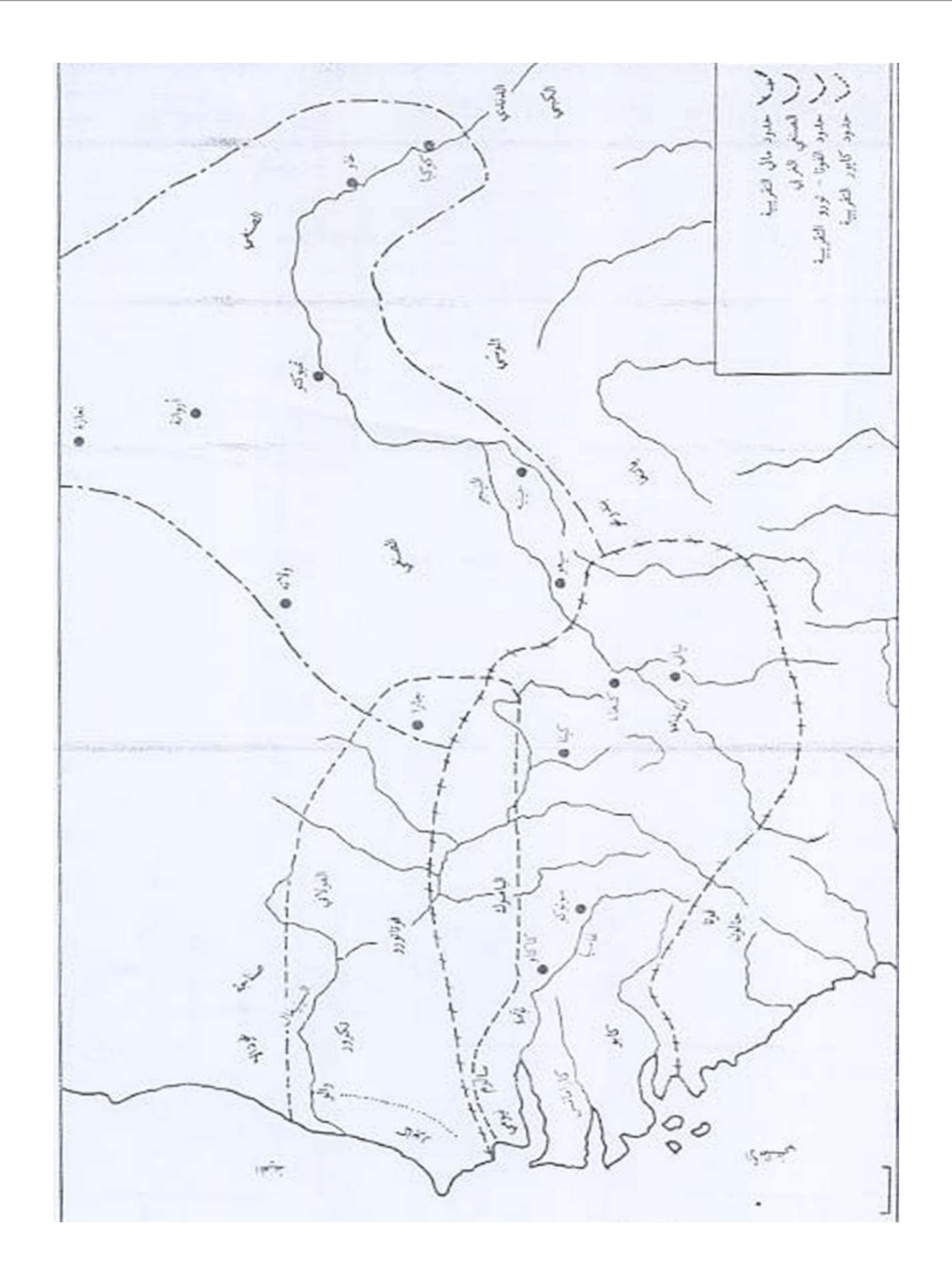


إمبراطوريتا مالي وكانم

(قرابة سنة 750هـ/1350م)

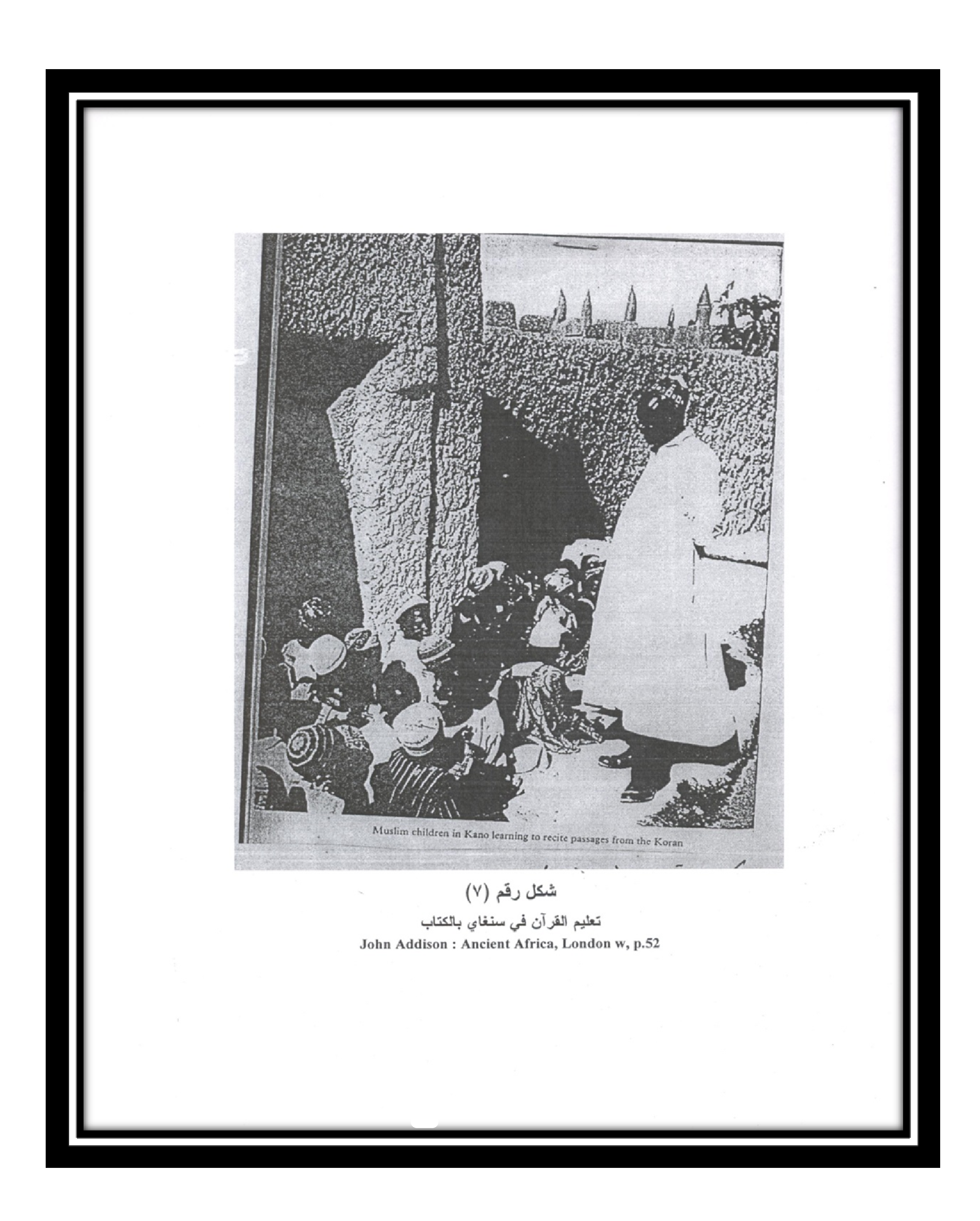
نقلا عن يوسف كيوك بتصرف Histoire de L' Islamisation, P. 77.

الخريطة رقم 04



دول السودان في القرن السادس عشر (ج. بازان)

الخريطة رقم 05


Muslim children in Kano learning to recite passages from the Koran

شكل رقم (٧)

تعليم القرآن في سنغاي بالكتاب

John Addison : Ancient Africa, London w, p.52

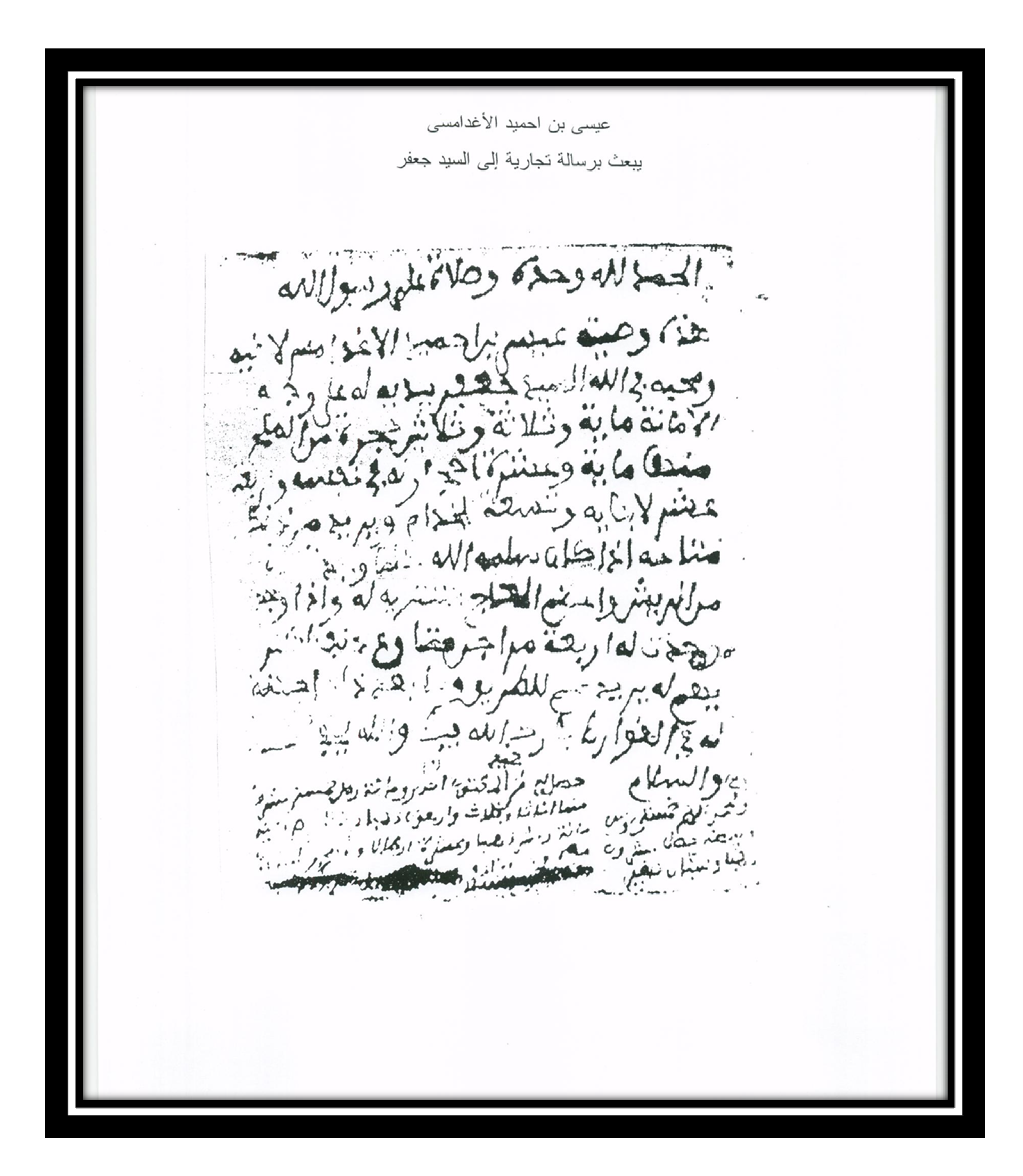
شكل رقم 06

عبدالله بن حسون يبعث برسالة

تجارية إلى ابن أخيه محمد سالم بن عمار

الحمد لله وحده ولا يدوم إلا ملكه

خبر السوق، مخطوط، مركز أحمد بابا التمبكتي، تحت رقم 4604.



عيسى بن احميد الأغدامسي

يبعث برسالة تجارية إلى السيد جعفر

الحمد لله وحده وصلاة على رسول الله

هذه وصية عيسى بن احميد الأغدا[مسي] [illegible]

[illegible]

والسلام

خبر السوق، مخطوط، مركز أحمد بابا التمبكتي، تحت رقم 4604.

عبيد ربـــه حمد السلام الفاسي

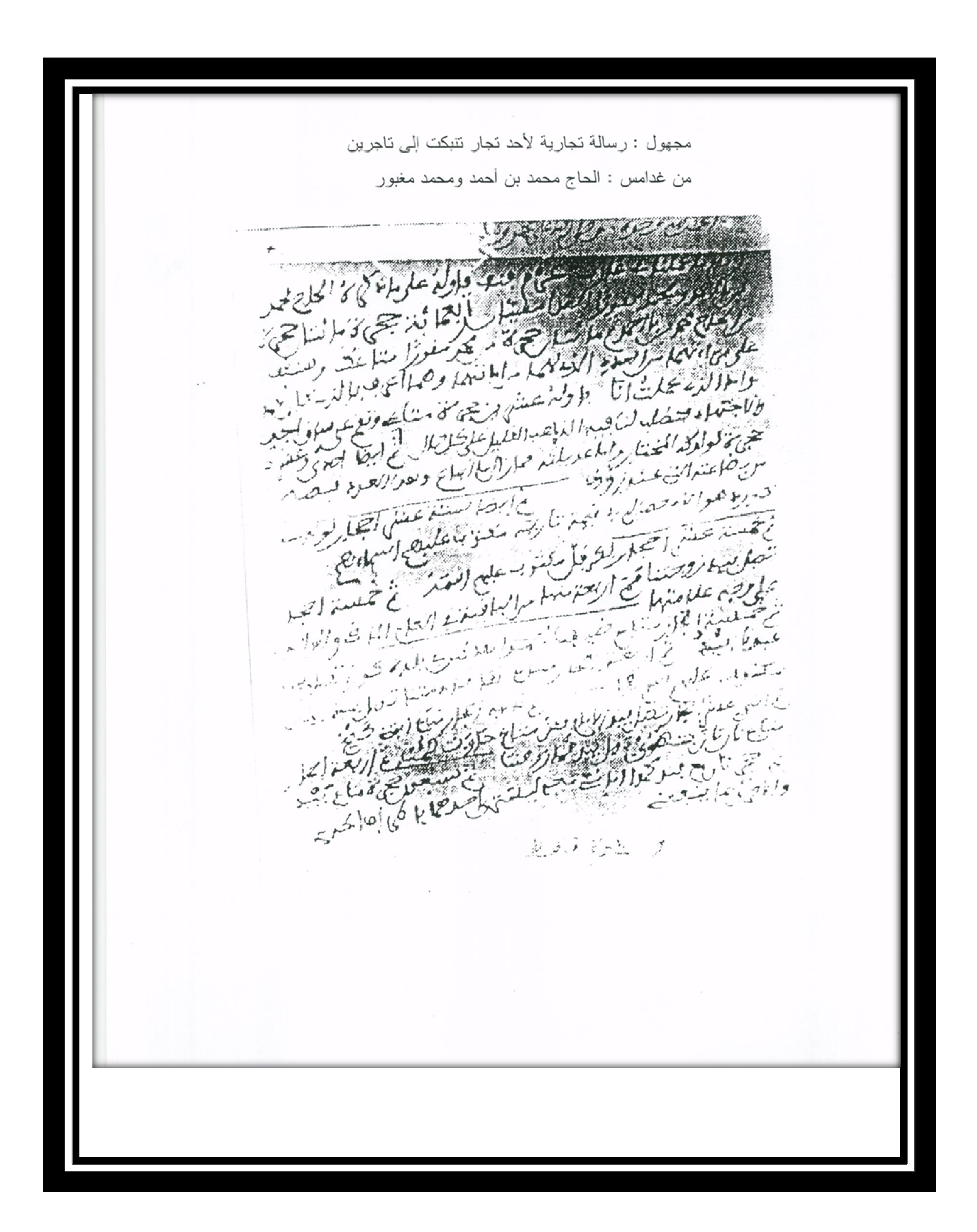
يبعث برسالة تجارية إلى الشـــريف حامـــد

خبر السوق، مخطوط، مركز أحمد بابا التمبكتي، تحت رقم 4604.

محمــد بــن عــب يبعث برسالة

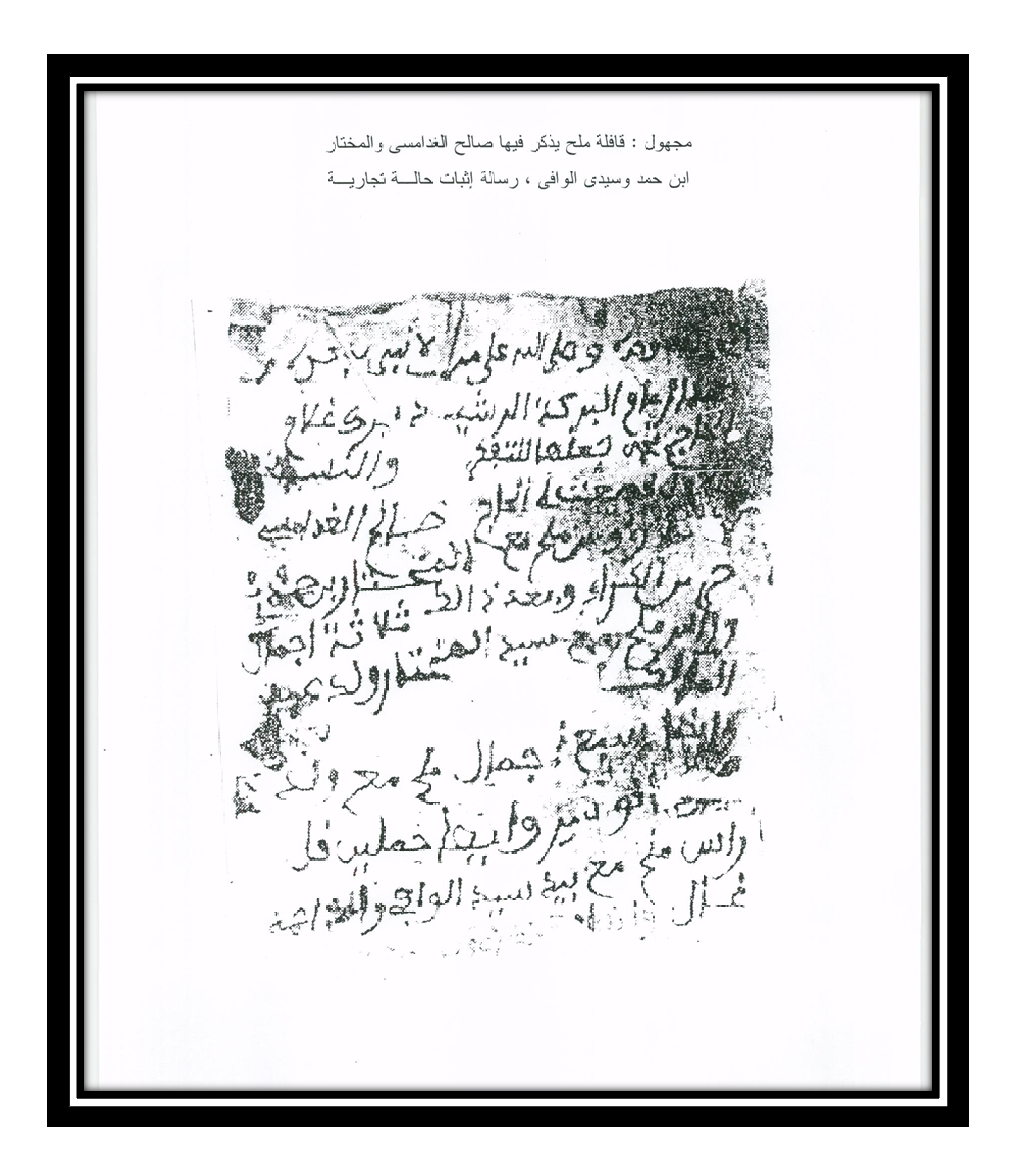
تجارية إلى بكــار بــن حيــد

خبر السوق، مخطوط، مركز أحمد بابا التمبكتي، تحت رقم 4604.


مجهول : رسالة تجارية لأحد تجار تنبكت إلى تاجرين

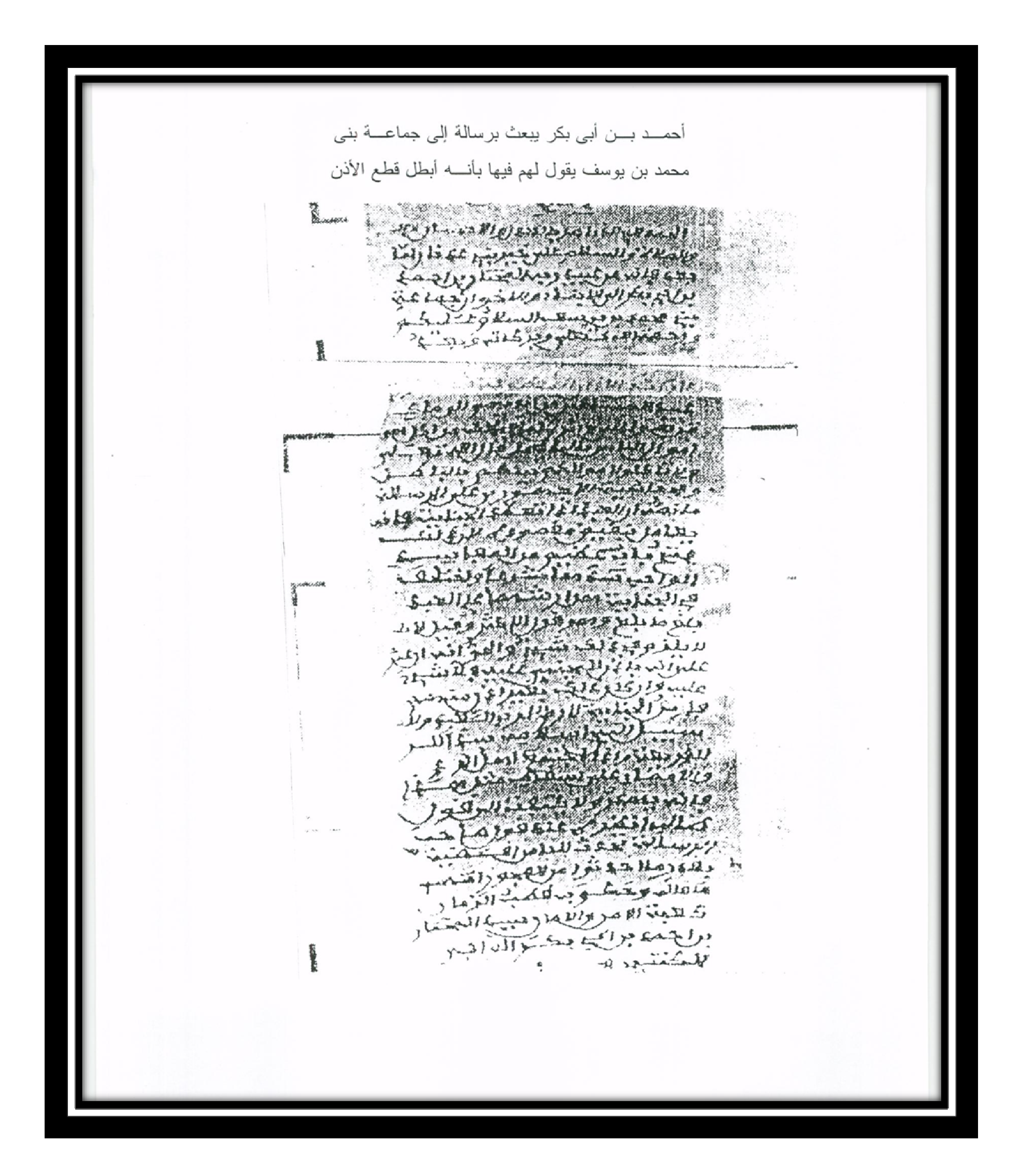
من غدامس : الحاج محمد بن أحمد ومحمد مغبور

خبر السوق، مخطوط، مركز أحمد بابا التمبكتي، تحت رقم 4604.



مجهول : قافلة ملح يذكر فيها صالح الغدامسى والمختار
ابن حمد وسيدى الوافى ، رسالة إثبات حالـــة تجاريـــة

خبر السوق، مخطوط، مركز أحمد بابا التمبكتي، تحت رقم 4604.


أحمـد بـن أبي بكر يبعث برسالة إلى جماعـة بني

محمد بن يوسف يقول لهم فيها بأنـه أبطل قطع الأذن

التمنرني، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، مخطوط في الخزانة العامة، الرباط، المغرب، مجموع رقم 3693.

رقم المخطوط فى مركز أحمد بابا	الرسوم الأهلية المكتوبة على الرسائل والوثائق والبضائـــع
١٢٤٧٧	[illegible]
١٢٣٦٩	[illegible] طرابلس
١٢٣٦٩	ه ا ا ا ا
١٢٣٧٠	I Λ [illegible]
١٢٣٧٤	[illegible]
١٢٣٦٠	[illegible]
١٢٣٥٢	[illegible]
١٢٣٨٩	ا٥ا [illegible]
١٢٣٩٦	د ز د ، اا ز د ، ز ح [illegible]
١٢٤٥٦	[illegible]
٥٤٨٤	X [illegible]
٥٤٦٣	[illegible]
٥٤٥٢	[illegible]
٥٤٤٧	[illegible]
٥٤٤٨	[illegible]

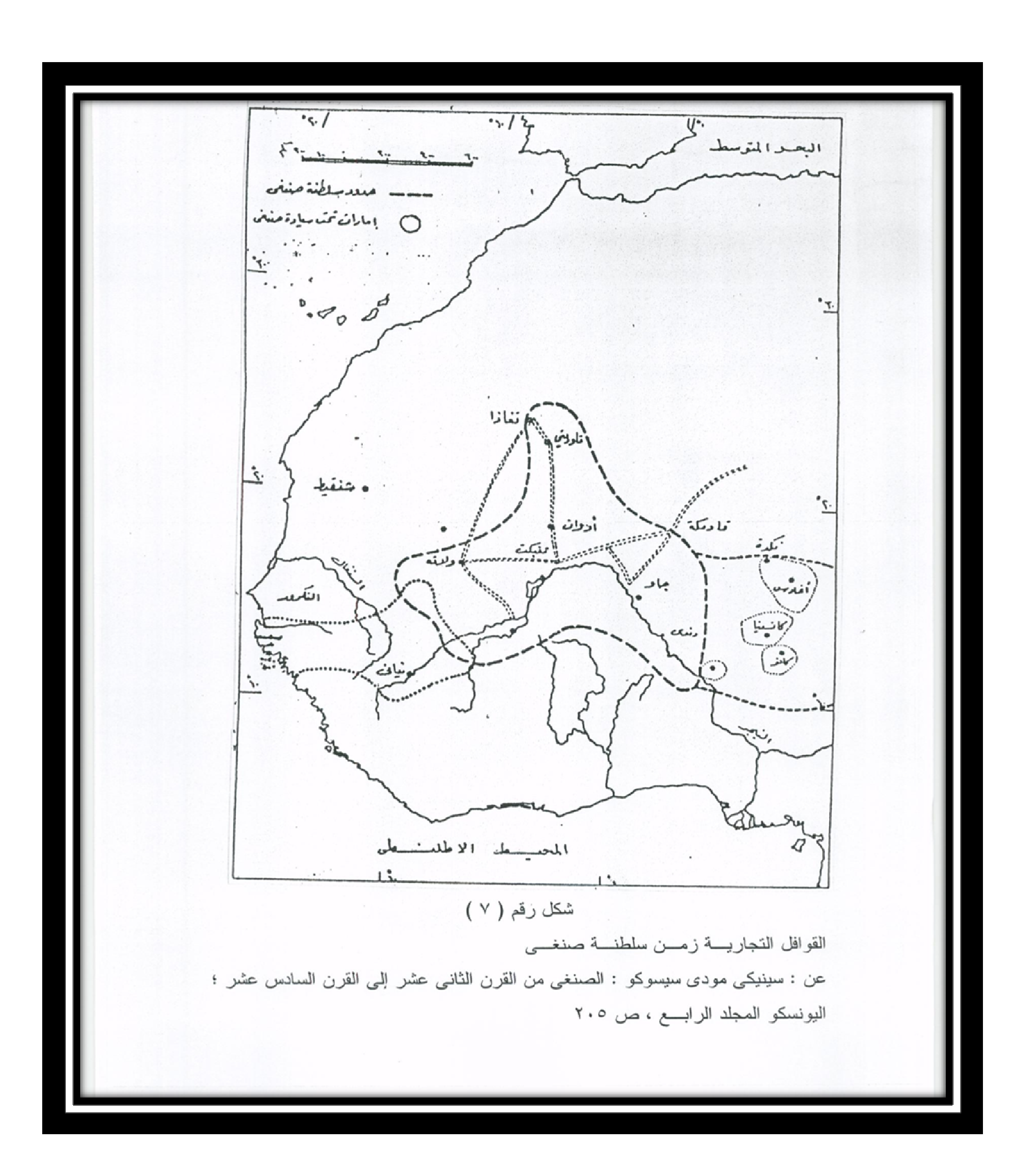
ولهذه الرسومات معان ولبعضها فوائد ومنافع يعرفها أربابها .

خبر السوق، مخطوط في مركز أحمد بابا التنبكتي، تحت رقم 4604.

قائمة السلع المتبادلة بين الجانبين (الجنوب والشمال)

– السكر – السجادة – القمح – الورق – القطن – الملابس الحريرية – الكتان – التمور – الزجاج التي على أشكال مختلفة مزينة ككؤوس الشاي– الطنافس – الحبات التي تدخل في تخريز السبحات – ما يدرج في عقود ويلبس على الأيدي والأعناق – المرجان الذي يدخل في صناعة الزينة . الودع . مصنوات النسيج . المنتوجات القطنية . منسوجات الحرير المعروف بالحرير . السويس . العطور . التطريزات الثمينة . الجلود المدبوغة.	– الذهب . الأرز . الليمون . الفضة . الدفن . البرتقال . الحرير الشعير . الحناء . النحاس . القمح . القصير . الفول . الحمير . الرصاص . الحم . لعاجل للفيل . الزرافة . النعامة . ريشها . شحومها . بيض النعامة . الجلود . أعمدة السيوف . الغنم . الخلاخل . الماعز . الأساور . البقرات ،الأطواق . الجمل . الخواتم . التماسيح . الرماح . الصوف . الخناجر . الحصير . النعال . الملح . السروج . الأكياس . نصب الخيام . العلك.

إبراهيم علي طرخان، إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصريةالعامة للتأليف و النشر، القاهرة، 1970م، ص49.



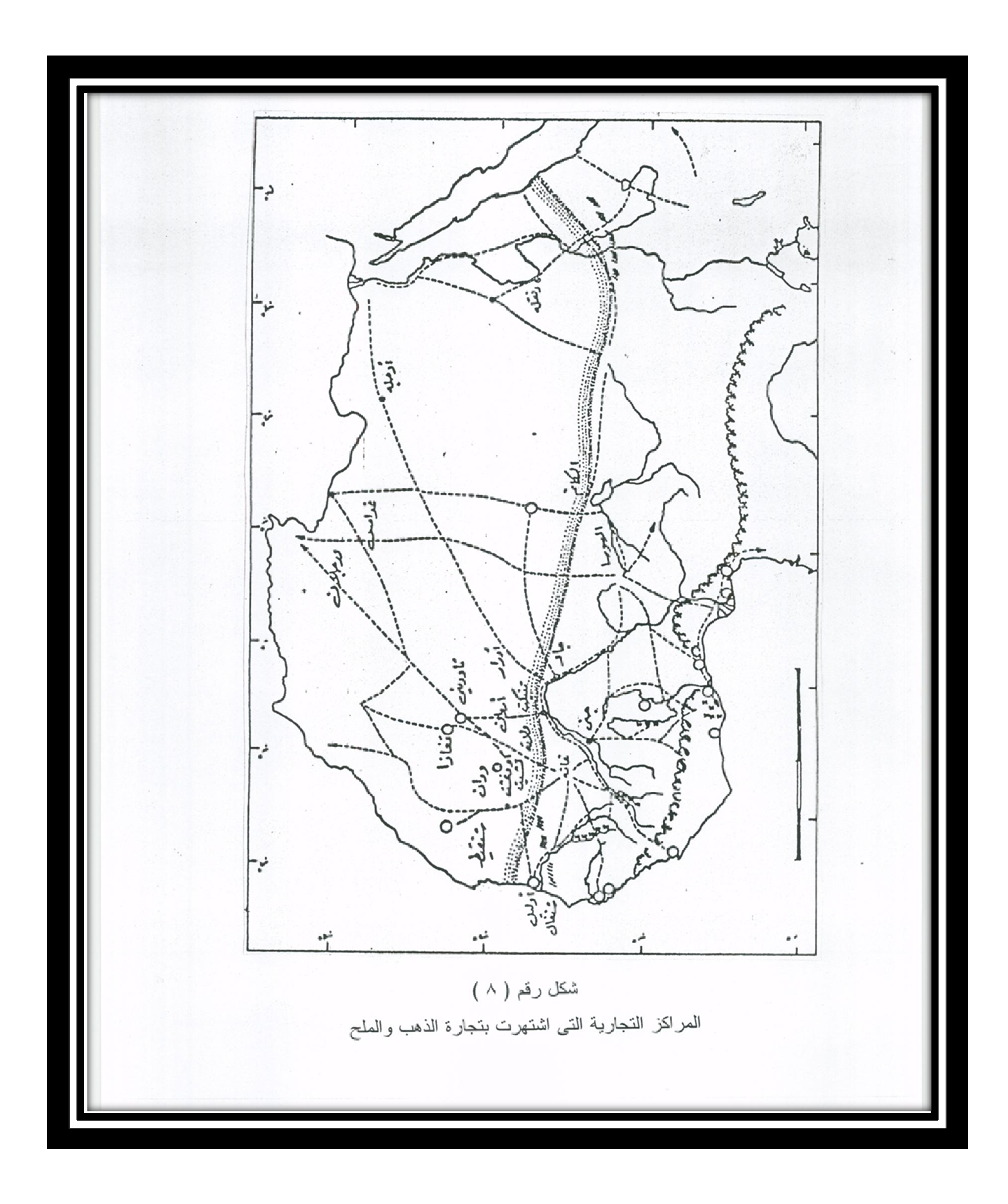
شكل رقم (٧)

القوافل التجاريـــة زمـــن سلطنـــة صنغـــى

عن : سينيكى مودى سيسوكو : الصنغى من القرن الثانى عشر إلى القرن السادس عشر ؛

اليونسكو المجلد الرابـــع ، ص ٢٠٥

الخريطة رقم 07



شكل رقم (٨)

المراكز التجارية التى اشتهرت بتجارة الذهب والملح

الخريطة رقم 08

قائمة المصادر و المراجع:

أولاً: – المصادر الأصلية (المخطوطات) – :

1. أحمد بابا التنبكتي، إجازة منه للإمام أبي الفضل بن عبدالله بن سعيد بن عبد المنعم الحاحي، وثيقة مُجازة مرقونة بالخزانة العامة، الرباط، المغرب، مجموع رقم 3693.
2. ـــــــــــ، إجازة منه للخطيب أبي زيد الوقاد التلمساني، وثيقة مُجازة مرقونة بالخزانة العامة، الرباط، المغرب، مجموع رقم 3693.
3. ـــــــــــ، اللآلي السندسية في الفضائل السنوسية، مخطوطة بالخزانة العامة، الرباط، المغرب، مجموع رقم د.984.
4. ـــــــــــ، رسالة عن إسلام قبائل فلان، مخطوط مصور بخزانة كلية الآداب الرباط رقم 454.
5. ـــــــــــ، قواعد التدخين في خلية التدخين، مخطوطة، معهد البحوث في العلوم الإنسانية، رقم 251، نيامي، النيجر.
6. ـــــــــــ، نيل الابتهاج بالذيل على الدبياج، مخطوط، الخزانة العامة، الرباط، رقم D766.
7. أحمد معيا، إجازة علمية منه لمحمد بن محمد الدرعي المهراوي، وثيقة مُجازة، مكتبة الهادي المبروك الدالي، دون تصنيف، ورقة رقم 1–أ، طرابلس، ليبيا.
8. الأرواني(القاضي محمد بن محمود بن الشيخ بيكر بن القاضي سيد أحمد)، كتاب الترجمان في تاريخ الصحراء والسودان وبلاد تنبكت وشنقيط وأروان ونبذ من تاريخ الزمان، مخطوط، مركز أحمد بابا التنبكتي، تحت رقم 762.
9. أقيت (أحمد بن عمر بن محمد)، إمناح الأحباب في منح الأحباب، مخطوط، مركز أحمد بابا للتوثيق والبحوث التاريخية، منطق، رقم 1945، تنبكت، مالي.
10. الإمام الشافعي، كتاب الأم، دار المعرفة، بيروت، 1410هـ/1990م.

11. الإمام مالك، كتاب الموطأ، دار إحياء التراث العربي، بيروت–لبنان، 1406هـ/ 1985م.
12. البرموني (كريم الدين)، مناقب الشيخ عبد السلام الفيتوري، مخطوط، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، رقم 821، طرابلس.
13. التمنرني (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الجزولي)، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، مخطوط بالخزانة العامة، الرباط، المغرب، مجموع رقم 3693.
14. خبر السوق، مخطوط، في مركز أحمد بابا التنبكتي، تحت رقم 4604.
15. ابن أبي زرع (أبو الحسن علي عبد الله)، روض القرطاس، مخطوطة، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 4557.
16. الغدامسي (محمد بن محمد بن موسى بن مهلهل)، تذكير الناسي وتليين القلب القاسي بذكر شيء من مناقب الشيخ سيدي عبد الله بن أبي بكر الغدامسي، مخطوط، مكتبة الشيخ محمد النعاس قرزة، غير مصنفة، ليبيا.
17. مجهول، سلسلة الذهب في الورد القادري، مخطوط، مكتبة حبيب عمر الفهري الكنتي، دون تصنيف، نيامي، النيجر.
18. محمد عبد الكريم المغيلي، رجز المغيلي في المنطق، مخطوط، معهد البحوث والعلوم الإنسانية، تحت رقم 202، نيامي–النيجر.
19. محمد محمد المفتي ، فتح الحنان بجمع تاريخ بلاد السودان ، مخطوط ، معهد البحوث فى العلوم الإنسانية ، رقم، 108نيامى– النيجر.
20. المسعودي، أخبار الزمان، مخطوط رقم 15، معهد المخطوطات العربية.
21. المغيلي، أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي القرن 16م ، مخطوط حققه عبد القادر زبادية، الجزائر، 1974م.
22. أبي الوليد الباجي، كتاب المنهاج في ترتيب الحجاج، تحقيق عبد المجيد تركي، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1987م.

ثانياً: – المصادر العربية المطبوعة –:

1. أحمد الباز، الحياة العلمية والثقافية في بلاد السودان الغربي في عهد دولتي مالي وسنغي (638-999هـ/1240-1591م)، الإفريقية الدولية، ط1، القاهرة، 2012م.
2. أحمد بابا التنبكتي، كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ج2، دراسة وتحقيق: محمد مطيع، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، 1421هـ/2000م
3. أحمد بن محمد المقري، روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش و فاس، ط2، المكتبة الملكية، الرباط، 1983 م.
4. أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المغرب والجامع المعرب لفتاوى علماء إفريقية والمغرب، وزارة الأوقاف الرباط،ج 18، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981م.
5. الإصطخري أبو إسحاق بن محمد الفارسي، المسالك والممالك، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، تحقيق محمد جابر عبد العال الجيني، القاهرة ،1961م.
6. الإمام أبو زهرة، الخطابة أصولها تاريخها في أزهى عصورها عند العرب، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ت).
7. البرتلي محمد بن أبي بكر الصديق، فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور، تحقيق محمد حجي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1401هـ/1981م.
8. ابن بطوطه ، الرحلة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار بيروت للطباعة و النشر، بيروت، 1980 م .
9. البكري أبو عبيد، كتاب المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن وأندرى فيرى،ج2، تونس، 1992 م.
10. ــــــــــــ، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو الجزء الخامس من المسالك والممالك ، باريس ميزونوف، 1965 م.
11. الترمسي، منهج ذوي النظر في شرح منظومة علم الأثر، دار الكتاب العلمية، بيروت، 2003 م.

12. أبي جعفر الخوارزمي، كتاب صورة الأرض من المدن و الجبال و البحار و الجزائر و الأنهار، مطبعة أدولف هولز هوزن، فينا-النمسا،1345ه/ 1926م.

13. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد، ج2، دار الجيل، بيروت، 1976 م.

14. ابن حجر العسقلاني، الغمر بأبناء العمر، ج2، المحقق: د. حسن حبشي ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، مصر، 1969م.

15. حسن الوزان ، وصف أفريقيا ، ترجمة عبد الرحمن حميدة راجعة علي عبد الواحد، ط الرياض ، 1399 ه.

16. ابي حسن على بن محمد بن حبيب الماوردي، الأحكام السلطانية في الولايات الدينية، ط3، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، 1393هـ/1973م.

17. الحموي أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي،ج1، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1410 هـ / 1990م.

18. ابن حوقل (أبو القاسم محمد إبن العلي الموصلي) ، صورة الأرض ، ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت، (د.ت).

19. ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، **ج 12** ، ط 1، الجزائر 1996 م.

20. ـــــــــــــــ، **ج6**، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت ،1968م.

21. الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، ج2،(د.دار.ن) (د.ب)، (د.ط)، (د.ت).

22. الدمشقي ، نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ط 2، بيروت ، دار احياء التراث العربي ، 1419هـ/1998م

23. ابن رسته ، الأعلاق النفسية ، ط 9 ، ليدن، 1892 م

24. ابن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ج2، تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ علي محمد معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت، 1420هـ/2000م.

25. الزهري (أبو عبد الله محمد ابن أبى بكر) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق محمد حاج صادق ، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية، 1990 م.

26. أبي زيد عبد الرحمن التمنارتي، الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة، دار الكتب العلمية، ط2، بيروت، لبنان،2007 م.

27. السخاوي (محمد بن عبد الرحمن)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، ج1، بيروت، (د. س).

28. السعدي (عبد الرحمن بن عبد الله ت 1065هـ/1655م)، تاريخ السودان، وقف على طبعة هوداس، مكتبة أمريكا والمشرق، باريس، 1908 م.

29. ________، بسط الأرض في الطول و العرض، معهد مولاي الحسن، تطوان- المملكة المغربية، 1958 م.

30. ابن سعيد أبو الحسن على بن موسى المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1970 م.

31. ________، بسط الأرض في الطول و العرض، معهد مولاي الحسن، تطوان- المملكة المغربية، 1958 م.

32. السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ت 1315هـ/1898م)، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى، (د.د.ن)، الدار البيضاء، 1954م.

33. سليمان باشا الباروني، الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية، (د.دار.ن)، (د.ط)، (د.ب)، (د.ت).

34. السيوطي جلال الدين ، تدريب الراوي في شرح تقريب النووي، ج1،(ت: الفريابي)، دار الحديث، ط2، القاهرة، 1415ه.

35. ________، الحاوي للفتاوي، مج1، دار الكتب العلمية، 2000م.

36. الشنقيطي أحمد بن الأمين، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، مكتبة الخانجي، ط5، القاهرة 1422 هـ / 2002م.

37. ابن صلاح، مقدمة ابن الصلاح (سلسلة علوم الحديث،الحديث النبوي)، مطبعة السعادة، ط1، مصر، 1326 هـ.

38. ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في تلخيص أخبار الأندلس والمغرب،ج1، حققه و راجعه: ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط3، بيروت، لبنان، 1983م.
39. ابن العربي المالكي، القبس في شرح موطأ الإمام مالك ابن أنس، ج1، دراسة وتحقيق د/ محمد عبد الله ولد كريم، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992 م.
40. العمري شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله، التعريف بالمصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، القاهرة، 1312هـ.
41. ــــــــــــــــــــ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق حمزة أحمد عباس وآخرون، المجمع الثقافي، ج4، أبو ظبى، 1423 هـ / 2002 م.
42. ــــــــــــــــــــ، ج4، فرانكفورت ، معهد تاريخ العلوم العربية الإسلامية، 1988م.
43. القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج1، تحقيق وتعليق محمد بن تاويت الطنجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، المملكة المغربية، 1965 م.
44. القزوينى زكريا بن محمد بن محمود ، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر ، بيروت، (د.ت).
45. القلقشندى ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، ج5، القاهرة ، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر ، 1963 م.
46. ابن القيم الجوزية، أعلام الموقعين، ج1، رتبه وضبطه وخرج آياته محمد عبد السلام إبراهيم، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ/1996م.
47. مجهول (مؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن عشر الميلادي)، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل ذكار وعبد القادر زمانة، ط1، الدار الحديثة، الدار البيضاء، 1979م.
48. المحبي (أبو عبدالله بن محمد)، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر،ج1، دار صادر، بيروت، (د.ت).
49. محمد بلو بن عثمان بن فودي، إنفاق الميسور فى تاريخ بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلى،(د.د.ن)، الرباط، 1996م.

50. محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، ط1، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، 2002.

51. محمد بن الطيب القادري، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني،ج1، محقق من طرف: محمد حجي و أحمد التوفيق، مكتبة الطالب، ط1،الرباط،1977م.

52. محمد بن عمر التونسي، تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان، تحقيق خليل عساكر و آخرون، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1965م.

53. محمود كعت (بن الحاج المتوكل كعت الكرني التبكتي الوعكري)، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس، نشر هوداس وبنوه، باريس، 1964م.

54. مخلوف (محمد بن محمد)، مواهب الرحيم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم، مكتبة النجاح، طرابلس، (د.ت).

55. ـــــــــــــــــ، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 2003 م.

56. ـــــــــــــــــ، مواهب الرحيم في مناقب الشيخ عبد السلام بن سليم، مكتبة النجاح ،(د.ط)،(د.د.ش)، طرابلس، (د.ت).

57. المراكشي (العباس بن إبراهيم)، الإعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، 1976 م.

58. ابن مريم (محمد بن محمد بن أحمد)، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مراجعة محمد أبو شنب، المطبعة التعليمية، الجزائر، 1908م.

59. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر،ج2، الجامعة اللبنانية، بيروت ، ط 1979 م.

60. المقدسي شمس الدين أبو عبد الله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط3، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1991 م.

61. المقريزي (تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي ت 845هـ/1441م)، الذهب المسبوك من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، مطبعة التأليف والترجمة، القاهرة، 1995 م.

62. ـــــــــــــــــ، الخطط المقريزية المُسماة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مطبعة النيل ، القاهرة-مصر، 1324 هـ.

63. الملك مولاي عبد الحفيظ، المنهل العزب، السلسبيل في حل ألفاظ خليل، مطبعة أحمد يمني، فاس، 1326هـ.

64. ابن منظور، لسان العرب مجلدات متعددة، دار الجيل ودراسات العرب، 1988م.

65. الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ج5، (د. د. ن)، (د.ط.)، (د. بلد) ، (د. س).

66. ياقوت الحموي، معجم البلدان، **ج2**، دار الكتب العلمية، بيروت، 1990م.

67. ــــــــــــــــــــ، معجم البلدان، **ج4**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994 م.

ثالثا:- المراجع العربية والمعربة -:

1. إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 1993 م.
2. إبراهيم طرخان، الإسلام واللغة العربية في السودان الغربي والأوسط، دار النصر للطباعة ، القاهرة، 1969 م.
3. ـــــــــــــ ، امبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970 م.
4. ـــــــــــــ ، دولة مالى الإسلامية، دراسات في التاريخ القومي الإفريقي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973 م.
5. أبوبكر إسماعيل ميغا، الحركة العلمية والثقافية والإصلاحية في السودان الغربي (400 إلى 1100) هـ ، مكتبة التوبة، (د.ب)، (د.ت).
6. أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني، إمبراطورية مالي (1230-1430)م، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 1999 م.
7. ـــــــــــــ، مملكة غانة وعلاقتها بالحركة المرابطية (هل حقا قام المرابطون بغزو غانة ؟) ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، القاهرة، مصر ، ط 1997م
8. أحمد الطيبي، الحضارة الإسلامية بمالي، (د.د.ن)، ليبيا، 1984 م.
9. أحمد فؤاد بلبع، مؤسسة الرق من فجر البشرية حتى الألفية الثالثة، المجلس الأعلى للثقافة، 2003 م.
10. أسماء موسى زايد، الصلات التجارية بين بلاد المغرب الأقصى والسودان الغربي في عصر المرابطين (448-541هـ/1056-1146م)، ط1، منشورات جامعة 7 أكتوبر، بنغازي، ليبيا، 2008م
11. إسماعيل العربى ،الصحراء الكبرى و شواطؤها ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983 م.
12. الألوري (آدم عبد الله)، الإسلام في نيجيريا، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1962 م.

13. أمطير سعد غيث، التأثير العربي الإسلامي في السودان الغربي فيما بين القرنين الرابع عشر والسادس عشر، ط1، دار الرواد، بنغازي، 1996 م.
14. الأمين توفيق الطيبى ، أثر الإسلام الحضاري في غانا ومالي في العصر الوسيط، أعمال ندوة التواصل الثقافي و الاجتماعي بين الأقطار الأفريقية على جانبي الصحراء، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس، 1999 م.
15. الأمين محمد عوض الله، العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطنتين الإسلاميتين، مالي وسنغاي ، دار المجمع العلمي، جدة، 1979 م.
16. أنور محمود زناتي، الدور الحضاري لفقهاء الأندلس خلال عصر المرابطين، دار العراب و دار نور الحوران، دمشق، 2017 م.
17. بحاز إبراهيم بكير ، الدولة الرستمية (160-296هـ/777-909م) دراسة في الأوضاع الإقتصادية و الحياة الفكرية الجزائر، نشر جمعية التراث، طبعة مزيدة و منقحة، غرداية، 1414هـ/1993م.
18. بوفيل، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ، ط 2 ، بنغازى، 1988 م.
19. بول مارتي، كنتة الشرقيون، عربه و علق عليه محمد محمود ولد دادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق، 1985 م.
20. توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام (بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية)، ترجمة و تعليق: د. حسن إبراهيم حسن و د.عبد المجيد عابدين و إسماعيل النحراوي، دار النهضة المصرية، ط1، القاهرة، 1947 م
21. جمال الدين القاسمي، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت 1979 م.
22. جميلة التكتيك، مملكة سنغاى الإسلامية فى عهد الأسكيا محمد الكبير(1493 – 1528) م ، منشورات مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، رقم 26، طرابلس، 1998م.
23. حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام والعروبة في ما يلي الصحراء الكبرى: شرقي القارة الإفريقية وغربيها، معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة ، 1957 م.
24. حسن أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في افريقيا، دار الفكر العربي، ط3، القاهرة، 1986 م.
25. ـــــــــــ، قيام دولة المرابطين ، ط 2 ، دار الكتاب الحديث ، 1996 م.

26. حسن الباشا، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، ج2، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ت).
27. حسن عيسي عبد الظاهر، الدعوة الإسلامية في غرب إفريقية وقيام دولة الفولاني، دار الزهراء للإعلام، القاهرة، 1997 م.
28. الخليل النحوي، بلاد الشنقيط، المنارة و الرباط، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، ط1، تونس،1987 م.
29. داوود ولد عبد الله، دور الشناقطة في نشر الثقافة العربية الإسلامية بغرب إفريقيا حتى نهاية القرن الثامن عشر، نواكشط، حوليات كلية الآداب و العلوم الإنسانية، العدد 11، نواكشط، 1989 م.
30. ديرك لانجي ، ممالك تشاد وشعوبها ، تاريخ إفريقيا العام ، ج4، ط اليونسكو 1988م.
31. سعد زغلول ، تاريخ المغرب الكبير ، جـ1 ، من الفتح إلى بداية عصور الإستقلال (ليبيا ، تونس ، الجزائر ، والمغرب)، الإسكندرية، 1995 م.
32. السيد أحمد الباز، الحياة العلمية والثقافية في بلاد السودان الغربي في عهد دولتي مالي وسنغاي 1240-1591م، ط1، الإفريقية الدولية للنشر، القاهرة، 2012 م.
33. السيد فليفل، الخلفية التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية عبر الصحراء الكبرى، ندوة العلاقات العربية الإفريقية، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس، 1998 م.
34. الشيخ محمد المكي الناصري، المذهب المالكي مذهب المغاربة المفضل، ندوة الإمام مالك عام 1400/1980، ج1، منشورات وزارة الأوقاف، الرباط، 1980 م.
35. صبحي الصالح، علوم الحديث ومصطلحه،(د.ط)، بيروت، (د.ت).
36. عبد الحميد العبادي، المجمل في تاريخ الأندلس، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1958 م.
37. عبد الرحمن زكي، تاريخ الدول الإسلامية السودانية بأفريقية الغربية، القاهرة،1961م.
38. ــــــــــ، تاريخ انتشار الإسلام في غرب إفريقيا، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة،1977 م.
39. عبد الرحمن محمد ميغا، الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13 الهجري، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2011 م.

40. عبد العزيز سالم، المغرب الكبير، ج2، مؤسسة الشباب الجامعية للطباعة و النشر و التوزيع، الإسكندرية، 1999 م.
41. ـــــــــــــــ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة بقرطبة، مؤسسة الشباب الجامعية للطباعة و النشر والتوزيع، الإسكندرية، (د.ت).
42. عبد القادر زبادية ، مملكة سنغاي فى عهد الأسقيين (1493 – 1592)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت).
43. عبد القادر عودة، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، ج1، دار الكتاب العربي، بيروت، (د.ت).
44. عبد المنعم ماجد، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1978 م.
45. عبد الوهاب بن منصور، أعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، الرباط، 1410هـ/1999م.
46. عبلة محمد سلطان، العناصر المغربية في السودان الغربي، الدار الإفريقية الدولية، القاهرة، 2012 م.
47. عثمان سيد أحمد ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، مجلة دراسات إفريقيا ، المركز الإسلامي ، الخرطوم ، العدد الأول ، أبريل 1965 م.
48. عز الدين موسى، انتشار الإسلام في غرب إفريقيا حتى القرن السادس عشر الميلادي، ندوة العلماء الأفارقة ومُساهمتهم في الحضارة العربية، الخرطوم، 1983 م.
49. عصمت عبد اللطيف دندش، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا (430-515)هـ/(1083-1121)م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988 م.
50. علي فهمي خشيم، أحمد زروق و الزروقية، دراسة حياة وفكر ومذهب وطريقة، ط2، المشنأة الشعبية للنشر، طرابلس، 1980 م.
51. عمر الجيدي، مباحث في المذهب المالكي بالمغرب، (د.د.ن)، (د.ط)، المغرب، (د.ت).
52. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، مج3، مؤسسة الرسالة، ط1، دمشق، سوريا، 1993 م.
53. ـــــــــــــــ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، ج1، دار العلم للملايين بيروت، 1968 م.

54. عمر محمد التومي الشيباني، دور التراث في تأكيد الأصالة، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، بنغازي، ط1، 2000 م.
55. عوض الشرقاوي، إباضية جبل نفوسة في القرنين الثاني والثالث الهجرين (دراسة تاريخية)، دار العالم العربي، القاهرة، 2017 م.
56. فرج عبد العزيز نجم، القبيلة والإسلام والدولة، مكتبة 17 فبراير، بنغازي، 2011 م.
57. فيليكس ديبوا، تنبكت العجيبة، ترجمة عبد الله عبد الرازق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2003 م.
58. قادري بوتشيش، حركات مفقودة من تاريخ الحضارة في الغرب الإسلامي، ط1، دار الطليعة، بيروت، 2006 م.
59. كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلم للملايين، بيروت، 1968 م.
60. كلود الدوكو فضل، العلماء الأفارقة ودورهم الحضاري في غرب افريقيا، حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر ، اليوكيلي للطباعة و النشر، المملكة المغربية، 1995 م.
61. ليفي بروفنسال، مؤرخو الشرفاء، ترجمة عبد القادر الخلادي، مطبوعات المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1397هـ/1977م.
62. محمد الأمين بلغيث، ظاهرة التكفير في التاريخ، الدولة الإسلامية نموذجاً (دراسات في تاريخ الغرب الإسلامي)، دار التنوير، الجزائر، 2013 م.
63. محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، دار رشيد للنشر، بغداد، العراق، 1982 م.
64. محمد بشري عيسي جيى، جهود علماء السنغال في خدمة المذهب الأشعري، منشورات وزارة الأوقاف، المغرب، 2018 م.
65. محمد بن شريفه ، ابراهيم الكانمي ، نموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب وبلاد السودان / منشورات معهد الدراسات الإفريقية ،الرباط ، 1991 م.
66. محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج1، دار المغربية للتأليف و النشر و الترجمة، الرباط، 1979م.
67. محمد عبد العال أحمد، منسى موسى سلطان التكرور ورحلة حجة الشهيرة ، دار المعارف ، القاهرة، 1987 م.
68. محمد عبد الله النقيرة، التأثير الإسلامي في غرب أفريقيا ، ط1، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 148 هـ / 1988م.

69. محمد عجاج الدين الخطيب، المختصر الوجيز في علوم الحديث، الشركة المتحدة للنشر، ط1، مصر،2001 م.
70. محمد فاضل علي باري و سعيد إبراهيم كريدية، المسلمون في غرب إفريقيا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1971 م.
71. محمود إسماعيل، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، ط2، الدار البيضاء، 1985 م.
72. محي الدين صابر، العرب وإفريقيا، العلاقات الثقافية، المكتبة العصرية، بيروت، 1987 م.
73. مختار بن حامد، حياة موريتانيا، ج2، الحياة الثقافية، الدار العربية للكتاب، تونس-ليبيا، 1990 م.
74. مسعود عمر محمد على، تأثير الشمال الأفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي، فيما بين القرنين الثامن والعاشر/ الرابع عشر والسادس عشر الهجريين، منشورات الدعوة الإسلامية العالمية، ط1، طرابلس، ليبيا، 2003 م.
75. مهدي رزق الله، حركة التجارة والإسلام و التعليم الإسلامي في غرب إفريقية، دون دار نشر، المملكة العربية السعودية، 1998 م.
76. نعيم قداح، إفريقيا في ظل الإسلام، مراجعة عمر الحكم كوناكري 1969م، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1975 م.
77. ـــــــــــ، الثقافة العربية الإسلامية و انتشارها في إفريقيا الغربية ، وزارة الثقافة و الإرشاد القومي، سوريا، 1963 م.
78. ـــــــــــ، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في أفريقيا الغربية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط1، الجزائر، 1974 م.
79. نقولا زيادة، رياض الريس للكتب والنشر، ط 1، لندن، 1991 م.
80. هادى المبروك، التاريخ السياسي و الإقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء ، الدار المصرية اللبنانية ، 1999 م.
81. ـــــــــــ، التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر، ط2، طرابلس،2001 م.
82. ـــــــــــ، مملكة مالي الإسلامية وعلاقتها مع إهمال مراكز بالشمال الإفريقي من القرن 13إلى 15 ميلادي ، ليبيا، ط2، 1999 م.

83. يوسف الكتاني، مدرسة الإمام البخاري في المغرب، دار لسان العرب، بيروت، (د.ت).
84. يوسف بن علي العريني، الحياة العلمية في الأندلس في عصر الموحدين، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، 1995 م.

رابعـا: – المراجـع الأجنبيـة –:

1. Abdelaziz Alaouin, le Magheeb et le commerce transsaharien (milieu du XIe – milieu du XIVe Siècle): Contribution a l'histoire écononique, sociale et politique du Maroc médiéval, Bordeau 111, these 3. Cycle en Etudes Arabes et Islamiques 1983.
2. Boubou Hama, l'Empire Songhay , (ses ethnies, ses légendes et ses personnages historiques, Paris, P. J. Oswald, 1974.
3. Bulletin of the School of Oriental & African Studies, No.19,3- 1957
4. Cuoq. J, Recueil Sourecs Conernant l'Afrique Occidental du VIII au XVI siècle (Bilad – Al- Sudan) ed, de C.N.R.S, 2e ed, Paris, 1985.
5. David conrad & Humphrey Fisher,The Conquest that Never was: Ghana and the Almoravids, 1076. I. The External Arabic Sources,History in Africa,Vol.09 1982 , pp. 21-59
6. El-Haji Ravane Mbaye (translation and annotation), " Un aperçu de l'islam songhay ou Réponses d'Al-Maghili aux questions posées par Askia el-Hadji Muhammad, empereur de Gao," Bulletin de l'IFAN Série BXXXIV, No.2, (1972).
7. F. Dubois, Tombouctou, l'amysterieuse, Paris,1890.
8. Farias (M), "Some reassements and recent findings concerning epigraphic evidence from the Niger valley and the sahara" in "Histoire du sahara et des rehations trans-sahariennes entre le Maghreb et l'ouest Africain du moyen àge a l'époque coloniale" actes du Ive Colloque Euro – Africain Exford (Maroc) du 20 au 25 oct . 1985, Bergamo, Italia, 1986
9. Gaudio (A), Les civilisations du Sahara, Gérard/ Marabout ,Verviers (Belgique), 1967.
10. Hopklns (AS), "An Economic History of West Africa" London, 1973.

11. Horton, On the Nationality Convention , Part 2 , Africa , XLVI , 1975.

12. Hunuvik, (J.O.), Ahmad Baba and the Moroccan Invasion, J. of H.S.N

13. Hunwick (J. O.), Les rapports intellectuals entre le Maroc et L'Afrique sub-saharienne à travers les ages, Publications de L'institus des Etudes Africaines, Rabat, 1990

14. Hunwick (J. O.), Religion & State in the Songhay Empire , 1464 – 1591 ,Islam in Tropical Africa, Oxford Press 1966.

15. Hunwick, (J. O.), its author and textual history , Research Bulletin of the center of Arabic documentation , Ibadan University (Dec. 1969)

16. Ivar Wilks, The Transmission of Islamic Learnings in the Western Sudan , in Jack Goody (ed.) Literacy in Traditional Societies.

17. J. Goody & Ian Watt, The Consequences of Literacy, Comparative Studies in History & Society, Cambridge University Press, vol. 5, No. 3 , 1963.

18. Jean. Rouch, La Religion et la magie des Songhay, presses universitaires de france, Paris, 1960.

19. Jolly (J). , Histoire du Continent Africain, T. 1, de la préhistoire à 1660" L'Harmattan,.1996

20. Kaba L. , Les Chroniques Musulmans et Sonni Ali , Bulletin de l'Institut fondamental d'Afrique,t.40, n°1, série B, Dakar, 1978.

21. Kaba L., Archers, Musketerrs Moroccan Invasion of the Sudan & the Songhay resistance (1951 – 1612) , Afr , Hist. XXII , IV , (1481)

22. Letheliux (J), Ouargla cité saharienne – des Origines au debut du XX^e siecle, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris,1984.

23. Lewicki (Tadeusz) , Etudes maghrebines et soudanaises varsovie , Editions Scientifiques de pologne , 1996 .

24. Louis Gardet, La cité musulman, Vie sociale et Politique , Revue des Sciences Religieuses, Paris , 1969

25. Maurice Lombard , l' Islam dans sa premiére grandeur (VII^{e}–XI^{e}) siécles, Flammarion, coll.(Nouvelle bibliothèque scientifique) , paris, 1971.
26. Nehemia Levtzion, Ancient Ghana and Mali, Methuen Publishing, London , 1973.
27. Nehemia. levtzion ,The Western Maghrib and the Sudan, in Cambridge History of Africa,III: From c. 1050 to c. 1600, ed. R.Olivier.
28. Nehemia. Levtzion, Islam in West African Politics , Accomodation and Tension between the Ulama and the Political Authorities , Cahiers Etudes Africaines, 71 , XVIII (1978).
29. Nehemia.Levtzion, J.F.P.Hopkins, eds., Corpus of EARLY Arabic Sources for Western African History (Cambridge,1981), Revised by H. J. Fisher, Early Arabic Sources and the Al moravid
30. Niane D. T. Le Soudan Occidental au Temps des grands empires XI^{e} – XVI^{e} siecles, Paris , Présence Africaine , 1975 ,
31. Paul Lovejoy, The Role of the Wangara in the Economic Transformation of the Central Sudan in the 15 th & 16 th Centuries , Journal of African History, vol. 19, No.2, 1978,
32. Robert laffont ,Les memoires de l'Afrique des origines à nos jours, Collection bibliothéque historique, Paris, 1972.
33. Rouch (Jean), Contribution a L' histoire des Songhay ,Swets et Zeitlinger N.V, Amsterdam,1968.
34. Sartain, EM, Jalal al din al-Suyuti's Relations With the People of Takrure, JSS, XVI, 1971.
35. Sékéné Mody Cissoko, Tombouctou et l'Empire Songhay , l'Harmattan, Paris, 1996
36. Sounghay in Encyclopedie de l' Islam , tome IV , Librairie Clincksieck , paris, 1934 .

37. TAMSU (N . D .) , Le Soudan Occidental au Temps des grands empires – xixvi siecle – Presence Africaine, Paris, 1975.

38. The Sahara and the Sudan from the Arab Conques of the Maghrib to the Rise of the Almoravid , in J. D. Fage (ed). Cambridge History of Africa, II (Cambridge, 1978).

39. Trimingham (J. S.), A History of Islam in West Africa , Oxford University press., London , 1970

40. Umar Al- Nagar, The pilgrimage Tradition, Karthoum University Press, 1972.

41. Umar AL-Nagar, Takrur the Histary of a Name, JAH, vol.10 , No.3, 1969.

42. Zouber, A. M, Ahmed baba de Tomboctou (1556-1627) Sa Vie et son Oeuvre, Maisonneuve et La Rose, Paris,1977.

خامسـا: – الدوريات/ المجلات العربية – :

1. إدريس صالح الحرير، العلاقات الاقتصادية بين الدولة الرستمية وبلدان الصحراء، مجلة البحوث التاريخية، العدد الأول، السنة الخامسة، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، يناير 1983م.

2. أمين توفيق الطيبي ، الحضارة العربية الإسلامية وأثرها الإيجابي في السودان الغربي في القرون الوسطى ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الثاني، 1980 م.

3. د. باولو فرناندو دي موريس فارياس ، نظام تجارة تادمكة وجاو وكاو كاو وكوكيا في إطار تاريخ الاتصالات الثقافية على إمداد طرق التجارة عبر الصحراء مع التركيز على الأدلة المستمدة من الكتابات العربية فى العصور الوسطى ، مجلة البحوث التاريخية ، ليبيا ،1981 م.

4. دار الكتب الليبية، دليل المؤلفين العرب الليبيين، منشورات أمانة الإعلام الثقافية، طرابلس، 1977 م.

5. سيكيني مودي سيسكو، حوليات الجامعة الإسلامية بالنيجر، العدد الثاني، 1417ه/1996م.

6. صبري علي سلامة، أثر الثقافة العربية والإسلامية في أدب الهوسا (الشعر نموذجاً)، مجلة الدراسات و البحوث الإفريقية، العدد 20، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة. (د.ت).

7. محمد بن شريفه ، ابراهيم الكانمي ، نموذج مبكر للتواصل الثقافي بين المغرب وبلاد السودان، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ،الرباط ، 1991 م.

8. مصطفى مسعد، الإسلام وحركة الفولان الإصلاحية في غرب إفريقيا، مجلة جامعة أم درمان الإسلامية، العدد الأول، 1388 هـ.

9. المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، الخبر عن أجناس السودان، جزء من مخطوط جني الأزهار من الروض المعطار، دورية المعهد العلمي الفرنسي للدراسات الشرقية- الحوليات الإسلامية Annales Islamologiques ،عدد 1979 م.

سادسا:- بحوث ودراسات في مؤتمرات وندوات علمية -:

1. أحمد إلياس حسين، دور الفقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي قبل القرن الثالث عشر الميلادي، ندوة العلماء الأفارقة ومساهمتهم في الحضارة العربية الإسلامية، الخرطوم، 1983 م.
2. حسين سيد عبد الله مراد، الصلات بين بلاد المغرب والسودان الغربي (خلال (ق2-6)هـ/(8-12)م)، المؤتمر الدولي: الإسلام في إفريقيا، ذكرى مرور أربعة عشر قرناً على دخول الإسلام في إفريقيا، الكتاب الحادي عشر، جامعة إفريقيا العالمية، الخرطوم، 26-27 نوفمبر 2006 م.
3. **3.** خالدي مسعود، أثر الجالية المغاربية على الحياة الفكرية في السودان الغربي بين القرنين (5-10)هـ/(11-16)م، النشرة الخاصة المحكمة في الدراسات الإفريقية، العدد رقم 84، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، أفريل 2008م.
4. عمار جحيدر، واحة غدامس منطلقاً للتواصل الثقافي بين ليبيا وجنوب الصحراء، ملاحظات أولية من خلال مخطوط تذكير الناسي، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، مراجعة وتقديم: عبد الحميد عبد الإله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1999 م.
5. محمد عبد العال أحمد، الإسلام في غرب القارة الإفريقية، نشرة معهد البحوث والدراسات الإفريقية 2، رقم 23 ن،(د.ت).
6. يوسف فضل حسن، الجذور التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية، ندوة أعمال العرب و إفريقيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1984 م.

سابعــا:- بحوث في كتب محررة-:

1. ابراهيم حركات، تجارة الرق بإفريقيا من خلال الموقفين العربي والأوربي (مسألة الرق في إفريقيا المنطقة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، تونس، 1989 م.
2. توفيق اسكندر ، بحوث في التاريخ الإقتصادي ، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، 1961 م.
3. الشيخ الأمين عوض الله،تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى القرن السادس عشر فى " تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، بغداد، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، معهد البحوث والدراسات العربية ، 1984 م.
4. عبد الهادي التازي ، المغرب في خدمة التقارب الإفريقي العربي، العلاقة بين الثقافة العربية و الثقافات الإفريقية، المنظمة العربية للتربية و الثقافة و العلوم، تونس،1985م.
5. محمد زنيبر، تجارة القوافل في المغرب و دورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر، المنظمة العربية للتربية والثقافة و العلوم، معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1404هـ / 1984م.

ثامنــا: - الرسـائـل العلميــة -:

1. أحمد فتوح عابدين، الحواضر الإسلامية في غرب إفريقيا في القرنين السادس عشر و السابع عشر، تاريخها السياسي و الحضاري و الاقتصادي، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث و الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة، 1990 م.

2. أمطير سعد غيث، الثقافة العربية الإسلامية وأثرها في مجتمع السودان الغربي خلال القرنين العاشر و الحادي عشر للهجرة / السادس عشر والسابع عشر للميلاد، دكتوراه غير منشوره، معهد البحوث والدراسات العربية، جامعة الدول العربية، القاهرة.

3. عبد الرحمن محمد ميغا، أحمد بابا التنبكتي وجهوده في الفقه المالكي، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا، غير منشورة، دار الحديث الحسنية للدراسات الإسلامية العليا، الرباط، (1999-2000) م.

4. عبد الكريم، عصر المولا أحمد المنصور الذهبي، رسالة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، القاهرة ، (د.ت).

5. عبد الله علي علام، الدعوة الموحدية بالمغرب، رسالة ماجستير منشورة، جامعة الرباط، دار المعرفة، ط1، القاهرة، 1964 م.

6. عثمان منادي، الحياة العلمية في حواضر الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا بين القرنين (8-9) هـ/ (14-16) م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، جامعة الجزائر، 2011 م.

7. وداد نصر الطوخي ، مدينة تنبكت منذ نشأتها حتى دخول السعديين ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، معهد البحوث والدراسات الإفريقية، 1986 م.

تاسعـا: - الموسوعــات -:

1. أحمد شلبي، موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، ج4:(الأندلس الإسلامية وانتقال الحضارة الإسلامية إلى أوربا عن طريقها-المغرب، الجزائر، تونس، ليبيا: من مطلع الإسلام حتى الوقت الحاضر-السنوسية: مبادئها وتاريخها)، مكتبة النهضة المصرية، ط7، القاهرة، 1984 م.
2. السودان ، دائرة المعارف الاسلامية، ط 1 ، مج 11.
3. إيسيفو، الإسلام كنظام اجتماعي في أفريقيا منذ القرن السابع الميلادي، تاريخ إفريقيا العام، موسوعة اليونسكو، مج3، 1994 م.
4. زامباور، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ج1، دار الرائد العربي، بيروت–لبنان ،1980 م.
5. Soudan in "Encyclopedie de – l'islam" t. IX, Maisonneuve, Paris, 1991.



فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات:

